جيلبرت سينويه

ابنة النيل





ترجمة: محمد بنعبود

منشورات الجمل

رواية

جيلبرت سينويه

ابنة النيل

روايــة

ترجمة: محمد بنعبود



منشورات الجمل

جيلبرت سينويه: روائي فرنسي ولد بالقاهرة سنة ١٩٤٧، تابع دروسه الأولى بإحدى مدارس اليسوعيين بمصر. ثم انتقل الى معهد الموسيقى بباريس حيث تحصّل على شهادة الأستاذية في آلة القيثارة. يهتمّ أيضاً بكتابة الحوار والسيناريو للسينما والتلفزيون. من رواياته: **الفرعون الأخير** (١٩٩٩)؛ **كتاب الفيروز** (١٩٩٦)، (تصدر ترجمتها العربية قريباً). صدر له عن منشورات الجمل: **ابن سينا أو الطريق الى اصفهان** (١٩٩٩)؛ **المصرية** (٢٠٠٤).

ولد **محمد بنعبود** عام ١٩٥٧ بالمغرب. كاتب ومترجم، نشر العديد من الترجمات الأدبية في الجرائد والمجلات. صدر له عن منشورات الجمل: غابريللي: **دفاعاً عن الاستشراق** (ترجمة بالاشتراك)؛ **المصرية** (٢٠٠٤)

جيلبرت سينويه: **ابنة النيل**، رواية، ترجمة: محمد بنعبود
الطبعة الأولى، جميع حقوق الطبع باللغة العربية محفوظة
لمنشورات الجمل، كولونيا (ألمانيا) ـ بغداد ٢٠٠٧
حسب اتفاق رسمي مع الناشر الفرنسي
Gilbert Sinoué: *La fille du Nil*
© Éditions Denoël, 1993

© *Al-Kamel Verlag* 2007
Postfach 210149 . 50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com


MER MÉDITERRANÉE
Damiette
Fareskour
Lac Menzaleh
Port-Saïd
Golfe de Péluse
Chirbin
Menzaleh
Mansoureh
Ruines de Péluse
Semenhoud
Simbellawein
El Kantara
Lac Ballâh
Caravanes
Mit-Ghamr
El Salieh
Zifté
Routes des
EL-GISR
Ismaïlia
Châlet du Khédive
Zagazig
Ouadi Toumilat
L. Timsah
Lac Mahsamah
Tell-el-Kebir
Benha
Canal
Rnes du Sérapeum
Belbeïs
Lacs Amers
Chibin-el-Kanater
Gebel Géneffé
DÉSERT
Kalioub
Choubra
Chemin de fer du Caire à Suez (1859)
Rnes d'Héliopolis
Route de la Malle anglaise des Indes
Ruines d'Arsinoé
Embabeh
Boulak
Le Caire
Fort Adgeroud
Citadelle
Routes des Pèlerins
Le Vieux Caire
Gebel Mokattam
Suez
Gebel Attaka
Pt Ibrahim
Pt Tewfik
Toureh
ARABIQUE
G. de Suez
Rnes de Memphis
Bains d'Hélouan
Échelle
0 20 40 Km.

0

الفصل الأول

مصر. الجيزة. ديسمبر ١٨٢٧.

رغم أن إقامة الصباح لا تبعد عن القاهرة إلا بحوالي ثلاثة فراسخ، ورغم أن النيل ليس ببعيد، فإنه ليبدو للمرء أنه، هنا عند قدم هضبة الجيزة، في قلب الصحراء. كان الوجود الطاغي للأهرام ومجاورة المقبرة الكبرى الهامدة يعمقان الشعور بالعزلة.

وبالفعل، فإن الصباح لم تكن تتخلص من عزلتها إلا بمقدم فصل الربيع. ففي انبثاقٍ زاهٍ للألوان، كانت زهور الغار وأيكات الخلنجيات والكاميليا وأشجار الليمون والبرتقال ونبات الخبيزة، تنتصب بخيلاء، مُمَكِّنة لأشهرٍ من فوز الحياة على الموت، في خضم صراع قديم قدم مصر نفسها.

في هذه اللحظة، كان الضوء المزرق للمغيب يحط ببطء على الإقامة.

- أماه...

انتفضت شهرزاد كما لو أنها تخرج من حلم يقظة.

- ماذا هناك يا ولدي؟

- أحب أن تنضمي إلينا. للحظات فقط. سيسعد لينانت بذلك.

- لينانت؟ تقصد السيد دي بلفاند؟

- أجل.

- عاد إذن؟

- عاد من فرنسا، ويخصنا بأول زيارة يقوم بها. ألا تودّين تحيته بهذه المناسبة؟

- رئيس العمال ينتظرني، و. . . .
- أرجوك يا أماه. لينانت ليس غريباً، وكنت دائماً تخصّينه بتقديرك.
ألقت بنظرتها على مدخل الصباح. أصدى فجأة صوت عدْوِ فرس. تجمدت في مكانها. تصاعد صوت العدو. ارتفع نقع رمل نحو السماء. أصبح الأفق كله يصدي. تشبثت بذراع يوسف مرتعشة الروح متغيرة الملامح. تمتمت شفتاها بكلمات صامتة. كانت تبدو وكأنها تردد بعض الصلوات.

تجاوز الفرس مدخل الإقامة وتلاشى طيفه، الذي بان للحظة، على طريق القاهرة المغبر. آنذاك أمسك يوسف بذراع أمه واقتادها نحو صالة الاستقبال.

غادر لينانت دي بلفاند أريكته وتقدم للقائهما. كان مديد القامة، رقيقاً، يظلل شفته العليا شارب وليد. كان في الثامنة والعشرين من عمره، وهو نفس عمر يوسف. انحنى أمام شهرزاد وصافحها باحترام.

- السيدة ماندرينو، احتراماتي.
- يومك سعيد يا لينانت.

دعته ليعود إلى الجلوس.

كانت مياه الحنفية المنشأة وسط القاعة تجري على الزخارف. قام يوسف بإشعال المصابيح الزجاجية استعداداً لمقدم الظلام المنداح. كانت هذه القاعة، بالتأكيد، أجمل قاعات الإقامة العائلية الكبرى، وكانت أيضاً أكثرها احتضاناً للذكريات.

- ها أنت تعود إلينا من جديد. . .
- نعم سيدتي، وهذه المرة لمدة أطول.

دقق يوسف:
- لقد أصبح صديقنا، رسمياً، في خدمة نائب السلطان. عُيّن مهندساً رئيساً مكلفاً بمشاريع الري.

مررت شهرزاد أصابعها خلال شعرها الأسود المنسدل على كتفيها.

- مبروك يا لينانت. مصر في حاجة إلى رجال مثلك.
- شكراً سيدتي.
- عندما أفكر في أنني سأشتغل تحت إمرتك. . .

- أجل يا يوسف. أعلم. وأعتقد أن كبرياءك ستعاني من ذلك. لكن عليك أن تعلم بأنك لن تكون الوحيد في هذا الأمر. أنا أعرف مجموعة من الأشخاص الذين قد يغضبهم تعييني. فأنا بالنسبة لهؤلاء السادة المتخرجين من مدارس عليا، سأبقى ما كنته دائماً: إنسان عصامي علّم نفسه بنفسه.

- إذا كنتُ قد أجدت الفهم، فأنت تعوّل على معرفتي وعلى شواهدي كي تدافع عن أطروحتك.

تعمّد يوسف إرفاق كلامه بنظرة مائلة، شبه متّهمة، كان أثرها على صديقه فورياً.

- كيف؟ أليست مشاريعَك أنت أيضاً؟

أطلق يوسف ضحكة عالية.

- بالطبع، يا لينانت... وإلاًّ، فهل كان بإمكان ارتباطنا أن يكون بهذه القوة؟

ثم أشهد أمه:

- لينانت، بالتأكيد، هو أشد الأشخاص الذين عرفتهم قلقاً.

- ومع ذلك، فأنت تملك، حسب ولدي ونائب السلطان، كفاءات عالية، كما أنك أكثر خبرة من عدد كبير من الشيوخ. تجاهل الانتقادات إذن وفكر في نفسك.

ثم تساءلت فجأة:

- ألا تقدم شيئاً لصديقك يا يوسف؟

صفقت بكفيها:

- خديجة.

وقبل ظهور الخادمة تساءلت:

- ماذا تريد أن تشرب؟

- لا أدري، سيدتي... أعترف لك أنني ما زلت مبلبلاً من الرحلة البحرية. علاقتي بالبحر تختل أكثر فأكثر.

أبدى يوسف ضحكة هازئة.

- أي عار. على ابن ضابطٍ في البحرية الملكية، معتادٍ على رحلات طويلة، أن يحذر من بوح مثل هذا.

- إذا كنت ما تزال معتملاً بعض الشيء، اقترحت شهرزاد، فإن شراب «الحلبة» سيعيد إليك مزاجك.

- حلبة؟

- حبات نبتة منتشرة بكثرة ها هنا. أعتقد أنكم تسمّونها في الغرب «فينوغريك».

- في هذه الحال...

أمرت الخادمة التي بدت لتوها على العتبة:

- هيئي يا خديجة كوب حلبة للسيد.

- ولي قهوة من فضلك، قال يوسف، مضبوطة.

ثم قال موجهاً كلامه إلى صديقه:

- أنت إذن، إن لم يخني فهمي، قد ودّعت البحرية.

- لم أُغفَ من السفر مع والدي منذ أن كنت في العاشرة من عمري. نيوزيلاندة، كندا... وقد طويت الصفحة بصفة نهائية. أريد أن أنقطع كلية لأعمالنا ولإجراء أبحاث حول مصر.

لاحظت شهرزاد بلطف:

- على أي حال، لا خوف عليك من أن تعود إلى الإبحار على متن سفينة مصرية، فما عادت لبلدنا بحرية.

تحاشى لينانت التعليق.

سألت:

- سمعتَ، ربما، عن نفران؟

بما أنه بدا منزعجاً بعض الشيء، ألحّت:

- تكلم يا لينانت، أجبني.

- نفران... بالطبع. كان ذلك منذ ثلاثة أشهر بالكاد. يتعلق الأمر بالميناء اليوناني الذي يقع على بحر الأيوني، الذي كان مسرحاً لتلك المعركة البحرية العبثية التي دارت بين الأسطول المصري والقوات الغربية. كان ذلك بالنسبة إليّ أمراً بشعاً، فقدت مصر على إثره أسطولها و...

- وفقدت أنا كائنين عزيزين، كائنين كنت أتشبث بهما كما أتشبث

بحياتي. أحدهما صديق لي اسمه كريم ابن سليمان، وكنت أحبه كما أحب أطفالي، والثاني زوجي ريكاردو ماندرينو.

لم يُبدِ الرجل الشاب أي تعليق؛ كان يوسف قد أخبره بكل تفاصيل المأساة.

- ذاك ماضٍ يا أماه... علينا أن ننسى.

- أن ننسى الأشخاص الذين أحببناهم، معناه يا ولدي أن نجعلهم يموتون للمرة الثانية.

- يكون هذا الكلام صحيحاً بالقدر الذي لا تحول به ذكرى الأموات دون عيش الأحياء.

منعه صوت عدواني من أن يتابع كلامه.

- لأن الأمر لا يتعلق بأبيك. ليس أبوك هو من اختفى.

عبرت الفتاة التي عنفت يوسف الغرفة وأتت لتنتصب أمامه.

- أجل. من السهل الحديث عمّن ليسوا من دمك.

عقّب بهدوء:

- أنت غير عادلة يا جيوفانا. أنا أحب ريكاردو كما تحبينه أنت تماماً. هو من رباني وعلى يديه نشأت. عندما توفي والدي كان عمري أقل من عام.

- ومع ذلك، فها أنت تخون ذكرى ريكاردو.

أراد أن يحتج، لكن شهرزاد هدأته بحركة من كفها.

- خذي مكانك يا بنيتي. اجلسي. متى ستتعلمين أن تفكري قبل أن تقذفي بجملك العقيمة والمؤلمة.

- أصبح دفاعي عن ذكرى والدي أمراً عقيماً؟

- العقيم هو أن تدافعي عن هذه الذكرى أمام من يحمونها. لكن أخاك يسامحك، فأنت بالكاد في الخامسة عشرة من عمرك.

شبكت جيوفانا ذراعيها في وضعية تحدٍّ. أصبحت زرقة عينيها قاسية، شبه معدنية.

- وأنت يا أماه؟

- أنا ماذا؟

- ما الذي ستقومين به لنيل صفح ريكاردو؟

اجتاح امتقاع مفاجئ قسمات شهرزاد. وقفت ببطء، وانطلقت الصفعة، باردة.

حملت جيوفانا كفها إلى خدها، متقطعة الأنفاس. افترت شفتاها باحثة عن كلام لم يسعفها. يوسف نفسه بدا حائراً. إنها المرّة الأولى التي تُرفع فيها كف شهرزاد على أحدهما.

- اسمعي يا بنيتي جيداً، ولْتَلِج هذه الكلمات ذهنك فلا تمحي أبداً: كان أبوك قطعة مني قبل أن يكون قطعة منك. كان نَفَسي قبل أن يمنحك هذا النَّفَس الحياة. قبل أن تتهجي أنت باسمه، كنت أنا قد صرخت به ألف مرة، وعندما وضعت كفك لأول مرة في كفه، كان كفي هو الذي استقبل كفك. ريكاردو ماندرينو زوجي، ولْيشهد الله أنني لن أسمح أبداً لأحد بأن يبدي حكماً على حكايتنا. أبداً.

صمتت لحظة قبل أن تنهي كلامها:

- والآن، لنكن مؤدبين. أنت لم تحيّي السيد بلفاند.

ظلت جيوفانا صامتة، كفها على خدها. كانت تتفحص أمها وكأنها تستكشف شخصاً غريباً. كان يبدو أن أفكاراً غاضبة ومعتملة تتزاحم في رأسها. غادرت القاعة مغالبة بكاءها.

في الآن نفسه تقريباً، غادر يوسف مقعده وأتى ليضع كفه على كتف أمه.

- لقد قلتِها يا أماه، فليست إلا في الخامسة عشرة. يجب ألا تؤاخذها.

- أؤاخذها؟ هل يمكننا يا ولدي... أن نؤاخذ أنفسنا؟

وضعت كفها على ذراع ضيفهم.

- اغفر لنا هذا الحادث، أرجوك.

بدا لينانت متضايقاً بعض الشيء.

- هذا ليس بشيء، سيدتي.

بعد لحظة تمتمت شاردة:

- كان الفيضان، هذه السنة، ضعيفاً. ستكون المحاصيل دون المستوى.

- هذا صحيح، أكد يوسف. لم يسبق لمستوى النيل، منذ ست سنوات، أن كان بهذا الضعف. أقل من عشرين ذراعاً.

- لكنكم ستستطيعون قريباً السيطرة على تقلبات هذا النهر، أليس كذلك؟
- نتمنى ذلك.
- وإلا فإنه لن يبقى أمامنا إلا أن نقوم بما كان يقوم به الفراعنة: أن نصلي من أجل أن يتكرم الإله خنوم، هناك في مغارته، فيرفع نعليه محرراً تدفق المياه.

صمتت للحظة قبل أن تضيف:

- تُذكرني مشاكل الفيضان بأن رئيس العمال ينتظرني.

انتصبت واقفة، فحذا بلفاند حذوها.

- إلى لقاء قريب يا لينانت. اِعلم أن هذا البيت هو بيتك أنت أيضاً.

وعندما كانت على وشك اجتياز العتبة، التفتت نحو الرجلين.

- أسرعا يا ولديّ، فالزمن يمر ومصر عطشانة، وكذلك قُطنِي.

* * *

لم تفطن جيوفانا، الممدة، إلى الباب وهو ينفتح. لم تنتبه إلى حضور شهرزاد إلا بعد أن كانت تجلس على مقربة منها.

- كنت نائمة؟

حركت جيوفانا رأسها دون أن تنبس.

تأملتها شهرزاد للحظة. كان وجه ابنتها يبدو، من خلال النور الذي يخترق العتمة، شديد القرب، شديد البعد. إذا كانت الطبيعة قد حبت يوسف بجمال صافٍ، فإنها قد خصت جيوفانا بملامح قاسية، متصلبة، شبه رجولية. كانت في الآن نفسه مذكرة ومؤنثة، لبؤة وقطة. كان هذا التناقض يبدو، أكثر ما يبدو، في عينيها: عينان بزرقة صافية يتجاور فيهما الحنان والعنف. باختصار، عينا ريكاردو ماندرينو.

- سأذهب، قالت شهرزاد.

لم تتحرك.

- سأذهب إلى موري بحثاً عن ريكاردو.

آنذاك فقط اعتدلت.

- للبحث عن أبي؟
- زوجي، يا جيوفانا.

- لكنك . . . لكنك لست جادة. نحن نعلم بأنه قد توفي.
- كلا.
- لم تصلنا أخبار منذ ما يزيد على الثلاثة أشهر. كيف تظنين أنه ما يزال على قيد الحياة؟
- لأن الله موجود.
- أنا لا أفهم.
- الأمر لله وحده. هو وحده يخرج الأموات من الأحياء. لم يرد أن يأخذ مني ريكاردو لأن لكل أمر أجلاً. هذا الأجل، بالنسبة إليَّ وإلى ريكاردو، لم يحن بعد. أنا أعرف ذلك.
- لكن، أماه، هذا أمر غير مفهوم.
- ثقي أنني سأعثر عليه.
- لو كان حياً لكان بيننا.
- سأعثر عليه.
- لكن كيف ستفعلين؟ أنت لن تذهبي بمفردك إلى نفران.
- سيساعدني أحدهم.
- نائب السلطان؟
- أجل.
- لماذا سيساعدك؟
- لأننا، هو وأنا، مثل أصابع اليد. لأنه هو من أرسل ريكاردو إلى هناك. هو أخرجه من حياتي، وهو سيعيده إليها.

بقيت جيوفانا صامتة، غير فاهمة، فتابعت شهرزاد:

- والآن، أريد أن أحدثك في أمر آخر. إن أخاك يحبك يا جيوفانا. يحبك جداً. لا تناصبيه العداء. أنا لا أريد أن أنصرف منقبضة القلب. هل يمكنني أن أدعك في حماه؟
- أجل.
- هل تعدينني بذلك؟
- أجل. أعدك بذلك. متى تنوين الذهاب إلى موري؟
- لا أعرف. محمد علي يوجد الآن برأس التين، في قصر الاسكندرية.

طلبت مقابلته، وكل شيء مشروط بالحديث معه. لو كان الأمر بيدي لكنت الآن في الطريق إليها.

رفعت جيوفانا وجهاً معتملاً نحو أمها.

- أنت مجنونة، يا أماه.

- ليس ثمة ما هو أكثر جنوناً من التضحية يا بنيتي. وستعرفين ذلك يوماً.

صمتت للحظة قبل أن تواصل، متعمدة الفصل بين الكلمات:

- كما ستعلمين بأن علينا أن لا نحكم وأن نتهم قبل أن نكون على علم تام بالأشياء، وإن كنا غير قادرين أبداً على أن نعرف كل شيء.

- تشيرين بالتأكيد إلى ما قلتُه قبل قليل... ما أسرَرْتِ لي به، إذن، عن علاقتك بأبي لا يكفي كي يكون لي رأي؟

- ما الذي أسررت به إليك، وكان بتلك الدرجة من الحقارة، يا بنيتي؟

- كريم.

ألقت شهرزاد بشعرها إلى الوراء، بحركة أصبحت مألوفة لديها.

- أبسبب كوني فتحت لك قلبي، قلب المرأة وليس قلب الأم، انحفرت هذه الهوة بيننا؟

- كريم...

- كريم مات.

كانت قد صرخت.

- مات بنفران. هو جثة بين أخريات.

- أحببته؟

- أجل، أحببته. كان يشكل هاجساً بالنسبة إلي. لكنني كنت آنذاك أصغر منك الآن سناً. كنت في الرابعة عشرة.

- تعرفت عليه في الرابعة عشرة، لكن قصتكما لم تنته أبداً. أنت نفسك قلت لي ذلك. ورأيته أياماً قبل انصرافه إلى نفران. فاجأكما والدي. وقد هده ما رأى، أنت أيضاً من قال لي ذلك. أتكونين قد نسيت؟

- ألم تفهمي، إذن، شيئاً؟ سلمتك روحي، وهذا كل ما تفعلينه بها؟ ما كان عاد بيني وبين كريم شيء. عندما دخل أبوك حياتي اجتاح كل شيء. ما

عدت أتنفس إلا من خلاله. كل ما أعربت عنه تجاه حب الطفولة ذاك، امّحى. اجتثّه ريكاردو. لم أعد أشعر تجاه كريم سوى بالعطف وبالحنان. عطف عظيم، لكنه عطف لا غير. كنت أحب ريكاردو ولا أحد آخر غيره.

- أنت تكذبين.

ظلت شهرزاد مشدوهة.

- ألست أنت من حكى لي كم عانى أبي عندما فهم، ليلتئذ، بأنك لم تكوني تحبينه بالدرجة التي كان يحبك بها هو؟ ألست أنت من حكى لي بأنه قد انصرف إلى نفران مكسور القلب؟ وأنك كنت دائماً تأخذين منه أكثر مما أعطيته إياه؟ هل هذا صحيح أم لا؟

ولمّا ظلّت أمها صامتة، ألحّت بقوة:

- أجيبي.

لم تجب. وقفت شهرزاد ببطء. أغلقت باب الغرفة بحركة منكسرة.

* * *

(كانت الأضواء قد انطفأت واستعاد صمت الليل سيادته. أنهى ماندرينو كأس نبيذه، وجزمتاه مضغوطتان إلى حاجز الشرفة.

- أرجوك يا ريكاردو. لا يمكنك أن تتصور أن ما بيني وبين كريم يمكن أن. . .

- ما أتصوره خاص بي.

- لكنه كان تعساً. تعساً لا غير. وما رأيته مني لم يكن سوى حركة مواساة، لا غير. أنت تعرف كل شيء عن كريم وعني. هل سبق لي أن أخفيت عنك الحقيقة؟)

كانت شهرزاد، وحيدة في غرفتها، واقفة، جبهتها مسندة إلى الخشب الدافئ للمشربية، تتأمل الصحراء وكلمات الماضي.

(- منذ متى كان بإمكان أمنية أن تُذهب خطأ؟

- خطأ؟

كان صوتها قد ارتفع فجأة بصرخة؛ صرخة هي خليط من الغيظ والأسف.

- كيف أمكنك أن تتحدث عن خطأ؟

قال هازئاً:

- لنقل... عودة لَهَب.

- بعد عشرين سنة؟ أنت مجنون يا ماندرينو. كنت دائماً مجنوناً لكن جنونك هذه المرة تجاوز كل الحدود. أكرر لك: ليس ثمة شيء؛ لا شيء في موقفي أو في مشاعري غير الشفقة؛ هي الشفقة نفسها التي قد أبديها نحو طفلينا. يجب أن تصدقني.)

انعقدت قبضتها دون إرادة منها. كانت دهشتها - ثلاثة أشهر بعد ذلك، وعند تذكرها للمشهد - دائماً هي ذاتها أمام فقر الكلمات وأمام العجز عن إيجاد العبارة السحرية الوحيدة القادرة على استيفاء شعور من يعاني ويستعد للانصراف.

(لم يعقب على كلامها على الفور. رفع ساقيه وأنزلهما بهدوء على الأرض.

- الموضوع منته.

- لا.

- جيد. سيكون عليك إذن أنت أن تنصتي إليّ. في حكايتنا، أحدنا هو الذي ذهب في اتجاه الآخر الذي كان ينتظر جامداً. بصبر أتيْتُ. يوماً إثر يوم، وأسبوعاً إثر أسبوع؛ حطمْتُ دفاعاتك مستعملاً حيلاً حربية. كنت أعيش، قلبي مترع بحبك، مسكوناً باليوم الذي ستستسلمين فيه وتنقلب الأدوار.

استغرق ذلك وقتاً طويلاً؛ وقد بقيت من هذه الحرب العاطفية بعض الآثار؛ بعض الندوب.

فتحت شفتيها، لكنه واصل:

- سأفاجئك. لقد أعطيت خلال هذه السنوات الست عشرة الانطباع بأنني شديد الصلابة؛ الانطباع بأن لا شيء تقريباً يمكنه أن يؤثر في. غير أنني أعترف لك هذا المساء بأن الخوف كان يستولي عليّ، مائة مرة، ألف مرة. وعندما كنت أغادرك، مبدياً ثقة، كنت كل مرة أقل ثقة بكل شيء. ويوم أن حدثتني في الذهبية عن كريم كنت تظاهرت بأن الماضي لا يهمني. خطأ. نتأثر دائماً بالماضي العاطفي لمن نحبهم. هو شبيه بتهديد مستمر. وها أنذا

أصاب هذا المساء بشيء من هذا الماضي. ولأول مرة، عوض أن أحتفظ بعاطفتي داخلي أظهرها. لقد أعطيت لنفسي الحق في ذلك. أتفهمين؟)

إن كانت قد فهمت؟

كانت، وهو يتحدث، قد انتبهت إلى بديهية: لقد أعطاها أكثر مما أعطاها أي رجل آخر. هل استطاعت أن ترد إليه ولو جزءاً يسيراً؟ انتبهت إلى أنها، حتى في يومها هذا، وخلال سنوات قادمة، قد أخذت الكثير، متعطشة، ساعية فقط إلى تعويض ما فاتها من متأخرات جنسية وحسّية. ويبقى أمامها وقت طويل كي تعيد الثروة اللانهائية التي زرعها فيها.

الفصل الثاني

أراد محمد علي، آخر الفراعنة، أن يشيد أجمل قصوره بالإسكندرية، على الطرف القصي من شبه جزيرة فاروس، فوق الرأس المسمى رأس التين، بين المرسى الغربي وعرض المياه. كانت هذه المدينة العتيقة تسلب لبّه. ربما لأن الصوامع كانت نادرة ها هنا، ولأن الشوارع غير مزدحمة، ولكون الطوفان البشري الذي تعرفه القاهرة غير موجود هنا. ففي هذا المكان الذي يعد نهاية للنهر الإله، ليس ثمة سوى البحر. ثم، أليس البحر هو الذي ساقه، منذ أربع وعشرين سنة خلت، إلى هذا الشاطئ، بوصفه ضابطاً شاباً ويتيماً بسيطاً من كفاليا على رأس وحدة عسكرية ألبانية؟ ألم يستطع أن يقرأ بثقة على زبد هذا البحر نفسه مجدَه قبل حصوله؟

في هذه اللحظة بالذات، يوجد نائب الملك بمكتبه في رأس التين، غارقاً في أريكة باذخة من الخشب الدمشقي، يمرر حبات سبحته في صمت. ورغم أن شهر سبتمبر هذا لم يكن استثنائياً في برده، فقد أوقدت نار المدفأة.

كان يجلس أمام الباشا وزيره في الشؤون الخارجية بوغسيان بيك والسيد هنري سالت، القنصل البريطاني في مصر. تنحنح هذا الأخير قبل أن يقول:

– كانت نفران – أنا أعترف بذلك – مرحلة مأساوية. ولقد تأسف صاحب الجلالة جورج الرابع على تحطم أسطولكم. لكن، وكما تعلمون، مع الفظاعات التي ارتكبتها جيوشكم، والإبعاد الكثيف للجماهير المسيحية، ما كان بإمكان حكومتنا أن تبقى غير مبالية لزمن طويل.

ظل محمد علي، الذي كان يبدو شارداً، موجهاً ناظريه إلى المدفأة، فأخذ بوغسيان على نفسه أن يجيب:

- السيد القنصل، يبدو لي أنني أستمع إلى العمل الإحساني القديم الذي كان يقوم به صديقكم جورج كانينغ، صاحب تلك الحملة المعادية لمصر عبر كل أوروبا. فقواتنا إذا ما صدقنا كلامه، ما كادت تحط الرحال باليونان حتى شرعت تقوم بغزو ممنهج لكل البلد. وأن الشعب المسيحي قد يكون طُرد واستُبعد. وسمعت أيضاً أن صاحب السمو ابراهيم، قائد جيوشنا وابن صاحب الجلالة، قد يكون أرسل حقائب بالرؤوس وبالآذان المقطوعة إلى القسطنطينية.

اتخذ الإنجليزي مظهراً جافاً.

- هذا للإسف ما أخبرنا به ملاحظونا.

- أنت تعلم يا سيد سالت خيراً من أي كان، بأن كل هذا ليس سوى مبالغات مفرطة. وعلى أي حال، فإن الدوافع التي تحرك القوات المتحالفة للهجوم على مصر، ليست وليدة اليوم. ولْنقل ببساطة إن انتصار المصريين بموري قد شكل فجأة لبلدكم خطراً مزدوجاً؛ بروز بلد قوي جديد، هو، فوق ذلك، صديق لفرنسا، مما جعلكم تفقدون حِلْمَكُم. منذئذ، وكالعادة، طبقتم حكمتكم القديمة: فرق تسد. كانت إنجلترا دائماً - السيد سالت - تجيد فن التحالفات الكاذبة والتفاهمات المغرضة.

بدا سالت بمظهر المهان.

- أنتم تسندون إلى حكومة صاحب الجلالة سلوكاً ماكيافيلياً. إنني ألح: إن الجانب الإنساني هو الذي أهين. لقد تصرف الأمير إبراهيم دون تبصّر تجاه الجماهير اليونانية.

- السيد سالت.

قطع الدبلوماسي الإنجليزي كلامه فوراً. كانت تلك المرة الأولى، منذ بدء الجلسة، التي يتدخل فيها محمد علي. أصدت القاعة بصوته الجهوري.

- لقد تحدثت لتوك عن ولدي. أتدري ما هي آخر الكلمات التي تلفظت بها وهو يهم بالانصراف إلى اليونان؟ سأذكرك بها: «ليمكنك الله من النصر يا ولدي. وإذا مكنك منه، فليهبك فضيلة الرحمة: كن عدواً لأعدائك، لكن رحيماً بالضعفاء».

مرر سالت، بعصبية، سبابته في شاربه.

- أنا لا أشك في جدية كلامكم، يا صاحب الجلالة، لكنه يحصل لجنرال، في صخب المعركة، أن يسمح لنفسه بارتكاب أفعال لا تقرها الأخلاق.

- أتظن أنني كنت سأبقى مكتوف الأيدي لو حصل شيء من ذلك؟

تخللت صوته نبرةٌ غاضبة وهو يضيف:

- ستكون للغرب ذاكرة ضعيفة لو نسي من أكون، وما قمت به منذ أن أصبحت، بعون الله، أحكم مصر. لقد حاربت الذهنية المتعصبة والتقليدية للمسلمين القدامى، ووضعت حداً لكل الإهانات التي كان المسيحيون، منذ قرون، تحت وطأتها. أذنت بتأسيس أديرة بالقاهرة، وسمحت للكنائس بأن تقرع أجراسها. أذنت لمختلف زعماء الفرق الدينية بأن يقوموا بطقوسهم علناً. إن الذي يجهل كم كان كل ذلك ثقيلاً على الزعماء الدينيين المسلمين لن يستطيع تخيل مقدار التسامح والشجاعة الذي لزمني كي أقوم بذلك. هل يمكن لمن يقوم بهذا أن يسمح بارتكاب جرائم؟ لكن لا يهم...

ثبت بصره طويلاً على محادثه.

- هكذا، تريد القوى العظمى أن أخلي موري؟

- إننا لا نرى، للأسف، أي مخرج آخر.

- طيب. سأجيبكم إذن. أنا مستعد للرحيل. لقد تلقّى ولدي ابراهيم الأمر بالاحتفاظ بجيوشه بليونير حتى الربيع المقبل. لن يتقدم فرسخاً واحداً دون إذن مني. وإذا ما قدمت لي حكومتك، إلى حدود ذلك التاريخ، اقتراحات تناسبني، سأكون مستعداً للقبول وسأجد الوسيلة لسحب قواتي من موري. وإلا...

بدت ملامح سالت أكثر انتباهاً.

- وإلا فإنني سأجمع كل مصادري المتاحة، وبفضل التأثير الذي أحظى به على الباب، فإنني سأحصل على قيادة كل الأسطول العثماني وسأنهي الحملة التي ابتدأت. هذا هو اقتراحي.

- هل تعرفون، جلالتكم، عواقب موقف مثل هذا؟

- عمري ثمانية وخمسون عاماً يا سيد سالت، وهو عمر لا نعود نقلق فيه من المجاملات.

- ما الذي تأملونه إذن من الدول العظمى؟
- لا شيء أكثر مما وعدت به وأكدته لي فرنسا وإنجلترا قبل مأساة نفران. سوريا في مقابل انسحابي من اليونان.
- لا أريد أن أبدو بمظهر المتشائم، لكنني أشعر بأن لا حظَّ لطلباتكم في أن تجد صدىً إيجابياً لدى وزيرنا الأول الدوق ولنغتون.
- سيكون ذلك حزيناً لأنه سيعني أن هازم بونبارت لم يتعلم أن على المحارب أن يخلي مكانه للدبلوماسي.
ازدرد البريطاني ريقه.
- هل عليَّ أن أذكّر جلالتكم بأن للحكومة الفرنسية النظرة نفسها تماماً التي لنا لهذه القضية؟
- أُعلمت بذلك.
تفحص سالت الباشا.
- غريب. لدي الانطباع كما لو أنكم أقل صرامة مع حكومة شارل العاشر منكم مع حكومة جورج الرابع. لكن هذا ليس بالتأكيد سوى انطباع.
- أتريد أن أجيبك؟
- سأكون لكم شاكراً.
- ثمة، يا سيدي، كما تعلمون، نوعان من العلاقات في الوجود: علاقات مبنية على الخوف وأخرى نابعة من الاحترام. وأترك لك أن تعرف أيهما تربطني بفرنسا.
- اسمح لي، يا صاحب الجلالة، بأن أقول لكم بأنكم تهيّئون مصر للحظات عصيبة.
أغفل الباشا التعليق هذه المرة، واكتفى بتثبيت بصره على يده، وهي إشارة منه إلى محادثيه، فحواها أن اللقاء قد انتهى.
انتصب الإنجليزي واقفاً وانحنى بنوع من التصلب ثم توجّه نحو الباب.
- سيد سالت.
التفت الإنجليزي.
- جلالتكم.
- على ذكر التقارير والملاحظين... لا يمكنكم تصور العدد الهائل من

المسافرين والزوار الذين يحدثوننا عن الهنود.

انقبضت ملامح القنصل انقباضاً خفيفاً.

- يبدو أن الهند تُنهك يا سيد سالت. إنها تُنهك تحت نير إنجلترا.

* * *

وجدت شهرزاد صعوبة بالغة في السيطرة على نفاد صبرها. هي تنتظر من حوالي الساعة أن يستقبلها نائب السلطان. توجهت بعصبية نحو النافذة المشرعة على البحر. كان العمال، تحت شمس منتصف النهار، ظهورهم مقوسة، يشتغلون بالساحة؛ ينقلون الحجارة واللِّبن، ملتمسين عون الله. كان العاهل، من لهفته في الاستقرار برأس التين، قد رفض انتظار نهاية الأشغال. كان جانب من القصر ما يزال في حاجة إلى تشييد. بإمكان شهرزاد، من المكان الذي توجد فيه، أن ترى بوضوح الطرف الأقصى الغربي من شبه الجزيرة، حيث تنتصب، منذ بضعة قرون خلت، إحدى عجائب الدنيا السبع: منارة الاسكندرية. حاولت أن تتصور ما كان بالإمكان أن تكونه تلك المنارة التي أقامها الرجال والتي كانت، كما يقال، تنير الليل للبحارة حتى ليخال الرائي أنه في منتصف النهار. أما اليوم فيأتي الموج ليتكسر على قدم البناية التي عوضتها: الشبح الشاحب لقلعة قيتباي.

فكرت أن لا شيء يصمد أمام انصرام الزمن. هي لا تعني طبعاً تلك الذاكرة المعروفة التي ينتهي الزمن بإضعافها، والتي تبقى مع ذلك، ورغم نزواتها، تمدنا ببريق بعض الذكريات، وإنما تقصد ذاكرة أخرى، أمينة ودائمة، هي ذاكرة الجذور والدم.

تعلم شهرزاد، اليوم وهي تقترب من الخمسين من عمرها، أن هذا النوع من الذاكرة قد نُقل إليها بفضل الله ووالدها، بالرغم منها ربما، لكنها نقلت إليها بالتأكيد. وهكذا، ورغم تعدد الإشاعات، فإن صوت يوسف، الأب المحبوب، وصوت نادية أمها، وصوت أخيها نبيل الذي توفي وهو في الثانية والثلاثين من عمره، وقد أعدمه جنون الرجال - كل تلك الأصوات لم تكف أبداً عن محادثتها، إضافة إلى صوت سميرة، الأخت الكبرى التي اختفت من حوالي عشرين سنة. ذهبت يوماً إلى باريس متأبطة ذراع أميرال فرنسي أنيق، ولم يظهر لها بعد ذلك من أثر.

والآن، حان دورها، هي شهرزاد، كي تحمل المشعل. هي لا تشك في أن يوسف سوف يحمل الرسالة، أما جيوفانا. . .

- ست ماندرينو.

التفتت. كان عبد الله ذو الفقار، كبير الحجاب، قد دخل لتوه إلى القاعة.

- نائب السلطان ينتظركم.

* * *

ادخلي. كان ذلك كل ما قاله الباشا ملامحه معتمة.

دلفت إلى المكتب وتوجهت نحو العاهل. على غير عادته، لم يقف، واكتفى بالإشارة إلى الأريكة التي غادرها هنري سالت.

- هل أنت بخير يا صاحب الجلالة؟

- وأنت يا ست؟

كانت النبرة التي استعملها محايدة؛ مجرد صيغَة للتحية.

- بخير، الحمد لله.

صمتت للحظة دون أن تضيف شيئاً. هي تعرفه منذ زمن طويل، وتشعر بأنه يعيش أحد أسوأ أيامه. أشارت إلى نار المدفأة.

- أنت تشعر بالبرد؟

- كيف لا أكون كذلك وقد شرع يهبّ على مصر، منذ مدة قصيرة، هواء مثلج؟

- أعتقد أنني قد لمحت السيد هنري سالت يخرج من هنا. هل أستنتج من ذلك أن هذا الهواء يأتينا من إنجلترا؟

- من إنجلترا وروسيا والنمسا وتركيا، وللأسف من فرنسا أيضاً. هل تريدين أن أسرّ لك بأمر؟ يحصل لي أحياناً أن أتعب من أن أقضي حياتي كلها في فك الطوق الذي يريدون تقييدي به.

- ربما كان عليكم أن تتفادوا غزو نفران.

انتفض.

- أنت تقولين هذا؟ أنت التي تعرفين كل شيء؟ أنا لم أرد أبداً الاستيلاء على نفران، أبداً. إن وضعي كتابع للباب العالي هو الذي حتم عليَّ أن أنطلق

في هذه المغامرة المأساوية. لم يكن بإمكاني أن أفعل شيئاً آخر، ما دام محكوماً عليّ بأن أستجيب لنداء السلطان العثماني. كنت مضطرّاً. ومع ذلك، كان يكفي فرنسا أن تستجيب لندائي. لقد طالبتها بما يشبه الإنذار الأخير. فلو كانت أرسلت سفينتين أو ثلاثاً لترسو في ميناء الإسكندرية لكان ذلك قد منحني مبرراً مثالياً لرفض طلبات الباب، ولكان جنّبني التورط في أزمة اليونان.

كان العاهل على صواب، ولم يكن بإمكانها إلا أن تعترف بذلك.

- أتدرين ماذا قلت، أمس، لقنصل فرنسا؟ «هل أنتم واعون بأن هذا الأسطول المصري الذي بنته العبقرية الفرنسية قد دمرته السفن الفرنسية؟ وأن في هذا التناقض بالضبط يلخص الحب الذي كننته وما أزال أكنه لفرنسا؟»

- ماذا كان رده؟

- «لا جواب لي يا صاحب الجلالة»، ثم أضاف: «يبدو أن الحب شبيه بالسياسة؛ ثمة أمور تنجز دون أن تقال.»

- أقول أحياناً بأنه ما دامت إنجلترا تلوح بمحاذيرها، فإن فرنسا ومصر سيكون محكوماً عليهما بأن تعيشا حبّاً منقوصاً؛ فالدبلوماسية البريطانية، من غير شك، لن تشاطرني أبداً وجهات نظري؛ ستتركني أتصرف ساعية إلى حبسي ضمن حدود إرادتها الحديدية.

- سنحت لي، أنا أيضاً، بالأمس فقط، فرصة تبادل بضع كلمات مع قنصل فرنسا. ويبدو أنه يقاسمك التحليل نفسه.

- دروفيتي؟ ما الذي أسرّ به إليك؟

- قال بأن بلده كان يروم تقوية مصر. وأن هذا كان هدفه ورغبته، لكنه لا يستطيع القيام بذلك إلا في حدود مرسومة.

- هذا بالضبط هو ما يحزنني.

- أنا لست مهتمة بالسياسة، لكن يبدو لي أننا نعيش في عالم غريب حيث تتصرف كل قوة من القوى العظمى الأربع بحريةٍ مراقبة. لكن هذا لا يمنع من أن دروفيتي قد أكد لي بأن حكومته مستعدة منذ الآن لإعادة بناء قوتكم البحرية، بالقوة نفسها إن لم تكن أقوى من الأولى. وقد أوضح لي أيضاً بأن فرنسا لن تقايض بمساعدتها.

- قد أكون ضحية الحب الأعمى الذي أكنه لهذا البلد، لكنني أصدق كلامه. وعلى أي حال فأنا ما أزال أنتظر منه المزيد.

- تقصد استقلال مصر؟

غادر محمد علي أريكته، كما لو كان لا ينتظر إلا هذا السؤال، وشرع يذرع الغرفة بخطىً عصبية.

- ها أنت قد نطقت بالكلمة المقدسة. متى سيتم التخلص من الباب ومن سلاطينه المحتضرين؟ إنني لم أنذر حياتي لمصر وأقوم بأعمال كانت تبدو مستحيلة للآخرين كي أترك كل ذلك، بعدي، لمصلحة باشا تركي. إنني لم أصرف كل هذه الأموال الطائلة في تشييد مؤسسات كبيرة وفي إنشاء بحرية وفتح قنوات وشق طرقات وبناء مدارس وأمور أخرى كثيرة، كي أترك هذا الإرث بين يدي حضارة متوحشة آيلة إلى الزوال.

- أنا أيضاً أعتقد ذلك يا صاحب الجلالة.

سيطر حزن على ملامح الباشا وصوته.

- لتعترف بي حكومة شارل العاشر. لتعترف باستقلالي وسيرون ما الذي سأفعله. أنا لست من مناصري الاحتكار. لقد انتهجته، فقط كي أضمن مصادر تمويل قادرة على إقامة جيش عظيم. وعندما تنتفي الأسباب التي دفعتني إليه ستكون لي أفكار أخرى؛ سأتوغل أبعد، إلى جانب فرنسا، على طريق الحضارة. سيرون ما الذي بإمكان محمد علي أن يفعله، عندما يتأكد من مستقبله ومستقبل أبنائه.

تأملت شهرزاد قطع الخشب التي تحترق في المدفأة. يحكم محمد علي مصر منذ عشرين سنة، ولم ينعم بيوم واحد من الراحة. كان عليه في البداية أن يتخلص من المماليك وأن يحول دون نزول الإنجليز بمصر وأن يعيد حكومة اسطنبول إلى صوابها، مع تحاشي كل مواجهة مباشِرة، مع إذكاء أطماع فرنسا وإنجلترا. من شأن كل ذلك أن يفني أقوى الرجال شكيمة وأبرعهم في ممارسة السياسة.

- ما الذي بإمكاني أن أقوم به من أجلك؟ سأل فجأة وهو يتكئ على سطيحة المدفأة.

- لقد أسررت لي بهمومك، وأخشى أن أضيف إليها هماً آخر.

رفع كتفيه وتهالك في أريكته.
- همٌّ جديد لن يغير شيئاً من الوضعية الراهنة. أنا أستمع إليك.
- أنا بحاجة إلى فضل منك. فضل خارق للعادة.
اجتاحت حدقتيه إشراقة.
- من خلال أقدم ما أتذكره عنك، كان الخارق للعادة جزءاً لا يتجزأ منك.
- أنتم تولونني تقديراً أكبر مما أستحق، جلالتكم.
- أكثر مما تستحقين؟ أتذكرين لقاءنا الأول؟ أنا لم أنسه. عندما أتذكر بأنك تجرأت على ولوج غرفتي، في قلب الليل، لتطلبي مني إبطال عقْدٍ....
- كان الأمر يتعلق بضيعتي؛ بأرضي. كنتم آنذاك قد قررتم وضع اليد على كل الفلاحة المصرية. فهل كان لي خيار؟ ما كنت لأقبل أبداً بمنحكم إرث آبائي.
- وتقولين أيضاً بأنه كانت لك الجرأة على الرفض، وبأنني قد استسلمت!
- لا يا سيدي، أنت كنت عادلاً؛ كنت لعبت وخسرت.
- مئات الفدادين وبضعة ملايين بارة في أشواط من لعبة الضامة!
- أنت الذي كنت اقترحت ذلك. أنا لم أفعل سوى أن استجبت لرغبة عاهلي.
- هل تعرفين ياسيدة ماندرينو بأنك تصلحين لأن تكوني دبلوماسية رائعة.
- أتعتقد؟ أنا امرأة صريحة ولا أعرف الخداع.
- هذا لا يمنع من أن أتصورك تخرجين منتصرة من أكثر المحادثات صعوبة. ومن يدري؟ ربما احتجتك يوماً. لكن لنعد إلى سبب حضورك هنا. كنت تتحدثين عن فضل؛ أي فضل؟
- لقد قررت الذهاب للبحث عن ريكاردو.
تحوّل دفعة واحدة من الإنصات النابه إلى الاندهاش.
- هل يمكنك أن تكرري ما قلته؟
- أريد العثور على زوجي.
- بموري؟
- أجل.

تفحّصها مشككاً.

- لقد جننت يا شهرزاد. وأنا أقدر بأن الحزن هو الذي أفقدك صوابك. تريدين الذهاب إلى اليونان، ونحن على وشك الدخول في حرب مع الغرب؟ ألا تعلمين ما الذي يحدث هناك؟ ولدي إبراهيم يتخبط في شرك، وجيشه ينهكه الجوع ويعيش دون مؤونة لأننا غير قادرين على إرسال أية إمدادات. لا. أنا أعتقد أنك قد فقدت بالفعل صوابك.

- جلالتك، عليَّ أن أعثر على ريكاردو. ما دمت لم أتيقن من وفاته يقيناً تاماً، لا يمكنني أن أستمر في العيش. سلمني حرساً وجواز مرور. هذا كل ما أطلبه منك.

حاول التماسك، لكنه كان يبدو معتملاً.

- أرجوك، لا تتكلمي مثل طفلة. إذا لم يتم العثور على جثمان ريكاردو فإن ذلك لا يعني أبداً أنه حي.

- ولا أنه...

- دعيني أنهي حديثي! كان بإمكاني أن أفهم شكوكك لو كان قد حصل ما حصل، في معركة أرضية. والحال أن الأمر متعلق بمعركة بحرية. البحر، كما تعلمين، قادر على ابتلاع سفينة، فما بالك بإنسان... أنا لا أريد أن أنكأ جرحك، لكن زوجك الآن قد يكون راقداً تحت أمواج البحر الأيوني.

- دعني أصل إلى اليقين. مكّني من الحرس.

هذه المرة، انفجر.

- لكن، أي هدف ترومينه؟ كان ريكاردو ماندرينو زوجك، لكنه كان صديقي أنا أيضاً ألا يكفيني ضياعه؟ أتريدين تكبيدي ضياعك أنت أيضاً؟ احذري يا شهرزاد، أنا لا نية لي البتة في أن أعيش حدادك.

- ليست تلك رغبتي، جلالتك.

- الذهاب إلى موري... لقد سبق لي أن فقدت ابنين؛ اسماعيل مات مثل كلب، محروقاً جياً في صحراء السودان، ولم يكن قد أدرك الثلاثين من عمره بعد. وقتل الطاعون توسون. وبما أن الشجاعة لم تسعف أحداً من خدامي كي يبلغني النبأ، عثرت عليه مسجىً في تابوت موضوع مثل علبة على عتبة غرفتي. وها أنت اليوم تريدين أن تضيفي إلى حياتي مصيبة أخرى! لا. أبداً.

- أرجوك.

- لا.

نظرت شهرزاد حولها مشدوهة. كان الغسقُ قد تسلل إلى الحجرة مصحوباً بأولى خيوط الظلام. قامت بالرحلة بين القاهرة والاسكندرية، والتحقت بالقصر مفعمة بالآمال، مقتنعة بأنها ستحصل على استقبال إيجابي. وها هي الآن تواجه صرامة حديدية وغير منتظرة من قبل نائب السلطان.

غادرت أريكتها ببطء وتوجهت نحو النافذة المشرعة. كانت السماء الغسقية تطفو على البحر. بعد ساعة سيحل الظلام. ظلام جديد، ظلام لا فائدة منه وفارغ على نحو يدعو إلى الحسرة، فهو سيكون مثل سابقيه، خالٍ من الحب.

- طيب. سأنصرف بمفردي.

- بمفردك؟ إلى بلد في حالة حرب؟

- أنا لا أؤاخذك. أنا أتفهم شكوكك وأقدرها، لكن عليَّ أن أذهب إلى منتهى بحثي.

أحكمت، بحركة عصبية، الشال الأسود الذي يغطي كتفيها.

- لقد تحدثت قبل قليل عن موت ابنيك؛ لو كان لديك أدنى شك في أنهما ما يزالان على قيد الحياة لكنت ذهبت، ليس فقط إلى موري، ولكن إلى نهاية الدنيا.

لم يُبدِ أي رد فعل. وبحركة جافة، شرع يدير السبحة حول سبابته.

- هل يمكنني أن أنسحب يا صاحب الجلالة؟

- خسئت! ألن تكفّي أبداً عن إتعاب قلبي؟ لقد اقتحمت وجودي منذ حوالي عشرين سنة؛ ومنذ عشرين سنة ظل الخوف يتملكني عليك. لو كنت أجهل مزاجك لكنت تركتك تخرجين دون أن أعيرك بالاً؛ لكنني أعلم أنك من قلة الوعي بحيث ستتوجهين إلى موري.

- لا خيار لي.

- لا خيار لك... قبل أن تجتازي هذه العتبة، أحب أن تجيبني عن سؤال. إذا كان ماندرينو ما يزال على قيد الحياة، فلماذا لم يتصل؟ هل بإمكانك أن تجيبي؟

- قد يكون مجروحاً، وربما تعوزه الوسيلة.

- كلام فارغ. كان بإمكانه أن يرسل رسالة إلى إبراهيم. هو يعلم أن ولدي موجود بالمنطقة. وأنا نفسي بعثت رجالاً يبحثون عنه. قمت بذلك استجابة لطلبك، ولأنني كنت أحسب بأنني مسؤول ما دمت قد أرسلته إلى نفران. لم يسفر البحث عن شيء. كوني إذن عاقلة. أنت لست بليدة. إرضيْ بالقدَر الذي أراده لك الله.

صمت، كما ليقيِّم أثر كلامه، فاكتشف كم تغيرت ملامح المرأة، فاندهش من ذلك. لم تكن ملامحها تعكس لا حزناً ولا يأساً. كانت عيناها مثل عيني طائر مطارد.

كف عن استقصاء انفعالها واستدار.

- ستحصلين على الحرس.

* * *

باريس ٣١ ديسمبر ١٨٢٧.

لم يحل المطر الذي يخبط على السطوح دون إقامة الحفل. كانت أصداء الرقص والأغاني الممزوجة بالضحكات العالية تضع توقيعها على الصفحة التي تطوى. منتصف الليل والعام الجديد رابض على مداخل المدينة.

بشارع لي بوتي شان رقم ٣٤، تعتدل كورين شديد بحيوية على أريكة المخمل البالية. هل غفت؟ كم من الوقت؟ ارتعبت من فكرة أن يكون النعاس قد غلبها. سارعت إلى غرفة نوم أمها.

كانت سميرة تبدو غافية، لكنها كانت تحتفظ بعينيها، مع ذلك، مفتوحتين. لونها شديد الامتقاع يبرز الدوائر الرمادية حول عينيها. كان جفافٌ ما يسم وجهها. هي في التاسعة والخمسين من عمرها، لكنها تبدو أسن بعشر سنوات.

- كيف حالك يا أماه؟

أرادت المرأة أن تجيب، لكن كلماتها ضاعت في سلسلة عطسات متوالية. استعادت نفَسها بصعوبة بالغة وقالت بصوت متقطع:

- كما ترين يا بنيتي، كما ترين.

- سيكون حالك غداً أحسن بكثير. الدكتور مورو قال ذلك.
رفعت سميرة، بوهن، يدها ثم أسقطتها فوراً على الفراش.
- الله أعلم. لكنني لست متفائلة، للأسف.
لا تقولي ذلك يا أماه. أنت مخطئة. أكرر لك أن الدكتور قد أكد لي أن الأمور ستتحسن.
اكتفت الأم بالموافقة، لكن دون اقتناع.
- أنت طيبة. ليباركك الله.
رفعت كفها من جديد، لكن هذه المرة كي تضعها على خد ابنتها.
- كلما أمعنت فيك النظر، قلت بأنك صورة طبق الأصل من جدتك.
- تأكدت من الأمر عندما بدأت تكررين لي ذلك.
صحيح أن كورين كانت شديدة الشبه بنادية شديد. القامة الدقيقةنفسها واللون الأسمر الشرقي نفسه والأنف الصغير الدقيق القسيم قليلاً نفسه، مما كان يسمها بسمة طفولية، هي التي قاربت العشرين من عمرها. لكن ما كان يؤكد هذا التشابه مع أم سميرة هو تلك الشامة الصافية السواد التي كانت بارزة على خدها الأيمن.
تابعت سميرة:
- إذا كان ثمة أمر أتأسف عليه من كل قلبي، فهو أن الحظ لم يسعفك كي تري جدك. هذا أمر محزن، وأنا المسؤولة عنه.
- لا، لست مسؤولة عن شيء. هل يُعدّ خطأً منك أنك قد غادرت مصر؟ وهل يُعدّ خطأً منك أن الحظ لم يسعفك البتة كي تعودي إليها؟
- لقد فشلت في حياتي يا كورينا. ليس في الدنيا أصعب من أن يكون المرء على وشك الرحيل بصفة نهائية، وهو يعي هذا الفشل. لقد فشلت في حياتي.
- أولاً، أنت لن ترحلي. ثم إن ما تقولينه خطأ. لقد عشت من أجل الحب، وقد رافقت رجلاً إلى هذا البلد لأن مشاعرك كانت تدفعك إلى ذلك. فيمَ يعد هذا فشلاً؟
- الفشل لا يكمن في ذلك يا كورينا. الحب يشبه في جانب منه المقامرة: ربح أو خسارة... لا، إن ما أعاني منه أكثر هو قطع صلة الرحم

مع عائلتي. لقد أضعتهم أثناء الطريق. هنا الفشل. ستُنشِئين أنت أيضاً، يوماً، عائلة وستفهمين أن ليس ثمة أفظع من كسر الدائرة التي أنشأها الله.

ظلت كورين صامتة. هي، بالفعل، لم تصادف من حولها سوى وجوه غريبة. لم يسعفها الحظ حتى في التعرف على هذا الأخ غير الشقيق، ابن علي الترجمان، زوج سميرة التركي. فقد توفي بالتهاب رئوي بضعة أشهر بعد وصولهم إلى باريس. والحق أنه إن كان ثمة أمر افتقدته خلال كل هذه السنين، فهو أبوها الذي قيل بأنه كان أميرالاً، والذي لم تتعرف عليه البتة.

- تعلمين أن لي أختاً. أنت لم تنسي اسمها.

- كيف يمكن لذلك أن يحصل؟ إنه اسم لا ينسى: شهرزاد.

بذلت سميرة مجهوداً جباراً كي تعتدل بين الوسائد.

- عديني بشيء يا كورين.

- أعلم ما الذي ستقولينه يا أماه.

- عودي إلى مصر بمجرد أن يكون ذلك في استطاعتك، واعثري على شهرزاد. قولي لها بأنني أعتذر، وبأنني كنت مخطئة عندما قطعت روابطنا. أخبريها بأنني كنت مخطئة، وقولي لها بالخصوص بأنني لم أكف يوماً عن حبها.

- أعدك.

قطعت نفَسَها سلسلة عطسات جديدة.

- أبوك لم يرك. وأنا أقول، اليوم، بأن ذلك كان إشارة ربانية، لأنك ستظلين ابنة شديد قبل أن تكوني أي شيء آخر؛ حفيدة يوسف شديد. لا تنسي ذلك.

أقرّت كورين كلامها.

- علينا أن ننام الآن.

الفصل الثالث

ربما كانت قرية ابيدور الهاجعة فوق خليج سارونيك، هي القرية الأكثر تواضعاً في هذه المنطقة من موري. لكن هل يمكننا أن نسمي قريةً هذه البيوتات القليلة المتناثرة تحت شمس حارقة في الصيف، تموت منها أشجار الزيتون؟

عاج الفرسان العشرة الذين يرتدون بذلة الجيش المصري نحو الشرق. ستة فراسخ تفصلهم عن جبل كينورسيون. عندما أدركوه، كان الغسق قد شرع يتناثر في بقع. تقدموا إلى الأمام، إلى جانبهم معبد وأعمدة متكسرة. وأبعد من ذلك، على يسارهم، كان ثمة مسرح حجري. كانت تلك آثار زمن سحيق، تُذَكِّر بأنه قبل حلول قذارة الجيوش العثمانية بكثير، كانت الآلهة قد احتلت اليونان.

سألت شهرزاد دليلها:

- أما نزال، يا عثمان، بعيدين جداً عن مخيم إبراهيم باشا؟

- لا يا سيدتي. سيلوح لنا عما قريب.

- كم من الوقت؟

- في أقل من ساعة إن شاء الله.

غادروا الاسكندرية عشرة أيام من قبل، متوجهين إلى بيري. وبمجرد نزولهم بالميناء، أخذوا طريق الآتيك، ثم عبروا، تحت شمس حارقة، الوسيس وكورينث وميسينيس. وحيثما كانوا يمرون كان يرافقهم الاحتقار والسباب. كان البعض، ممن هم أكثر جسارة، يبصقون على طريقهم. لكن الجنود المصريين العشرة لم يصدر عنهم، في أية لحظة، أي رد فعل. كان

الملازم الأول الذي يقود الحرس قد أصدر أوامره الصارمة: يجب أن يتم تحاشي المواجهة مع السكان بأي ثمن. وبذلك نفذوا أوامر نائب السلطان. عندما وصلوا إلى كورينث اضطروا إلى تعديل مسارهم، فهبطوا إلى أرغوليد حيث كان ابن السلطان قد حط الرحال مع جزء من جيشه.

كانت أفكار ضاغطة تنغص على شهرزاد منذ أن لمحت شواطئ مصر تبتعد. جيوفانا ويوسف ومحمد علي، كانوا كلهم قد حذروها من خطورة ما هي مقبلة عليه. ماذا لو كانوا على حق؟ ماذا لو لم تكن الآن تفعل إلا أن تطارد رؤية اخترعها عقل عنيد يرفض الاعتراف بالحقيقة؟

وكما لو لتعيد الثقة إلى نفسها، سربت بآلية أصابعها خلال العرف الكثيف لمطيتها، فقلصت هذه فرائصها بعض الشيء.

تابعوا طريقهم، مضطهدين بين الفينة والأخرى، بكلاب هوجاء. تقاطعوا مع بدوية عجوز تلبس السواد. وقفت في مكانها ورسمت إشارة الصليب بحركات مرعوبة، وهي تكرر غير ما مرة اسم العذراء. جبال تعقب ودياناً، وشجر السرو يعقب شجر الزيتون والجميز، وتعقب الأراضي المخضرة أراضي قاحلة. أخيراً، وعند منعطف هضبة، أعلن صوت الدليل:

– الحمد لله لقد وصلنا.

كانت قد بدت لتوها، في ضوء القمر الوليد، الأضواءُ التي تحيط بمخيم ابن محمد علي.

تقدموا إلى أن وجدوا أنفسهم أمام حاجز صغير. شهرت شهرزاد هويتها. بعد دقائق اقتيدت نحو خيمة الباشا.

كانت تعرف إبراهيم لأنها قابلته منذ ثلاث سنوات خلت. الصورة التي احتفظت بها في ذهنها كانت لرجل متوسط القامة، عريض المنكبين، وبالخصوص ذي حدقتين فصيحتين حاسمتين. وما كان أدهشها، بالخصوص، هو التناقض الذي يصبح جلياً عندما ينطلق في ضحكته الطويلة: الشفتان والنظرة والقلب. . ؛ كل شيء كان يبدو وكأنه قد تألق بنور.

عادت إلى ذهنها تلك الجملة التي كثيراً ما كانت تستمع إليها من أفواه الشيوخ الرواة بساحة الأزبكية. كانوا يقولون، عندما يتطرقون إلى شعر ولحية ولي العهد، بأن: (عواصف الحرب قد حولت، قبل الأوان، تلك الغزارة

إلى شلال أبيضٍ). ومع ذلك، فعمر الأمير لا يتجاوز، اليوم، الأربعين.

أزاحت كفٌّ ستار الخيمة فولجت. استقبلتها ابتسامة دافئة. حمل الباشا كفه، بحركة رشيقة، بالتتابع، إلى صدره ثم إلى شفتيه فجبهته.

- مرحباً بك، السيدة ماندرينو.

كان شخص واقفاً إلى جانبه، فبادر بتقديمه.

- هل سبق لك أن قابلت الكولونيل سليمان سِيفْ؟

- لا، سعادتك. لكنني سمعت الكثير عنه. وأظن أنني لن أكون مخطئة إن قلت بأنه يعتبر، بعدكم وبعد والدكم، الرجل الأكثر شهرة بمصر.

اكتفى سليمان سيف بأن أفرج ذراعيه كما ليعرب عن أن شهرته بالفعل واسعة.

كان للرجل حضور قوي. ورغم أنه فرنسي، فقد كان يحمل زي النظام الجديد للجيش المصري الذي فرض من زمن قريب من طرف محمد علي. لولى بياض بشرته لاعتُبر رجلاً شرقياً. كان قد وصل إلى مصر من حوالي عشر سنوات. قبل ذلك، كان ضابط مدفعية بتولون، ثم كولونيلاً وضابطاً مرافقاً لـ«ناي» أثناء الانسحاب من روسيا. قدم إلى محمد علي، فجمعتهما صداقة قوية، فعيّنه في خدمته. منذئذ اشتغل سيف في إصلاح الجيش المصري الفتي. وعندما اعتنق الإسلام غيّر اسمه من جوزيف إلى سليمان. شارك خلال السنوات الأخيرة في كل الحملات العسكرية إلى جانب نائب السلطان. أصبح يحتل، منذ سنتين، وظيفة المساعد الأول في جيش إبراهيم، كما أضحى أيضاً مستشاره الأكثر قرباً.

وضع الباشا، بودّ، كفه على كتف سيف.

- إليه يعود الفضل في إنشاء جيشنا. وأنا مدين له بانتصاراتنا.

- أنت تبالغ في تقديري، سعادتك. أنا لم أقم إلا بوضع أداة في أيديكم. عبقريتكم العسكرية هي التي أجادت استعمال هذه الأداة.

- لا يا صديقي. لا يمكننا أن نستعمل مصطلح العبقرية في المجال العسكري إلا في حق رجلٍ مثل مواطنكم بونبارت والاسكندر الأعظم. أما أنا فلست سوى محارب متواضع.

- كن على يقين. لقد راقبتك. ليس لك أن تغبط هذين الوجهين النيرين

في شيء. سترى، إن أعمالك ستكون أكثر فأكثر إدهاشاً.

فجأة، خاطب إبراهيم سيف بنبرة حادة:

- أنا لا أحب الحرب. أنا متأكد من أن ثمة طريقة أخرى للخلود في التاريخ.

أشار إلى وسائد موضوعة على بساط من الصوف الخام.

- اجلسي، أرجوك.

سألت شهرزاد الفرنسي وهي تتأهب للجلوس:

- هل صحيح ما يحكى عنكم يا كولونيل؟ أم أن الأمر ليس سوى أسطورة؟

- وماذا يحكون، سيدتي؟

- يبدو أنه - ذات يوم - عندما كنت شارعاً في تدريس فرقة عسكرية، وعندما أمرت بالتدريب على استعمال السلاح، اتُّخِذْت هدفاً لبعض تلامذتك الضباط، إذ كانوا يجدون صعوبة في أن يقبلوا بأن يقودهم أجنبي.

- هذه، للأسف، هي الحقيقة، سيدتي.

تابع إبراهيم عوض شهرزاد:

- وهل تدرين ما الذي فعله؟ عوض أن يعاقبهم، انقلب نحوهم وهو يصيح: «فاشلون. أنتم لا تجيدون التصويب. أعيدوا.» أليس كذلك؟

لم يكن بإمكان سيف إلا أن يؤكد قول إبراهيم.

- هنيئاً لك. لقد قدمت الدليل على برودة دم خارقة. كان ممكناً أن تفقد حياتك في هذه الحادثة.

- هذا بالضبط ما قلته لنفسي، سيدتي. لكنني كنت على الدوام عرضة لهذا الخطر. وإذن، فإن فقدي لحياتي بشرف يبدو لي، دائماً، أمراً حتمياً.

لاحظ إبراهيم:

- أتفهمين يا سيدة ماندرينو لماذا لا يمكن للجيش المصري، وهو يُدَرب من قبل رجل من هذه الطينة، أن يعرف سوى الانتصارات؟

صفق بكفيه، فبدا أحد الحراس.

- شاي!

ثم خاطب شهرزاد:

- تأخذين شاياً؟
أجابت بالإيجاب.
قعد بدوره مشبكاً رجليه.
- لنتحدث الآن عنك. أخطرني والدي بمقدمك، وأعترف بأنني شككت.
- لماذا سعادتك؟
- لا أدري. ربما لأنه ليس معتاداً أن نرى امرأة، وشرقية فوق ذلك، تتصرف بهذه الطريقة.
سألت شهرزاد سيف:
- هل الأمر على هذه الشاكلة بفرنسا؟ هل اعتادت الفرنسيات، على غرار المصريات، على أشغال البيت والحريم؟
مط الكولونيل شفتيه.
- ذلك أنه عندنا... لا يُطرح هذا السؤال. ليس لدينا حريم.
- السيدة ماندرينو! احتج إبراهيم. لماذا مقارنة القمر بالشمس؟ الغرب هو الغرب. لكل طرف تقاليده. أنا أعلم أننا نقدم، في بعض الأحيان، صورة عن الانحلال، لكن أليس في بعض العادات الغربية ما يصدمنا؟
تابع بسخرية:
- ثم، لا بد أن يكون ثمة ما يغري في هذا الشرق المشار إليه بالأصابع. انظري كيف يفتح شهيات الأطماع. ومهما يكن من أمر، فإنني أحب أن أوضح بأن موقفك، بقدر ما يفاجئني، يحظى باحترامي.
- واحترامي أنا أيضاً، سيدتي.
- أتدري يا كولونيل. أنا، منذ أن كنت صغيرة السن جداً، كنت أجد متعة ماكرة في زحزحة المعهود. كان أبواي يأملان أن أنضم إلى السِّرْب مع تقدمي في السن، لكن شيئاً من ذلك لم يحصل.
- كثيراً ما حدثني أبي عن شهرزاد بوصفها امرأة غير عادية.
- ينظر إليّ الباشا، لسبب لا أعلمه، وكأنني مشعوذة. وآمل أن لا تكون هذه الصورة هي ما تكتشفونه فيَّ.
أطلق إبراهيم ضحكته العالية.

- لم تخطر ببالي أبداً هذه الفكرة. لا. إن مشروعك هو ما أجده...
بدا وكأنه يبحث عن الكلمة.
- لاعقلاني؟
- أخشى ذلك.
- هذا هو أيضاً رأي نائب السلطان. وبهذا الصدد...
بحثت في حقيبة جلدية قديمة، لم تفارقها منذ أن غادرت مصر وأخرجت منها مطوياً سلمته إلى محادثها.
- كلمة من صاحب الجلالة.
فتح إبراهيم الرسالة بلهفة. شرعت جبهته، وهو يقرأ الرسالة، تقطب، وبدت ملامحه مهمومة. بعد ذلك سلّم الرسالة إلى سيف وغرق في تفكيره.
- آمل أن يكون الخبر سعيداً. قالت شهرزاد قلقة.
بدا أنه لم يسمعها، وهو غارق في تفكيره، كما بدا أنه لم ير الخادم الذي أتى وقدّم الشاي. بعد أن انسحب هذا الأخير أطلق إبراهيم تنهيدة.
- إننا نسحب، أبي وأنا، فساداً اسمه تركيا. وإذا لم نستطع التخلص منه، فإن مصر هي التي ستؤدي الثمن.
- حملتُ، إذن، أخباراً سيئة.
عقّب إبراهيم.
- أخبرها يا سليمان.
- روسيا، حسب الرسالة، مصممة على إعلان الحرب على السلطان، ووزارة فيليل بفرنسا تؤيد الاعتراف الرسمي بالوجود السياسي لليونان. النقطة الوحيدة التي في صالحنا - وهو أمر غير معتاد - هو موقف إنجلترا المعارض لهذه الخطة.
- لأي سبب تعارضها؟
- آه. لا دخل للإيثار في ذلك. هي غير موافقة على تحطيم الإمبراطورية العثمانية لأن ما يساير وجهة نظرها هو تقسيمها تقسيماً تدريجياً، وهي، في ذلك، تأمل الحصول على أكبر قطعة من الكعكة.
اغتمّت ملامح إبراهيم.
- إن الوضعية التي توجد عليها بلادنا لَهي وضعية ظالمة. فنحن لسنا

موجودين ها هنا إلا لأن وضعنا كتابعين لإسطنبول يحتم علينا ذلك. نحن هنا لأن اسطنبول ترفض مغادرة اليونان، وهي من الضعف العسكري بحيث لا تقوى على القيام بذلك بنفسها. علي اليوم أن أواجه القوى الغربية بجيش ضعيف، وبدون أمل في إمدادات.

- هل تظن يا كولونيل أن القيصر قد يدخل، بالفعل، في صراع مع الباب؟

- أخشى ذلك، يا سيدتي. سيكون ذلك أمراً مأساوياً لأن بلدكم هو الذي سيدفع الثمن مجدداً.

قال الباشا بنبرة حنين:

- آه... لو كان لي رأي. لو فقط اسْتَمَع إليَّ والدي.

- ماذا كنتم ستفعلون، سعادتك؟

رفع ذراعه، ثم ضغط كفه كما لو ليهرس جوزة.

- لكُنتُ حملت على اسطنبول ولكنت قضيت على السلطان وصدره الأعظم وحكومته، ولكنت أعلنت استقلال مصر.

- أنت تعلم بأن ذلك مستحيل. لا يمكن للغرب أبداً أن يترككم تقومون بشيء مثل هذا.

- أنتم قليلو الدراية بالديبلوماسيين. إنهم لا يفهمون سوى سياسة واحدة: سياسة الأمر الواقع. يجب التصرف بسرعة وبدقة. هذا كل ما في الأمر. ألست محقاً يا سليمان؟

- أنتم تعرفون وجهة نظري في ذلك. إنها تطابق رأيكم.

انبسطت أسارير الباشا دفعة واحدة.

- لكنك لست موجودة ها هنا لمناقشة أمور السياسة. لنعد إلى ما أنت هنا من أجله. أما زلت مصممة على الذهاب إلى نفران؟

- أكثر من أي وقت مضى.

- كنت أعرف ريكاردو ماندرينو معرفة جيدة. كان رجلاً محترماً وصديقاً وفياً.

- لماذا تتحدث بصيغة الماضي؟ هو ما يزال كذلك، سعادتك.

تحاشى التعليق.

- قد يكون والدي أخبرك بأن الأبحاث لم تفض إلى شيء. وأرى أن ذلك لم يثنك عن عزمك.

أشارت بأن نعم.

- أنت شجاعة، سيدتي.

- لا يتعلق الأمر بالشجاعة يا سيد سيف، وإنما بالإيمان. عندما رماك أولئك التلاميذ بالرصاص، ألم يكن رد فعلك هو لعب الكل من أجل الكل؟ لقد عانَدْتَ القدر. هذا ربما هو ما أحاول القيام به بدوري.

وشوش إبراهيم، كما لو كان يفكر بصوت مرتفع:

- هل دورنا أن نعاند قدر العلي القدير؟

ثم سأل فجأة:

- هل تحبي الحكايات والأساطير؟

- طبعاً، سعادتك. ويحصل لي حتى أن أصدقها.

رشف آخر جرعة من شايه وانتصب واقفاً.

- في هذه الحال، أحب أن أقاسمك حكاية أَسَرَّ لي بها طبيب يوناني هنا، يدعى سطافروس. أتريدين؟

رغم أنها بدت مفاجأةً بعض الشيء، فقد وافقت.

- يجب أن ترافقيني إلى الخارج لأن كلماتي في حاجة إلى وسائل إيضاح.

ثم أضاف موجهاً كلامه إلى سيف:

- لن أتأخر.

كانت الأضواء مستمرة في اشتعالها، عاكسة على طول الصخور ظلالاً منكسرة. دوت، في مكان ما، حمحمة فرس منزعج من انعكاس شعاع القمر على مضاء خنجر موضوع إلى جانب فارس نائم.

واصلا تسلق جبل صغير محاذٍ للماء. عندما أدركا قمته أشار إبراهيم إلى جانب من المشهد. تعرفت شهرزاد فيه على الآثار التي لمحتها ساعة من قبل، عندما كانت تقترب من المعسكر.

- هذه، حسب سطافروس، آثار معبد قديم خاص بإله يوناني يدعى أسكليبيوس. تقول الأسطورة بأن ملِكاً، في غابر الأزمان، أتى ليستقر في هذه

المنطقة. وكانت له فتاة اسمها كورونيس. ورغم أنها كانت حاملاً بالإله أبولون، فإنها قد ارتكبت خطيئة الخيانة مع آدمي. انتقم الإله منها بقتلها، لكنه أنقذ الطفل الذي ولد، فسماه أسكليبيوس. بعد ذلك سلمه إلى فارس علّمه فن التطبيب. وعندما أنهى أسكليبيوس تعليمه، لم يكن قد أضحى، فقط، قادراً على إشفاء الأمراض الأكثر خطورة، بل حتى على إحياء الموتى. أصبحت قدراته المعجزة معروفة عند الجميع، فشرع الناس يقبلون عليه من الأنحاء الأربع لليونان للاطلاع على إنجازاته الباهرة. كان بإمكان الأمور أن تبقى على هذه الشاكلة لولى أن زيوس، ملك الآلهة، قد قلق فجأة من هذا التحول في نظام الطبيعة. أتدرين ما الذي فعله؟

- لا، سعادتك.

- صرع زيوسُ أسكليبيوس.

* * *

تناولت كورين، وسط نحيبها، كفَّ صديقتها جوديث غريغوار، وضغطتها بقوة.

- ما عدت أقدر. هذا قاسٍ جداً. لماذا لا يضع الله حداً لعذاباتها؟ لماذا؟

- اهدئي. عليك أن لا تفقدي الأمل.

- أمي ضاعت يا جوديث. ضاعت.

احتضنت جوديث صديقتها. رغم أنها تكبر كورين بخمس سنوات فإن ما يحيلها أكثر نضجاً ليس هو هذا الفارق في السن وإنما كونها امرأة متزوجة. قبل سنتين تزوجت من جورج غريغوار الذي يمتهن الخياطة، فتغيرت حياتها بسرعة فائقة.

ارتفع صوت سلسلة عطسات قوية من غرفة النوم. تصلبت كورين واتسعت حدقتاها من القلق. آه لو كانت فقط قد استطاعت أن تفر؛ أن تغادر باريس. أن تنصرف.

* * *

كانت زرقة البحر الأيوني فريدة في صفائها، مما جعل شهرزاد تتذكر عيني جيوفانا. عند منتهى ممر وعر، كان قد بدا لتوه خليج نفران. هل يمكن لمأساة

من هذا النوع أن تعرف نهايتها في هذا المشهد الزمردي؟ كان الشكل نصف الدائري لبحيرة يُفصَل عن عرض المياه بحد أرضي دقيق. وبالجانب الشمالي، كان يظهر أعلى جبل كوريفازيون الذي تنتصب على قمته آثار قلعة واضحة قريبة من الشبح الساكن لدَيْر. في الأسفل، ثمة طريق وعر يقود نحو مغارة، وعلى الشاطئ، يقوم كوخ من المحتمل أنه للصيادين. وأبعد قليلاً كان ثمة منزل وحيد من الآجر. الضوء والأجواء هنا شفافة نادرة. كيف يمكن التصديق بأنه في هذا المكان الهادئ دوت مدافع، من بضعة أشهر، باذرة النار والموت؟

- يستحسن أن نواصل راجلين وأن نقتاد الجياد، اقترح صوت. الممر وعر للغاية وقد تنزلق الجياد.

وافقت شهرزاد فنزلت عن مطيتها وسارت في أثر الدليل. ودون وعي منها أصبح نبضها شديد السرعة.

عندما أدركوا الشاطئ، كانت الشمس قد شرعت في الغروب.

- نضرب خيامنا، قال جمال عبد النور.

وواصل، موجهاً كلامه إلى شهرزاد:

- سأطلب من أصحاب هذا المنزل أن يُقْرُوكِ. بذلك يمكنك أن تنامي في مأمن.

- أوافق، لكن شريطة أن يعوضوا عن ذلك. إذا رفضوا لا تصر، سأنام، كما فعلت حتى الآن، في العراء.

أراد الضابط أن يحتج.

- أرجوك، أيها الملازم جمال، قم بما أمرتك به. وعلى أي حال...

سلّمت زمام دابتها إلى أحد الجنود.

- أذهب معك.

* * *

كانت رائحة السمك المقلي تنبعث من الموقد.

فتح اليوناني الباب، وتجمعت زوجته مع الأطفال لصق الجدار، في الخلف، بملامح خائفة.

أشار الملازم الأول على المترجم الذي يرافقه بأن يترجم:

- نبحث عن مكان لهذه السيدة. هل يمكنكم استضافتها لبضع ليال؟

انصرمت لحظات اعتمال. بالكاد ردد الرجل القصير البدين ذو الشارب المرتب الدقيق:

- آسفون. لا مكان كافياً عندنا.

- سنؤدي لكم أجراً.

عارض الرجل:

- زوجتي وأنا ننام هنا. أما الغرفة الثانية فيحتلها الأبناء.

- يمكن للسيدة أن تقاسمهم إياها.

- هذا مستحيل.

بدأ صبر الملازم يعيل.

- ماذا قرَّرَ؟

- يرفض.

- حسناً. أخبره بأنني أمهله بضع دقائق كي يجمع أمتعته.

- انتظر.

تقدمت شهرزاد خطوة إلى الأمام.

- أخبره، بالأحرى، بالحقيقة.

- الحقيقة؟ أية حقيقة سيدتي؟

- فسر له سبب وجودي بنفران.

نفذ المترجم الأمر.

- هذه السيدة فقدت زوجها أثناء المعركة الكبرى التي دارت بالخليج. أنتم على علم بالأمر، أليس كذلك؟

أقر الصياد برفرفة جفن.

- هي قادمة من مصر. قامت بكل هذه الرحلة مؤملة في العثور عليه.

- في هذه الحال، خير لها أن تعود من حيث أتت. فهي لن تعثر على شيء بنفران.

- لماذا؟

- لأن كل الجثث التي ألقت بها الأمواج دفنها الأحياء. أما بالنسبة للناجين فقد أخذوهم. لم يعد هنا إلا نحن.

- اسأله إن كان هناك جرحى كثر.

- كثيرون. والموتى أكثر. كان لون البحر قد تغير. كان أضحى أحمر. وحتى الرمال.
- ماذا قررت إذن؟ سأل الدليل. أنت تعلم جيداً بأن بإمكاننا أن نرغمك على استضافة السيدة، ودون تعويض.
- أنتم، الأتراك، في يدكم كل السلط.
- أنت مخطئ. نحن مصريون.
- أتراك، مصريون. الدم الذي أراقه هؤلاء وأولئك هو دائماً دم أبنائنا.
استدار المترجم نحو رئيسه.
- أخشى أن نكون مضطرين إلى طردهم بالقوة.
- لا. قالت شهرزاد. لا مجال لذلك.
- سيدتي. أنت ترين أنهم لا يريدون سماع شيء.
- هؤلاء الناس يوجدون في بيتهم ومن حقهم أن يظلوا به. لننصرف. سأنام على الشاطئ.
- أنت لست جادة. أنت تعلمين كم هي الليالي شديدة البرودة. ستصابين بمرض.
- كف عن القلق عليَّ أيها الملازم جمال. أنا أعرف ما أفعله.
توجهت نحو الباب.
- لحظة من فضلك.
كانت زوجة الصياد هي التي تكلمت.
- ماذا وراءك؟
- قل للسيدة بأن بإمكانها البقاء.
- كيف؟
- لقد سمعتني. يمكنها البقاء.
استرسل اليوناني في سلسلة من المؤاخذات الموجهة إلى زوجته، بينما كان المترجم ينقل الرسالة إلى شهرزاد.
- اسألها لماذا تقبل ما يرفضه زوجها.
أجابت المرأة باقتضاب:
- لأنني امرأة، ولأن الرجال هم الذين يشنّون الحروب.

الفصل الرابع

وضعت فنجان القهوة على الرمل وقالت بفرنسية متعثرة:

- منذ زمن، كنت أجيد قراءة الكف. أما الآن فما عاد الأمر كذلك. هكذا أحسن.

كانت المرأتان جالستين على الشاطئ جنباً إلى جنب قريبتين جداً من الماء، إلى درجة أن الزبد، مع اندفاع الأمواج، كان يلامس أقدامهما العارية.

- أين تعلمت الحديث باللغة الفرنسية؟

ضمّت صوفيا غليمينوبولوس قبضتها على حفنة من الرمل الرطب.

- توفي والدي عندما كنت في السادسة من عمري. وجدت أمي نفسها مضطرة للعمل كي تعيلنا؛ أخي أندرياس وأنا. وجدت عملاً عند زوجين هما عالما آثار فرنسيان كانا يقطنان منزلاً قرب مسينيس. كانت الزوجة طيبة، وهي التي علمتني. ظللنا في خدمتهما تسع سنوات. وذات مساء، توفي الزوج، فعادت المرأة إلى فرنسا. أتذكرهما باستمرار.

انقبضت أساريرها.

- قولي يا شهرزاد، لماذا كل الرجال مجانين؟

- لا أدري، ربما لأنهم يحبون السلطة.

ثم سألت:

- هكذا إذن، أنت أيضاً فقدت كائناً عزيزاً.

- أخي أندرياس. لم يكن قد أدرك الثلاثين بعد.

- كيف حصل ذلك، ومتى؟

- منذ حوالي أربع سنوات، أثناء حصار ميسولونغي. كان الأتراك

يحيطون بالمدينة. نفد الطعام. كانت المجاعة تجتاح كل مكان. حتى الجرذان كانت تموت جوعاً، فتولى أندرياس إذن قيادة المدافعين فخرجوا محاولين تكسير الخطوط التركية. عندما رأوا بأنهم غير قادرين على ذلك، أغلقوا على أنفسهم بالقلعة وفجروا مخزن البارود. لا أدري كم من الجنود الأعداء ماتوا من الانفجار. كثيرون بالتأكيد. وعندما سقطت المدينة، ذبح الأتراك كل المدنيين ولم نعثر أبداً على جثة أندرياس.

رفعت رأسها فجأة وقالت بفخر:

- لقد حارب إلى جانب أحد اللوردات.

- لورد؟

- أجل. إنجليزي يدعى بايرون.

تفرست شهرزاد المرأة بشفقة. كانت تجهل كل شيء عن هذا الشخص، لكنه كان مؤثراً بالفعل أن ترى أن مجرد وجود هذا الشخص - بالنسبة لصوفيا غليمينوبولوس- إلى جانب أخيها، يضفي على موت هذا الأخير نوعاً من السمو.

- استضفتني إذن بسبب أندرياس.

- ربما.

أخذت تنفض بآلية الرمل العالق براحتها.

- أعتقد أن الأشد حزناً من الموت نفسه هو أن لا نرى جثمان من فقدناه. إنه لأمر رهيب. نكون مرغمين على تصديق من يقولون لنا: لم يعد له وجود، فنحزن مرتين. لهذا السبب أفهمك. وأنت يا شهرزاد، هل أنت متأكدة من أن زوجك ما يزال على قيد الحياة؟

- حتى اللحظة التي وصلت فيها إلى نفران، كنت ما أزال كذلك. أما الآن فما عدت أدري.

- أنت مخطئة إذْ تشكّين. إن كان يرقد هنا - وأشارت إلى البحر - فستشعرين بذلك. سيكلمك بصوت هو من القوة بحيث لا يمكنك أن لا تسمعيه.

- اعتقدت أنه مجروح. تصورت أنه قد يكون آواه صيادون. أناس مثلكم. غير أنكم أكدتم أنه لم يسبق لكم أن لمحتم شخصاً يشبه ريكاردو.

- طويل القامة... العينان زرقاوان. لا، أنا آسفة. الآن... راودتني فكرة. أعتقد أن علينا أن نذهب لمقابلة الكاهن.

- الكاهن؟

- القس. لكن، قبل ذلك، هل أنت مسلمة؟

- لا، أنا مسيحية. يونانية - كاثوليكية.

- يونانية - كاثوليكية؟ يونانية؟

- لا يا صوفيا. لا علاقة لي البتة ببلدك. هذا فقط اسم الطائفة التي أنتمي إليها. نحن قلة في الشرق ننتمي إلى هذه الأقلية.

- آه...

لم يبدُ عليها أنها قد فهمت الفرق؛ فالعالم المسيحي، في ذهنها، إما أن يكون يونانياً - أرثذوكسياً أو لا يكون.

- وما الفرق؟

- عملياً، لا فرق. اللهم إلا أن يكون كامناً في تبعيتنا نحن لكنيسة روما وأنتم لكنيسة القسطنطينية.

- هذا أيضاً من قبيل ما يتخاصم فيه الرجال.

ثم أضافت كما لو لتطمئن:

- على أي حال، أنت مسيحية... إذن...

أشارت بسبابتها في اتجاه جبل كوريفاسيون البارز على الخليج.

- انظري. عليه يوجد دير أغيوس فناريوس الذي يسيره الأب أثناسيوس. سنذهب لمقابلته. أنا أعلم أنه قد استضاف مع قساوسة آخرين كثيراً من الجرحى وعالجوهم بعد المعركة. ربما يكون قد سمع كلاماً عن زوجك. ومن يدري، قد تكون هذه إشارة ربانية.

- إشارة؟

- أعتقد أن اليونانيين - الكاثوليكيين لا يعرفون أغيوس فناريوس. إنه أحد قديسينا الذي يتمتع بقدرات خاصة. سأفسر لك لاحقاً.

كانت القاعة الكبرى المقببة تعبق براوائح البخور المحروقة. عشرات الشموع مغروسة في شمعدانات ينبعث منها نور شاحب. وكانت أيقونات بسحنات تراجيدية راقدة على الجدران.

كان كل الأثاث ينحصر في طاولة كبيرة من السنديان وكرسيين طويلين.
ثمة انتظرت المرأتان الأب أثناسيوس.

أقبل متأخراً بعض الشيء. كان رجلاً قصيراً بديناً، تحجب لحيةٌ وجنتيه، ويرتدي لباس كهان فضفاضاً، معتمراً عمرة سوداء.

عندما أنهت صوفيا شروحها، اعتلى الكاهنَ إهابٌ مكروب.

- رجل طويل، أسمر... كان هناك بالتأكيد بعض الجرحى بهذا الوصف. عيناه زرقاوان؟ كان بعضهم كذلك أيضاً. كيف يمكننا أن نعرف من منهم كان هو زوج هذه السيدة؟

- المصرية تؤكد، على أي حال، بأنه ليس من نوع الرجال الذين تخطئهم العين. لم يكن مظهره مظهر جندي عادي. هو رجل نبيل.

رفع الكاهن كفيه ثم أسقطهما بتعب.

- لتسامحني هذه السيدة، لكن الشخص العزيز يشكل دائماً استثناءً... ثم، أيتها السيدة صوفيا، عندما يكون الأمر متعلقاً بجرحى، فإن هذه الاختلافات تنتفي. يكونون، يومئذ، متشابهين.

عندما عاد بعد دقائق، كانت ملامحه ما تزال مقطبة.

- هل تقرئين الإغريقية؟

أجابت شهرزاد بالنفي، فسلّم اللائحة إلى صوفيا.

شرعت تتلو الأسماء، محاولة نطقها بأكبر قدر ممكن من الوضوح.

جون كانينغ

أحمد عباس

محمد عيسى.

كان تلفُّظ الأسماء يتعاقب متداخلاً، غريبة بعضها عن بعض، غير أنها تجتمع كلها في حضن النازلة نفسها: نفران.

عصمان عبد المجيد

جين ريتير

فرا ماتيو دا باسكيو

حسين موسى

عندما تلفظت اليونانية بالاسم الثالث والعشرين والأخير في اللائحة، قالت بصوت خافت:

- أنا متأسفة. . . لا يوجد بينها اسم ماندرينو.

* * *

كانت شهرزاد ممددة على ظهرها، جسدها مغطىً بلحاف من صوف، بصرها مثبت في النجوم المرتعشة فوق الخليج. غير أنها لم تكن ترى هذه النجوم. لم تستطع المكوث طويلاً في المنزل الصغير. أرادت أن تنام، لكنها شعرت بنفسها على حافة الاختناق.

جرى نسيم خفيف على لجين الماء، حاملاً إليها أصداء المناقشات المرقشة بطقطقات النار التي أشعلها الجنود.

هكذا إذن، يكون ريكاردو ماندرينو قد مات ودفن جسده إلى الأبد تحت الأمواج والتحقت روحه بالكواكب. لم تكفَّ مشاهد عائلية عن مراودتها منذ أن عادت من المعبد. كانت تقبل مثل جمع من الفراشات المحموقة، بغير ترتيب، لكنها خاضعة لمنطق خاص بها.

- «أترين هذه الكأس؟ أنت عطشانة وتقررين مد يدك لتناولها. لكن أين يوجد مكتوباً، في أي كتاب مهما يكن موسوعياً، أنك ستذهبين إلى نهاية حركتك؟ لن تعثري عليه في أي مكان، لا في النجوم ولا في الهاويات. ليس لديك أي يقين، وبالمثل، فإن رغباتنا تظل معلقة، منذورة لأن تتحقق أو لأن تطمس. منذئذ، ومستنداً إلى هذه الفكرة، ما عدت أتصور وجود من يكتفي بقضاء حياته دون أن يحقق رغباته أو مكتفياً بتحقيق جزء منها لا غير. من ثمة طلَّقْتُ، ومن ثمة قوتي ورعبي.»

متى تلفّظ ماندرينو بهذه الكلمات. بأية مناسبة؟ ربما عندما تحدّث عن زواجه الأول وما أعقبه من طلاق.

تذكرت أنها كانت قد عقبت:

- «أستنتج من ذلك إذن أنك لا تبني على المستقبل شيئاً. تُصرِّف كل شيء في المضارع، مهما تكن النتائج.

- لا أدري. الجواب ما يزال مستعصياً عليّ. ما أنا متأكد منه هو أنني في

بحثي المستمر لا ألتمس سوى الهدوء، سوى انسجام العقل والقلب، سوى المزج المستحيل بين الماء والنار.»

كان الفينيسي قد حقق، بطريقة غير مباشرة، هدفه. أضواء النجوم مختلطة بماء نفران.

فكرت في ابنيهما؛ في جيوفانا التي لن تراه من جديد، وستحمل، خلال بقية عمرها، هذا الغياب - على هامش كل الغيابات الأخرى - بوصفه افتقاداً دائماً.

انعقدت كرة في تجويف بطنها. صعد غثيان إلى شفتيها. كان الألم شديد القوة. انتصبت واقفة ورمت باللحاف منطلقة نحو الشاطئ الرملي.

هكذا، وحتى أغيوس فناريوس، هذا القديس الذي يبجله الناس هاهنا، كان مفتقداً لأية سلطة. بعد أن غادر الراهب، كانت صوفيا غليمينوبولوس قد فسرت ببعض الضيق:

- هو الذي نلتجئ إليه عندما نكون بصدد البحث عن أمر ما ضاع منا.

ثم أضافت مسرعة، خجلة بعض الشيء:

- كان عليَّ أن أشك في الأمر. الكائنات البشرية ليست مثل الأشياء.

عبرت ارتعاشة كل جسدها واستمرت متقدمة إلى الأمام.

لم يكن يُسمع حولها سوى صوت الأمواج. كانت وحيدة في العالم. إنها تعيش وحيدة، وليس باستطاعة يوسف ولا جيوفانا ملء الهوة التي خلَّفها موت ماندرينو؛ فالحنان، مهما يكن طافحاً، لا يمكنه أن يشفي من فقد الحب.

كانت قد أدركت، شاردة في أفكارها، أقصى الخليج. كان الطريق الملتوي الوعر الذي يصعد على جانبي جبل كوريفازيون نحو القلعة، يبدو بارزاً بفعل الشعاع الباهت للنجوم. عند المنعطف، تعرفت على مدخل المغارة التي لمحتها عند قدومها. هي، حسب صوفيا، مكان ملغز، عاش به إله اسمه هرمس. فسرت صوفيا بأن هرمس كان دليل المسافرين وقائد أرواح الموتى. أسرَّت لنفسها بأن المصادفات تكون أحياناً مدوخة. لكن، هل كانت هذه مصادفات بالفعل؟

- عمَّ تبحثين يا امرأة؟

كان الصوت قد انبعث من لا مكان. حبست شهرزاد صرخة رعب. كان

ينتصب أمامها شيخ أشعث، تجاعيده كأنها من تقطيع سكاكين، وعلى ملامحه ارتسم تعبير رهيب. كان قد حادثها باللغة الإغريقية. تمتمت شيئاً ما باللغة المصرية. ما إن تلفظت ببضع كلمات حتى وجَّه إليها العجوز إصبعاً مهددة.

- لم تكتف كلاب اسطنبول بما فعلت، فأتتنا بعاهراتها أيضاً.

خانها معنى الكلمات، لكن من نبرة الأصوات، كانت متأكدة من أن العجوز سيقتلها.

فجأة شهر أمامها تمثالاً صخرياً صغيراً: ملاك بيده اليسرى مجسم كرة أرضية، فوقها صليب.

تقدم إلى الأمام محركاً التمثال كما لو كان سلاحاً.

- عليك اللعنة! ولْيُرَقْ دم أقاربي على رأسك ورأس أبنائك.

لم تتردد هذه المرة؛ انقلبت على عقبيها وركضت في اتجاه الخيام.

* * *

بدا الملازم جمال قلقاً.

- أنت بخير، سيدتي؟

قالت نعم، محاولة في الآن نفسه استرجاع أنفاسها.

- أنت متأكدة؟

- نعم، أيها الملازم...

تهالكت إلى جانب النار مرتعشة الكفين.

- أتريدين شاياً؟

وافقت.

لا تذكر أنه قد سبق لها أن خافت بهذا الشكل، باستثناء يوم اقتحم مشاغبون إقامة الصباح وقتلوا مشيل، زوجها الأول.

- اشربيه ساخناً.

أمسكت القدح الذي قدمه إليها الملازم وضغطته بين أصابعها.

لماذا عنَّفها هذا العجوز؟ كان أمراً عبثياً، وها هي الآن عاجزة عن التخلص من صورة ذلك الملاك؛ ظل ماثلاً في ذهنها.

حملت القدح إلى شفتيها واحتست جرعات.

- سيدتي...

مد إليها جندي رداءً.

- شكراً يا مراد. ضعه على كتفي.

- إذا أردت، اقترح الملازم، يمكنك أن تنامي قرب النار. سأطلب من الرجال أن يبتعدوا.

- لا. ستتحسن الأمور. سأعود إلى منزل اليونانيين. سأ. . . .

ظلت الجملة معلقة.

لا . . . لا شك أنها مخطئة.

شرع كل شيء حولها يلف؛ النجوم والخليج والجمرات، بينما كان ينطبع على الرمال اسم: أحد أسماء اللائحة الثلاثة والعشرين.

فرا ماتيو دا باسكيو. . .

الفرح الذي اجتاحها في هذه اللحظة كان تقريباً بالقوة نفسها للألم الذي أعربت عنه سويعات من قبل. راودتها رغبة في أن تصيح وأن ترتمي على ركبتيها باكية امتناناً.

حصل ذلك منذ حوالي خمس عشرة سنة؛ كانت قد وصلت لتوها إلى فينيسيا رفقة ماندرينو.

(عندما همت شهرزاد بالدخول، استرعى انتباهها تفصيل غريب؛ ففوقها، في منتصف الواجهة، كان مثبتاً تمثال من صخر يمثل ملاكاً، في كفه كرة فوقها انتصب صليب.

- هل هذا تمثال لك؟ سألت شهرزاد.

أجاب تقطيب جبهة ماندرينو عن سؤالها.

- تلك قصة قديمة، ولا أدري إن كان عليّ أن أحكيها لك. قد لا يغمض لك جفن من سماعها.

أصرت.

- طيب. لقد حذرتك. منذ زمن طويل، من أكثر من قرنين بالتأكيد، كان يعيش هنا أحد أجدادِي اسمه غيوسيبي ماندرينو، وكان محامياً. كان يملك قرداً مدجّناً، كان مدار اندهاش وحب الجميع. وذات يوم كان غيوسيبي قد استدعى للعشاء فرا ماتيو دا باسكيو، القس المهيب المعروف بورعه. وبمجرد

وصول القس، وأمام اندهاش المدعوين، كان القرد قد اختبأ. وعندما تم العثور عليه رفض أن يغادر مخباه مكشراً عن أنيابه، في قمة الغضب. استشعر القس سبب هذا الغضب المفاجئ. صُحبَ إلى مخبأ القرد فأمره، باسم الرب، أن يقول من هو. فاعترف القرد لحظتها بأنه جنِّي وأنه كان هنا ليمسك روح الشقي غيوسيبي.

حبست شهرزاد صرخة صغيرة.

- أنت تمزح.

- أحكي لك القصة كما حكاها لي آبائي. هل أتابع.

سارعت بأن أجابت نعم.

- أجاب الجنِّي عن أسئلة القس، مفسراً بأنه لم يستطع بعد إنجاز مهمته لأن غيوسيبي كان قد اعتاد كل مساء على أداء صلاته. ولو كان نسي للحظة أن يقوم بذلك لكان قد أنجز مهمته الإبليسية. آنذاك قام الراهب بحركة صليب كبيرة وأمر الجني بالاختفاء، فانقذف هذا الأخير في جلبة عظيمة وسط أدخنة كبريتية على الجدار واختفى من ثقب أحدثه فيه.

أشار ماندرينو إلى التمثال.

- بالضبط من هنا. وعندما عاد فرا ماتيو إلى قاعة الأكل، فتل هدب غطاء مائدة فسال منه دم؛ فصاح في وجه غيوسيبي المسكين: «هذا دم الفقراء الذين استغللتهم. أعد إليهم ما أخذته منهم إن شئت لروحك أن تأخذ شكلاً آخر.»

ومن النافل القول بأن جدِّي قد تغير من تلك اللحظة تغيراً كلياً.

- لكن... لماذا الملاك؟

وُضع التمثال هناك لإخفاء الثقب الذي فتحه الجني في الجدار، والذي لم يفلح أي بناء في إغلاقه باللبِن والجير.)

فرا ماتيو دا باسكيو...

كان اسم القس المبارك يُنْشِد بنفران هذا المساء. من بإمكانه أن يكون على علم بهذه الأسطورة الفينيسية؟ من، غير ريكاردو ماندرينو؟

كان على العجوز الأحمق أن يشهر تمثال ذلك الملاك حتى تنتعش ذكرى يعود تاريخها إلى خمس عشرة سنة خلت.

* * *

- أعترف بأن هذا أمر مدوخ، قالت صوفيا غليمينوبولوس. لكن قد يكون الأمر مجرد مصادفة.
- مصادفة؟ مستحيل.
- ولم لا؟
- لأنه سيكون علينا أن نتخيل بأنه لم يكن من بين البحارة بحار إيطالي وحسب، وإنما أن يكون هذا البحار الإيطالي قساً أيضاً وحاملاً اسم بطل الأسطورة الفينيسية نفسه. لا يا صوفيا. هذا أمر ليس ممكنَ الحدوث.
- طيب. وكيف تفسر أن زوجك لم يسر للأب أثناسيوس بحقيقة هويته؟ وكيف تفسرين بأنه لم يعد إلى مصر رغم أنه سليم معافى؟
ظلت شهرزاد صامتة.
- ها أنت ترين بأن الأمر غير منطقي.
- أعترف أن الأمر ملغز. لكن هذا لا يمنع من أن الحقيقة هي: أن ريكاردو حي يرزق.
- في هذه الحال، أين هو؟
لم تجب على الفور. بدا وكأن بصرها قد شرد في الفراغ. مررت ببطء أصابعها في خصلاتها السوداء.
- لا أرى سوى مكان واحد يمكن أن يكون فيه: فينيسيا.
- فينيسيا؟
- أجل.
- لأي سبب يكون قد ذهب إلى هذه المدينة بدل أن يعود إلى مصر؟
إذا كان ثمة من جواب، فإنني لن أحصل عليه إلا هناك.
قطبت اليونانية جبهتها متفكرة. إما أن تكون المصرية مجنونة أو أن إيمانها أعماها. وفي كلتا الحالتين فإنها ستكون - أسرّت لنفسها - في حاجة إلى عناية ربانية.

الفصل الخامس

باريس ٢ فبراير ١٨٢٨.

خلعت كورين شديد الخمار الأسود الذي لف حزنها حتى الآن ووضعته ببطء على الدولاب.

منذ هذا الصباح، انطلاقاً من الساعة العاشرة صباحاً، ترقد أمها في المقبرة الكبرى الرمادية في بانتان. قد نشعر بالبرد تحت الأرض، لكن معاناتنا تنتهي. عانت سميرة خلال ساعاتها الأخيرة معاناة حقيقية. أين كان الرب إذن أثناء تلك اللحظات؟

الفراغ هو الذي يحتل الفضاء الآن بشارع بوتي شان. أي مصير ينتظرها؟ إلى أين سيقودها مصيرها؟ لم تكن إلا في الواحدة والعشرين من عمرها، لكن حياتها كانت تبدو وكأنها قد توقفت.

- عليك أن لا تظلي وحيدة ها هنا.

أعادها صوت جوديث غريغوار إلى الحقيقة.

- لا خيار لي. إلى أين عساني أذهب؟

- أعلم مسبقاً أن ما سأقوله غير معقول، لكن، لو كنت فقط قد استطعت أن تعيدي ربط العلاقة بأبيك. لو كنت فعلت لما كنت أحسست الآن أنك يتيمة. فبوصف أنوري غانطوم أميرالاً وعظيماً من عظماء فرنسا، قد يكون بالتأكيد مالكاً لثروة معتبرة.

- وهل كان ذلك بإمكاني؟ هو وأمي لم يربطهما أبداً عقد زواج ولم يشأ أبداً أن يعترف بي. وعلى أي حال، فقد توفي من أكثر من تسع سنوات ولا

أعرف شيئاً عن عائلته. وفي كل الأحوال، لو خيرت بين لقبي غانطوم وشديد، فإنني سأختار الأخير. بدا لي دائماً أكثر نبلاً. إن رجلاً وجد لديه القدرة ليهمل امرأة وطفلتها لا يستحق سوى الاحتقار، وإن كان عظيماً من عظماء فرنسا.

- كنت فهمت أنه وأمك قد تعارفا بالقاهرة، أليس كذلك؟

- بلى. كان أنوري ضمن البعثة الفرنسية إلى مصر. وعندما كان نابوليون قد قرر العودة سراً إلى فرنسا كان هو الذي كلف بإعداد رحلة العودة ودعا أمي إلى مرافقته إلى باريس. كان، مع ذلك، متزوجاً سلفاً وأباً لطفلين.

- كانت سميرة على علم بذلك؟

- أجل.

- ومع ذلك وافقت على مرافقته؟

- لا أستطيع مؤاخذتها. كانت آنذاك ما تزال حزينة على زوج أول قتل أثناء الاضطرابات التي هزت مصر في تلك المرحلة. كما أنها كانت، فضلاً عن ذلك، مسؤولة عن تربية طفل، وما كان بإمكانها أن تعتمد على دعم العائلة.

- كنت أعتقد أن عائلتكم شديدة الارتباط فيما بينها.

- كان ذلك بسبب زواجها؛ فرغم التحذيرات والتهديدات الأبوية كانت قد قررت الزواج من الرجل الذي كانت تحبه. وهو تركي مسلم. فلم يغفر لها والدها، الكاثوليكي والوطني الغيور، هذه الخيانة المزدوجة.

ثم تابعت بنبرة حزن:

- أعترف، مع ذلك، بأن أمي كان لها انجذاب خاص نحو كل ما يلمع. كان التركي جندي مشاة، وكان للمشاة نوع من السلطة بمصر، وكان أنوري غانطوم أميرالاً.

- تجعلني أمك المسكينة أفكر في فراشة أحرقت نفسها في الضوء.

ظلت كورين صامتة. كانت صديقتها، دون أن تعي ذلك، قد لخصت الجانب الخفي من وجود سميرة؛ جانب سري وغير معبر عنه لأنه كان ملطخاً بعدد لا يحصى من الرجال، كلهم عابرون وغير معروفين؛ فقد كان عليها أن

تضمن عيشها بعد أن تخلى عنها الأميرال. مجالسة رجال... هكذا يسمى هذا النوع من النساء.

فجأة بدا لها كل شيء بعيداً. كانت الفراشة تحت الأرض، ولا نور أمام كورين.

- ستأتين لتقطني معنا.

تفرّستها مرتابة.

- أجل يا كورين. أصرّ على ذلك. على الأقل لمدة محدودة. لاحقاً، عندما ينجلي الحزن، وإذا رغبت في ذلك، تعودين إلى هنا. في انتظار ذلك تعيشين معنا.

- لكن... هذا مستحيل... زوجك...

- لقد حدّثت جورج بذلك. هو موافق. وأضاف أن ذلك سيكون أسهل بالنسبة إليك ما دمت تشتغلين في محله، وأن هذا المحل يوجد أسفل سكنانا. بذلك لن تكوني مرغمة على عبور كل باريس.

لم تعرف كورين كيف تجيب، محيرة مما سمعت. كان الاقتراح قد لامس قلبها مباشرة، لكنها، مع ذلك، وجدت صعوبة في أن تتصور إمكانية مغادرتها لهذا المنزل. ألن يكون الأمر متعلقاً بهروب؟

- هيئي حقائبك... سآتي بعربة.

- جوديث... أتظنين أن هذا هو الحل المناسب؟

- ضعي ثقتك فيّ... إنه الحل الوحيد.

ثم أشارت إلى الشقة.

- هنا، سيبقى وجهها ماثلاً لك على الدوام. عندما ستحاولين النوم ستسمعين نداءها أو تأوهها. هيا يا كورين... دعي الزمن يفعل فعله.

***

بيري ٦ فبراير ١٨٢٨

ابناي العزيزان؛

عندما ستقرآن هذه الكلمة سأكون إن شاء الله على مشارف فينيسيا. ريكاردو حي. أحتاج إلى وقت طويل كي أشرح لكما كيف حصل لدي هذا الاقتناع. والوقت لا يسمح. لكن إعلما أنه حي.

ولأسباب لا أعرفها بعد، قد يكون عاد إلى فينيسيا. أتصور أن النبأ سيفاجئكما كما فاجأني أنا أيضاً. وبالفعل، كيف يمكن تفسير أن يكون قد اختار العودة إلى المدينة التي عاش فيها طفولته عوض العودة إلى التي ينتظره فيها أقاربه؟ أنا مثلكم: ليس لدي جواب مقنع. سيفسر لنا ريكاردو. إن فكرة رؤيتي من جديد للمدينة العائمة تدوخني. لقد عشت فيها لحظات سعيدة، وآمل أن لا يكون قد نسيني.

خلال لحظات الشك، أفيئ إليكما. أفكر أيضاً في مزرعة الورود وفي الأيام الأولى لأبريل التي يجب زرع القطن خلالها. أتصورنا، أربعتنا، مجتمعين في ذلك المكان السحري، فأستعيد الثقة.

قولا لحسن أن يشذب شجيرات الزهور وأن يخلي الممر الكبير من الأعشاب الضارة. لا أريد لريكاردو أن يظن بأن تلك الإقامة التي أحبها قد أهملت في غيابه.

أفتقدكما بقوة. أضمكما إلى قلبي.

شهرزاد

ثنت جيوفانا المطوي ومدته لأخيها.

- هل يمكنك إعادة قراءتها؟

- لا.

- ما رأيك فيها؟

دفع يوسف قلم الرصاص الذي يستخدمه في رسم التصاميم، فتدحرج ببطء على خارطة الدلتا المطوية أمامه.

- ما دامت تقول بأنه حي، فلا شك أن الأمر كذلك بالفعل، وإلا فإنها ما كانت لتبدي لنا أملاً بهذه القوة.

- يوجد أبونا، إذن، في فينيسيا؟

- هذا على أي حال ما يبدو من الرسالة.

- لكن فكر قليلاً. إذا كان، بالفعل، قد نجا من الموت، كيف يمكن تصور أنه لم يتصل بنا؟ سيكون الأمر مرعباً، وهو ليس بهذه القسوة.

- ماذا عساني أجيبك يا جيوفانا؟ أعترف جادّاً أن هناك بالفعل نوعاً من

الغموض. غير أنه بإمكاننا أن نفترض حدوث أمر طارئ منعه من العودة إلى القاهرة. حائل ما، ربما.

- حدوث شيء... أم أن ثمة أمراً آخر...

- أمراً آخر؟

- ربما تعلق الأمر بقرار اتخذه والدي.

- تلمحين إلى أنه ربما لم يكن مرغماً على العودة إلى فينيسيا؟

- هذا هو التفسير الوحيد.

- وما الذي عساه يكون هذا الأمر الذي دفعه إلى التصرف بهذه الطريقة؟

فكرت الفتاة قبل أن تجيب.

- إذا كان قد قرر مغادرة الصباح، فربما لأن نفران مكنته من فرصة سانحة.

- ألا يكون ذهنك قد تاه يا أختاه؟ ألم تؤكدي لتوك بأن ريكاردو غير قادر على إيتاء قسوة من هذا النوع؟ وفوق ذلك، لأي سبب قد يكون قرر القطع مع الماضي؟

عكست ملامح يوسف تعجباً وتضايقاً.

- ستزعجين أذني من جديد بحديثك عن ذلك الخلاف المزعوم الذي طرأ بينهما؟ إنه لأمر مضحك. أتظنين أنه بالإمكان ضرب خمس عشرة سنة من الزواج عرض الحائط بسبب مشاحنة تافهة؟

- لا يتعلق الأمر بخلاف مزعوم ولا بمشاحنة تافهة. إن ما حصل أخطر من ذلك بكثير.

ضرب الشاب بقلمه على المكتب بحدة.

- اسمعي يا جيوفانا؛ ليس لدي لا الصبر ولا الرغبة في معاكستك. إن ما تكنّينه من حب لأبينا، يعميك حتى ليكفيكِ أن تريْ طُوَيْراً يحط على كتفه كي تري في ذلك اعتداء من قبل نسر. وأمنعك من أن ترميني من جديد، بأنني إن كنت أتحدث هكذا، فلأنه ليس أبي. سيأتي يوم تعلمين خلاله بأن الروابط بين الكائنات ليست بتلك البساطة ولا بتلك القوة التي ترينها. إذا كان النيل، مرة في السنة، يتجاوز سريره، فإن ذلك لا يجب أن يتخذ ذريعة لتجفيفه. والآن، اتركيني. أريد أن أنجز عملاً.

أسقط تصفيق الباب خلف جيوفانا مزهرية من الخزف الصيني.

فينيسيا ١٠ فبراير ١٨٢٨

كومة من السحب السوداء تسري فوق فينيسيا، منتفخة ومحملة بالوعيد. لن تتأخر العاصفة. ارتعشت شهرزاد وهي تعبر جسر «ليون». هل هذه، فعلاً، هي المدينة التي عرفتها منذ خمس عشرة سنة خلت، خلال شهر مثل هذا، هو شهر فبراير؟ آنذاك، كانت قد استقبلتها شمس مشعة. كانت فينيسيا، يومئذ، متألقة، تُلمَح واجهاتها المزينة بالرسومات المائية تحت الأضواء الساطعة. المنظر، اليوم، يختلف كلية. قمة الصومعة الحجرية لبرج بيزا سان ماركو غارقة في الضباب، ولا تلمح قباب الكنيسة إلا بصعوبة.

كان حمالون وأناس مجهولون يمشون مسرعين حول عصاً يخفق على قمتها رمز فينيسيا: العلم المزين بالأسد المجنح، على خلفية زرقاء داكنة مزينة بالنجوم. انبعث صوت صدمة مدوية. كانت الباخرة قد رست لتوها على الرصيف.

* * *

لا شيء يشبه ما سبق لها أن عرفته. أم أن الأمر يتعلق من جديد بغياب الضوء؟ كان الجندل الذي يحملها إلى منزل ريكاردو ماندرينو يبدو لها باهتاً على نحو غريب. ومع ذلك، فلا شيء مما هو معتاد يعوزه.

تقهقرت شهرزاد إلى الخلف وتكومت في زاوية المقصورة الخشبية الصغيرة المنشأة وسط الجندل. كانت تشعر بالضيق في فينيسيا.

أبدى ماريو كاردوتشي، كبير الخدم، وهو يفتح لها الباب، حركة تراجع إلى الوراء. استغرق بعض الوقت قبل أن يقتنع بأن الأمر يتعلق بالفعل بزوجة سيده. بعد أن انجلت المفاجأة، تمتم وهو ينحني:

- مرحباً بك، سيدة ماندرينو، في البيت.

ثم أضاف بلغة فرنسية مضطربة:

- مرحباً بك، سيدتي.

تجاوزت شهرزاد العتبة بخطىً مترددة.

- نهارك سعيد، ماريو.

بمجرد نطقها لهذه الكلمات، اندهشت من ارتعاشة صوتها.
آتى كبير الخدم حركة تجاه المكان الذي يرسو فيه الجندل.
- أمتعتك...
- انتظر.
تجمد في مكانه في انتظار أمر جديد.
- هل...؟
ظل السؤال الذي يحرق شفتيها معلقاً.
تقدمت إلى وسط الساحة. كان حذاؤها يصدر صوتاً خافتاً على الأرضية المرمرية. كانت البئر البرونزية مع غطائها ما يزالان في المكان نفسه، وكانت الجدران المزينة بالأفاريز ما تزال منتصبة كما كانت من قبل. وفي العمق، كان ممكناً تخمين السلم الذهبي الذي يفضي إلى الطابق العلوي. كل شيء كان في مكانه.
- هل ثمة أمر، سيدتي؟
أجابت بصوت متباعد:
- لا يا ماريو، كل شيء على ما يرام.
كان صاحب الجندل ينشد بهدوء. أصدى صوتُ جرسِ برجٍ وسط الغمام.
عادت في اتجاه كبير الخدم العجوز.
- هل أتى السيد ماندرينو؟
وضعت السؤال دفعة واحدة، حابسة أنفاسها.

* * *

كانت ممددة على السرير المقبب وهي تنصت إلى الأمطار المتساقطة بقوة. تخيلت في الظلام «القناة الكبرى» وهي تُتْرَع بفعل العاصفة. كان ماريو، قبل النوم، قد أخذ احتياطاته بإسناد مدخل المنزل بالألواح. من المفترض أن يكونوا، في المنازل المجاورة، قد قاموا بالشيء نفسه. ويوم غد، كما هو الشأن دائماً بعد الأمطار القوية، ستكون المياه العالية، لزمن، هي سيدة فينيسيا.
عندما كان ريكاردو يتطرق إلى لحظات العاصفة هذه، كان يبدو وكأنه

يتحدث عن حرب. يُضاف إليها التنكيل اليومي للمد الذي يصدر عن البحيرة مرتين كل يوم. من سينتصر، البحر أم فينيسيا؟ إذا كان على فينيسيا أن تغرق، فإن بعضاً من خلاص البشر، بالتأكيد، سيختفي معها.

ريكاردو، إذن، ليس هنا. وحسب قول كبير الخدم العجوز، فإنه لم يعد أبداً منذ رحلتهم الأخيرة. اقترح ماريو الاستعلام عند بعض أفراد العائلة؛ فربما كان بعضهم على علم بما آل إليه الفينيسي.

فرا ماتيو دا باسكيو...

وماذا لو كانت، كما تصورت صوفيا، ضحية مصادفة عجيبة؟

رفضت من جديد هذه الفرضية. منذ الغد، ستذهب عند ابنة عم ريكاردو، الكونتيسة ماسيما رانييري. في انتظار ذلك، عليها أن تنام. النوم وحده سيمكنها من بعض الراحة.

* * *

- توفي ريكاردو في نفران....

حركت الكونتيسة رموشها بالكاد وهي تتلفظ بهذه الكلمات، جالسة، باستقامة، واضعة ساقاً على ساق تحت تنورة طويلة من الساتان الأسود، وحول عنقها التفّت ياقة دقيقة بلون وردي باهت. كان تعليقها يبدو - من صرامة النبرة المستعملة - مثل شاهدة قبر. كانت بالتأكيد تلمح، في عمق هذا الصالون، بين الأثاث حيث تنتشر ظلال متموجة، شهادة قبر ريكاردو ماندرينو.

واصلت، بالفرنسية هذه المرة، ودائماً بالنبرة نفسها:

- هكذا يكون ابن عمي قد توفي.

- اعذريني أيتها السيدة ماسيما. ليس هذا ما قلته، بل بالعكس، أنا متأكدة من أنه حي. كنت آمل أن أجده هنا.

- للأسف يا عزيزتي... أخشى أن يكون عليك أن تضعي حداً لهذا الأمل. فكما شرحت لك، ليس لنا، زوجي وأنا، منذ أكثر من عامين، أيما خبر عن ريكاردو. وكنت أجهل حتى أن يكون له دخل، من قريب أو من بعيد، في قضية نفران هذه.

- كان الأمر كذلك، للأسف.

- كان يمارس السياسة إذن.
تابعت متنهدة:
- للأسف... كنت أتصور أن هذا الزواج قد أحاله أكثر حكمة.
لم تجد شهرزاد من نفسها قوة على الرد. ثمة دائماً جدار منتصب بين ريكاردو وعائلته. فذهنية الاستقلال التي كان يتمتع بها الفينيسي والرغبة التي كانت تحذوه إلى خلخلة التقاليد وميله الفطري إلى الاستفزاز، كل ذلك كان قد وضعه منذ زمن بعيد على هامش قيم الأسرة. وبزواجه من شهرزاد، بوصفها امرأة من العامة، وعربية فوق ذلك، كان قد قطع آخر الروابط.
لكن كل هذا لا قيمة له. الحقيقة الواحدة التي نتجت عن هذه المحادثة هي أن بحثها قد أفضى إلى الباب المسدود.
بذلت في الأخير مجهوداً وسألت:
- اعذريني على الإلحاح؛ لكن ألا ترين أن ثمة شخصاً ما من محيطكم يمكنه أن يساعدنا؟ قريب مثلاً؟
قطبت الكونتيسة حاجبيها.
- لا أعتقد.
- صديق؟ أحد المعارف؟
حركت الكونتيسة ذقنها.
- إذا كنا نحن يا عزيزتي، آل ماندرينو، نجهل مصير أحد أفراد عائلتنا، فلا أحد يمكنه أن يعرفه. أنت تعلمين أن العائلات الغربية شديدة الترابط.
كانت قد قالت ذلك بتعالٍ.
- مع ذلك... معلومة، قرينة...
قطبت الكونتيسة جبهتها كي تعطي الانطباع بأنها تفكر.
- فورسي، لوتشيانو...
لم يكن الاسم غريباً عليها.
- أتتحدثين عن لوتشيانو ربوستي؟
- نعم. هو صديق لريكاردو، ألا تذكرين؟ لقد تعرفت عليه.
لم تكن قد تعرفت عليه فقط، فقد كان شاهداً على زواجهما.

واصلت الكونتيسة، دون أن تتخلى عن تصلبها.

- لكنني أشك في أن يكون على علم بأي شيء. والآن... يمكنك أن تسأليه.

- هل تعرفين عنوانه؟

- يقطن قريباً من سانت ماريا دي لا سالوت. بين الكنيسة ولا بونتا ديلا دوغانا، على بعد مسافة قليلة من هنا.

وسحبت على الفور حبلاً حريرياً، فأصدى جرس.

- سآمر بأن يصحبك أحد الخدم... كم أتعبنا ريكاردو! وهو قادر، في نهاية المطاف، على أن يكون حياً.

أضافت عندما انتصبت المصرية واقفة:

- آمل أن لا تؤاخذيني إن لم أدعك للعشاء هذا المساء، فنحن مضطرون للتوجه عند آل ماسكولي. كان بودّي لو اقترحت عليك مرافقتنا... لكنني أتصور أنه، في الحال التي أنت عليها... كما أن آل ماسكولي أناس دقيقون في أمورهم... أن نفرض عليهم طبقاً جديداً... أنت تفهمين، أليس كذلك؟

انتصبت شهرزاد.

- تماماً، أيتها السيدة ماسيما. اطمئني. لقد قطعت الموري وعبرت البيري إلى فينيسيا؛ وبعد هذا النوع من التجارب لا شيء يصبح أثقل من الذي لا فائدة من ورائه.

انطلقت نحو الخادم الذي كان ينتظرها عند عتبة الصالون.

* * *

(بمجرد ظهورهما في الكامبو سانتي جيوفاني إي باولو، التفتت إليهما كل الأنظار دون استثناء. وسرعان ما أصبحت شهرزاد نقطة جذب الجميع. لكن يجب القول بأنها بلباسها الأزوردي المذهب، وبشعرها الأسود المنسدل على كتفيها العاريتين، وبعينيها الكبيرتين المكحلتين، كانت تذكر بتلك الآلهة الوثنية التي توجد تماثيل لها في البيوتات الغنية لهذه المدينة.

ضغطت، خجلة، بقوة على ذراع ماندرينو.

في اللحظة التي أدركا فيها قدم تمثال القائد المرتزق، علت التصفيقات

مصحوبة بصيحات التحايا، حتى بدا لكأن المكان يهتز من وقع حركات وأصوات الحبور.

- من يكون هؤلاء الناس؟ وشوشت شهرزاد منبهرة.

- أصدقاء يعربون لنا عن تعاطفهم.

انضافت إلى صيحات وإشارات التحايا نغمات آلة المندولينة. شرع ثلاثة موسيقيين بملابس غريبة يعزفون وهم يتقدمون نحوهما، في الوقت الذي تقدمهم رابع بخطوات راقصة.

- أترين؟ قال ماندرينو. نحن أيضاً لنا موسيقانا.

عندما لاحظ انذهالها ربت على ذراعها بحنو.

- لماذا كل هذا الفزع يا ابنة شديد؟ أكرر لك بأن هؤلاء أصدقاء.

كان أشخاص قد سارعوا ليتحلقوا حولهما محيين بحركة أو مادين أكفهم للسلام بحرارة. ومن الريو دي مديكانتي الذي يمر بجانب الكامبو، كانت تصعد أصوات أصحاب الجنادل العابرة.

- ستكون أنت محمد علي وأنا ملكة مصر، ولا شيء آخر غير ذلك.

- لنتخيل هذا المساء أنك ملكة فينيسيا وأنا عاشقك المتيم.

قادها، دون أن تنتبه، إلى أسفل سلم بناية من حجارة وردية. في الأعلى كانت تنفتح باب مدهشة من مرمر. وفجأة، أصبحا وحدهما، هي وماندرينو.

وشوش:

- كنيسة سانتي جيوفاني إي باولو.

صمت للحظة، ثم:

- قلت لك بأننا سنكون هنا من أجل حفل. لقد كذبت في الواقع. الأمر يتعلق بقران.

- قران؟

- أجل يا شهرزاد.

صمت من جديد.

- قراننا.

ثم كرر بصوت مرعد في خفوته.

- قراننا نحن. زواج شهرزاد المصرية من ريكاردو الفينيسي.

قالت بصعوبة:

- أنت تمزح يا ريكاردو.

- أنا جاحد. لقد أعطيت دون أن آخذ، وأخذت دون أن أعطي. لقد أضعت أياماً بدون جدوى. لكن كل شيء ينتهي اليوم على قدم هذه الكنيسة. اقبلي بي وسأجعل منك أسعد امرأة على الأرض. بقولك نعم ستمحوين كل النساء، لأنه لا أحد غيرك سيحظى بعد ذلك بالعناية وبالتبجيل.

انقطع صوت المندولينة ووقف الموسيقيون مسمّرين. ما عاد من صوت يُسمع غير الارتطامات الفاترة لماء القناة.

بللت الدموع عيني شهرزاد. وعبر نظرتها المغممة، كانت ترى ماندرينو رؤية غير واضحة، مشوشة. كان جاداً. الأمر لا يتعلق بلعبة. قد تكون ربما ضحية جنونها، لكنه جنون من النوع الذي يُخْضِع العقول الأكثر رصانة.

وجدت من نفسها القوة لتوشوش:

- أنا... أنا لا أدري إن كنت أحبك.

- ستحبينني، ستحبينني لأنك قد أحببتني سلفاً، من قبل، منذ الأزل، قبل حتى أن نلتقي. هذه أمور تتجاوزك، لكنني أنا قد عرفتها دائماً.

أحست أن فينيسيا حولها تخر خفية بكل كتدرائياتها وساحاتها وقصورها.

عبرت مجموعة نجوم ذهنها؛ أبوها ونادية وميشيل وكريم؛ حشد من الأشباح والذكريات يعبر في جلبة صاخبة، بسرعة وبقوة، إلى درجة أنها قد أفلتت منها رغم المجهود الجبار الذي بذلته لتحتفظ بها.

- أتريدين الاقتران بي يا شهرزاد؟

انعقد بطنها.

- أجل... تمتمت. أجل يا ريكاردو، أريد.)

كان المطر قد كف عن الهطول وشرعت شمس باهتة تحاول سدىً أن تخترق السحب.

كان الكامبو سانتي جيوفاني إي باولو خالياً. توقفت شهرزاد للحظة أمام الكنيسة المشيّدة من حجارة وردية، قبل أن تتوجه نحو القوس المركزي. كان مصراعا البوابة البيزانتية منفرجين. تجاوزت العتبة وتقدمت ببطء نحو الجناح.

فوقها كانت تبدو قبتان معتمتان بعض الشيء، مزخرفتان بالموزاييك الموضوع على خلفية مذهبة، فتشكلان سماءً غامقة محدبة. هنا أيضاً يبدو ذلك الفارق الشاسع بين الأضواء الباهتة والأنوار الساطعة التي كانت تسبح فيها هذه الأعمدة يوم زفافها.

قمعت رغبتها في الفرار وجثت عند قدمي القيِّم على المذبح وآتت حركة صليب.

كان صوت لوتشياني ربوستي ما يزال يصدي في أذنيها: لم أر أبداً ريكاردو منذ يوم زفافكما. تبادلنا الرسائل، هذا أكيد، لكن الأمر توقف عند هذا الحد. أنا في غاية الأسف، وددت أن لو كان بإمكاني أن أساعدك...

كانت تلك نهاية الرحلة

ستعود إلى مصر على متن أول سفينة.

الفصل السادس

كان الرعد يرغي ويزبد فوق الميناء. لن يتأخر الليل والوابل في إرخاء سدولهما على البحيرة. الأجواء الحزينة تجعل قلب شهرزاد أكثر انقباضاً. رغم الهواء البارد الذي كان يهبّ بشيء من قوة، فإنها لم تذهب إلى مقصورتها.

كان انتباهها يتراوح بين العلم الذي يخفق بقوة والرصيف الذي يعمل فيه - وسط أضواء مشاعل ومصابيح تصدر دخاناً - حمالون على إنهاء تفريغ الزروع القادمة من الشرق. أُوتي من جزر اليونان بالشمع والقمح والعسل، ومن مصر بالقطن والسكر. أما من فينيسيا فيؤخذ الخشب والأحجار الكريمة وزجاجيات مورانو.

رن صوت جرس من أحشاء (الاسبيريا). أصدر صوتٌ أمراً. كل الاستعدادات كانت قائمة قصد الإقلاع.

حاولت شهرزاد صرف دموعها، ولآخر مرة تأملت المنازل المصطفة في خضم العتمة الغسقية، والمياه الرمادية لريالطو، ثم ابتعدت متراجعة عن الحاجز.

فجأة، تسمّرت في مكانها بفعل قوة داخلية قاهرة. وسط سديم المسافرين، كان شبح - مُناراً بشعاع ضوء - ينفصل بوضوح عن الآخرين. رجل طويل أسمر ثابت الخطو.

خفق قلبها بقوة شديدة، ظنت معها أنه سينفجر بين ضلوعها. استمر الشبح في التقدم. انثنت أصابع شهرزاد رغماً عنها وغاصت أظافرها في راحة كفها حتى اندمت وكأنها تريد أن تقنع نفسها بأن ما تراه حقيقي.

دوى أمر جديد. تقدم بحارة نحو المعبر.

وثبتْ ونزلت السلم الذي يقود إلى الجسر السفلي. كادت تسقط. كان مسافرون قادمين من الاتجاه المعاكس فخضَّتهم بعدوها.

كان البحارة قد شرعوا يرفعون المعبر. صاحبت عدوَها صرخاتٌ. أمرها بحار بالتوقف، لكنها لم تنتبه إليه. بعد لحظة وجيزة لمحت الأرض التي تتوارى أمام أنظارها. صدر صوت. سقط المعبر. وجدت نفسها على الأرض. ودون أن تعير أي اهتمام لما أثارته من هلع، شرعت تتفحص الجموع باحثة عن الشبح. لمحته يختفي خلف صف من الأكياس والبراميل.

أدركت، مختنقة ومتعبة، المكان الذي عاج منه. لم يعد يبعد عنها إلا خطوات. كان قلبها ما يزال يخفق بشدة. حاولت أن تسترجع أنفاسها. كانت خطوات الرجل ثابتة، ولا يوحي مظهره بما يشين، نظيف الملابس. هل هذا بالفعل رجل ناج من الحرب؟ رجل يجتاز محنة.

حاولت أن تنطلق من جديد، لكن ساقيها رفضتا أن تتحركا. كانت مسمّرة في مكانها، يواجه ذهنها سؤالاً مرعباً:

إذا كان ريكاردو قد قرر مغادرة الصباح، فإن نفران قد مكّنته من الفرصة المثالية. هل هذا ممكن؟

كان الرجل قد توقف لتوه. أخذ يحادث رجلاً متقدماً في السن، أبيض اللحية. الواقع أن هذا الشخص الثاني كان حاضراً دائماً بعين المكان، وقد انتبهت هي لذلك لتوها. كانا يتأهبان لمتابعة السير.

مدت كفها ولمست كتف الرجل فالتفت. غاصت فيها بقوة عيناه المتأجحتان بزرقتهما، إلى حد أنها ظنت بأنهما قد وصلتا إلى روحها.

أرادت أن تقول «ريكاردو»، لكن أي صوت لم ينبعث من فمها. ودت لو انقذفت على صدره، لكن جسدها ظل مسمّراً على الأرض.

ظل يتأملها دون تأثر. لم تكن هيئته توحي إلا بفضول قلق.

- هل يمكننا مساعدتك في شيء؟

لم يكن هو من نطق، وإنما العجوز المجهول.

افتر ثغرها:

- هذا زوجي...

- زوجك، سيدتي. أنت متأكدة؟
قالت نعم بتحريك رأسها مرات.
- زوجك؟
هذه المرة، كان الرجل ذو العينين الزرقاوين هو من طرح السؤال، جاداً.
تابع:
- هل يمكنني معرفة اسمك؟
في الوقت الذي تعرفت فيه على الصوت الجهوري والدافئ لماندرينو، حصل لديها الاقتناع بأنها تغوص في كابوس، في وضع غير حقيقي هو أشد مأساوية من الغياب أو الموت. تمتمت، واعية مع ذلك بأن الحوار يفتقد التجانس.
- شهرزاد.
تأملها مبدياً أسفاً.
- سيدتي، لاحظ العجوز، ربما كنت مخطئة. هل أنت متأكدة من...
- مخطئة؟
عمل الرجل العجوز على أن يبدو هادئاً.
- Vi prego...
- إنه ريكاردو.
اهتزت السماء بهزيم رعد، طغى على صوتها.
- ماذا قلت؟ ريكاردو؟
- ريكاردو! ريكاردو ماندرينو.
ارتطمت أولى قطرات الغيث بالأرض. تناولت شهرزاد كف الرجل وضغطت عليها بقوة.
- قل له! الرأفة، قل له.
لم يصدر عنه سوى حركة قلقة.
- هذا غير ممكن... أنا...
- ما عادت الكلمات تسعفها. كان الدم يهدر في أوردتها. استولى عليها جنون. في قمة انهيارها ويأسها تركت جسدها يسقط مثل وردة مجتثة، على

صدر الرجل. رغم اضطرابه لم يبعدها عنه. مرت لحظات. أحست بذراعيه تنضمان عليها.

لا سبيل إلى الشك. هي تميز هذه الضمة كما تميز رائحة البشرة وعطر العنبر هذا. لا شيء في الدنيا، ولا أية قوة تستطيع إقناعها بالعكس. لقد تعرفت على أرضها. هذه المملكة مملكتها.

أمطار غزيرة تسقط عليها الآن.

ظنت أنها قد سمعت في عمق من غمام صوت العجوز المجهول يقول:

- اهدئي سيدتي. أنا أصدقك. أعتقد أنك صادقة. لكن لننصرف من هنا. تعالي، تعالي...

- اسمي انريكو مانان. تنتمي أسرتي، على غرار آل ماندرينو، إلى الأسر النبيلة الفينيسية العتيقة. من حوالي شهرين كنت بـ(بيري) من أجل تصفية بعض الأمور. كانت معركة نفران قد تركت الانطباع بأن التبادل التجاري مع اليونان لن يعود إلى سابق عهده إلا بعد أمد طويل. وهناك في بيري التقيت بزوجك.

كانت شهرزاد تنتظر بنفاد صبر أن يواصل، محتاطة من أن تبدي أدنى تعليق مخافة مقاطعته.

كنت أسلم أوراق اعتماد إلى أحد ممثلي اليونانيين الذي يملك محلاً صغيراً لبيع الزيت الخام، بشارع صغير قرب الميناء. رأيت ريكاردو خلف الكونتوار. لم أتعرف عليه على الفور. وهل كان بإمكاني أن أتصور أن هذا الشخص غير الحليق وقليل النظافة، والذي يمتهن عملاً متواضعاً، هو النبيل المنحدر من أسرة آل ماندرينو. هذا فضلاً عن أنني لم أره منذ أكثر من خمس عشرة سنة.

في البداية صدمني إِهابه، ثم توطدت لدي القناعة بأن الشخص ليس غريباً عني. آنذاك سألت زبوني اليوناني. فسر لي بأنه كان قد لمح، خلال شهر ديسمبر، الرجل تائهاً بالميناء. كان يبدو أنه يبحث عن عمل، ولم يكن يتحدث إلا الفرنسية. وذلك ما دفع ديمترو بولوس - هذا هو اسم التاجر - لتشغيله. وبالفعل، فقد كان زبائنه في غالبيتهم إيطاليين أو فينيسيين. كما أن

بنية الرجل القوية كانت تسمح بالافتراض بأن بإمكانه، رغم السن، أن يكون مفيداً في أعمال تتطلب القوة الجسدية، من مثل سحب البراميل أو أعمال أخرى من النوع نفسه. وهكذا انضم ريكاردو - لكنني كنت ما أزال أجهل بأن الأمر يتعلق به - إلى خدمة اليوناني.

- لكن كيف تأكدت من هويته؟

- سأقول لك...

توقف للحظة ثم سأل، وكأن الفكرة قد عادت إلى ذهنه من جديد.

- ألا تريدين بالفعل أن تشربي شيئاً؟

- أشكرك. تابع من فضلك.

- سألت ديمترو بولوس إن كان الرجل قد أسر إليه بشيء عن ماضيه أو عن سبب وجوده ببيري. أجابني بأنه لم يستطع، رغم ما بذله من جهد، أن يحصل منه على شيء، ولو على اسمه الشخصي. استنتج أن الشخص قد يكون ربما غير راض عن ماضيه، فلم يلح عليه وقرر تسميته «اليكوس» وكف عن سؤاله. تصوري أن كل ما قاله لي لم يزد فضولي إلا تأججاً. رجوت من اليوناني أن يسمح لي بمحادثة عامله، فجعلني أقابله.

مسد إنريكو مانان لحيته متفكراً.

- يبدو أن الوجود يشبه حزمة خيوط غريبة... لأدنى سبب قد ينعقد خيط أو ينقطع إلى الأبد.

ثم واصل:

- لم يلزمني وقت طويل كي أصل إلى استنتاج مخالف لاستنتاج دمترو بولوس. لم يكن مخاطَبي لا فارّاً ولا خارجاً عن القانون. كان قد فقد ذاكرته.

فقدان الذاكرة... بمجرد لفظه لهذه الصفة تقلصت أصابعها على ذراعي الكرسي واجتاحها امتقاع رهيب. لكنها لم تقل شيئاً.

- آنذاك علمت - تابع مانان - أن حديثنا لن يفضي إلى شيء. كنت قد قررت إنهاء النقاش عندما لاحظت، فجأة، وأنا أصافح كف الرجل، بأنه يحمل في إصبعه خاتماً بشعار. رجوت منه أن يسمح لي بفحصه. كان محفوراً عليه شعار في شكل جوهرة بارزٌ فوقها فرس في وضعية احتدام.

- شعار آل ماندرينو...

- تماماً. الشخص الذي كان ماثلاً أمامي هو ريكاردو عينه.

حاولت شهرزاد السيطرة على الاعتمال الداخلي الذي ولدته فيها هذه الحكاية التي لا تصدق.

بدا إنريكو مانان وكأنه يقرأ أفكارها، إذ مال نحوها وقال بلطف:

- أنا أتصور المشاعر التي تعتريك، سيدتي... أن نعثر بأعجوبة على إنسان اعتقدنا أنه مات، وأن لا نحصل منه إلا على طيف...

- ماذا فعلت بعد ذلك؟

- تعلمين أنه ما كان بوسعي أن أتخلى عن مواطن وعن أخ في الانتماء النبيل، في وضعية مثل تلك. عوضت ديميترو بولوس، وأقنعت ريكاردو بمصاحبتي إلى فينيسيا بعد أن أسررت له بهويته. قدرت بأنها المكان الوحيد الذي يمكنه أن يستعيد فيه ذاكرته. كنت أجهل طبعاً أنه متزوج وأنه يقيم في مصر.

- هكذا إذن، كنتما عائدين من بيري عندما لمحتكما...

- بالفعل... كنا قد نزلنا لتونا من الباخرة، وكنت أسرع بأخذ ريكاردو إلى بيتي؛ كنت أعتزم أن آخذه غداً إلى ذويه؛ فأنا أعتقد أنه ما يزال له بعض الأقارب هنا؛ ابنة عم أعتقد.

صمت للحظة، من جديد، ثم قال:

- لكن من البديهي أن ذلك ما عاد ضرورياً، ما دام القدر قد وضعك في طريقنا.

ساد الغرفة صمت ثقيل. أفي هذا الانفراج غير المتوقع إرادة عقاب خفية؟

صعق زيوسُ أسكلبيوس

كانت نهاية هذه الأسطورة التي حكاها إبراهيم تدَّثِرُ في شكل رمز. ومع ذلك، ففي أية لحظة كان قد حاول زعزعة نظام الطبيعة؟ في أي شيء يعتبر رفض الامتثال للقدرية هجوماً على الله؟ اللهم إلا أن يكون إلهاً بربرياً يقف في وجه سعادة مخلوقاته. ومع هذا الاحتمال، ما الذي يمكن القيام به غير مواجهة البربرية والانتصار عليها؟ وعلى أي حال، فإن مثال أسكلبيوس ليس سوى مثال واحد من الصفحات العديدة المعتمة التي يغزر بها العالم الأسطوري. وثمة أمثلة أخرى تحفل بالنور. ألم يخرج يعقوب في العهد

القديم كبيراً من معركته؟ وهي، شهرزاد، تمسك الآن بجزء من نصرها ما دامت قد عثرت على ريكاردو. عليها أن تواصل عملها إلى أن يعود إليها هو بدوره.

غادرت الأريكة التي كانت تجلس عليها طوال مدة حكي انريكو مانان.

- أعتقد أن الوقت قد حان كي أحدث ريكاردو.

- بالطبع. هو ينتظر بالغرفة المجاورة. غير أن...

ترك الجملة معلقة.

- نعم؟

- هل أحتاج إلى تحذيرك من أنك قد تتألمين أكثر من الغياب التام للذكريات؟

ارتسمت ابتسامة شاحبة على شفتي شهرزاد.

- هو حي، يا سيد مانان.

* * *

- تلك الجولة على صهوة الفرس...

- كنا ذهبنا ثلاثتنا، أنت وأنا ويوسف. عدونا لأكثر من ساعتين عبر الكثبان الرملية. وكنا نتأهب للعودة عندما سألك الطفل وهو يشير إلى أعلى هرم:

(هل سبق لك أن صعدت إلى القمة؟)

أجبت بالإيجاب.

قال يوسف أيضاً (ستقوم بذلك ثانية معي ذات يوم؟)

ما كاد ينهي جملته حتى كنت قد قفزت إلى الأرض. كنت التفتَّ نحوي وقلت لي:

(تذهبين معنا؟)

كنت أعربت عن اعتراض؛ لم يكن يوسف آنذاك قد تجاوز الحادية عشرة.

رغم جوابي، كنت مددت ذراعيك نحوه وساعدته كي ينزل من على فرسه. احتججتُ من جديد:

(هذا جنون. سيُكسر عنقاكما).

عقبت أنت على الفور:

(إذا كان القزم الكورسيكي قد استطاع القيام بذلك فإنني لا أرى سبباً لأن لا نحذو حذوه)

عقب ماندرينو محيراً:

- القزم الكورسيكي؟

- هكذا كنت تتحدث عن بونبارت. لم تكن تبدي أي تعاطف معه.

- بالفعل. كيف كان بإمكاني أن أتعاطف معه وقد سلب مدينتي.

- أنت إذن تتذكر؟

تمطى قليلاً كما لو كان يستعد للوقوف.

- كيف أجيبكم؟

تناولت كفه بحب.

- لا، يا ريكاردو...

- عفواً... كيف أجيب(ك)... أستطيع أن أقرأ جوانب كاملة من ذاكرتي، ولا أدري لأي سبب مظلم توجد هذه الحكاية ضمنها. ثم هناك طفولتي، وبشكل مشوش فينيسيا. أقول بشكل مشوش لأنه يحصل لي، في ظلمتي، أن ألمح مدينة فوق الماء دون أن أستطيع أبداً تحديد موقعها. عندما أشار إنريكو إليها، آنذاك فقط استطعت أن أقيم الترابط.

- ثم ماذا؟

- وجوه ومناظر غير واضحة توحي إليّ بما يشبه الحصيات المرتعشة في عمق الماء، أو أيضاً الشعور بظلال تتقدم وتتقهقر دون أن تستطيع أبداً تشكيل صورة واضحة نهائية.

نكس جفنيه مثبتاً بصره على الأرض.

- مثلاً، ذلك المنظر الذي يبدو لي من أعلى القمة. الآن أعرف، بفضلك أصله، أفهمه.

بدا وكأنه يعمل على أن يركز أكثر.

- من جهة، صحراء ملونة بالرمادي، ومن الأخرى شريط وادي...

- النيل.

- النيل المحاذي لأرياف مخضرة. غسق على طول انحناءات الكثبان. شفافية الهواء، وخصوصاً... خصوصاً الإدراك الوضح جداً لتخومِ حدود الحياة والموت.

صمت. قلص اعتمالٌ كثيف ملامحه كما لو أن ريشة تحاول، من الداخل، أن تعيد تشكيلها.

قال بصوت خفيض:

- ثم، ثمة أنت...

مد كفه نحوها ولمس وجنتها.

- مظهرك غريب عني، لكن لدي انطباع بأنني أعرفك عن ظهر قلب. تسر لي غريزة حيوانية بأن راحتي لا يمكن أن تكون إلا بجانبك. عندما أتفرسك ينتابني، بشكل عائم، شعور شفاف مثل الكريستال. ولماذا لا أصدقك القول؟ هو مجرد من الكثافة. عندما أفكر في كل ما أسررت لي به، وفي هذه الإرادة العنيدة التي جعلتك تبحث عني ضداً على الجميع، لا أملك إلا أن أتساءل برهبة: لماذا؟ هل كان الحب الذي جمعنا بكل ذلك السمو حتى يستحق كل هذه التضحية؟ هل كان بهذا التفرد حتى غامرتِ بالتضحية بحياتك من أجله؟

لم تجبه على الفور. تأملته مطولاً كما لو كانت تسعى إلى أن تنقل إليه فكرتها. أية كلمات؟ أية كلمات هي من القوة بحيث تترجم ما لا يترجم؟ هي تملك مخطوط ماضيهما. لو سلمته إلى ريكاردو فإنه لن يرى فيه سوى علامات سرية ولغة مشفرة. وحده مفتاحٌ يمكنه من قراءة النص، لكنه منغمس في ليل ذاكرته.

قالت بصوت خفيض:

- سنعود إلى مصر، أتريد ذلك؟

أجاب (نعم)، ثم ببعض التحفظ:

- جيوفانا... هكذا.. هذا هو اسمها؟

- نعم. واعلم أنها نسخة منك.

آتى حركة تكاد تكون طفولية.

- أتصور أنها تحب أباها؟

- هل تصدقني إن قلت لك بأنها تحبه إلى درجة أنها أصبحت غريماً لي في ذلك؟

- وهو، يوسف....

- تفصلهما ثلاث عشرة سنة.

- تلك الإقامة الشاسعة التي وصفتها لي، الصباح، أجد صعوبة في تصورها.

الفصل السابع

مصر، ٢ مارس ١٨٢٨.

كانت جيوفانا، فخذاها مضغوطان على جانبي الفرس الأصيل، تخيل على طول شواطئ النيل بين شجر الأكلبتوس والنخيل. الريح يرمي خديها بحبات رمل، خادشاً في بعض الأحيان جلدها. لكنها لم تكن تبالي. كانت تعدو مستسلمة كلية لثمالتها.

مآذن القاهرة المائة، على يمينها، منطلقة نحو السماء. تابعت الفتاة تخييلها، فارضة على مطيتها إيقاعها بمهارة فارسة محنكة. كانت جيوفانا، في هذه اللحظات بالذات، عندما تتوحد مع الطبيعة، تشعر بأنها في قمة السعادة. ومع ذلك، ما كان بإمكان هذه السعادة أن تكون بتلك الدرجة من الكمال لو لم يكن لجيوفانا، في نهاية المطاف، موعد من النهر الإله.

آتت بحركة من أصابعها على الزمام فخفف شمس خطوه، وأصبح عدوه خبباً ليناً. استمرت شهرزاد مع مطيتها على تلك الحال لنصف فرسخ إلى أن توقفت الدابة بفعل حركة زمام جديدة.

قفزت شهرزاد إلى الأرض وعدت نحو الجرف.

بدا قاهر أكبر صحراء في الدنيا وكأنه يمد نحوها ذراعيه. كان ينتظرها مثل عشيق مخلص. ذهبت وقعدت عند أقرب نقطة من الشاطئ دون أن تبالي بالأرض الطينية التي لطخت ملابسها. بعد أن أزالت صندالها، رفعت أسفل سروالها المنتفخ إلى أعلى مستوىً ممكن وأغطست ساقيها العاريتين في المياه الثقيلة للنهر. بدا أن ملامحها قد تغيرت على التو، بينما اجتاح أعصابَها شعورٌ

لا يوصف بالراحة. قالت لنفسها بأنه لا يمكن لأي شك، أبداً، أن يزعزع يقينها: هي بالفعل ابنة النيل.

مصر مدينة من تراب بشجرة خضراء. النيل يقسمها: لتبارك رحلاته الصباحية ورحلاته المسائية. مصر، هي مرة جوهرة بيضاء ومرة قطعة من ذهب ومرة زمردة وأحياناً بساط متعدد الألوان.

كانت كل مرة تحاذي فيها شواطئه ذات اللون الأمغر، ينبعث مضمون القصيدة القديمة في ذهنها. كان ناظمها، الفاتح عمرو بن العاص، يُجِلُّ بالتأكيد هذه الأرض ونهرها، مثل جيوفانا على أقل تقدير.

ارتفع جفناها فشملت المشهد بنظرة. هناك، على الجبل، تمشي بضع نساء على طول الجرف، موضوعةٌ جِرارٌ على قنن رؤوسهن بتوازن. كن، بادثارهن في ملاءاتهن السوداء، يشبهن بهلوانات ماهرين يمشون فوق حبل من طين. كن يمشين الهوينى، فتتمايل خاصراتهن كأنها من حرير. وكانت الأداة التي يعقلن بها خمارهن تبعث أحياناً بريقاً من ضوء ينضاف إلى فتنة المشهد ككل.

فكرت جيوفانا: ما أشد الفارق مع مظهر الصحراء الكئيب! هنا ممكنةٌ الحياة التي تناقض تماماً مملكة الأشباح والأرواح، ذاك المكان الأسطوري الذي يتخذ النيل منه، حسب ما يقوله القدامى، منبعه.

انحنت وحملت بكفيها بعض الماء. مسحت به وجنتيها وجبهتها وجيدها.

عما قريب سيحل موسم الفيضانات الذي تفضله جيوفانا على غيره. سيتلوّن النهر بذلك اللون الأحمر الداكن الذي استعمله المصريون القدامى في صبغ أجساد الرجال. عما قريب ستجرف السيول من أعماق الهضاب الإفريقية الطينَ المخصَّبَ المترع بالمواد الغنية المستخلصة من الغابات العذراء ومن أودية أثيوبيا. من النيل الأزرق إلى النيل الأبيض سَيُصْدي النشيدُ الذي يمجد الحياة فوق النهر وإلى حدود الدلتا.

أنا كل شيء؛ الماضي والحاضر والمستقبل! يهدر النهر الإله، مستعيراً كلمات القديسة نيث.

آنذاك ستحل ليلةُ قطرةِ الماء. تلك الليلة التي تسمو على كل الليالي، والتي ستسقي الأرضَ خلالها دموعُ إيزيس وهو يبكي زوجته أوزريس الميتة.

ظلت جيوفانا على تلك الحال للحظة، شاردة الذهن. أصبح ضوء الشمس، عندما قررت أخيراً أن تعود، باهتاً فوق المشهد. تأملت متحسرة الحلم السائل الذي يجري نحو الشمال. تمتمت شفتاها بـ(إلى اللقاء)، ثم انتعلت صندالها وعلت مطيتها.

انطلق الحصان البهي مثل الريح على الطريق التي تقود إلى الصباح، تاركاً في أثره سحابة صغيرة من الغبار الداكن.

بعد ساعتين، بدت ضواحي الإقامة؛ المنزل الأبيض الكبير المحاط بالمشربيات وبالجميز والإسطبل وشجر النخيل المعتمل. لمحت فارساً يجتاز المدخل. هو بالتأكيد حسين. عملياً، لن يشفى أبداً هذا الخادم الشجاع من قلقه. كل مرة تذهب في جولة، رافضة أن يصاحبها، يبقى مشغول البال، داعياً الله أن تعود سالمة. وفي النهاية كانت تستولي عليه هواجسه فينطلق باحثاً عنها.

ومع ذلك... لا. الفارس ليس هو حسين. هو يركب المطية دون سرج، في حين أن الذي يأتي الآن للقائها يقتعد سرجاً. هو يوسف. اجتاحها شعور بالقلق. ليس من عادة أخيها أن يغادر عمله في هذه الساعة المبكرة. فكرت على الفور في أمها. أتكون رسالة منها قد وصلت؟

انطلقت للقائه.

كلما اقتربت منه، كان قلقها يزداد. كان يوسف يصيح ويشير، وكأنه فريسة لاعتمال قوي. لحظة ويلتقي الفارسان. كانت ريح الصحراء تبدو وكأنها تدلف دفعة واحدة إلى صدر جيوفانا.

- لقد عاد! لقد عاد! أبي هنا! هو حي!

قفزت من على فرسها وصعدت جرياً عبر الممر الرئيسي. كان ريكاردو ينتظرها واقفاً أسفل الشرفة؛ إلى جانبه شهرزاد التي تلوح بكفها.

كانت على وشك أن تنقذف على أبيها، عندما لمحت أمراً ما في العبارة الفاترة الجاثمة على ملامحه. حاولت رد ذلك إلى تعب السفر. كان الاستقبال حانياً لكنه خالٍ من الدفء. لم تعثر في الصوت الذي تلفظ (جيوفانا) الحرارة المعتادة. ما الذي يحدث؟ انعقد ذراعاها على جسد ريكاردو، لكنها كلما ازدادت التصاقاً به، تضاعف انزعاجها.

خلال تلك الأشهر الستة كتمت إحساسها بالفقد وحبست دموعها، مقدرة أن ماندرينو وحده جدير بكفكفتها. وها هي الآن، ولأسباب لا تعرفها، تسمع غريزتها تصيح بها بأن إذرافها لها الآن لن يجدي في شيء.

انفصلت عنه ورفعت بصرها إلى وجهه فَبُلْبِلَت مما اكتشفت: كان يمسحها بعينيه، لكن بفضول حيواني.

تقهقرت إلى الخلف بخطوة، مرتعبة.

آنذاك ارتفع صوت شهرزاد قائلاً:

- هيا يا أبنائي، لندخل.

* * *

كانت جيوفانا التي تقتعد أريكة، مثنية ساقيها أسفلها، تنصت بانتباه إلى شروح أمها المقطوعة بين الفينة والأخرى بأسئلة يوسف المستعجلة. كانت لا تحيد ببصرها عن ريكاردو.

حل محل اضطراب اللحظات الأولى شعورٌ غامض مشكَّل من سعادة ومن عدم فهم يدقان عن الوصف. سعادة باللقاء الذي تعترف بأنها لم تكن تتصور إمكانية حدوثه، وعدم الفهم تجاه هذا المرض الغريب الذي أصاب ريكاردو، والذي يملك القدرة على إطالة الغياب. كان أبوها مع ذلك حاضراً؛ هو نفسه جسدياً. صحيح أن شعره الذي عرفته أسود فاحماً قد أصبح اليوم مخللاً بالبياض، وأن جلده قد أصبح أكثر سمرة، وظهرت تجاعيد جديدة على حافة شفتيه، غير أنه إن كان ثمة شيء تغير بالفعل، فهو بريق عينيه: كان قد فقد من لمعانه.

دخلت الخادمة النوبية لتوها إلى الصالون، حاملة صينية. توجهت نحو سيدها وتأملته خفية.

- رغم أنني أمعنت فيك النظر، فإنني لا أستطيع أن أصدق يا بيك.

أجاب ماندرينو ببعض الارتباك:

- أنت تعرفين يا خد. . .

تعثر في نطق اسم الخادمة.

ساعده يوسف.

- خديجة.

- خديجة. . . أنا نفسي أجد صعوبة في التصديق.
وضعت الخادمة أمامه كأس خروب.
- شرابك المفضل. . . دون سكر، كما تحب.
قطب الفينيسي جبهته.
- شرابي المفضل؟
- (كأس خروب يساوي كل كنوز الأرض)، هذا ما كنت تكرره دائماً.
ألا . . .
- خديجة، قاطعت شهرزاد. ستتحسن الأمور. شكراً.
ترددت النوبية للحظة، ثم صفت على الصينية الفضية، أمام النظرة الصارمة لسيدتها، المشروبات الأخرى وغادرت الغرفة مسترقة نظرة إلى ماندرينو.
كان هذا الأخير قد أمسك بالكأس وشرع يتأملها بصمت.
ارتسم تعبير جديد على ملامحه.
استمر في النظر إلى المشروب الأرجواني.
قالت شهرزاد متضايقة:
- اعذر خديجة. رأيت أن من غير المناسب أن أفسر لها الوضعية. والشيء نفسه بالنسبة لحسين.
قاطعتها فرقعة كأس ينكسر فصمتت.
تبادل يوسف وجيوفانا نظرة مضطربة.
سالت خيوط من دم على طول قبضة ريكاردو.
- يا إلهي، صاحت شهرزاد بصوت مختنق.
أرادت أن تسارع إلى نجدة زوجها، غير أنه منعها بحركة صارمة. انتصب واقفاً. كان لونه قد أضحى بلون الشمع، شبه شبحي. وجَّه يده الدامية نحو المرآة.
- لا. اتركوني. اتركوني أرجوكم. أريد أن أبقى وحيداً.
عند نهاية المساء، كان التوتر الذي سببته الحادثة، ما يزال مستمراً.
كانت شهرزاد مجتمعة بابنيها في الشرفة. الهدوء الغسقي الذي يعلوهم

يناقض الجو المتوتر الذي يلفهم. وعندما اقترحت عليهم خديجة، خجلة، أن تقدم طعام العشاء، رفضوا كلهم بذرائع واهية.

رفعت جيوفانا جبهتها نحو المصباح النحاسي المتأرجح ببطء في السقف. كانت في الحقيقة تنظر إلى الغرفة التي توجد بالطابق العلوي، والتي حبس ريكاردو نفسه فيها.

واصل يوسف:

- أماه، أنا متأكد من أن أحداً لا يمكنه أن يساعد أبي غير طبيب.

- أنا أيضاً أعتقد ذلك، أكدت جيوفانا.

- وفضلاً عن ذلك، فإن لنا إمكانية الاستفادة من أكفأ طبيب في مصر كلها. لماذا نحرم أنفسنا منها؟

أزاحت شهرزاد من ثنايا جلبابها خيطاً خيالياً.

- أفترض أنك تريد الحديث عن الدكتور كلوت؟

- بالطبع.

- أخشى، للأسف، أن لا يستطيع الدكتور كلوت أن يقوم بشيء، رغم كفاءته.

- لماذا؟ سألت جيوفانا.

- لأن أباك لا يعاني من أي مرض عضوي. سقط حجاب على ذاكرته، ولا يستطيع أي عالم، مهما كانت كفاءته، أن يرفعه.

ألح يوسف:

- لكننا لن نخسر شيئاً إن استشرناه. كلوت هو الطبيب المفوض، وعلاقة أبي بمحمد علي كانت دائماً علاقة قوية، وسيسعد الباشا بمساعدتنا.

- أنا لا أشك في موافقة نائب السلطان. ريكاردو هو الذي سيرفض.

- ما الذي يجعلك واثقة إلى هذا الحد؟ سألت جيوفانا بدهشة.

- لأنني أعرف طباعه. لن يتحمل فكرة أن يعامل بوصفه مريضاً؛ وهو أمر صحيح، ما دام كما قلت لكما، لا يعاني من أي مرض عضوي.

- يمكننا على أي حال أن نحاول إقناعه. وإذا كان ثمة من أمل، مهما يكن ضئيلاً، في أن يستطيع الدكتور كلوت إشفاءه من فقده للذاكرة، فإنه سيكون من العبث أن لا نسعى إليه.

- ربما. . . لكن، ومن أجل الوصول إلى ذلك، على ريكاردو أن يخرج من خرسه وأن يقبل الحوار.

لمع بريق في عينيها.

- أعترف لكما أنني ما كنت أعتقد أن العودة إلى مصر ستكون امتحاناً بهذا العسر. يبدو أنني قد أخطأت. وكيفما كان الحال فإنني سأوجه رسالة إلى نائب السلطان.

التفت نحو جيوفانا، لكن ابنتها كانت قد غادرت مكانها.

سحبت مصراع الباب بحذر. كانت الغرفة غارقة في الظلام. ريكاردو- الممدد على ظهره مشبكاً كفيه تحت قفاه - يبدو غافياً. دخلت مترددة، تاركة الباب منفرجاً. اقتربت، مَقُودَةً بشعاع الضوء المنبعث من الممر، ببطء من السرير.

في الآن نفسه تقريباً، علا صوت أبيها العميق:

- من هنا؟

كادت تنصرف.

- أنا، جيوفانا.

- جيوفانا؟ ماذا تريدين؟

- أن أراك، أن أحادثك.

سمعت صوت أغطية تتحرك.

- يمكنك أن تأمرني بالانصراف، لكنني. . .

استنشقت بسرعة حفنة هواء.

- . . . لا أدري إن كنت سأطيعك.

شعرت به يتحرك من جديد. ثبتت في مكانها صامتة.

- أنت إذن معتادة على العصيان؟

- ليس دائماً.

كان بإمكانها، بفضل الضوء المتسلل من انفراجة الباب، أن تتأمل ملامح ريكاردو. ظنت أنها لمحت فيها تشجيعاً على الاستمرار.

- أعتقد أن هناك لحظات تكون الطاعة فيها سبباً في خسائرنا.

اعتدل.

- وهذا ما تشعرين به الآن؟

- نعم.

لامس براحة كفه حافة السرير.

- اجلسي.

استجابت دون تردد.

- تريدين محادثتي؟

- نعم. أ... أريد أن أقول لك بأنني أفهم ما الذي يحصل لك. يبدو لي أنك إن كنت تعساً، فإن ذلك ليس، حقاً، بسبب مرضك، بل لسبب آخر.

- آه...

- أنت تعرف كم نحبك.

قطب حاجبيه خفية.

- وكوني محبوباً قد يحيلني تعساً؟

- بالطبع.

- لماذا؟

- لأنك لا تستطيع مبادلتنا هذا الحب؛ فيجرحك عوض أن يساعدك. لكنني لا أؤاخذك.

أشعّت ابتسامة على شفتي ريكاردو.

- أنت، عملياً، غريبة الأطوار.

- ألستُ ابنتك؟

لم يجب. امتدت يده إلى علبة أعواد ثقاب موضوعة على مائدته قرب السرير. أخذ المصباح الزيتي الموضوع إلى جانبه وأشعل الفتيل. بدت الغرفة وكأنها تعود إلى الحياة.

- جيد يا جيوفانا. سأفتح لك قلبي. وإذا ما سببت لك في حزن، فإنني أطلب صفحك سلفاً. أنت محقة إذْ تقولين بأن حبكم يجرحني عوض أن يسعدني. منذ أن عثرت على أمك وعثرت علي(كم)، شرعت أسبر روحي آملاً في أن أعثر فيها على مشاعر. لو كنت عثرت فيها على ألم لرحبت به كما أرحب بالفرح. ولو حاولت أن أعاكس مشاعري، فإنني أعلم مسبقاً بأن لا

شيء إيجابياً سينتج عن ذلك. أشعر بنفسي شبيه مشّاء يتقدم في ليل ثلجي، لا معالم له سوى صوت خطواته.

كان كلما استمر في الحديث ارتجف وجهه من الانفعال. تثاقل جفناه.

- ها أنت على علم بكل شيء.

ارتجفت قليلاً عندما لامست كف ماندرينو شعرها.

* * *

كان فجر ناعم يبزغ على الصباح. شهرزاد - ممددة على بطنها - تراقب أولى خيوط الشمس التي تتسلل خفية عبر المعينات المنقوشة بالمشربية. بعد لحظات سيرتفع الصوت الرخيم للمؤذن منادياً المؤمنين، من فوق مسجد الجيزة، إلى صلاة الفجر. انقلبت على ظهرها، قاذفة بالغطاء إلى مستوى فخذيها. ها قد انضاف إلى ألم الروح ضغط جسدي. كان جسدها، طوال المدة التي دامها غياب ريكاردو، قد خرس. لم يكن الضيق الذي خلّفه الفراق قد ترك مكاناً للرغبة. لكن، ومنذ أن عثرت عليه، استيقظت رغبتها فيه؛ طفق جسدها، كما كان قد غفا بشكل طبيعي، يطالب به. معرفتها بأنه ينام في الغرفة المجاورة، واستشعارها لنفسه، وتصورها لبشرته دون أن تستطيع ملامستها، كل ذلك كان يوهنها ويُلهِثُها.

ما الذي تستطيع فعله؟ لا شيء أكثر من أن تأمل أن يستطيع الزمن وضع حد لهذا الكابوس.

أصاخت السمع. كان صوت ينبعث من الممر؛ تعرفت على خطو ريكاردو. ما وجهته؟ كيف قضى ليلته؟ كادت تناديه، لكنها اكتفت بعضّ شفتيها. كل شيء كان هشاً. الكلمة الأقل قيمة قد تصبح مرآة مشوهة.

توقف الخطو. أخفى ظلٌّ الضوءَ أسفل الباب. قامت بحركة سريعة كأنها خائفة. سحبت الغطاء على كتفيها منتظرة. تخيلت اليد وهي تهم بطرق الباب. افتر ثغرها، مستعدة لتلفظ اسم زوجها. لكن اليد بدا وكأنها قد أحجمت، فقد اختفى الظل. شدت أصابعها على الغطاء بقوة. في هذه اللحظة سمعت ثلاث طرقات جافة.

دخل ريكاردو. صدمت من الهدوء الذي كانت تنضح به ملامحه.

توجَّه في البداية إلى الأريكة الموجودة بزاوية الغرفة، لكنه عدل عن ذلك وتوجَّه نحو النافذة، فسحب الستائر.

- هكذا أحسن...

أشار إلى الأريكة.

- ممكن؟

- أنت في بيتك يا ريكاردو.

جلس ووضع ساقاً على ساق.

- هذا الدكتور كلوت، هل هو طبيب كفء؟

- الدكتور كلوت؟

- حدثتني جيوفانا؛ فهو، حسب قولها، يُعدّ من بين أحسن الأطباء الممارسين. هل هذا صحيح؟

- وضعه، بوصفه طبيباً شخصياً لنائب السلطان، يسمح بافتراض أنه كذلك بالفعل.

- كم عمره؟

- ليس أكثر من خمس وثلاثين سنة.

- فرنسي؟

- نعم. أعتقد أنني أتذكر بأنه من مارسيليا. قدم إلى مصر مما يزيد قليلاً على السنتين. كلفه محمد علي بتنظيم المصلحة الصحية للجيش. كما أنه أسس مدرسة الطب بأبي زعبل. وأعلم أيضاً أنه كان يستعد لتشييد مستشفى كبير مختص بأمراض العيون.

- متى يمكننا مقابلته؟

- بمجرد موافقة الباشا. كنت أستعد لمراسلته.

- أتصور أن علينا أن نتوجه إلى الاسكندرية.

- ليس بالضرورة. يمكن للدكتور كلوت أن يأتي إلى القاهرة إن أُمِر بذلك.

ثم أضافت بسرعة:

- القرار بيدك.

- ليس بمستطاع حمال زيت متواضع بـ (بيري) أن تكون له حظوة مقابلة العاهل كل حين. سأتشرف برؤية جلالته من جديد.

تغافلت رنة السخرية التي استعملها.

- جيد يا ريكاردو. إنني لأتمنى من كل قلبي أن يستطيع الدكتور كلوت مساعدتنا. وعلى أي حال، فاعتماداً على الانطباع الرائع الذي تركه لدينا أثناء العشاء الأخير الذي جمعنا، يم. . .

- جمعنا. . .؟ تقصدين الدكتور كلوت وأنت؟

- كنت أنت أيضاً حاضراً في تلك الأمسية يا ريكاردو.

دققت، منكسة الجفنين:

- أنت الذي كنت نظمتها، هنا في بيتنا.

- متى؟

- يوم ٢٧ يوليو، يوم عيد ميلادي وميلاد جيوفانا. فقد ولدنا في اليوم نفسه.

- قلت «العشاء الأخير»، لم يكن إذن الوحيد؟

- لا، أردفت بعد تردد قليل.

- هذا الدكتور كلوت، هو أحد معارفي إذن؟

أرادت أن تغير الموضوع.

- هكذا تكون جيوفانا قد أقنعتك. . .

- أجيبيني!

تمتمت:

- ما الذي تريد معرفته؟

- سمعت السؤال: هل كان كلوت من بين الناس الذين أعرفهم؟

قالت بصوت مسموع بالكاد:

- كنت تناديه باسمه الشخصي: بارتليمي.

الفصل الثامن

باريس، ٥ مارس ١٨٢٨.

سلمت كورين الصدرية لجورج غريغوار، بعد أن تأكدت من أن الزخارف قد ثبتت بشكل جيد، وفي المستوى المناسب. اقترب الخياط من الواجهة وفحص القطعة على ضوء النهار. أنارت على الفور بسمة رضى محياه.

- لك حقّاً أنامل ماهرة يا صغيرتي كورين. لو لم أكن أنانياً، ولو لم أكن أخشى أن نفتقدك، لاستجبت للطلبات الملحاحة لصديقنا لوفان، فأقبل أن يخطفك منا. ستكونين مدهشة في حضن طبقة الخياطين الأرستقراطيين.

عرض الصدرية على زوجته.

- انظري يا عزيزتي. أليس هذا عملاً جميلاً؟

- قلت لك دائماً بأنها موهوبة. لا أعرف من بين كل المطرزات من تشتغل على ثوب الساتان بهذه الرقة.

- كُفّا عن هذا الكلام، قالت كورين. ستجعلانني أحمرّ خجلاً.

- ومع ذلك، فهذه هي الحقيقة.

- في جميع الأحوال، وفيما يتعلق بالسيد لوفان، فإنني أخشى أن يكون هذا الرجل الطيب يتعب نفسه بدون طائل؛ فأنا لن أغادركما أبداً. وعلى أي حال، وحتى لو كانت لي أبسط إرادة في ذلك، لاندحَرَتْ. أتعلمان ما قالته لي مارسلين، منظفة الثياب الصغيرة التي تشتغل معه؟ يبدأ نهارهم عند الساعة التاسعة صباحاً وينتهي عند الحادية عشرة مساءً، وأحياناً في منتصف الليل.

- مقابل أجر هزيل، بطبيعة الحال.

- فرنكان لليوم الواحد.

تنهدت جوديث.

- وعندما نعلم أن مقابل غرفة متواضعة هو خمسون فرنكاً للشهر الواحد، وأن التغذية تتطلب ستة فلسات لتناول خبز وحليب لا غير، نتساءل كيف تستطيع هؤلاء الشقيات أن يعشن.

- لوفان، للأسف، لا يختلف في شيء عن باقي أرباب العمل، لاحظ جورج غريغوار. ويمكن القول عموماً إن الشروط التي يعيشها العمال هي التي تدعو إلى الرثاء.

- بالتأكيد، قالت جوديث. لكن النساء هن اللائي يعانين منها أكثر.

ثم واصلت، فجأة، متحمسة:

- كل الأعمال التي تدرّ أرباحاً فعلية يزاولها الرجال. لا يتركون لنا إلا مهناً تمكن بالكاد من سد الرمق. وبمجرد أن يصبح بإمكاننا الاشتغال في صناعة، يسارع القيمون عليها إلى خفض الأجور لسبب عبثي هو أن على المرأة أن لا تتقاضى نفس ما يتقاضاه الرجل.

- هذا صحيح، قال جورج غريغوار. وأعترف أن في هذا ظلماً حقيقياً.

تابعت جوديث، موجهة كلامها إلى كورين:

- أتعرفين لماذا نعقد آمالاً عريضة على الحركة السانسيمونية، ولماذا يكون من المهم جداً أن تواصل تطورها في البلد؟

أجابت بحزم:

- يمثل السانسيمونيون الأمل الوحيد في تغيير مجتمعنا. على هذا المجتمع أن لا يظل مقُوداً من طرف الطفيليين المتمثلين في الكسالى والنبلاء وأصحاب الدخول، وإنما من طرف النشطاء ومن أجل النشطاء؛ أي رجال الصناعة.

جحظت عينا كورين.

- رجال الصناعة؟

جورج هو الذي تولى الإجابة.

- هذا اسم جديد اخترعه مؤسس الحركة الكومت دي سان سيمون. الصناعيون هم الرجال الذين يشيدون الأمة. وعلى الثروات التي أنتجتها

العمال أن يعاد توزيعها على العمال. أليس هذا هدفاً جميلاً ونبيلاً؟

أقرت كورين، رغم أن الرؤية، بالنسبة إليها، لم تكن واضحة بما يكفي.

- بدون شك. لكن أفكار السانسيمونيين، هل هي فعلاً بتلك الخصوبة المتحدث عنها؟

رمت جوديث صديقتها بنظرة مؤاخذة.

- لو كنت قبلت أن تحضري، ولو لمرة واحدة، اجتماعاتنا، لما كنت طرحت هذا السؤال.

- ذلك أنني... منذ وفاة أمي، لم تعد لي أدنى رغبة في الخروج.

- أفهم يا عزيزتي. لكن العزلة لا تفيد في شيء. أنا أعلم أن إنصاتك لأصدقائنا سيريحك. إن تعليمهم يمس الروح كما يمس الذهن. سيلذُّ لك بانسجامه وبأبعاد العدالة الاجتماعية التي يهبها لفرنسا.

التمست دعم زوجها.

- ألست على حق يا جورج؟

أقر قول زوجته وهو يمسك بكتف كورين بحنان.

- سيعقد الاجتماع المقبل خلال الشهر القادم، يوم ٦ أبريل بقاعة (تايتبوت). سيكون «الأب» حاضراً. هل تريدين الانضمام إلينا؟

- الأب؟

- بذلك يدعو السانسيمونيون مَنْ خلَف سان سيمون. اسمه الحقيقي هو بارتليمي بروسبير أونفنتان. هو شخص خارق للعادة، رؤيوي ممن لم يعرف العالم منهم إلا القليل. وفوق ذلك، هو بحاثة وأحد قدماء البوليتيكنيك. يجب رؤيته والإنصات إليه ومحادثته لفهم كل ما يختزنه قلبه من طيبة وكرم.

- بالنسبة إلي، قالت جوديث معتملة، أنا لا أخشى من أن أؤكد بأنه يمثل ديانة جديدة؛ هو مخَلِّص.

بدت كورين مصدومة.

- مخلص؟ ألا تبالغين بعض الشيء؟

- لا، يا كورين. ونحن جميعاً مريدوه. لكن ما فائدة محاولة إقناعك. سترين وستحكمين بنفسك.

- هل سترافقيننا إلى قاعة تايتبوت؟ سأل جورج.

- إذا كان هذا الرجل كما تصفونه بالفعل، فإنه قد يكون حامل امال. سأؤاخذ نفسي إن لم ألتق به.

* * *

الإسكندرية، ٨ مارس ١٨٢٨.

كان محمد علي، على صهوة فرسه الكميت الرائع، يتأمل بارتياح واضح ورش البناء الممتد على الساحل.

- سيكون أجمل مصنع لبناء السفن في الشرق كله. سأعيد، به، بناء أسطول أروع من الذي ضاع بنفران.

التفت إلى الفارس الذي يوجد إلى جانبه وواصل:

- الفضل يرجع إليك يا سيد سيريسي.

- شكراً، جلالتك. سيحصل لي الشرف والفخر، معاً، إن استطعت المساهمة، وإن بالقليل، في عظمة مصر.

- بالنسبة للشرف، ستناله قريباً: المرسوم الذي يمنحك صفة بيك سيكون جاهزاً عما قريب؛ هو مكتوب ولا ينقصه سوى توقيعي.

- هل تعتبرونني، جلالتكم، أهلاً لتشريف مثل هذا؟

- تستحقه يا سيد سيريسي. أنا أعلم مقدار المصاعب التي اعترضت طريقك وتجاوزتها، منذ مقدمك من تولون، كي يرى هذا المصنع النور: التخطيط للأشغال وتهيئة الأحواض وتكوين العمال، كل ذلك كان من إنجازك. وصدقني، إنه لعمل رائع.

لم يترك المجال لمحادثه كي يعلق. سأل على الفور:

- أعتقد أنك قد أدخلت في اعتبارك مخزناً لحفظ الخشب.

- طبعاً، جلالتك.

أشار إلى أقصى جنوب الورش.

- هناك، ستُنشأ مخازن للمواد البحرية وبناية خاصة بقاعات قوالب السفن ونماذجها.

- ممتاز. وكم نحتاج من الوقت، في نظرك، كي نسلح أولى سفننا؟

- إذا لم يحدث طارئ، سيحصل ذلك في غضون ثلاث سنوات، جلالتك.

قطب محمد علي حاجبيه.

- ثلاث سنوات... مدة طويلة...

- لا يمكننا للأسف أن نكون أسرع من ذلك.

- إطمئن سيد سيريسي، أنا واع بذلك. آمل فقط أن لا تكون الكواسر التي تحوم فوق مصر قد التهمتنا قبل ذلك التاريخ. وأعتقد أيضاً أن الله سبحانه...

توقف عن الكلام. لفتت انتباهه مجموعة صغيرة قادمة في اتجاههما. وقف قليلاً على الركابين وقال للمهندس:

- سنواصل الحديث لاحقاً. أعانك الله.

انطلق محفوفاً بالجنود الألبانيين الخمسة الذين يشكلون حرسه الشخصي.

* * *

كان يوسف هو أول من لمحه. وجّه سبابته نحو سحابة الغبار التي علت من عدو الفرسان.

- نائب السلطان! هو قادم للقائنا.

استرقت شهرزاد نظرة لريكاردو. بدا، عكس ما كانت تخشى، هادئاً. أمسكت جيوفانا بكف أبيها. أبقتها بين كفيها إلى أن وصل الباشا. نزل العاهل من على فرسه بحركة رشيقة رغم بدانته، في حين وقف الحراس حوله.

لم يحترم قواعد اللياقة فحدث، أول من حدث، الفينيسي.

- مرحباً بك ماندرينو بيك! لقد افتقدناك.

- السلام عليك، يا صاحب الجلالة.

وضع نائب السلطان كفيه على وركيه ومال قليلاً إلى الوراء في موقف متأمل.

- يبدو أنه لا الهواء البحري ولا جو اليونان استطاعا النيل منك. أنت متألق.

سأل شهرزاد:

- هل هذا هو الرجل المريض والضائع الذي وصفتْه لي رسالتك؟

لم تنبس ببنت شفة.

- عملياً، النساء اللائي يحببننا يفقدن مفهوم الموضوعية كلية. يبدو أن القناع الذي يخفي أسفل وجوههن يطال، في بعض الأحيان، عيونهن أيضاً.

عقب ماندرينو بصوت محايد:

- أخشى، جلالتك، أن تكون، للأسف، المعلومات التي نقلتها إليك زوجتي صحيحة.

- ماذا يا ماندرينو بيك. أنت لا تسعى إلى جعلي أعتقد بأنك لم تتعرف على عاهلك!

- هل عليّ أن أجيب؟

- فقط إن كان ما ستجيب به هو ما أنتظره.

- أنتم ترغمونني إذن على الصمت.

- ما حكاية فقدان الذاكرة هذه؟ حتى بعد أعنف العواصف تتعرف السمكة، من جديد، على المحيط! ولا أعرف نجماً لا يعود إلى مكانه في السماء!

أمسك من جديد بكف ماندرينو ووضعها على اللحية الكثيفة التي تغطي وجهه.

- إن كنتَ أعمى، فثمة اللمس. تلمس لحية محمد علي؛ لا مثيل، في الإمبراطورية كلها، لملمسها الحريري.

جعل كف الفينيسي ترتفع إلى أن أدركت الطربوش الأسطواني الموضوع على رأسه.

- وهذا الطربوش الذي يغطي شعري، مرر راحتك على لبده. وحده محمد علي يهب هذا الطربوش طابع النبل. يمكننا أن ننسى قسمات صديق أو قريب، لكن أحداً لا ينسى عاهله! ماذا يا ريكاردو! أما تزال تجهل من أكون؟

آلت شهرزاد على نفسها أن تجيب.

- عفواً، جلالتك. لكن ألا تعتقد أنه من الأحسن منحه بعض الوقت؟

- وقت؟ من ذا الذي يتحكم في الزمن؟ لا زوجك ولا أنا أبرمنا اتفاقاً مع

العلي القدير! ابني يحترق على جبال موري والقيصر يتأهب للانقضاض على اسطنبول!

- جلالتك. . .

- أنا في حاجة إليه!

ثم أمر بالنبرة الحازمة نفسها:

- لنذهب إلى القصر.

* * *

كانت أرجلهم تنزلق على طول البساط الحريري الشاسع الذي يغطي أرض الصالون. آثار الفخامة تنضح من الديكورات. بذخٌ مفرط يوحي، في بعض الزوايا، بشيء من فساد الذوق. رخام إيطالي أبيض إلى جانب تلبيسات من معجون رخامي أقل قيمة. الثريات الكريستالية والشمعدانات النحاسية. ووسط القاعة انتصب مِسنَد بأرجل خشبية ثلاث وضعت عليه صينية فضية سميكة واسعة. وضع الخدم عليها مشروبات وكؤوساً من عصير التمر الهندي وعصائر قصب السكر وجبلاً من الحلويات المزينة بالفستق واللوز المهروس والعسل. كانت نرجيلة قد وضعت في متناول كف نائب السلطان، فوُضِع في موقدها تبغ مكون من خليطه المفضل: المعسل وأوراق التبغ المهروس مخلوطان بثفل قصب السكر.

أخذو أمكنتهم بإشارة من العاهل، على الطريقة التركية، في شكل نصف دائرة، على البساط. بمجرد جلوسهم، أمسك محمد علي بالأنبوب المغشى بجلد ماعز أرجواني اللون. أخذ نفساً وكرر، متفرساً ماندرينو:

- أنا في حاجة إليك!

فتح الفينيسي ذراعيه، دلالة استسلام.

- جلالتك، أنت على حق عندما تقول بأنه لا أنت ولا أنا أبرمنا اتفاقاً مع العلي القدير. غير أن الماضي، الآن، يجُبُّ الحاضر.

- سنجد علاجاً لذلك! لقد استدعيت الدكتور كلوت، وهو ينتظر. سيأخذك إليه خادم عندما تبدي الرغبة في ذلك.

أخذ نفساً عميقاً، في الآن نفسه الذي كانت عيناه تجولان في الوجوه. توقفت نظرته على وجه جيوفانا.

- ما شاء الله يا ابنة ماندرينو. تصبحين أجمل فأجمل.

أجابت الفتاة بابتسامة متكلفة بعض الشيء.

- أجل. أنا أعلم. أنا رجل عجوز بالنسبة إليك. أتذكرين يوم تجرأت على الإجابة عن سؤال لي يوم عيد ميلادك؟

أجابت جيوفانا بالنفي.

- وبالطبع إذا طرحت السؤال نفسه على أبيك سيجيب بأنه يجهل حتى يوم مولدك. أليس كذلك يا ريكاردو بيك؟

- أنت على علم بكل شيء، جلالتك.

- سأنعش ذاكرتك حتى تعلم إلى أي نوع من الفتيات تنتمي ابنتك. حصل ذلك من حوالي سبعة أعوام، عندكم بالصباح. كانت جيوفانا قد أقبلت لتوها، وكنت مأخوذاً بجمالها وأنا أعرب عن أسفي لكون عمرها لا يزيد قليلاً عما هو. كانت أمها قد علقت على كلامي ساخرة: (ملكة مصر أخرى؟) عقبت: (ولم لا؟) وفي هذه اللحظة كانت الجوهرة الصغيرة الحاضرة معنا الآن قد تدخلت (لا، أبداً.) وبما أنني كنت قد اندهشت من قولها، تابعت، ألح على ذلك، بكبرياء بالغ: (لكنك متزوج من امرأتين وأنا لا أحب أن يكون لي شريك).

سحب العاهل نفساً جديداً.

- هكذا هي ابنتك يا ريكاردو ماندرينو. لها مزاج أمها الذي لا يحتمل، كما أن لها، وعلي أن أعترف بذلك، جمالها.

- مما يعني أنها لم ترث شيئاً عن أبيها.

- بالعكس، لكن ما جدوى الحديث عن ذلك؟

- لماذا؟

- ألم تنس أنها ابنتك؟

اهتز من ضحكة قصيرة.

- كانت جيوفانا، على أي حال، محقة. لو لم تكن لي، آنذاك، سوى امرأتين؛ الألبانية والشركسية، لكان زواج آخر وارداً. لكن كان ثمة الأخريات، أقصد نسائي غير الشرعيات. لم أحص يوماً عددهن، لكنني متأكد

من أن حريمي كان يقارب عدد حبات أرز الصين. أما ذريتي... فقد فقدت من زمان أمل إحصاء عددها. لكن لنعد إلى ما هو أكثر جدية.

توجَّه بالكلام إلى يوسف.

- كيف تجري أشغال استكشاف الدلتا يا مهندسي المائي المخلص؟

- بالفعل، جلالتك، كنت أعتزم محادثتك في الموضوع.

- أنا أنصت إليك.

- نريد، دي بلفاند وأنا، الاستمرار في اتجاه قناة السويس.

- قناة السويس... أنا أرى في هذا فكرة للفرنسي. منذ أن التحق دي بلفاند بخدمتي، لا يمر يوم دون أن يحادثني عن هذه المنطقة. هو مهووس بالفكرة.

- هو يرى أن من الضروري إجراء كشف طوبوغرافي للقناة، وأن لهذا الكشف الجدوى نفسها للكشف الذي قمنا به في الدلتا.

- لدي الانطباع بأن صديقنا يتابع خفية حلم مواطنه بونبارت. هو دائم التفكير في مشروع القناة التي ستربط البحر الأحمر بالبحر الأبيض، أليس كذلك؟

- بالفعل، أعتقد أن الفكرة تستهويه.

- عليكما، مع ذلك، أن لا تنسيا بأن أولوياتي منصبة حول السقي. مصر هبة النيل، لكنها أيضاً ضحية تقلباته المزاجية.

تابع بنبرة أكثر جدية:

- منذ غابر الأزمنة، قرضت المياه الهائجة سهول أثيوبيا العليا وأترعت الوادي بذلك السماد الرائع المتمثل في الطمي الخصب. غير أن هذه الهبة الربانية ليست منتظمة. مد الماء يتغير من سنة إلى أخرى. وإذا كنا نريد لهذا البلد أن يتحكم في مصيره، فإن علينا - ألح على الكلمة بضرب كفه بمسند الأريكة - علينا أن نمتلك قدرة التحكم في واديه؛ سدود وحواجز وقنوات. على جهودنا، إذن، أن تتركز في هذا الاتجاه.

- أنا أتفق معك تماماً، جلالتك. لذلك فإننا لن نهتم بالقناة إلا بعد الانتهاء من الكشوفات الطوبوغرافية للدلتا.

داعب محمد علي بأسنانه فم أنبوب النرجيلة، متفكراً.

- كم ستكلفني هذه البعثة؟
- دي بلفاند هو الذي وضع جرداً بالمصاريف، والجرد رهن إشارتك. هذا طبعاً إن حظي المشروع باهتمامكم.
- لا يمكنني أن أرفض شيئاً لبلفاند، فبالأحرى لابن ريكاردو وشهرزاد. أمنحكم بطاقة بيضاء. متى تنوون الذهاب؟
- الأسبوع المقبل إن شاء الله.
- الله معكم.
عاد إلى الفينيسي.
- أعتقد أن اسم لينانت دي بلفاند لا يحيي لديك أي ذكرى؟
لم يجب ريكاردو. بدا أنه لم يسمع السؤال.
- ريكاردو بيك!
- نعم، يا صاحب الجلالة.
- سألتك إن كنت تتذكر دي بلفاند؟
- لا.
كان ماندرينو شارد الذهن عن المحادثة. تقهقر الحاضر وعوض بحزمة صور تصعد من قعر بئر.
(موسيقى. الشبح المتموج لعالمة. حاملو مشاعل على مدخل خيمة من قماش خطوطه ملونة، منصوبة وسط الحديقة. وفي قلب غمام خفيف: رجل وامرأة. هي، بين كفيها وجه رجل بملامح حزينة، ثم تضمه بين ذراعيها. هو، يتجاوب مع الضمة بملامح تعكس معاناة. ثم هناك تلك الحركة الغريبة: المرأة تجني برأس سبابتها الدموع السائلة على خد الرجل وتحملها إلى شفتيها.)
سمع الفينيسيُّ نفسَه تسأل:
- من كان حاضراً، أيضاً، خلال تلك الأمسية؟
ارتعدت شهرزاد.
- تقصد عيد ميلاد جيوفانا؟ كان المدعوون كثيرين. حوالي المائة.
- عالمة وموسيقيون؟
- نعم.

- وكانت خيمة قد نصبت.

لم ينطق جملته في صيغة سؤال. تابع:

- كانت إذن أمسية لا مكان فيها للحزن.

- الحزن؟ بتاتاً. كانت اللحظة، على العكس من ذلك، لحظة فرح.

- ومع ذلك، كان بين المدعوين رجل حزين. من يكون؟

تفرسه الجميع بدهشة. سألت شهرزاد:

- أنت إذن تتذكره؟

كانت نبرة توجس قد انزلقت، رغماً عنها، إلى صوتها.

- وأتذكر أيضاً امرأة تمسح دموعه بسبابتها.

انعقدت حنجرتها فما استطاعت المتابعة. تحدث يوسف بدلاً منها.

- كان ثمة بالفعل رجل حزين. يتعلق الأمر بكريم ابن سليمان.

- كريم...

- هو صديق مقرب جداً. كان قد اشتغل في الصباح، وهو بعد مراهق. هو ابن البستاني الذي كان يشتغل عندنا.

- وما سبب دموعه؟

- لأنه هو أيضاً كان متوجهاً إلى نفران.

قرر محمد علي التدخل.

- كان ابن سليمان أحد الأميرالين اللذين قادا الأسطول. الثاني كان هو صهري محرم بيك. وكنت كلفتك بأن تسلمهما كتاباً.

- فهمت...

سلط الفينيسي عينيه على شهرزاد.

- وتلك المرأة التي كانت تواسيه... هي أنت؟

- نعم.

- كان إذن بتلك الدرجة من القرابة؟

- ترعرعنا معاً.

كانت معركة شعواء قد اندلعت، مصحوبة بألم ماكر ومدوخ. تخيل عقرباً عمياء تفحص ثنايا لحمه وتتلمس مكاناً لغرز شوكتها. أسرت له غريزته بأن

الهدوء، إن وجد، لن يأتي إلا من معلومة، من كلمة. كيف الحصول عليها؟ ذهنه يجهل تماماً طبيعة السؤال الذي عليه أن يطرحه.

- أبي...

أعاده صوت جيوفانا إلى الحاضر.

- ابن سليمان توفي بنفران.

بمجرد تلفظها بالجملة، دلفت نسمة هواء منعشة إلى الصالون، مخلصة الغرفة من الثقل الذي كان يجتاحها.

- أقلتم، يا صاحب الجلالة، بأن الدكتور كلوت مستعد لاستقبالي؟

- بالتأكيد.

صفق الباشا كفيه فمرق خادم على العتبة كما لو بفعل السحر.

- قُدِ البيك إلى الدكتور كلوت.

حيا ريكاردو العاهل وسار في أثر الخادم.

بمجرد أن أغلق الباب علا صوت محمد علي بالغرفة. كان صوتاً خالياً من نبرات الاستفزاز التي سادت حتى تلك اللحظة. كان مختنقاً يعتريه شبه استسلام.

- هذا مرعب... يشهد الله أن ما رأيته لمرعب.

الفصل التاسع

ضرب محمد علي الهواء قلقاً.

- دكتور كلوت. هات من الآخر من فضلك. ما أريده هو جواب بسيط: هل هناك أمل في أن يستعيد ماندرينو بيك ذاكرته، نعم أم لا؟

- الجواب هو نعم. غير أنني أسارع إلى القول بأن هذا الأمل - كما هو الشأن بالنسبة لكل ما يخضع للصدفة - يمكنه أن يتحقق في غضون ساعة، عشر سنوات، أو...

- أبداً....

- أخشى ذلك، جلالتك.

أمسك الباشا بعلبة نشوق مذهبة وشرع يديرها بين أصابعه بعصبية.

- إن ما يدهشني في العمق، عندكم أنتم - معشر العلماء - هو أنه لا مثيل لكم في الإعراب عن يقينية شكوككم.

- جلالتك...

- لا تعتذر. مزاجي معكر الآن. حاول، بالأحرى، أن تخبرني بأية وسيلة يمكننا إحداث هذا الأمل الذي تحدثت عنه من لحظة.

نكس الدكتور كلوت جفنيه، أسفاً.

- لا أدري. صدمة ربما.

- - صدمة...

- حدثٌ سَجَنَ ذاكرتهِ وآخرُ قد يحررها.

- باختصار، موعد مع الله.

- بمعنىً من المعاني، جلالتك.

أحكم الباشا قبضته على علبة النشوق.

- للأسف، ما عاد الله، منذ زمن بعيد، يحدد مواعيد مع البشر.

* * *

لف الظلام قصر رأس التين. انبثق من ثقل الهواء المفعم بروائح مجهولة المصدر جوٌّ فاتر. لا شيء يتحرك. الإسكندرية نائمة بهدوء على لسانها الأرضي، هاجعة بين البحر وبحيرة مريوط. ترتفع فرقعة وتتأجج نيران باهتة بين أسوارها العتيقة. لا أحد يقلق من ذلك؛ قد يكون الأمر متعلقاً بشبح الإسكندر أو القيصر أو بأحدهم يدعى بتوليمي، أو قد يكون متعلقاً، ببساطة، بشرارات أحلامهم.

يجلس ريكاردو وحيداً على السقيفة التي تشرف على البحر. كانت كلمات الدكتور كلوت تعتمل داخله؛ كلمات قاطعة مثل شفرات.

- للأسف يا صديقي، فقدان الذاكرة ينتمي إلى تلك الأمراض التي يظل الطب أمامها عاجزاً؛ طبيعته المرضية ما تزال غامضة. تختلف أسبابه ونتائجه من شخص لآخر. لا وجود لشخصين متشابهين.

الطريق مقطوع. عليه من الآن فصاعداً أن يتحمل العيش محاصر الذهن محاطاً بكائنات يعرفون كل شيء عن حكايته التي لا يعرف عنها، هو، أي شيء، باستثناء بعض الكلمات المتناثرة.

- وإلا. . . فما العمل؟

كان كلوت قد أجاب دون تردد:

- أن تصبح وعاءً.

- بمعنى؟

- تختلس وتغرف وتطالب وتسأل دون كلل كل الذين يحيطون بك وتخزن كل معلومة مهما تكن بلا قيمة، وكأنك تجمع كثيراً من الأسلحة التي ستحتاج إليها في السيطرة على القلعة التي تختفي فيها نسختك الثانية. ذلك أنها، بكل تأكيد، موجودة هناك، مختفية في زاوية من دماغك. هي ما يطلق عليه الإغريق «إنانسيوس»، أي النقيض.

كان الزبد، في الأسفل، يلعق الصخور اللزجة. حصل لريكاردو الانطباع بأن ما تستنشقه الأمواج وتستنثره هو أجزاء من مصيره المغمم. لا بد أن تكون

هذه النسخة موجودة. هي صورة له معكوسة، هي وجه العملة الآخر، محبوسة في الجهة الأخرى من المرآة. وهناك خياران لإعادتها إلى مكانها الأصلي: أن يُنصب لها فخ يُطْبِق عليها... أو الوفاة.

- أقترح عليك اتفاقاً. نحاول إعادة ترتيب الموزاييك، وإذا فشلنا تنصرف. تنصرف متى شئت، لأنني أنا أيضاً لا يمكنني أن أعيش جامدة منسلخة عنك.

هذه المرأة... عبرت البحر وبحثت عنه في موري وفينيسيا، وكانت بالتأكيد ستواصل بحثها، أبعدَ، مأخوذة بإيمانها المطلق بأنها ستعثر عليه عاجلاً أم آجلاً. وماذا لو كان الحل بين يديها؟ ماذا لو كانت تلك القوةُ القادرةُ على الإيقاع بالقلعة، والتي تحدث عنها الدكتور كلوت، كامنةً فيها؟

وضع ريكاردو كفيه على الدرابزين. أعادت له ملامسته للحجر اطمئنانه. تنفّس بعمق، تاركاً لجسده فرصة أن يُجتَاح بروائح البحر. فكر من جديد في ذلك الألم الماكر الذي أصابه عندما كانوا متحلقين حول نائب السلطان. كان قد انبعث من ذكرى أمسية عيد الميلاد، وبالخصوص بسبب شخص هو كريم بن سليمان.

من يكون هذا الرجل؟ ما هي الروابط الحقيقية التي تجمعه بشهرزاد؟ هو لم يكن مغفلاً، فالأمر لم يكن يتعلق بالحنان أو بالصداقة بمعناها الحقيقي. كان الأمر يتعلق بإحساس أكثر عمقاً، وإلا فلماذا أدت إثارة المشهد إلى إيقاظ قلق لدى من كانوا يستمعون؟ لماذا كل ذلك العِي الذي اعتور الإجابات والكلمات؟ وبالخصوص جملة جيوفانا هذه:

- توفي ابن سليمان بنفران.

كما لو أنها كانت تسعى إلى طمأنته. لماذا؟

التفت ريكاردو. كانت أمامه منتصبَةً الواجهةُ البيضاء للقصر بنوافذها العشر التي تنعكس عليها النجوم وكأنها ثقوب تفضي إلى النور أو إلى الظلام. خلف واحدة منها لا غير يثوي الجواب عن الأسئلة التي يطرحها على نفسه.

هل هي النافذة التي تفضي إلى غرفة شهرزاد؟

* * *

أحست بجسد ماندرينو يحط فوقها. حصل لديها الانطباع، في البداية،

وكأن الأمر يتعلق بطير عملاق يهوي. ظنت، في غفوتها، أنه قد استسلم إلى الرغبة في المضاجعة؛ رغبة لا غير. هي لم تعلم بأن الأمر يتعلق بشيء آخر مختلف تماماً إلا بعد أن تكلم. كانت الكلمات تخرج منه شبيهة بالحصيات الملساء التي تتأرجح تحت اعتمال الأمواج. الأمر يتعلق بقضية حياة أو موت، بهشاشة الكائن، بالآلام الصادرة عن الحب وبالنزيف الناتج عنها. كان الأمر يتعلق أيضاً بإرادة كسر الدائرة التي حبسه فيها إله بربري. لم تستطع منع نفسها من أن توازي بين هذا الإله نفسه - الذي تخيلته، والذي يقف في وجه سعادة مخلوقاته - وبين التفكير في أسطورة أسكليبيوس.

حدّثها أيضاً عن رغبته في استعادة حماسه؛ ذلك الحماس الذي ينفث الشجاعة في الإنسان ويحظر عليه أن يعيش إلا بذراعين مفتوحتين. من المفترض أنه كان هكذا قبل نفران؛ كان مسكوناً بهذا الحماس، هو متأكد من ذلك.

لم يكن بوسعها، في عتمة الغرفة، أن تميز ملامحه، لكنها كانت تتخيل الضغط المفرط الذي ينضح منها.

في الأخير تطرق إلى علاقتهما. فمنذ محادثتهم في قاعة القصر، علم أنه قد يكون يحبها، هي شهرزاد؛ لأنه استطاع تمييز أصل ذلك الألم الماكر. كان ينبعث من إحساس قديم قدم التاريخ، مبالغٍ فيه أحياناً، غير مبرر في غالب الأحيان، وقائم على القلق الأصلي؛ قلق فَقْدِ من نحب. كان قد علم أن كريم بن سليمان قد يكون شكّل خطراً في لحظة معينة من وجودهما، ما دام مجرد سماع اسمه استلّ من النسيان الخوفَ العتيق. وهو الآن لا يأمل إلا أن يعرف لماذا. ولا أحد يستطيع مساعدته على ذلك غير شهرزاد.

عندما أنهى حديثه، تحدثت هي بدورها دون خوف أو توجس. قرأت له كتاب الماضي، صفحة صفحة. حكت له عن ليلة النيل، تلك التي استدعاها خلالها إلى العشاء في العوامة التي كان يقطن فيها آنذاك. حصل ذلك قبل زواجهما؛ قبل حتى أن تبدأ قصتهما من خمس عشرة سنة خلت.

كان قال خلال تلك الأمسية:

- (لقد أحببتِ في الماضي، ولا تحاولي إعطاء الانطباع بأن البئر قد جفّت.

- وإذا أكدت لك ذلك.

- لن أصدقك. أنت لا تقدرين إلا على الحب. ولن تستطيعي العيش إلا بهذا الشعور. الحب ماء القلب، بدونه يجف ويذبل كما تذبل الصباح إذا ما حصل للنيل يوماً أن يختفي.

- مع الفارق أن الفيضان يعود كل سنة، أما الحب فلا.

- من كان ذلك الرجل؟

- فيم ستفيدك معرفته؟

- لفك عُقَدِ بعض الخيوط.)

وكما كانت قد تطرقت، تلك الليلة، لكريم، تحدثت عنه الآن أيضاً. تحدثت عن الحرمان الذي ساد قصتهما وما نتج عنه، وعن تلاشي تحابهما بعد ذلك، ثم عن فراغ القلب ومرارته اللذين عوِّضا، بضعة أشهر بعد ذلك، بالشغف العنيف الذي ربطها بريكاردو، والذي لم يكفّ عن التنامي وعن إضنائها إلى حدود هذه اللحظة.

عند مطلع الفجر، كانا قد أفرغا روحيهما معاً.

انتصب واقفاً وخطا بضع خطوات في الغرفة ثم عاد نحوها.

- كنت حدثتني بفينيسيا عن مكان يسمى مزرعة الورود.

- مكان رائع. تملكه العائلة منذ أجيال عديدة. وقد ساعدني على تجاوز حزن موت أبوي وموت ميشيل، زوجي الأول، وتخريب الصباح أيام احتلال نابليون لمصر.

- ما تزالين تزرعين فيها قطناً؟

- الأثمن؛ ذو الألياف الطويلة. لطالما كنتُ توّاقة إلى إنتاجه، وأنا مدينة بنجاحي إلى عالم زراعة فرنسي.

- هذا هو السبب غير المباشر في العلاقة التي جمعت بيننا، أليس كذلك؟

- كنت قد حضرت عندي، بوصفك مشترياً، بتوصية من صديقة مشتركة. كنت المالكة الوحيدة لمزرعة لا يسيطر عليها محمد علي. كنتَ اقترحتَ بسرعة فائقة أن نصبح شريكين. وكدليل على جديتك استقدمت للصباح آلة أمريكية عجيبة تمكن من وضع القطن في حُزم، معوِّضة شغل ثلاثة فلاحين.

- أبريل على الأبواب، أليست تلك فترة زرع القطن؟

أكدت قوله.

- أحب أن أشرف على هذه العملية. أريد العودة إلى مزرعة الورود.

تفرسته مأخوذة بشعور لم تستطع السيطرة عليه.

- إن شئت يا ريكاردو. ذاك هو منتهى رغبتي أنا أيضاً.

- ومتى يبدأ موسم الحصاد؟

- أشهر بعد ذلك. ولنسأل الله أن يكون صعود ماء النيل مناسباً.

شملها بنظرته الزرقاء.

- لا تخشي شيئاً يا شهرزاد. أنا عائد، وسيكون أجود حصاد تشهدينه حتى الآن.

* * *

باريس، ٦ أبريل ١٨٢٨.

كانت قاعة تايتبوت التي تجتمع فيها العائلة السانسيمونية كل يوم أحد غاصة بالناس، كالعادة. تتشكل التراتبية من ثلاث رتب. يجلس على المنصة أعضاء المرتبة الأولى وعلى كراسي الجانب أعضاء المرتبة الثانية.

أما بقية الحضور فتتألف من المقربين وأيضاً من فضوليين من كل نوع قدموا من شتى أرجاء باريس. عمال وفنانون وأناس عاديون، يظهر بينهم نساء وآباء المريدين الجدد: مطرزات وخياطات وصانعات قبعات، كلهن يشعن في القاعة وشوشاتهن الطنانة.

كانت كورين شديد تبدو، بين جورج وجوديث غريغوار، ساهمة.

- انظري، قالت جوديث متحمسة. هناك، ذاك الرجل على اليسار ببذلته الغامقة، إنه سانت أماند بزارد، أحد الرئيسين الساميين. والآخر، ذاك، إنه أليندي رودريغيز. تتلمذ على سان سيمون مباشرة، وهو أحد مؤلفي الشعار الجميل الذي أريتك إياه على الصفحة الأولى من «منتج»، الجريدة السانسيمونية.

- (جميعاً من أجل تحسين أوضاع الطبقة الأكثر عدداً والأشد فقراً).

- برافو، قال جورج. تذكر ممتاز.

- لكن أين السيد أونفنتان؟
- الأب أونفنتان، صححت جوديث. اصبري، لن يتأخر.
أشارت إلى شخصيتين أخريين.
- هما الأخوان بيريير، مصرفيان لامعان. هما اللذان أنشآ القرض العقاري. وعلى اليمين، ذاك الرجل المهيب، إنه رجل الاقتصاد ميشيل شوفاليي. هو أستاذ بالكوليج دي فرانس، والذي بجانبه هو هيبوليت كارنوت، ابن الجنرال الشهير الذي حارب تحت إمرة بونبارت. وهناك، ذاك الرجل الذي يجلس إلى جانب تلك المرأة الجميلة ذات البشرة المخملية، إنه المهندس بولان تلابوت الذي ندين له بسككنا الحديدية.
- عالم رائع! مصرفيون ورجال اقتصاد ومهندسون! لم أكن أتصور أن أدمغة لامعة تتبنى، بهذا العدد، أفكار أصدقائكم.
- ليسوا حاضرين كلهم هذا المساء. هناك آخرون لامعون بدورهم. سأعرفك، الأسبوع المقبل، على النساء اللائي يشرفن على صالون شارع مونسيني. ستزدادين إعجاباً.
أرادت أن تتابع لكن استرعى انتباهَها اهتزاز خفيف بين الجمهور. دوت التصفيقات في الوقت نفسه تقريباً.
- الأب... الأب.
كان رجل - في حوالي الثلاثين من عمره، قوي الصدر، عريض الجبهة، تكسو قسماته لحية كثيفة - قد ظهر على المنصة، عيناه لامعتان حيويتان.
- أخواتي وإخواني الأعزاء. حضوركم يفعم من جديد قلبي حبوراً. شكراً لحضوركم هذا المساء. شكراً على إخلاصكم.
صمت.
- يقول البعض عنا: (هؤلاء ليسوا سوى حالمين.) قد نكون كذلك، غير أن ثمة أنواعاً من الحالمين. هناك الجامدون الذين يقضون حياتهم قاعدين على مداخل المدينة مجترين رؤاهم، حالمين أحلام يقظة متخاصمين ومبشرين بما لا سبيل إليه، مقتنعين في قرارة أنفسهم بأنهم لن يحصلوا عليه أبداً. هؤلاء، إخواني الأعزاء أخواتي، أنا أتفق على أن يدرجوا في عداد الشعراء والطوباويين. ثم هناك الآخرون؛ نحن السانسيمونيين.

تنهد تنهيدة قصيرة ثم قال بصوت قوي:

- حالمون، بالتأكيد، لكنهم يجعلون العالم يتحرك.

حيّت موجة تصفيقات تأكيده هذا. انتظر أونفتنان عودة الهدوء كي يتابع:

- نحن نعيش في عالم لا يقل في شيء عن عالم البربرية. عالم مقُود بـ(كل لحسابه، وكل في بيته)، عالم لا مكان فيه للضعيف وللذي لا إمكانيات له، عالم يحظر الحصول على الحق الأشد اقتضاءً، وهو حق الكرامة.

ارتفعت أصوات مؤيدة، في الوقت الذي وشوشت جوديث لكورين بنبرات إعجاب:

- أليس هذا رائعاً...

أكدت كورين إعجاب صديقتها دون أن تغادر الخطيب ببصرها.

- يجب أن تلخص حياتنا في فكرة واحدة: أن يضمن لكل الناس النمو الحر لملكاتهم. على المؤسسات الاجتماعية أن تتخذ لها هدفاً تحسينَ المآل الأخلاقي والجسدي والثقافي للطبقة الأكثر عدداً والأشد فقراً. وعلينا نحن أن نتخلص من الأشكال السياسية التقليدية ومن المشاهد البرلمانية الخرقاء لسياسة الأحزاب!

دوت تصفيقات جديدة خففت منها متابعة الأب لحديثه.

- والحق أن ما يشكل مثلبة المثالب في سياسة الأحزاب هو أنها جميعها تمارس أيديولوجيا ضبابية! أفواهها ملأى بكلمات من مثل تطوير ونظام وحرية ومساواة وأخوة وسلطة، لكنها كلها كلمات جوفاء.

وأنا أؤكد لكم أنه لا يمكن لأي مجتمع أن يحيا دون مثال. المثال هو طوق نجاة الإنسان، وغيابه يؤدي إلى اختناق الأمة. انظروا إلى فرنسا الآن: هي تنمو، لكن في الظلام. ما الذي يفعله الأمراء الحاكمون غير السعي إلى حجب النور وتخزين الخيرات حتى لا تكون إلا في خدمة منافعهم ومنافع أقلية شبعانة. يجب إعادة النظر في كل شيء. يجب إعادة الاعتبار للنظام. سيصفنا بعضهم بـ«الحداثيين» وهم يعطون لهذه الصفة معنىً قدحياً. إذا كان معنى أن تكون حداثياً هو أن تعرف ما لم يعد مقبولاً، فإنني إذن، ومن كل أعماقي، أطالب بهذه الحداثة.

حيا الجمهور الخطيب من جديد.

- قلت، لا يمكن لأي مجتمع أن يحيا دون مثال، لكن لا يمكنه أيضاً أن يحيا دون دين. وهذا الدين موجود، سبق لأبينا المؤسس أن أعلن عنه: هو المسيحية الجديدة. وهي مسيحية لا تقوم، أيضاً، على القبول الأعمى بالعقائد الماضية، وإنما على البحث الحثيث على الحقيقة؛ ذاك البحث الذي عليه، كي يدرك هدفه، أن يمر، من بين اختبارات عدة، عبر الاعتراف للأب بحيواتنا السابقة.

عند هذه النقطة من العرض، وشوشت كورين لجوديث حائرة:

- ما الذي يريد قوله بـ«الاعتراف بحيواتنا السابقة»؟

- يريد الأب أونفنتان أن يعرف سلوكات المحيطين به. هو ينتظر من حوارييه أن يستسلموا إليه وأن يعترفوا له بماضيهم دون التكتم على شيء.

- ألا ترين بأن هذا قد يكون مزعجاً بالنسبة للبعض؟

ظل السؤال من دون جواب لأن صديقتها كانت قد عادت لمتابعة الخطيب.

- والآن، أصل إلى النقطة المركزية للقاء اليوم. الفرد الاجتماعي هو الرجل، لكنه الرجل الذي لا يمكن فصله عن المرأة.

أصبح صوته أكثر قوة.

- لذلك أقول لكم: أيها النساء، افعلن مثلنا. أنتن من الله، وقد انحدرتن من عند الله، وإذن، فمن حقكن أن تتمتعن بحريتكن! عبّرن عن أنفسكن، عرّفن بأنفسكن وسنحترم كلامكن وأفعالكن. وإذا ما أتيتن لنجدتنا، فعلى ساحة الشرف حيث سنكون مكلومين وليس على ساحة الخمول، حيث نكون مضطجعين متعبين.

وكما كان منتظراً، استقبل هذا الجزء من الخطاب، خير ما استقبل، من جانب النساء.

- لا جديد ولا جيد سيحصل في مجتمع لا يحرر النساء. وهذا التحرير - ولا أخشى تأكيد ذلك - مرتبط حتماً بأخلاق جنسية جديدة، مرتبط بالتحرر! على الحياة الجنسية للمرأة أن لا تعتبر خزياً اجتماعياً. على رغبتها أن تعرب عن نفسها بكل حرية.

تنهد تنهيدة قصيرة قبل يلخص:

- أخواتي، لطالما حزنتن، ومن العدالة أن تُشَرَّفن أيضاً.

ساد في القاعة، هذه المرة، هياج حقيقي. وإذا كانت بعض الوجوه، الذكورية بالخصوص، قد أعربت عن معارضتها، فإنَّ غالبية الجمهور شرعت تصفق بكل قوة.

- إن هذا الرجل لهو بالفعل أب الإنسانية. لا شك في ذلك، قالت جوديث مرتعشة الصوت من التأثر.

اكتفت كورين شديد برفرفة جفن، محدثة نفسها بأن هذه الأفكار التي يتم الدفاع عنها هي أفكار جميلة وعظيمة بالتأكيد، غير أن ثمة أمراً ما يزعجها في هذا الخطاب، لكنها تعجز عن تحديد ماهيته. هل يكون الأمر متعلقاً بذلك الاستطراد الذي أشار إلى الاعترافات الفردية، أم أنه ذاك المشروع المتعلق بأخلاق جنسية جديدة، أم أنه أيضاً ذلك المصطلح الغريب: مسيحية جديدة؟ فهي تجد - وقد ربتها أمها على احترام الديانة الكاثوليكية - هذه التعابير غريبة. وعلى أي حال، فهي لا تعرف، لحد الآن، عن ذلك إلا القليل؛ الشيء الذي لا يسمح لها بأن توجه تهماً. من الأحسن أن تنتظر، وأن تعمل على أن تجيد فهم هذه العقيدة الجديدة. وفي نهاية المطاف، من يدري؟ فربما ألقى، يوماً، السانسيمونيون ببعض الضوء على الحياة الداكنة التي عاشتها حتى الآن.

شبكت أصابعها، خفية، كما لو كانت تصلي، معتمدة، كما علمتها سميرة، على الجزء الشرقي منها، مقرِّرة وضع ثقتها في القدر.

الفصل العاشر

مصر، مزرعة الورود، ٢٥ سبتمبر ١٨٢٨.

كانت شجيرات القطن الثمانمائة تشكل، تحت الشمس المشعة، منظر حقلٍ بَلَقٍ صارخ.

قال ماندرينو، ملاحظاً برضىً:

- انظري، لقد تحقق الوعد الذي قدم من حوالي ستة أشهر. سيكون المحصول وافراً.

مرت ستة أشهر. لم يطرأ لا حدث جلل ولا وثبة لافتة للانتباه. لم يطرأ أي ارتجاج من شأنه أن يهز ذهن ريكاردو. كان الشخص المنتصب إلى جانبها قد تغير، مقترباً يوماً بعد يوم من رجل ما قبل نفران. غير أن التقدم في هذا الجانب ما يزال بعيداً عن نهايته. هو شبيه برسم جداري انفجر فأخذ الفنان يحاول إعادة تشكيله وسط ظلام كامل. وإذا كانتَ بعض القطع قد استطاعت، بشكل معجز، وعلى وميض ضوء خاطف، العثور على مكانها الأصلي، فإن بقية القطع ما تزال دائماً منتظرة في العتمة.

التفتت إليه بلطف.

- أشعر من جديد بالسعادة.

ابتسم.

- هي شبيهة بأي شيء؟

- لا أدري... مثل طفل يتحرك هنا - وضعت راحتها على بطنها. لا أجد كلمة أجمل وأدل للتعبير عن نهاية عقمي. فأنا قد عشت عقيمة منذ نفران

وحتى تلك الليلة في القصر؛ عشت جافة، فارغة، مجتاحة ببيداء.

تملاّها مطولاً. كان جفناها مكحلين، وكانت، كعادتها منذ مقدمهما إلى المزرعة، تعتمر عباءة سوداء. لكن شعرها، هذا الصباح، وعلى غير عادتها في بقية الأيام، كان مضفوراً ومخللاً بقطع ذهبية ومنسكباً على كتفيها.

- أيحلو لك، أيتها السيدة ماندرينو، أن تعرضي ثروتك؟

- لست أعرض ثروتي وإنما كرم زوجي. التعرف على المحظيَّة، من بين الحريم، يتم من خلال القطع الذهبية التي تغطي شعرها.

رفع حاجبيه.

- هكذا، كنت جعلت منك محظيتي؟

- أجل. وأنا في حاجة لأن أستمر في الاعتقاد بأنني ما زلت كذلك.

- عليَّ إذن أن أطمئنك؟

- كل يوم، وكل ساعة.

- أتشكين إلى هذا الحد في قدرتك على إثارة الإعجاب؟

قالت بصوت خفيض وكأنها تحادث نفسها:

- ألست في خريف عمري؟

مال نحوها، واضعاً ذقنها بين أصابعه.

- كيف تتحدثين عن الخريف؟ أنت مشرقة وجميلة مثل مساء اكتمل فيه القمر.

- أنا في الواحدة والخمسين من عمري، يا ريكاردو ماندرينو.

- أعلم. كان ذلك من شهرين.

- عندما كنت أطفئ كل تلك الشموع، كانت جيوفانا، من جانبها، تلج سنتها السادسة عشرة.

كانت نبرة حنين قد تسللت إلى صوتها.

- ألا تكونين غيرانة يا سيدة ماندرينو؟

شرعت تضحك.

- غيرانة؟ ليحفظني الله من أن ينتابني شعور مثل هذا تجاه ابنتي. لا، لكنني عندما أتأملها أكون وكأنني أتأمل نفسي في مرآة. هي تذكرني بسرعة مرور الزمن.

قال، متفكراً:

- العمر، الزمن. . . إذا كان ثمة شيء فقدته تماماً منذ أن عدت إلى عالم الأحياء، فهو مفهوم مرور الأيام. هل هي مشرقة أم باهتة؟ يبدو لي أن الأمس ليس سوى ذكرى اليوم، وأن اليوم ليس سوى ذكرى الغد.

- ها هي ذي صورة جميلة، لكنها نابعة من فلسفة الرجال. لا أعتقد أن هناك امرأة يمكن أن تتبناها. وسواء أكانت هذه المرأة غنية أم فقيرة، جميلة أم غير جميلة، فإنها تبقى واعية بتلك الصباحات التي تستطلع خلالها، أمام المرآة، الآثارَ التي يبصمها الزمن، يوماً بيوم، على قسماتها، شاكٍ كل شيء فيها مما تعتبره أعظم ظلم في الدنيا.

- قد أفاجئك. . . أنا أحب هذا الظلم؛ أحبه لأنه عوض أن يذبلك يحيلك يوماً بعد يوم أكثر جمالاً.

أعربت، بحركة تلقائية، عن الرغبة في الالتصاق به. احتضنته، لكن بخجل وكأنها في سن المراهقة. وبالفعل، فإن أمراً ما كان ما يزال ينبعث من ريكاردو ويمنعها من أن تطلق العنان لغرائزها الطبيعية.

كان هو مَن ضمّها بقوة إلى صدره.

- أتعتقدين أنني سأفلح؟ قال بنبرة حزن.

- عمَّ تتحدث؟

- عن وضعيتي. عن بحثي. هل سأستطيع يوماً أن أعود ذلك الشخص، ذلك الماندرينو الذي أحببته من كل قلبك؟ رجل هو من الحمق بحيث يغطي بآلاف السحلبيات ممرات هذه الإقامة؟ أليس هذا هو ما أكدته لي؟ هل كنت قادراً على الإقدام على حماقة مثل هذه؟

- ما الذي تريدني أن أقوله لك؟ إنني لا أشك في ذلك البتة؟ إنني مقتنعة بأنك ستعود ذاك الشخص؟ سأكون مخطئة، لأنك ماندرينو بالفعل. أنت رجل السحلبيات. أنا أعرف ذلك وأنت الذي ما زلت تجهله. ثم ما أهمية السحلبيات؟ أنا أكتفي، ببساطة، بالسعادة.

قطب حاجبيه.

- لا تتحدثي بهذه الطريقة. السعادة الفاترة تثير من الغيظ أكثر مما تثيره من الشقاء. لا حاجة لي بها. ما أنتظره من المستقبل هو أن أعود من جديد

قادراً على أن لا أشكل إلا فرداً واحداً مع تلك النسخة التي ما يزال يغفو فيَّ جزؤها - الأقوى ربما.

- صبراً يا ريكاردو واشكر الله على ما قطعته من أشواط.

ترك الفينيسي نظرته تهيم في حقول القطن. كانت عيناه تعكسان إرادة قوية في استدخال المشهد، وكأنه يريد التقريب بين صورتين: صورة بعيدة وغير واقعية، وصورة قريبة وملموسة.

- تعال، قالت شهرزاد، لن يتأخر ضيفنا عن الحضور.

- قنصل فرنسا. برناردينو دروفيتي... أتعلمين أن هذا ما أعتبره غريباً منذ أن عدت؟ كل ما له علاقة بالذكريات وبما هو ملموس... تاريخ فينيسيا، وبعض مظاهر الوضعية المصرية، وأشخاص مثل دروفيتي، كل ذلك يبدو لي أكثر وضوحاً من بعض الكائنات من مثل نائب السلطان الذي كنت، بالأحرى، شديد الارتباط به. أليست هذه مفارقة؟

- أنت تطرح على نفسك أسئلة كثيرة يا ريكاردوماندرينو. تعلم كيف تنسى. كل شيء سيبدو لك، آنذاك، بسيطاً.

أمسكت بكفه.

- تعال... عليَّ أن أغير ملابسي.

استجاب لدعوتها منقاداً، دون أن يتخلص من تفكُّره.

- أبي!

كانت جيوفانا تطل من نافذة غرفتها.

- أنا مستعدة. وحسن طهَّم الفرسَيْن.

بدا أنه لم يفهم قصدها.

- ألم تعدني بأن نقوم بجولة على الجياد؟

- سنقوم بها إذن.

- لكنك كنت تحدثت عن هذا الصباح.

- نحن ننتظر السيد دروفيتي.

- لكن يا أبي...؟

- لن يمكث بيننا طويلاً. سنذهب فور مغادرته.

تغمم وجه الفتاة.

- هل أنت متأكد؟
- نعم يا جيوفانا، سآتي لآخذك.
مررت بعصبية أصابعها في شعرها. أرسل إليها ريكاردو إشارة ود قبل أن يختفي.

* * *

أمسك قنصل فرنسا برناردو دروفيتي كأس الشامبانيا ورفعها في اتجاه ماندرينو.
- احتفاءً بعودتك إلينا!
قلّد الفينيسي ضيفه.
- في صحتك، أيها السيد دروفيتي... لكن...
ثم تراجع.
- ربما عليَّ أن أقول أيضاً: (احتفاءً بعودتك؟)
بدا حزن على ملامح القنصل.
- للأسف... في هذه الحال، المجال مجال حزن. إن هذه العودة إلى فرنسا لتمزق قلبي.
تناولت شهرزاد كأس عصير التمر الهندي الذي قدمته الخادمة إليها.
- هكذا إذن، ستغادر القنصلية.
- أنا، يا صديقتي العزيزة، لن أغادر شيئاً. أنا أنفذ الأوامر. هذا كل ما في الأمر. أنا عجوز! لقد قدروا بأن سنّي قد تقدّمت وما عادت تسمح لي باحتلال هذا المنصب. لم يجرأوا، طبعاً، على مصارحتي بذلك، غير أنني قد فهمت جيداً بأنهم، بوزارة بولينياك، قد اعتبروا بأنني ما عدت صالحاً إلا للحرق.
أخذ حفنة فستق وتمتم:
- عجوز... كما لو أن من يبلغ الخمسين يصير عجوزاً.
عبرت ابتسامة ملامح ماندرينو.
- أنا لا أتحدث باسمك يا صديقي. أنا أكبرك بعشرة أعوام ولم يسبق لي يوماً أن شعرت بكل هذا النشاط.
- أفهمك تماماً...

فجأة قطب.

- علماً بأنني قد رافقت بونبارت بمانتو وبمصر، وكنت مرافقاً لمورات - ثم شمر قليلاً كمّ سترته، مشيراً إلى جرح بجانب قبضته -، وجرحت بمارينغو، وأخيراً كنت قنصل فرنسا بالإسكندرية!

- حياة شديدة الغنى، قال ماندرينو. لو كنت مكانك لأخرست مرارتي ولشكرت القدر على كل هذا الكرم.

اكتفى دروفيتي بتحريك رأسه منقبض الملامح.

- هل عيّن خلفك؟ سألت شهرزاد.

- رسمياً، ليس بعدُ. لكن كل شيء يوحي بأنه سيكون هو ألبيرت ميموت. سيؤنبني ضميري إن لم أعترف بأن هذا الشخص ذو كفاءة.

- متى تنوي المغادرة؟ سأل ماندرينو.

- في غضون الأشهر المقبلة. ثلاثة، خمسة، كل شيء متعلق برغبة باريس. لو كان الأمر بيدي لأخّرت رحيلي إلى أقصى أجل ممكن.

شرب من جديد من كأس الشامبانيا وتابع بحماس مفاجئ:

- أتعلمان؟... أنا أحب هذا البلد كثيراً. خصَصْتُه بعشرين سنة من عمري. لقد أضحى بلدي الثاني.

قالت شهرزاد بنبرة مؤاخذة ودية:

- لنقل بأنك قد أحببت بالخصوص آثاره.

- صديقتي العزيزة! حصل ذلك من غير قصد معين!

- برناردينو! لقد هيأت، مع ذلك، مجموعتين رائعتين من الآثار المصرية. اشترى المجموعة الأولى، بعد أن رفضها عاهلكم شارل العاشر، ملكُ سردينيا من أجل متحف توران. وتحتل الثانية، بعد أن قبلها أخيراً شارل العاشر، موقعاً مركزياً في متحفكم العظيم، اللوفر بباريس.

افترّ ثغر دروفيتي مستعداً للدفاع عن براءته، لكن شهرزاد طمأنته:

- غير أنه لا يوجد مصري يكن لك ضغينة. نصائحك وإخلاصك الثابت لنائب السلطان وللمصالح السياسية المصرية، كل ذلك يشكل...

-... شغف بكل ما هو مصري؟ اقترح دروفيتي ببراءة مدعاة.

انخرطت شهرزاد في ضحكة مطولة.

- تماماً يا برناردينو.

- مهما يكن من أمر، فإنني ممتن لك بالتذكير بصداقتي الحقيقية وبإخلاصي. هذه، على الأقل، نقطة لمصلحتي.

التفت نحو ماندرينو.

- بهذه المناسبة، يا عزيزي ريكاردو، ألا تعتقد بأن الوقت قد حان كي تعود إلى عالم السياسة؟ أمس فقط أطلعني، سعادته، على أسفه على أنك ما عدت إلى جانبه.

فتح الفينيسي ذراعيه.

- للأسف، لا أرى كيف أكون ذا جدوى بالنسبة إليه. فإذا كنت قد احتفظت ببعض الذكريات التاريخية، فإنها لمن الضعف بحيث لا أستطيع المخاطرة في أية مغامرة ديبلوماسية.

- يمكنك على الأقل أن تعيد ربط الاتصال بالحقائق السياسية وأن تواصل بالتدريج العودة إلى تقديم النصح للقصر.

أصبح صوته أكثر إلحاحاً.

- السماء كالحة فوق مصر، والباشا في حاجة إلى رجال ثقة؛ رجال مثلك يا ريكاردو.

قررت شهرزاد أن تتدخل.

- إن أخطأت صحح لي! لكن ألا تكون زيارتك الودية مهمة مقنعة؟

ادعى القنصل الاندهاش.

- ما الذي تقصدينه؟

- ألم يكلفك محمد علي بإقناع ريكاردو؟

ترك القنصل للصمت مهمة الإعراب عن اعترافه.

- لا أهمية لذلك، قاطع ماندرينو الذي بدا فجأة متلهفاً إلى المعلومات. فسر بالأحرى لماذا تحدثت عن «السماء الكالحة فوق مصر»؟

- يوم ١٩ يوليو الماضي، قررت فرنسا وإنجلترا وروسيا، في اتفاق مشترك، إرسال جيش إلى اليونان لإرغام ابن الباشا على إخلاء موري. ولحسن الحظ، فقد انتهت الأزمة بإرسال حملة عسكرية فرنسية.

- هل حصل صدام؟ سألت شهرزاد قلقة.

- لا، فبعد أخذٍ وردٍّ وقع اتفاق ينص على إخلاء موري من طرف الجيوش المصرية باستثناء بعض المواقع وإعادة الأسرى اليونانيين الذين ألقى عليهم إبراهيم القبض، وإرسال السفن لضمان عودة الجيش تحت حماية أسطول التحالف.

- متى سيعود إبراهيم؟

- من المحتمل أن يتم ذلك في بداية شهر أكتوبر.

لاحظت شهرزاد بمرارة:

- وبذلك يكون الباب العالي قد دفع بمصر، مرة ثانية، إلى حرب عقيمة.

- هي من العقم بحيث إن سلطان اسطنبول يرفض أن يقدم لمحمد علي أيّ تعويض عما قدمه إليه من خدمات.

- بالاستماع إليكما، قال ماندرينو، أشعر بأن كل هذا شديد التعقيد ويوحي بمتاهة خارقة للعادة.

- لا أريد أن أعاكسك، غير أنني أشير إلى أن هذه المتاهة، لم يكن يَخْفَى عليك، من مدة، أي سر من أسرارها.

رفع الفينيسي رأسه ولسان حاله يقول: (لا أستطيع تصديق ذلك)، ثم تابع:

- لكن ما الذي يريده الباشا على وجه التدقيق؟

- التخلص النهائي من وضعية الخديم التي يوجد فيها بوصفه تابعاً لاسطنبول. ولتحقيق ذلك، ليس هناك من خيار: على الحلفاء أن يضعوا حداً لترددهم وأن يعترفوا لمصر باستقلالها.

- والحلفاء لا يقومون بذلك.

أكد دروفيتي.

- وفرنسا؟ سألت شهرزاد. أنا أعلم أي مكان تحتله في قلب محمد علي. ألا يمكنها التصرف؟

- سبق لك أن أشرت إلى إخلاصي للقضية المصرية. ذاك صحيح. لكنني أضيف بأنني أدافع أيضاً عن قضية بلادي، وأنا مقتنع بالترابط الحاصل بين القضيتين: محمد علي بحاجة إلى عبقرية فرنسا كي يطور قوته؛ وفرنسا

بحاجة إلى محمد علي كي تقيم التوازن مع التأثير الإنجليزي الروسي.

- ها هو ذا أمر واضح. لكن لماذا لا تطبّق بلادك هذه السياسة بوضوح؟

بدا القنصل منزعجاً.

- لأن الأمر ليس بتلك البساطة، فالذين ينوّهون بتقدم مصر يلحّون، هم أنفسهم، على أن يبقى هذا التقدم محصوراً في حدود صارمة.

قطب ماندرينو حاجبيه.

- إن أجدت الفهم، فهم يريدون تحقيق مبدأين متعارضين: من جهة تقوية مصر، ومن جهة أخرى إضعافها! فرنسا تتردد وإنجلترا تحتل المكان، بين الفينة والأخرى. أَقِرَّ بأن هذه السياسة فارغة من المحتوى.

- عندما نريد وصف الحياة السياسية، فإن الحشو يا عزيزي ريكاردو، يصبح عبثاً. الواقع أن الأمر يتعلق بقضية الشرق الشهيرة كلها، أي بتقسيم الإمبراطورية العثمانية. كل قوة تريد قطعة من هذه الحلوى وتتمنى، بالطبع، أن يكون نصيبها هو الأوفر. ولتعقيد الأمور، ها روسيا قد قررت أن تتصرف بمفردها، وأن تواصل الحرب التي بدأت بنفران ضد الباب، بغية مغافلة أوروبا.

- ما هو رد فعل السلطان أمام هذا التهديد؟

- كالعادة؛ يبقى محمد الثاني ضحية أوهامه. يتمنى الانفصالَ المحتملَ بين تحالفِ القوى الثلاث ويتهيأ لمحاربة القيصر.

- يريد نهاية الدولة العثمانية...

- هذا هو شعور محمد علي أيضاً، وهو يحاول باستمرار أن يمسك بالباب على حافة الهاوية لأنه يعلم بأنه سيكون على مصر - وهي التي ما انفكت تنزف - أن تدفع أيضاً مصاريف هذه الحماقة التركية الجديدة. ويكفي على أي حال تصفح الرسائل القادمة من اسطنبول للاقتناع بذلك. فمن أيام، طالب السلطانُ العثماني محمد علي بإرسال مبلغ كبير من المال للمساهمة في الحرب الروسية التركية وأن يرسل فرقاً عسكرية.

تنهد دروفيتي تنهيدة حزن قبل أن يلخص:

- أتفهمان لماذا قلت بأن سعادته في أمس الحاجة لأن يكون محاطاً بأصدقاء حقيقيين وبمستشارين أكفاء؟

شهرزاد هي التي أجابت مستبقة:

- نحن نفهم، غير أنني - وضغطت بكفها على كف زوجها - لا أعتقد بأن ريكاردو، الآن، في مستوى أن يعيد علاقته بهذا العالم. وقد سبق له أن أفنى سنوات من حياته في خدمة مصر، غير مدخر ما استطاع من جهد.

صمتت.

- أرجوكم، لا تعملوا على حرماني مما أعاده الله إليّ.

التفتت نحو ماندرينو باحثة عن مؤازرته. كان غارقاً في أفكاره. هو لم يسمع ما قالته.

* * *

لفّ الليل إقامة الصباح.

كانت جيوفانا جالسة على حافة نافذة غرفتها، تتخيل، في البعيد، كثبان الصحراء بلونها الأكمد.

وهناك، بالإسطبل، من المفترض أن شمس، الفرس الرائع الذي أهداه إليها ماندرينو بمناسبة بلوغها الخامسة عشرة، يغفو ملفوفاً في حنين حزين.

ريكاردو لم يأت كما وعد بذلك.

ذهب لينام دون أن يحييها تحية المساء.

هو الآن، من المفترض أنه ينام إلى جانب شهرزاد.

* * *

قناة السويس، ٢٦ سبتمبر ١٨٢٨.

نفخ يوسف في النار نفخات صغيرة، فاتخذت الجمرات على الفور مظهر قلب أحمر قان يخفق، ثم عاد للجلوس إلى جانب لينانت دي بلفاند.

الصحراء تمتد حولهما، وفوقهما يخيم الليل بنجومه المعلقة إلى ما لا نهاية. ثلاث خيمات، تؤوي العمال وأدوات العمل، تنثر ظلالها مثلثة الشكل.

كبت لينانت ارتعاشة وأصعد على كتفيه غطاء قطنياً ثم مد أصابعه المنفرجة نحو النار.

- غريب أن يكون للبحر وللصحراء قواسم مشتركة. بالنسبة إلي، وقد كنت بحاراً لزمن طويل، أجد بينهما أوجه شبه متعددة.

- لم يسبق لي أن أبحرت، لكنني لا أجد صعوبة في الاعتقاد بذلك.
قرّب ابن شهرزاد بدوره كفيه من اللهب.
- عندما أفكر في أن عمرينا، أنت وأنا، لا تفصل بينهما سوى بضعة أشهر، وأنك قد عشت آلاف المغامرات، فإنني لا أكف عن غبطك يا لينانت.
- أعتقد أنني كنت محظوظاً فقط لأن أباً ضابطاً في البحرية هو الذي رباني، ولأنني حصلت باكراً على شهادة طالب ضابط.
- الأرض الجديدة؛ كندا وأمريكا! الفضاءات الشاسعة؛ الشمس والثلوج. قد تكون حصَلْتَ على زاد من الأحلام والذكريات لسنواتك القادمة.
- أحلام، ربما. تجارب، بالتأكيد.
انتصب يوسف واقفاً. خطا بضع خطوات وتابع قائلاً، وهو يتملى العتمة:
- الواقع أنني إن أردت أن أكون صريحاً معك لاعترفت لك بأن غيرتي متصنعة؛ فحيثما ذهبت، تبقى الصحراء هي التي تحتل الجزء الأكبر من قلبي. فيوم وعيت، حقاً، هذه الشساعة، تغير كل شيء فيَّ، لأن الصحراء، بالنسبة لمن يعرف كيف ينظر ويسمع، تمتلك قوة سحرية.
التحق لينانت بصديقه الذي أضاف:
- هي تصنع من طفل رجلاً، مسرعة بجعله راشداً. والراشد يكف عن تهوره لأن جنونه يُصادر.
- وهو ما يفسر بأن مصر، منذ زمن طويل، قال لينانت متفكراً، لم يحكمها سوى أطفال. أطفال هم من الضلال بحيث عملوا على جعل قناة تجري بمياهها خلف هذه الكثبان... ألْفَا سنة قبل الآن.
صمت للحظة تاركاً للنسيم القادم من جهة الشرق فرصة التَّمْكِينِ لنشيده.
- هنا اشتغل عمال سيسوستريس؛ فبواسطة أدوات بدائية شقوا أمواج الرمال الساخنة وأفلحوا في حفر الجرح الطويل الذي اختلطت فيه يوماً مياه البحرين.
- ربما كانت قوارب الفرعون تُشَاهد خلال ليال مثل هذه.
- من الشعبة نحو بحيرة التمساح، منحدرة حتى الجنوب لتدرك، في

النهاية، البحر الأحمر. أترى! أنا أحفظ عن ظهر قلب مسار هذا الطريق المائي.

جثا وأمسك بحفنة رمل.

- بعد ذلك بزمن طويل، انتصرت حبّات الرمل العتيقة هذه على سيسوستريس. كان لا بد من انتظار فرعون جديد قادم من فلسطين، هو نبشاو، عشرة قرون بعد ذلك، كي تواصل المياه مجراها.

- بثمن قدره عشرون ألف رجل، إن صح قول هيرودوت. قال يوسف، كما كي يؤكد أن له، هو أيضاً، معرفة بالموضوع.

- شارك داريوس الأول، بدوره، في حرب البحرين؛ فبعد خمسين سنة، مع نهاية حكمه، لم تكن القناة محفورة إلا إلى النصف. طراجان هو الذي أنهى حفرها، قرنان بعد ميلاد المسيح. وبعد ذلك بزمن طويل، كان للخليفة هارون الرشيد شرف القيام بالأعمال الأخيرة. منذئذ خبا موضوع القناة في انتظار فرعون جديد.

- أو في انتظار أطفال آخرين...

وقف يوسف.

- قل لي يا لينانت، هل تؤمن فعلاً بأن هذا الربط المباشر بين البحرين قابل للتحقق؟ أنت تعرف أكثر من أي كان بأن تحقيقه تعترضه عوائق متعددة لا نعرف على وجه الدقة كيف يمكننا تجاوزها. وكي لا أذكر إلا مثالاً واحداً، أشير إلى «اختلاف المستويات». فإذا كان داريوس قد أوقف الأشغال فلأن مستشاريه أخطروه بأن شقاً طولياً للقناة قد يؤدي إلى تدفق كبير للمياه، يغرق مصر. وقريباً من عصرنا، هناك لوبير؛ فالبحر الأحمر، كما يرى، يعلو البحر الأبيض المتوسط بتسعة أمتار.

- لقد قرأت مثلك العمل الأولي الذي حرره مهندس بونبارت. وربما كان لوبير مخطئاً عندما صرح بأن الاختلاف في المستوى موجود. على أي حال، وحتى لو كان الأمر كما قال، فلا شيء يمنعنا من أن نتصور شقاً مباشراً. سيكفينا أن نعوض فروق الارتفاع بنظام لحبس المياه. أنا متأكد من أن ذلك ممكن التحقيق. وأنا أنتظر من الكشوفات الطوبوغرافية التي سننجزها هنا أن تؤكد نظريتي.

- أتحب أن أفضي إليك بسر؟ إن إحساساً ما يسر إليّ بأنك على حق.

بدا لينانت مفاجأ.

- لا يمكننا أن نذرع العالم، كما فعلت أنت، دون أن يهبنا الله أو الطبيعة، سيان، موهبة الحاسة السادسة.

- هذا من قبيل إيمان الرجل الشرقي.

- ألستُ رجلاً شرقياً؟

- أيكون هذا الإيمان هو الذي دفع بك إلى مصاحبتي دون إبداء أي تردد؟

- نعم.

- وستستمر في مساندتي مهما حصل؟ مهما تكن الصعوبات التي سنلاقيها؟ حتى لو وجدنا أنفسنا مضطرين لمِعارضة بقية المهندسين، أولئك السادة المتخرجين من مدارس عليا؟

- نعم.

رفع لينانت كفيه، بالتتابع، إلى صدره وشفتيه وجبهته.

- يوسف يا صديقي، لك قلبي وكلمتي وفكري.

الفصل الحادي عشر

منيلمونتون، فبراير ١٨٢٩.

كان الفجر قد بزغ لتوه، شاملاً بخيوطه منزل الأب أونفنتان. كان الجو منعشاً على غير عادته في هذا الفصل، كما أن السماء كانت صافية.

كان إميل بارولت ممدداً على سريره وهو بعدُ تحت تأثير ما حصل له خلال هذه الليلة. ظل للحظة أخرى على تلك الحال ثم خطا حتى أدرك النافذة. أشرع مصراعيها وتنفس بعمق. بدا له وكأن بحراً زمردياً قد دلف إلى شرايينه. كان قد ولد منذ ثلاثين سنة بجزيرة موريس، ومنذئذ سكنته تلك الأرض باستمرار.

رفع جفنيه. نظر إلى السماء متملياً زرقتها، محياه مكسو بعبارة صوفية. كانت الرؤيا التي رآها هذه الليلة خارقة. هي رؤيا سترجّ مستقبل إخوانه السانسيمونيين. السؤال الوحيد الذي لم يجد له إجابة هو: لماذا؟ لماذا تم اختياره، هو إميل بارولت، كي يستقبل الرسالة الإلهية؟ كان قد استطاع، بوصفه أستاذاً للآداب بكوليج سوريز، ومالكاً لموهبة حقيقية في التبشير، قد أفلح في إدراج السانسيمونية ضمن تيار الرومانسية الأدبية. أتُبَرِّر إنجازاته المتواضعة هذا الاحتفال الإلهي؟ لا يهم. لقد كلف بمهمة وعليه أن لا يتردد؛ عليه أن ينقل الخبر تواً إلى الأب.

ارتدى ملابسه بسرعة وغادر الغرفة.

كان المنزل ما يزال نائماً.

عَبَر قاعة الأكل دون ضجيج، وسار في الممر الذي يؤدي إلى غرفة الرئيس الأعلى.

* * *

استمع بروسبير أونفنتان، غارقاً في أريكته، بإمعان إلى حكاية مريده. شبك ذراعيه بقوة، عندما أنهى إميل كلامه.

- أنت بهذا تؤكد الإحساسات الداخلية التي حملتها معي خلال السنوات التي خلفت فيها عزيزنا الكونت روفروي. وقد كانت هذه الإحساسات أكثر إلحاحاً خلال الساعات الأربع والعشرين الأخيرة، لكنني لم أجرؤ على الإفصاح عنها لأحد.

صمت، ثم سأل متوجساً:

- هل تعتقد فعلاً أنه ممكن التوجه إلينا بهذه الطريقة؟

- نعم أيها الأب. ثمة حقائق تأتينا من مكان ما، وتحمل في ذاتها طابعاً مقدساً.

أكد إميل بارولت بحماس:

- لقد صرح الصوت بذلك: نصف المسيح مجسد فيكم! والنصف الآخر ينتظر، سراً، ساعته في جسد امرأة؛ امرأة ما تزال مجهولة لكنها ستغدو زوجتك! وأنتما معاً ستجسدان الألوهية الجديدة!

- وستكون هذه المرأة هي الأم؟

- محررة كل النساء.

الشمس الآن أنارت منحنى الهضبة، واجتاح الضوء الغرفة.

- تكمن الصعوبة في البحث، قال أونفنتان. في أي جزء من العالم سنعثر عليها؟

أجاب إميل بارولت دون أدنى تردد:

- ما عاد يُنْتَظَر شيء من نساء الغرب. هن مفرطات في التشبث باستقلالهن الذي نقلته إليهن العذراء المسيحية. إنهن، في الحقيقة، يطالبن بحرية حصلن عليها سلفاً، كلهن غير قادرات على تصور وظيفتهن الحقيقية ضمن الرباط الذي يجمعهن بالرجل.

- آه...

- سنعثر عليها بالشرق. هناك تنتظر ماري الجديدة.
توقف للحظة ثم أسرَّ:
- أعتقد أنها يهودية.
وبما أن مخاطبه بدا مرتاباً، رأى أن عليه أن يدقق:
- في كل الأحوال، لا يمكنها أن تكون إلا شرقية. وبفضل ارتباطكما سيصبح البحر الأبيض المتوسط سرير زوجية الشرق والغرب اللذين ظلا حتى هذه اللحظة منفصلين.
شرع صوته يرتعش.
- في هذه الرسالة أمر معجز، ويجب أن يتحقق!
انتصب الأب واقفاً، مأخوذاً بحماسة مريده، فخطب متفاصحاً:
- بارولت! هات يدك فوق كل البحار. لقد أعلنتني لفتيات الشرق، وسيرئَنني! أنا أقسم على ذلك بهلالية قمرهن الفضي الذي أتى اليوم ليضع قبلة على وجه شمسي الزاهية.
أمسك المريد، مختنقاً بدموعه، بلهفة، بكفّ رئيسه وقبّلها.
- علينا أن لا نضيع لحظة واحدة. علينا، على غرار مبشري الحروب الصليبية، أن نذيع بحثنا على أوسع نطاق. في جميع أنحاء فرنسا، ولنبدأ بميدي. ستذهب لتذيع الخبر هناك. سيهيئ لك ذلك إبحارك نحو الشرق.
- ليكن الأمر كذلك.
خطا أونفنتان بضع خطوات وهو يتمايل مثل قط، ثم دار حول نفسه وأمسك بذراع بارولت.
- هل يمكنني أن أطلب منك خدمة يا إميل؟
كان صوته قد أصبح خافتاً.
- أعتقد أنه سيكون من السابق لأوانه أن ننقل لإخواننا أو لأي كان فحوى محادثتنا. سيكون بلا فائدة أن نعلن نصف ألوهيتي ما لم تظهر الزوجة.
وعده بارولت بجدية.
- سأكون كتوماً أيها الأب. على الألغاز الكبرى أن لا تُقْتَسَم مع الغير إلا في أوانها، وفقط مع الأرواح المستعدة لتلقّيها.

* * *

أغلقت كورين شديد باب غرفتها وتهالكت على سريرها محاولة التحكم في نحيبها الذي يرجّ جسدها. . . ما أشد ألمها! ما أشد طعم الخيانة! كانت أسطح باريس الداكنة تتمايز أمامها عبر النافذة العريضة التي تفضي إلى الحديقة الصغيرة. أصبحت تعرف كل تفاصيل هذا المنظر كما تعرف كل تفاصيل هذا المسكن الذي تقطنه بعد أن اصطحبها إليه جوديث وزوجها غريغوار منذ ما يقارب الثلاثة أشهر. أجزاء المسكن، الساحة، الجناح، الكشك، ممرات الزيزفون، كل ذلك كان قد أصبح مألوفاً لديها مثلما كان قد أصبح مألوفاً منزل شارع بوتي شان.

كادت، في البداية، ترفض دعوة الزوجين إلى مصاحبتهما، لكنها سرعان ما غيرت فكرتها وهي تفكر في الوحدة وفي الخوف من الإساءة للذين كانت تعتبرهما ذويْ يد بيضاء عليها.

خلال الأسابيع الأولى - ورغم إعرابها عن بعض الضيق من هذا التساكن - لم تستطع منع نفسها من التأثر بإخلاص مساكنيها وكرمهم؛ كما أنها كانت قد تأثرت بملاحظة الطريقة التي تنتفي بها الفوارق الاجتماعية. كان قد ملأ قلبها حبوراً ملاحظتُها أن هؤلاء الرجال والنساء - والذين كانت تنتمي غالبيتهم إلى النخب، إما وراثة أو عن طريق وظائفهم - يقومون هم أنفسهم بالمهام المنزلية الأشد تواضعاً.

كانت، لاشعورياً، قد قاسمتهم عدداً من تصوراتهم وشعرت أنه بالإمكان شمل الكائنات البشرية بحب جديد مختلف، كما أنها كانت قد شرعت تنصت إلى الخطباء - الذين كانوا يتعاقبون بكثرة - بانتباه أكبر وبدون أفكار مسبقة. كان أحدهم بالخصوص، وهو شارل لامبرت- الذي كان قد كلف بالتطوير الديني للعقيدة الجديدة - قد بهرها أكثر من الآخرين. هو يتحدث عن الله بطريقة هي من السمو ومن الاقتناع بحيث تأخذ بلب المستمع.

لكن الضيق الذي استشعرته عند قدومها عاد، خلال الأيام الأخيرة، ليطفو على السطح من جديد. في البداية ضَبَطَت نظرات فاضحة، قليل في حقها وصفُ غمزات، ثم حصلت بعد ذلك ملامسات واحتكاكات أيدٍ وقبلات. كل ذلك كان من الشبهة بحيْث يستبعد أن يكون بريئاً. قرائن كثيرة كانت تطفح خيانة: جوديث ورجل الدين لامبرت عشيقان بالتأكيد؛ صديقتها المخلصة،

موزِّعةُ النبل الأخلاقي، لم تكن سوى امرأة مبتذلة زانية.

أما شارل لامبرت، المبشر المحبوب، فقد كانت سلوكاته أدعى للشبهة. كانت كورين على علم مسبق بأن له رفيقة - ذات صفات ممتازة، كما كانوا يقولون - تسمى بولين رولاند. وبالمقابل، ما كانت تجهله كورين وعرفته لتوها، هو أن رجل الدين هذا كانت له عشيقة أخرى من بين السانسيمونيين الأوائل: سوزان فوالكين! بولين، سوزان، جوديث...

إذا كان القياديون ما يزالون يقنِّعون لعبتهم، فإنهم، على العكس من ذلك، يبدون وكأنهم يعربون عن لذة كبيرة في إعلان روابطهم.

أتكون، إذن، هذه هي الحرية التي يمتدحها الأب أونفنتان؟ هل يتحقق تحرير المرأة بالتخلي عن كل مظهر محتشم وعن كل مبدأ باسم الأخلاق الجنسية الجديدة؟

كانت كورين قد قررت محادثة جوديث في الموضوع، معتبرة أنها غير قادرة على تحمّل ما ترى، مستشعرة اختناقاً ومقتنعة بأن دمها، عاجلاً أم آجلاً، سيلوثه هذا الهواء الفاسد. بالكاد من حوالي ساعة أفرغت قلبها، منتظرة أن تجد في إجابات صديقتها مصدراً للسكينة.

- افتحي عينيك... يا عزيزتي. على الحياة الجنسية أن لا تبقى خاضعة للحكم الاجتماعي. لم يعد مجال لهذا الحكم، فنحن نحيا في زمن آخر. على الرغبة أن تعرب عن نفسها دون قيود. رغبة الرجال أخذت فرصتها سلفاً، وقد آن أوان تفتُّح رغبة المرأة كي تعيش حسيتها المعلنة.

- لكن... الحب؟ والوفاء للكلمة؟

- لا يوجد أي تناقض ما دامت حرية كل فرد محترمة.

- معنى هذا أن الحرية هي مرادف لـ... تعدد الزوجات!

أجابت جوديث بهذا التعقيب المرعب:

- هذا هو القانون الجديد. إن تقاسم الريع لا يقل في شيء عن تقاسم اللذة...

فهربت. هربت كي لا تستمر في رؤية جوديث غريغوار، وكي لا تستمر في الاستماع إلى هذه الكلمات التي تعارض، بعنف، طريقة تربيتها.

حبست انتحاباً أخيراً ومسحت بكمّها خديها المبللين.

بدت لها صورة سميرة وكأنها منعكسة على مرآة متشظية. فكرت من جديد في مهنة «مؤانسة الرجال» التي مارستها أمها. كانت كورين تعتبر هذه المهنة غير حميدة، رغم أنها كانت قد احترست دائماً من ذمها. هي الآن تجدها، بعد مقارنتها بأخلاق هذه الكائنات التي تحيط بها، مهنة فاضلة. لم يكن لأمها خيار. فبما أنها كانت غريبة، في مدينة غريبة، وتتحمل مسؤولية طفلة عليها إعالتها، كان لا بد لها من أن تصارع. كانت كل مرة تسلم جسدها، إنما كانت تفعل كي تعيش. أما هنا فيتعلق الأمر بشيء آخر مختلف: اللذة من أجل اللذة باسم تحرّرٍ مُدَّعى يتجسد في شكل قانون.

ما أشد ظلام الحاضر! وكم يبدو المستقبل أشد إظلاماً! شعرت كورين بضيق. كانت تشعر بنفسها عاجزة عن اتخاذ أي قرار. وأدهى من ذلك أنها كانت تشعر بنفسها ملوثة. حاولت أن ترتب الأفكار المتناقضة التي تتزاحم في ذهنها. آه لو كان الحظ أسعفها فغادرت هذا المنزل! لكن إلى أين؟ شعرت بنفسها أشد يتماً مما مضى؛ هي بلا عمل وبلا مال. اعترتها رغبة في أن تصرخ وأنِ تنقذف إلى الخارج منحدرة عدواً في الأزقة نحو المجهول.

انتفضت. أحدهم طرق الباب لتوه. قبل أن تبدي أي رد فعل، كان المصراع قد انفتح فبدا شبح الأب أونفنتان.

أبدت كورين حركة تقهقر وكأنها مرعوبة، في حين قال الرئيس الأعلى بصوت متأثر:

- ابنتي العزيزة، أعتقد أن هناك أموراً عديدة علينا أن نتحادث في شأنها... تعالي إذن إلى مكتبي، أنا مستعد للإنصات إليك.

* * *

الإسكندرية، قصر رأس التين، مارس ١٨٣٠.

تمددت جيوفانا على العشب مستنشقة ملء رئتيها روائح الفل والياسمين التي تعطر حدائق محمد علي. كلما قَدِم أبواها إلى القصر، تلتجئ هي إلى هذا المكان الذي يصطف على طول ممراته الأثل والغار.

كانت تستمتع، وجهها معروض لأشعة الشمس الآيلة إلى الغروب، بملامسة النور وبدفء العشب تحت جسدها. كانت سحب خبازية اللون

مذهبته قد برزت في الأفق ساحبة معها عربة الغسق. ظلت نظرة جيوفانا موجهة نحو السماء. كانت تأمل أن تجد على صفحتها علامة تُسكِّن الضيق الذي تستشعره من عيشها، أو جسراً يمكنها من عبور الهوة التي تفصلها عن أمها والتي ستفصلها، قريباً، عن أبيها. كلما ازداد تقارب أبويها ازدادا بعداً عنها. وكلما عاد جزء من الذاكرة المفقودة شرع النسيان يطوي جيوفانا. إلى متى؟ هل عليها، هي أيضاً، أن تموت بخليج آخر من نفران كي ينتبها إلى وجودها؟

انتصبت واقفة. عدلت، بحركة عصبية، ثنيات تنورتها وسارت نحو القصر. كان البحر، أمتاراً أسفل موقعها، يمتد ساكناً نحو أضواء الميناء الفوسفورية. حاجز حجري يلقي بظله الرمادي على لجين الماء. رسا إليه زورق شراعي وهو يتهادى على الماء. استرقت نظرة إلى الزورق، مواصلة مشيها. فجأة، وعندما همّت بأخذ الممر الكبير المفضي إلى القصر، انتبهت إلى اصطفاف عسكريين على طول الحاجز، في وضعية استعداد لاستقبال شخصية سامية. في هذه الساعة؟ لكن من يكون أهلاً لهذا الاستقبال باستثناء الباشا؟ والحال أن محمد علي يوجد الآن مع ماندرينو.

استسلمت لفضولها فأخذت الممر الصغير. فمن موقعها ذاك، كان بإمكانها أن تشاهد الأطياف التي تتحرك على سطح الزورق. كان صدى أصوات يصعد نحوها مصحوباً بصوت البحر. قررت أن تقترب أكثر.

أدركت الشاطئ. لامست كومة زبد كعبيها. خلعت صندالها وتابعت المشي حافية القدمين. أدركت بسرعة أسفل الحاجز. بضع درجات صخرية تفصلها عنه. تسلقتها غير آبهة بالعسكريين الذين يبدو أنهم - وهم في وضعية الاستعداد - لم ينتبهوا لوجودها.

أزعجتها أشعة الشمس التي تغرب أمامها في الأفق، فوضعت كفها في شكل أفقي فوق عينيها كي تتفحص الشراع. كان الأشخاص الموجودون على الزورق شاخصين بأبصارهم نحو مؤخرة الزورق، وعلى وجه الدقة، نحو الصاري. تساءلت في البداية عما عساهم يكونون يتملّونه بتلك الطريقة.

كان شكلٌ ما، بين الأرض والسماء، يتداخل مع شكل الصاري، وكان حبل ملتفاً حوله، مشدود طرفه إلى حلقة مثبتة في أعلى الصاري الذي يُمَكِّن

بالتأكيد من الإِخطار بخطر غرق محتمل. كان الغسق الذي شرع يلطخ المشهد بلطخات معتمة، يحيل الرؤية غير واضحة، غير أنه كان بإمكان جيوفانا أن تُقسِمَ إن ذاك الشخص الموجود بالأعلى يعاني. كان ينزل ببطء، ودرجة بعد درجة، نحو السطح. كان ممكناً تخمينُ أنه، في داخله، يزفر ويحشرج ويرغي ويزبد. بعد لحظة - قد تكون بدت له لانهائية - أدرك الأرض، وبحركة خالية من أية مهارة، تدحرج. خالت شهرزاد، عبر خيوط المساء المعتمة، أن الأمر يتعلق بقزم لدقة طيفه.

دوت تصفيقات. سارع أحد لمساعدته على الوقوف. وُضِعَت منشفة على كتفه. جفف شخص آخر العرق الذي كان يتصبب على وجهه.

ما كان لافتاً هو الاهتمام الذي كان يوليه إياه الأشخاص المحيطون به. أخيراً أخذ طريقه منكس الكتفين، بشكل يدعو إلى الرثاء. أصبح انتصاب العسكريين أكثر وضوحاً، وصاح صوت بأمر.

كانت جيوفانا، دون أن يلمحها أحد، قد وصلت إلى جانب العسكري الأخير في الصف. كان الطيف يصعد على طول الحاجز، محاطاً برجلين يبدو من إهابهما أنهما عسكريان.

في هذه اللحظة انتبهت جيوفانا إلى أن الأمر لا يتعلق بقزم وإنما بطفل. طفل في الثامنة أو التاسعة من عمره، لا أكثر. أول ما يثير الانتباه فيه هو بدانته إذ كان كثير اللحم، ثم كفّاه الشبيهتان بكفّي رجل.

ما عاد يبعد عنها إلا بخطوات. الحقيقة أنه كان يجر نفسه أكثر مما كان يمشي. وبالموازاة مع اقترابه، كان بإمكان جيوفانا أن تميز ملامحه بوضوح أكبر. وجهه ممتلئ مستدير، شعره مجعد كستنائي غامق. بكلمة، كان وجهه شبيهاً ببقية الوجوه. غير أن كل شيء كان يتجمع في عينيه. كان يُلْمَحُ فيهما لون يذكر بمياه النيل الجامحة: سواد ميال إلى شقرة شبه داكنة. قالت جيوفانا لنفسها بأنها لن تنسى أبداً ما اكتشفته فيهما: لامبالاة مطلقة بكل تشجيع، وحنين بارز، ووحدة ظاهرة تجاه هذا العالم الذي يحيط به.

- سيدي. . . أعذرني، قال أحد الرجلين اللذين يتقدمان إلى جانب الطفل. يجب تسريع الخطى وإلا فإن التمرين سيكون غير تام.

قطب وجهه، وأجهد نفسه كي يسرع.

- أكثر استقامة يا سيدي. على انتصابكم أن يكون أكثر استقامة، والكتفان منسرحتين.

- نعم، يا عمر... نعم... أقوم بما أستطيع.

- أنت أمير، والأمير يستطيع كل شيء. الكتفان منسرحتان!

حاول الطفل ما استطاع تنفيذ النصيحة، لكن معاناته كانت شديدة.

- أدخل بطنك.

تنفس الطفل بعمق وحبس نَفَسه؛ لكن دون تأثير واضح.

وفجأة لمحها.

هل استشعر عطفها عليه؟ رأته ينفصل عن مرافقيه ويقترب منها.

- سعادتك، قال الجلاد متعجباً، إلى أين أنت ذاهب؟

بدا أنه لم يسمعه.

كان قد وصل إلى جانب جيوفانا.

- مساء الخير، قال بلطف.

- مساء الخير.

- من أنت؟

- اسمي جيوفانا، جيوفانا ماندرينو. وأنت؟

بدا مفاجأً.

- أنا سعيد، سعيد باشا. ولي العهد.

ابتسمت.

- ابن محمد علي؟

أجاب بالإيجاب، بجدية مؤثرة.

- سعادتك، وشوش الجلاد، الوقت متأخر، ومعلمك السيد كوينيج بيك ينتظرك.

بدا أنه لا يريد الاستجابة، مأخوذاً بانجذاب غريب.

دون أن تفكر، ومستسلمة لرغبة داخلية لا تستطيع تفسيرها، مالت على الأمير الصغير وطبعت قبلة على جبينه.

بدا اندهاش خفيف على وجه الطفل. شعرت وكأنهم يفرقون بينهما.

عندما أدرك نهاية الحاجز نظر في اتجاهها من جديد، معطياً الانطباع بأنه يريد أن يحفر في روحه، وإلى الأبد، بصمة وجه صديق.

* * *

كانوا مجتمعين، لأكثر من ثلاث ساعات، في قاعة الديوان الكبرى. ازداد الجو خلال هذه الساعات الثلاث ثقلاً، إلى أن أصبح خانقاً.

كان في القاعة، على أرائك من المخمل الموشى، هنري سالت قنصل إنجلترا وبرنار دروفيتي قنصل فرنسا، وبين الديبلوماسيين جلس بوغوسيان وزير الشؤون الخارجية.

أما ريكاردو ماندرينو فكان يجلس في عمق القاعة مدثراً في صمته النابه.

قال محمد علي بصوت يوشي بالغضب:

- لا، يا سيد سالت، أكرر لك أن مصر لن تقوم لنجدة اسطنبول.

- رفضكم لمؤازرة قضية السلطان محمود وللدفاع عنه ضد اجتياح محتمل لتركيا من قبل قوات القيصر لا يمكنه إلا أن يحدث أسفاً ويثير لوماً لدى حكومة صاحب الجلالة.

- إنني أعترف يا زميلي العزيز، قال دروفيتي، بأنني لا أعرف سبباً لإلحاحكم. أنتم تعلمون بأن فرنسا مستعدة لتقسيم الإمبراطورية العثمانية، في حال تنفيذ روسيا لتهديداتها، وفي حال ما إذا سقطت اسطنبول.

- تقسيم تحت الضغط سيبدو شبيهاً بتوزيع. وفضلاً عن ذلك، فإنه غير وارد أن تصبح تركيا دولة غير مستقلة.

مال محمد علي بجزئه العلوي نحو القنصل.

- أخبرنا يا سيد سالت، من أين أتتكم هذه الرغبة المفاجئة في حماية استقلال الأمم؟ لماذا هذا الإلحاح الغريب على رؤية مصر تنخرط في مواجهة - أكرر لكم - لا تهمها؟ لقد كلفت حرب موري بلادي عشرين ألف فرنك وثلاثين ألف رجل وأسطولي.

صمت.

- أتدري أية عملة هي الأكثر رواجاً في الأوساط التركية؟ (ستحارب تركيا إلى آخر جندي من جنودها... المصريين). ألا تكون هذه هي الرغبة السرية لإنجلترا أيضاً؟ لماذا لا تجيب يا سيد سالت؟

- لأنه إن أجابك، جلالتك، سيكشف عن سره!

توجهت الأنظار نحو ريكاردو ماندرينو. كان قد غادر مكانه وشرع يخطو نحو سالت.

- ستبقى السياسة الإنجليزية، في العمق، هي نفسها؛ هي لا تتغير إلا في الشكل؛ هي لن تؤيد أبداً رؤية نائب السلطان. تذكروا! فقد شجَّعَتْ فوضويةَ المماليك حتى تحول دون قيام سلطة مستقرة بمصر. وعارضت تطور مؤسسات حديثة النشأة، معتمدة في ذلك على الامتيازات كوسيلة للضغط. وها هي الآن تريد أن تدفع بمصر إلى حرب جديدة. لماذا؟ ببساطة كي تجعلكم تستنفدون جزءاً من طاقتكم خارج أراضيكم. في حال الهزيمة، سيكون بإمكانها الإجهاز عليكم. وفي حال الانتصار ستتصرف، كما فعلت دائماً، كي تمنعكم من أن تجنوا منافع من نصركم.

أصبح صوته أكثر قوة وهو يتابع:

- هل عليّ أن أذكّرك، سعادتك؟ لقد منعك بلد السيد سالت من فتح الحبشة في الوقت نفسه الذي تركتكم فيه تنجزون فتوحاتكم القيمة بالسودان وبالعربية، وستستنفدون قواتكم وكنوزكم باليونان، كي تقصم ظهركم، أخيراً، بنفران. ليس هذا كل شيء؛ هي على علم بالصداقة التي تجمعكم بفرنسا. وليخلُ ذهنكم من أي وهم: إنها لن تترككم أبداً تتحالفون مع هذه القوة العظمى. أبداً، لن تكون إنجلترا إلا ما كانته على الدوام...

نظر في وجه سالت مبتسماً ابتسامة صفراء.

- جزيرة حيث يتم الاشتراك في الصَّلَف، بعد الاشتراك في المروج الخضراء.

أجهد الديبلوماسي نفسه، وقد امتقع لونه، في أن يتحكم في غضبه.

- أتكون قد فقدت لسانك؟ سأل محمد علي الذي وجد صعوبة في التحكم في نفسه.

كان سالت قد انتصب واقفاً، مرتجف الشفتين.

- أستأذنك، سعادتك، في الانصراف.

أشار محمد علي إلى الباب بحركة مؤدبة، لكنها جافة. وبعد أن انصرف القنصل، علق محمد علي:

- ريكاردو بيك، إنه لأمر مدهش. تُتَداول إشاعات حولك. يبدو أنك كنت قد فقدت ذاكرتك.

لم يجب ماندرينو على الفور. كان يبدو شارداً.

- لا أدري، يا سيدي، هل أنا من تكلم أم أن شخصاً آخر هو الذي نطق بصوتي. لا أعرف يا سيدي.

- لا يهم ما دام الاثنان هما ماندرينو نفسه.

لاحظ دروفيتي، ذاوي الوجه:

- إذا كانت لديك النية في التوجه، يوماً ما، إلى إنجلترا، فإنني أعتقد أن عليك أن لا تعود إلى التفكير في ذلك.

- عليّ إذن أن آمل أن تكون فرنسا مضيافة أكثر.

- قل لي يا ريكاردو بيك - تدخّل بوغوسيان - إنني، دون أن أنتقص شيئاً من قيمة تحليلك، أنبهك إلى أن مصر ستكون معزولة إن ابتعدت عن إنجلترا.

ثم دقق كلامه وهو ينظر في وجه دروفيتي:

- ما دامت حكومة شارل العاشر لم تقرر بعد، للأسف، مساندتنا بشكل واضح!

بدا الفينيسي متفكراً، ثم تهالك على الأريكة التي غادرها هنري سالت.

- ثمة سبيل يُفتح أمامكم، جلالتك. إنني أرى فيه فرنسا تمشي بجانبكم.

مسّد بآلية شعره وهو يشرح:

- لقد دشنت فرنسا، من وقت قريب، سياسة إفريقية تستهدف نشر سلطتها على الدول المشكلة من بربر. ونحن نعلم أن الجزائر تشكل جزءاً من أولوياتها. ما يزال الداي الحسين بن الحسين، الذي يحكم البلد تحت إمرة تركيا، يتابع حروبه بالبحر الأبيض المتوسط، متجاوزاً قرارات قمة إكس لاشابيل. وقد ازدادت علاقته توتراً عندما استولى قرصانان جزائريان على سفينتين، فاحتج القنصل الفرنسي دوفال على الحسين. لكن حافي القدمين هذا لم يجد من رد خيراً من أن يضرب الديبلوماسي بذلك الشيء الذي يهش به على الذباب، رافضاً الاعتذار بعد ذلك. منذئذ أصبحنا على علم بأن تدخّل

فرنسا في الجزائر هو قيد الإعداد؛ هذا فضلاً عن أن الباب العثماني قد صرح بأنه لا يهتم البتة بالمسألة.

سأل دروفيتي:

- هل أنا مخطئ؟

- لا أعتقد.

- ستواجه فرنسا، كي تنفّذ مخططها، وهو أمر حتمي، إنجلترا وتركيا. غير أن فتح الجزائر لن يكون أمراً هيناً. ويمكن لمصرَ قويةٍ أن تصبح نقطة دعم للسياسة الفرنسية بإفريقيا. وكي أوضح: أقترح أن يتولى إبراهيم باشا، ابن صاحب الجلالة، قيادة بعثة يشارك فيها الفرنسيون.

ثم سأل بوغوسيان بيك:

- كم يمكننا أن نوفر من الرجال؟

- حوالي ٢٠,٠٠٠ رجل من الجيش النظامي ومثلهم من البدو.

- اعتماداً على هذه الجيوش وعلى الكفاءة الحربية لإبراهيم المدعوم بالكولونيل سيف، ستكفينا بضعة أيام لنصبح أسياد الجزائر.

مسد محمد علي، حالماً، لحيته.

- هكذا تقترح أن أشن حرباً بدلاً من فرنسا؟

- لقد قمت بذلك مراراً لصالح السلطان، دون أن نجني من ذلك شيئاً.

- مما يعني؟ سأل دروفيتي.

عبر شعاع زرقة عيني ماندرينو.

- سوريا لمصر، والاعتراف لها بالاستقلال.

شرع محمد علي يذرع الغرفة بخطىً موقعة. بعد لحظة، صرح:

- أنا أتفق تماماً مع هذه الخطة، فهي تفتح لمصر آفاقاً لم تكن مأمولة. وبقي على صديقنا دروفيتي أن يعرضها على حكومته.

- سأقوم بذلك يا صاحب الجلالة. وربما كانت هذه الخطوة هي الأخيرة بالنسبة لقنصل تنتهي مهمته. أعدك بأنني سأقوم بذلك وأنني سأدافع عن الفكرة بكل قواي.

انثنى محمد علي ملتحقاً بأريكته.

- ماندرينو بيك...

- جلالتكم.
- أتدري ما الذي آسف له؟
- ما هو، جلالتك؟
- أن لا يكون بإمكان كل الناس أن يصابوا بفقدان الذاكرة.

* * *

كانت الرطوبة قد مكّنت لليل المخيم على الصوامع. حوانيت نادرة تغشو بعض النور الباهت إلى الممرات المتربة حيث ترتسم خطى ماندرينو البطيئة. تختلط أصوات معدنية، غاضبة، بروائح الياسمين والحشيش المضمخ بالعسل. أحدهم يعزف على آلة العود، غير بعيد من هنا، فوق سطيحة. موسيقي أصابه الأرق، فكر ماندرينو، أو أنين روح معذبة.

ها هو ذا يمشي من أكثر من ساعة في الطرقات المتشعبة والإنارات الشاحبة؛ فكره متّقد كما لو أن حقيقة ملغزة ألقت على دماغه بضربة ساطور رهيبة.

عبر مقدمة مقهى؛ بدوي لا عمر له، معتمراً عمامة تتخللها خيوط دقيقة مذهبة، جفناه نصف مغلقين، يمص بإجلال فم أنبوب نرجيلة: جلده مشمر لكثرة ما لفحته رياح الخمسين وما حط عليه من ملح البحر. أنفه معقوف مجعد. غير أنه كان ينبعث من هذه الخشونة ما يشي بطعم الحياة الرائقة. كان ممثلاً لصورة الإسكندرية.

الإسكندرية؛ شاهدة ومبدعة... كما لو أنها قد امتلكت قدرة إعادة تشكيل ذاكرة ماندرينو، فبعثت فيها دفقاً من المعارف ظل حتى الآن مصادراً من قبل مرفأ آخر، هو مرفأ نفران. كانت المدينة العتيقة قد أقسمت ربما إن الساعة قد أزفت كي تضع توقيعها المهيب.

توقف ريكاردو على مشارف مصنع السفن. قصر رأس التين هاجع تحت النجوم. شبه جزيرة فاروس، حاضنته، تشع الآن في خضم رطوبة المساء.

شعر الفينيسي بالدموع تصعد إلى عينيه. هو متأكد الآن؛ جزء جديد من حياته عاد إلى البروز.

خزن كل معلومة مهما تكن بلا قيمة، وكأنك تجمع كثيراً من الأسلحة التي ستحتاج إليها في السيطرة على القلعة التي تختفي فيها نسختك الثانية.

ذلك أنها، بكل تأكيد، موجودة هناك، مختفية في زاوية من دماغك. هي ما يطلق عليه الإغريق «إنانسيوس»، أي النقيض.

لم يسبق لكلمات الدكتور كلوت أن كانت بهذا الوضوح. لم يسبق له أن كان، كما هو الحال هذا المساء، بهذا القرب من نسخته الثانية. أحيا فيه هذا الاعتمال الداخلي الذي أججه ذاك التشوش المفاجئ، إثارة طفولية؛ رغبة في الصراخ. لكن، وفي الآن نفسه - وهو أمر يدعو إلى الاستغراب - كان شعور قد انبعث فيه، دقيقاً، واخزاً، فتسلل إلى أمعائه وقلصها من الخوف.

الفصل الثاني عشر

باريس، ٢٣ ديسمبر ١٨٣٢، سجن سانت بيلاجي.

- أَستَمِع من عمق سجني إلى الشرق يستفيق غير شارعٍ في الإنشاد بعدُ؛ أستمع إلى الشرق يصرخ. أرى بيرق النبي ملطخاً ممزقاً، والنبيذ يجري مع الدم الملوث بالأفيون في أودية اسطنبول. النيل حطم حواجزه وامتد أبعد مما كان يمتد، جارفاً البذور التي وضعتها يد نابليون وخصبها محمد علي. اتخذ الفعل شكله المتعدد، وهو يقضم الكتاب الأول، القرآن. التشارك الأعظم يُهيَّأ؛ سيكون البحر الأبيض المتوسط هذا العام مشرقاً! من جبل طارق حتى أوسكودار، ينتفض هذا الشاطئ الملتهب وينادي الغرب المنَوَّم بكلماتٍ متشدقه على المنابر. إيطاليا! إيطاليا! ستشهدين من جديد أياماً عظيمة؛ أنت ممتدة أسفل هذه الزيجة العظيمة؛ سماؤك؛ كنيسة سان بيير ستغشي بمظهرها الثري فرح المقترنين؛ أنت لست المستقبل وإنما إرث الماضي العظيم، عطية الأب للابن وللبنت.

وضع أونفنتان على الطاولة النص الذي قرأه لتوه وسأل بارولت.

- ما رأيك يا إميل؟

- ليس ثمة من كلمات، أيها الأب، لوصف إنشاء بهذه الكثافة. إنه لأمر عظيم. إنه لينشد كما ينشد المستقبل. نشيد يصبح أكثر جمالاً لأنه خلق في هذا المكان، في هذه الزنزانة البائسة، بين جدران هذا السجن الذي قادك إليه ظلم الإنسان.

- عندما نحاول، يا ولدي، أن نحلّق، فإن شغل الآخرين الشاغل يصبح هو كسر أجنحتنا.

- وعندما أتذكر أن المحاكم قد تجرأت على اتهامك بالمسّ بالأخلاق العامة!

- ما همَّ سجن الجسد! الروح حرة دائماً في أن تحلّق كما تشاء.

أشار بسبابته إلى الوثيقة.

- ها الدليل. لكن هذا ليس كل شيء يا إميل. يعلم الجميع بأن الوحدة مناسبة للتفكير. فمنذ أن وضعت هنا انتابتني رغبة جامحة في التأمل. لدي أمور مهمة أريد أن أسرّ إليك بها. لكن، قبل ذلك، أين وصلت قضية البحث عن زوجة جديدة؟

قطب إميل بارولت.

- لست راضياً عن نفسي أن أخبرك بأن ثمة انشقاقاً في صفوف رفقاء المرأة.

- انشقاق؟ لكن بشأن ماذا؟

- يختلف بعضنا على المكان الذي سنعثر فيه على الزوجة. أنت تعرف اقتراحي: الزوجة من أصل يهودي وستأتي من المشرق. بعد ذلك أتتني رؤية جديدة: ستظهر في شهر مايو من هذه السنة، بالقسطنطينية.

- القسطنطينية؟

- لكن آخرين، للأسف، من مثل ريغود، يرفضون الانضمام إلى هذه الرؤية. هم متأكدون من أنني مخطئ.

- ما الذي يقترحونه، في هذه الحال؟

- ريغود متأكد من أن الزوجة تعيش بمنطقة الهملايا. وهو يعتمد على نصوص الفيدا لتفسير....

- الفيدا؟

- يتعلق الأمر بمجموعة كتابات وافية، هي أطول من الإنجيل بستة أضعاف، وتجمع أقدم نصوص الهند. يرجعها الهنود الأرثذوكسيون إلى أصول فوق طبيعية؛ إلى قوة إلهية. وريغود يعتمد على هذه النصوص ليدافع عن أطروحته. فالزوجة، بالنسبة إليه، لا يمكن أن توجد إلا بالهند.

مسد أونفنتان لحيته الكثة.
- دون أن أؤيد وجهة نظره، أرى أن علينا أن نعترف بأننا ننظر إلى الشرق بطريقة الباريسيين تقريباً. إننا باختزالنا للشرق في تركيا ننسى كل شعوب آسيا؛ أي نصف النوع البشري.
أراد بارولت أن يحتج.
- انتظر يا إميل. دعني أكمل فكرتي وأطمئنك. هناك عامل آخر يرجح أطروحتك. عامل انبعث من مدة قصيرة؛ خلال ليلة كنت أجهد نفسي أثناءها باحثاً عن قليل من النوم.
انفرجت أسارير بارولت.
- أي عامل؟
- مصر. قناة السويس.
لم يقل المريد شيئاً.
- السويس، كرر أونفنتان.
تناول ورقة مكتوبة وسلّمها إلى بارولت. قرأ المريد: (إلينا يعود دور إنشاء إحدى الطرق الجديدة نحو الهند والصين، بين مصر العتيقة وأرض اليهود القديمة. ستكون السويس مركز حياتنا العلمية؛ سننشئ هناك الفعل الذي ينتظره العالم ليقر بأننا ذكور.)
- أعذرني، لكنني أعترف بأنني لا أفهم. لماذا السويس؟
- كي نحيي المخطط العظيم الذي عرضه، منذ عشر سنوات، سيدنا الكونت دي سان سيمون.
صمت للحظة كي يهب قيمة أعظم لما سيأتي.
- حفر القناة.
- قناة؟
- قناة ستربط بين البحرين: البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر. سيكون بإمكاننا أن ننشئ بين مصر العتيقة والهند القديمة إحدى الطرقات الحديثة التي ستصل أوروبا بالهند وبالصين. وبذلك سيكون لنا قدم على ضفة النيل وقدم بالقدس؛ الذراع الأيمن متجهة نحو مكة والذراع اليسرى نحو روما، دون أن نتحرك من باريس. ستكون السويس هي مركز وجودنا المنتج.

بدا بارولت مصدوماً.

- سنحيي مشروع بونبارت؟ الشخصية التي كان سيدنا يكرهها، كما تعلم، كرهاً عظيماً؟

- أنا على علم بالكراهية التي كان يكنها الكونت للذي كان يسميه «نهَّاب أوروبا». غير أنني أحب أن أذكّرك بأن البعثة الفرنسية كانت سنة ١٧٩٨، وأن «وصف مصر» قد نشر سنة ١٨٠٩. والحال أن سان سيمون فكر، منذ ١٧٨٣، في حفر القنوات. في ذلك التاريخ كان قد اقترح على حاكم المكسيك حفر قناة بانما قصد الربط بين المحيطين. وسنة ١٧٨٧ كان قد اقترح على إسبانيا ربط مدريد بالأطلسي عبر إشبيلية باستغلال الوادي الكبير.

- هذا صحيح. من باب الحق أن نعترف بأنه كان السباق.

- وعلاوة على ذلك، فإننا إن أحيينا مشروع بونبارت فلتحويله بطريقتنا. بالنسبة لقاهر المماليك، لم يكن منتظراً من المشروع أن يكون إلا وسيلة حربية؛ تحدّياً للإنجليز وتهديداً لطريق الهند، أما بالنسبة إلينا فسيكون مشعلاً ينير الإنسانية. حفر قناة السويس لن يكون نصراً تقنياً قادراً فقط على تخليد صاحبه، وإنما سيكون أيضاً استجابة لحاجة دينية. سيكون حفر هذا الثلم الأزرق على خارطة العالم إنجازاً لإشارة سلام وتواؤم وحب بين القارات؛ سيكون همزة وصل بين بني البشر. إن ما أبتغيه من كل قلبي هو التعاون الأخوي بين كل الأمم وكل الطبقات الاجتماعية؛ ما أبتغيه هو انصهار كل الأجناس.

تعمق قلق بارولت. ما مصير البحث عن الزوجة؟

- أتفهم؟ تابع أونفنتان بشغف أكبر، الغاية هي تخصيب الجنس الشرقي، تخصيب الجنس الأسود المؤنث والعاطفي بالمزايا الذكورية والعلمية للجنس الأبيض. وتبدو لي مصر، أرض التاريخ، مناسبة تماماً كي تكون نقطة انطلاق الحلم. وعبر مصر ستتلقى شعوب أفريقيا النور والسعادة.

- غير أنه يلزم، لتحقيق مشروع مثل هذا، مهندسون وجيولوجيون وعلماء رياضيات.

- أعتقد أنهم لن يعوزونا؛ فرجل مثل هنري فورنيل هو في المستوى المطلوب ليتكلف بالجانب التقني. هو رجل تجربة كما أنه الوحيد الذي كانت

له، سابقاً، من بين كل السانسيمونيين، حياة عملية طويلة بوصفه مهندساً.

- يجب أخذ رأي حكام مصر بعين الاعتبار. أتعتقد بأنهم سيوافقون؟

- حكام مصر يُختزلون، يا بارولت العزيز، في رجل واحد هو محمد علي. هو الوحيد الذي يدبر مصير هذا البلد. أنا مقتنع بأن الباشا هو، اليوم، أكبر فاعل في السلطة، يمتلك قدرة على التنفيذ وإرادة نادرتين، كي لا أقول لا مثيل لهما. لذلك أجد صعوبة في تصور رفضه لمشروع بهذا الطموح. ستدرّ عليه هذه القناة، بالتأكيد، ثروات جديدة من أجل مصر. أليس نائب السلطان رمزاً مجسداً لأطروحتنا؟

بدا بارولت مشدوهاً.

- فكر، تابع أونفنتان. تركيز الملكية العقارية والصناعية بين الأيدي الأكثر قدرة على استثمارها؛ أي الدولة. تعبئة الشعب حول أعمال كبرى ذات منافع عامة، الخ.

أعطى بارولت، أمام الحماس الذي كانت تنضح به ملامح مخاطَبه، الانطباع بأنه قد أُفحِم. غير أنه قام، مع ذلك، بمحاولة أخيرة:

- والتمويل، هل فكرت فيه؟

ضرب أونفنتان الهواء بكفه، موحياً بأن هذا الاعتراض قليل الأهمية.

- يمكنه أن يأتي من إنجلترا، شريطة أن تفهم جيداً مصلحتها الحيوية، أو من مؤتمر أوروبي، يشكل نوعاً من التحالف بين حكام أوروبا.

تقوس بارولت، وانتهى بأن ألقى بالسؤال الذي كان يحرق شفتيه:

- إذا كنت قد فهمت جيداً، فالسويس ستعوض البحث عن الزوجة.

- أبداً! انتظار حليب المرأة لا يمنعنا، نحن الرجال، من أن نهيئ الخبز! ستتابع مغامرتك إلى نهايتها. ستذهب يا بارولت. سأقول لك حتى اليوم الأمثل لذهابك. هو يوم ٢٢ مارس.

- عز الربيع!

- أجل، وسيصبح هذا التاريخ هو تاريخ تساوي المرأة بالرجل.

تغيرت ملامح المريد.

- ٢٢ مارس. . . أجل. سيكون يوماً مباركاً.

- هيا! قال أونفنتان بحركة متعالية. هيا يا بارولت! أعلن النبأ الجديد لرفقاء المرأة. أخبرهم بأن الوقت قد أزف.

انتصب بارولت، محمر الوجنتين محموم القسمات.

وبينما كان يتقدم نحو الباب، صرخ أونفنتان:

- وعندما تلتقي بابنة الشرق... حيّها باسمي... حيّها بحرارة.

* * *

نظرت كورين شديد إلى جوديث بريبة.

- مصر؟ أنت متأكدة؟

- أجل يا عزيزتي. علمت بالخبر من أغلايي سان هلير، التي علمته هي بدورها من إميل بارولت. سيكون على السانسيمونيين أن يتوجهوا إلى مصر في غضون الأشهر القادمة. سيكون بإمكاننا، حسب الأب، أن ننجز هناك أعمالاً عظيمة وجيدة.

ترددت كورين قبل أن تسأل:

- و... وجورج وأنت، هل تنويان المشاركة في هذه الرحلة؟

- لا أعلم. أعترف لك بأنني مترددة. عليَّ أن أعهد بالصغيرة ألين إلى شخص ما، لأنني لا أجد مناسباً أن أصحب طفلة أكملت بالكاد سنتها الأولى إلى قطر بعيد مثل هذا.

حط نظر كورين على المهد المستقر في زاوية من الصالون؛ ألين بروسبير بنيلوب، ثمرة مضاجعة الداعية المبجل شارل لامبيرت وجوديث، تنام ماصة إبهامها.

- في كل الأحوال، تابعت جوديث، أنا أظل منبهرة أمام شجاعة الأب أونفنتان. رغم النقد الموجه إليه والسباب والحبس الظالم، يبقى دائماً متيقظاً، ذهنه يعتمل أفكاراً، ولا يفكر إلا في المستقبل.

صمتت وخيّم عليها حزن.

- أفتقد مسكن مينيلمونتان...

تجنبت كورين التعليق. كيف كان بإمكانها أن تعترف لصديقتها بالارتياح الذي شعرت به بعد سلسلة الأحداث التي أفضت إلى عودتهم إلى شارع كاديت بشقة آل غريغوار؟

كان تصدُّع السانسيمونيين قد بدأ يوم ٢٢ يناير من السنة الماضية، مع إغلاق قاعة تايتبوت. بعد ذلك بثلاثة أشهر لقي مسكن مونسينيي المصير نفسه. طوق كوميسير شرطةِ بيليفيل، على رأس مجموعة من الحرس الوطني، مسكن مينيلمونتان يوم ١٢ ديسمبر، حوالي السابعة صباحاً، معتمداً على فصل يحمل رقم ٢٩١ يحظر اجتماعاً من أكثر من عشرين شخصاً. بعد ساعة ولج المنزل وألقى القبض على بروسبير أونفنتان وملازميه الأقربين.

أخرجها صوت جوديث من أفكارها.

- خذي، أنظري ما الذي كتبه الأب في كتاب الأفعال حول رحلة مصر.

تناولت كورين المجموعة الصغيرة. كان الأمر يتعلق بمنشور دوري سلم أونفنتان إدارة تحريره إلى النساء قصد الاهتمام بأنشطة الأسرة. غير أن أنشطة الرجال فقط - وهي مفارقة جديدة - هي التي تمت الإشارة إليها في المنشور.

نحن لا ننادي على امرأة مخصوصة، ولكننا سنعتبر كل أولئك اللواتي سيأتين إلينا، وكأنهن مبعوثات من قبل الله نفسه.

- مما يعني أن الأب سيكون مستعداً ليصحب معه إلى الشرق النساء اللواتي سيعربن عن رغبتهن في ذلك.

- بالتأكيد.

عبر شعاع حالم نظرة كورين.

- أجد فكرة هذه الرحلة مدهشة.

- صحيح؟

تصنعت كورين التأثر بما تقول.

- أليست المرأة هناك هي الأكثر تعرضاً للقمع؟ أليست تعاني في الشرق من أشد أنواع الانغلاق؟ نساء الشرق هن الأولى بمساعدتنا، ألا ترين رأيي؟

- أنت من يتحدث بهذه الطريقة؟ أنت التي لم تفوتي أية فرصة، أيام إقامتنا بمينيلمونتان، لانتقاد أطروحة وأفكار الأب؟

- لقد فكرت. . . واعتقد أنني إن لم أكن بدوت ظالمة، فقد كنت على الأقل مغالية.

- مغالية، كنت كذلك بالتأكيد! عندما أفكر في العنف الذي توجهت به إلى الأب عندما طالبك - بكل روح أخوية - بالإِسْرار باعترافاتك!

عبرت رعشة جسد كورين عندما أثيرت ذكرى هذا المشهد الذي يرجع إلى ما يقارب السنتين. كيف أمكن لجوديث أن تصف اعترافات منتزعة، متلوّة بحكم ظالم، بأنها إِسرار! يكفي النظر إلى الكيفية التي عوملت بها سوزان فوالكان؛ فقد فرض عليها، بحضور زوجها، وهي ترتعش مثل ورقة في مهب الريح، أن تحكي عن الاغتصاب الذي تعرضت له في شبابها. لم يتردد أونفنتان في الإشارة إلى أن خلف المقاومة التي أبدتها سوزان تجاه المعتدي، تثوي، في الغالب، موافقة ضمنية! ثم نطقه، وهو يحتضن السيد فوالكان، لهذه الجملة الرهيبة: «الحق أن الزوج هو الذي يجب مواساته.»

بذلت كورين مجهوداً كي تخفي مرارتها.

– ذاك ماضٍ يا جوديث. لقد نضجت وما عدت أنظر إلى الأمور بالطريقة نفسها.

– أنا سعيدة بأن أسمعك تقولين ذلك. أنت لا تتصورين مقدار الحزن الذي سببت لنا فيه.

– معذرة... لم أكن أقصد ذلك.

ربتت جوديث بحنو على كف كورين.

– هيا، لننس كل ذلك. أليس التسامح هو أولى خصال امرأة سانسيمونية؟

توجهت نحو المهد الذي تنام فيه الصغيرة ألين بنلوب.

– أليست جميلة؟ قالت وهي تشمل الصبية بنظرة حانية.

– إنها رائعة...

كادت تضيف: «من المؤسف أن لا أب لها»، غير أنها قدّرت أن من الحكمة، وبالخصوص من الأجدى، الدفاع عن الفكرة التي راودتها منذ بداية هذه المناقشة.

– قولي، يا جويث، أتعتقدين أن بإمكاني أن أنضم إلى المجموعة التي ستتوجه إلى الشرق؟

– أنت؟ تذهبين إلى الشرق؟

– نعم... أريد المساهمة في تحرير أخواتنا المصريات. أريد أن أخدم القضية.

– أن تخدمي القضية؟

- لم لا؟ لقد قال بأنه مرحَّب بكل اللواتي يردن الانضمام إليه.
- أخشى، للأسف، أن يكون ذلك مستحيلاً.
- إنني أريد ذلك!
خانتها نبرة الضيق في كلامها.
- إذن... هذه الرحلة تأخذ بالفعل بلبّك؟
نكست كورين جفنيها مثل طفلة ضبطت متلبسة بخطأ.
- مهما يكن الأمر، أكرر لك بأن ذلك مستحيل. مصر مرتبطة مباشرة بمشروع القناة، وهو مشروع الأب وحده قادر على الدفاع عنه. والحال أن رئيسنا مسجون. ربما أصبح ذلك ممكناً لاحقاً... عندما يرفع عنه الظلم...
تقدمت جوديث ببطء.
- إذا لم تخني الذاكرة، ما تزال لك أسرة بمصر؟ سبق لك أن حدثتني عن خالة، أخت لأمك.
- نعم، شهرزاد.
- لماذا لا تقولي الحقيقة إذن؟ لماذا لا تعترفين بأن ما يحدوك للقيام بهذه الرحلة ليس هو الإخلاص للقضية وإنما فقط الرغبة في العثور على أقاربك؟
استدارت كورين.
- هذا صحيح. اعترَفَتْ أخيراً بصوت مختلج. لي رغبة في العثور عليهم.
- لكنك لا تعرفين عنهم شيئاً! أنت تجهلين أي حياة يحيونها، كما أنهم يجهلون عنك كل شيء. وقد يبدو لهم ذهابك إليهم وكأنه تطفل. لماذا تريدين إعادة ربط علاقة مع من لم تكن لك بهم علاقة البتة؟
بدا فجأة وكأن خيبة أمل عظيمة قد اجتاحت كورين.
- سأجيبك يا جوديث. أنا أفتقد أمي! لا شيء ولا أحد استطاع أن يملأ الفراغ الذي خلّفته وفاتها. لا خطب الأب أونفنتان ولا مواعظ السيد لاميرت. يحصل لي في بعض الأماسي أن لا أعود قادرة على التنفس. إذن، وكي أخفف من ألمي، أتخيلها إلى جانبي، أتصورها جالسة قربي على حافة السرير تداعب بلطف جبهتي وتحادثني كي تساعدني على النوم. يبقى الحال كذلك إلى أن أنتبه إلى أنها لم تعد بجانبي، وإلى أن الأمر لم يكن سوى

تهيؤات؛ فأبقى جامدة وسط الظلام مثل أولئك المرضى الذين لا يجرؤون على الحركة مخافة إيقاظ الألم. أبقى مترقبة ضوء الصباح، مجتاحة ببرد قارس يذكرني بجثة أمي.

استرجعت أنفاسها.

- لهذا السبب أريد الذهاب إلى مصر؛ كي أستدفئ، كي أندسّ وسط العائلة؛ عائلة حقيقية؛ عائلة من دمي وليست تلك العائلة التي صنعتموها. ها أنت الآن على علم بالحقيقة.

ساد صمت متوتر في الغرفة. توجهت جوديث من جديد، ببطء، نحو المهد الذي تنام فيه ألين بنلوب. تملت الصبية طويلاً ثم وشوشت:

- لم تكن تلزمها أم مثلي، وإنما أم مثل كورين شديد.

الفصل الثالث عشر

مصر، ٢٥ ديسمبر ١٨٣٢.

كانت الكنيسة الصغيرة لدرب الجنينة بالقاهرة العتيقة من الامتلاء بحيث يمكن الظن بأن كل الإغريق الكاثوليك بالبلد قد اجتمعوا فيها خلال صلاة عيد الميلاد هذه؛ والحال أنه لم يكن داخلها أكثر من خمسين شخصاً. قام الأب خوزام بالترتيل - باللغة الإغريقية كما تقتضي التقاليد - وردد الجميع خلفه. رددت قبة الكنيسة النشيد، مؤثراً ودافئاً، ملفوظاً بتلك الحميمية التي تميز أولئك الذين يعلمون أنهم أقلية.

كان يوسف وشهرزاد وجيوفانا قد مزجوا أصواتهم تلقائياً بأصوات الجميع. ريكاردو، من جهته، بوصفه غريباً عن الطقس البيزنطي، ظل محتفظاً بموقف تأمل عميق. والحق أنه خلف هذا المظهر كان ينضح من الفينيسي شعور يشابه شعوراً بالامتنان.

تناولت شهرزاد، خفية، كفه وضغطتها.

تختلف صلاة عيد الميلاد هذه عن مثيلاتها السابقات. كانت ترى في هذه الليلة التي يتم الاحتفال فيها بعيد ميلاد المسيح، بعثاً؛ بعثاً لزوجها الذي عاد من الظلمات. انتصر الإيمان على الموت؛ قطع الأملُ الطريقَ على كلمة مكتوب، تلك الكلمة التي رُبِّيت ضمنها، والتي تسيطر، منذ غابر الأزمنة، على أطفال الشرق. استولت عليها، فجأة، فكرة رهيبة مقيتة، شبيهة بضيق؛ ماذا لو لم تكن كل هذه المعركة التي خاضتها صادرة إلا عن كبرياء؟ ألم

تكن، وهي بعد حديثة السن، تسعى كي تثبت لمن يحيطون بها بأنها قادرة على القيام بأكثر الأفعال جنوناً؟.

لن تكون شهرزاد أبداً سوى فتاة مزعجة بلا تربية. ليس لنا للأسف خيار، أو إذا... ربما نبيعها لأول تاجر زرابي يمر.

كان ذلك صوت أبيها يعود إلى أذنيها؛ صوت يوسف الذي يرقد خلف هذه الجدران، بالمقبرة الإغريقية الكاثوليكية.

اقترنت بهذا الصوت ذكرى كريم، ابن سليمان. لم تكن هي قد أكملت بعد الثالثة عشرة، وكان هو في السادسة عشرة من عمره. كان قد أخبرها لتوه برغبته في أن يصبح كابودان؛ أميرالاً كبيراً، وأن يرحل إلى آخر الدنيا. كانت أجابت:

لقد فكرت. إن كنت تريد أن تصبح كابودان، فسأكون ملكة كل الإمبراطورية.

كان تساءل ساخراً

- وماذا ستفعل الملكة بسلطتها؟

كانت تأملته مطولاً قبل أن تعقب:

- ستأمر الملكة بأن لا يغادر مركبٌ الميناء أبداً!

دائماً ذلك الزهو الذي بلا حدود.

لا. هي لم تصدر هذه المرة عن عُجْبٍ وإنما، على العكس من ذلك، عن تواضع. عندما علمت باختفاء زوجها أدركت أنها لن تستطيع العيش بعده. كانت عاجزة عن أن تذهب أبعد في الحياة دون ريكاردو. كانت بالتأكيد ستلحق به موتاً. ها أربع سنوات انقضين على عثورها عليه، وهي ما تزال، أكثر من أي وقت مضى، ترزح تحت وطأة هذا الخوف الرهيب الذي استشعرته من مدة. أرخت قبضتها عن كف زوجها وآتت حركة صليب واسعة.

- يا إلهي - قالت متوسلة - إذا كان على أحدنا يوماً أن يرحل، فاجعل أن أكون أنا أول الراحلين.

انتهت الصلاة دون أن تنتبه هي إلى ذلك. أخذها ماندرينو من ذراعها فخرجا مسحوبين بزحام المؤمنين.

- ألاحظتم؟ سألت جيوفانا وهي تتأمل الناس حولها. أخذ شكل اللباس

الأوروبي يطغى على عادتنا في اللباس. يخيل إلى المرء أنه في باريس أو لندن.

هز يوسف كتفيه.

- ليس ذلك سيئاً. وعلى أي حال، وفيما يخصني، فإنني أجد صعوبة في أن أتصورني لابساً جلابية.

- بالطبع، يا أخي العزيز، لن يكون ذلك جديداً برجل مثلك، والذي هو، فضلاً عن ذلك، مهندس رسمي. أنت على حق، لنهمل هذا اللباس البربري الذي يلبسه الشعب.

- دائماً الكلمات الضخمة... لو كان بإمكاني فقط أن أفهم لماذا تتخذ الملاحظة الأقل قيمة، في فمك، طابعاً درامياً.

- أنا أعلم، ثمة أيام أقول لنفسي فيها بأن عليَّ أن أرحل.

وسعت الخطو، تحت النظرة المتسائلة لأخيها. كان النهار، بالخارج، منعشاً. يصعد، فوق السطوح المتداخلة للقاهرة العتيقة، عبقُ عطر المسك. كان ممكناً التمييز، أبعد من القباب والأجراس، جدران متشققة هي آثار قلعة بابل القديمة.

سلكوا الممر الضيق المتعرج. كانت عربة تنتظرهم، أعلى قليلاً، يقودها حسين المكلف بالإسطبل. عليهم، ليصلوا إلى العربة، أن يشقوا طريقهم وسط متسولين ومستجدين من كل نوع، تجمعوا كالعادة أمام الكنيسة.

- ها حقيقة الأمور، علقت جيوفانا، من جهةٍ الشمسُ ومن الأخرى القمر. أتساءل عمن سينتهي بالسيطرة على الآخر.

- اطمئني، لن يكون المسيطر هو نحن، عقب يوسف. نحن أقلية. من أيام فقط، شرح لي أحد مهندسي نائب السلطان بأن الجالية الإغريقية الكاثوليكية لا تمثل أكثر من خمسة إلى ستة آلاف فرد. في ظل هذه الشروط...

- إغريق كاثوليك... أنا لا أفهم شيئاً من هذا الاسم. يسموننا إغريقاً ونحن لا يجمعنا شيء بالإغريق. نحن كاثوليك، لكننا لا نتبع الطقس اللاتيني. نحن من أصول سورية، نشأنا على الطريقة الأوروبية، لكننا مصريون.

شرع ريكاردو يضحك.

- أنا سعيد بأن أسمعك تقولين هذا يا ابنتي. لقد حاولت أمك جاهدة أن تشرح لي هذا الخلط، لكنني لم أفهم شيئاً بدوري.

عقبت شهرزاد مع نصف ابتسامة:

- أنا أعلم، على أي حال، بأن اللاتينيين وحدهم ينالون عطفك. أما الآخرون...

آتت حركة احتقار.

- آه! لو كان الأمر كذلك، هل كنت سأسمح لأبنائنا أن يتبعوا الطقس البيزنطي؟

- هذا صحيح. وقد أحسنت صنعاً. أليس الإغريق الكاثوليك هم نخبة هذا البلد؟

صدح ماندرينو بضحكة من جديد.

- أنا أتساءل، عملياً، عمّا إذا لن يؤدي بك التواضع، ذات يوم، إلى الاختناق.

- إغريق كاثوليك أم لا، قالت جيوفانا بجفاف مفاجئ، مصر هي هذا الشعب قبل أي شيء آخر. أناس مساكين عاشوا منذ قرون في بؤسهم.

- دون شك، قالت شهرزاد موافقة. لكن ماذا كان سيكون حالهم لولانا؟

بالطبع... ألسنا النخبة؟

كانت ارتعاشة سخرية على الشفتين قد صاحبت التعقيب.

- نحن كذلك بالفعل.

- مما يمكنك، يا أمي العزيزة، من كل حقوق...

تأملتها شهرزاد مفاجأة.

- عن أية حقوق تتحدثين؟

كان كل جواب جيوفانا أن اندست الأولى في العربة.

سادت لحظة توتر. ترددت شهرزاد، ثم أخذت مكانها بدورها متبوعة بريكاردو ويوسف. أصعد هذا الأخير غطاء العربة، بينما رفع حسين السوط استعداداً للانطلاق.

- لحظة! أمرت شهرزاد.

- ماذا هناك؟ سأل الفينيسي قلقاً.
التفتت نحو ابنتها.
- لم تجيبيني بعد. لماذا هذا التلميح؟
- أي تلميح؟
- أية لعبة تلعبين؟ إن كان لديك رأي، فلماذا لا تعربين عنه بوضوح؟
- لندع هذا، قال يوسف. ستتأخر عن الملوخية، وستغضب خديجة.
- يوسف على حق، قال ماندرينو. سنواصل هذه المناقشة لاحقاً.
ربت على كتف حسين.
- هيا!
رفع الفتى السوط، لكن جاء دور جيوفانا، هذه المرة، كي توقفه.
- سأجيب...
التفتت نحو أمها وقالت:
- بالنسبة إلي، نحن لسنا جديرين بهذا الشعب.
- ماذا تقولين؟
- الحقيقة. فتحت ذريعة أنه كان لنا الحق في الدراسة وأننا نتحدث اللغة الفرنسية؛ تحت ذريعة أنهم مسلمون وأننا، نحن، مسيحيون، نعتبر أنفسنا علية مصر. طبعاً، نحن لا نعاملهم كعبيد. نحن ندللهم ونناديهم بأسمائهم الشخصية ونجزل لهم في البقشيش، لكن هذا لا يمنعنا من أننا، في أعماقنا، نعتبرهم من جنس آخر، جنس الخدم.
- لكن ما علاقة هذا بالتلميح الذي أبديته قبل قليل؟
- قلت بأننا نشكل النخبة. ألا تتمتع النخبة بكل الحقوق؟ أنتِ، خفية وفي أعماقك، تحتقرين هؤلاء الناس.
تأملت شهرزاد ابنتها مذهولة.
- جيوفانا. لقد ولدت على هذه الأرض وأنا أحبها بكل قلبي. كيف أمكنك قول هذا الكلام؟
نقرت صُدغها بأطراف أصابعها.
- مجنونة...
- مجنونة؟ أتكونين قد نسيت بأن سميرة، أختك الشقيقة، قد أُبعدت عن

العائلة لأنها كانت قد قررت الزواج من رجل أحبته، وأن هذا الرجل كان مسلماً، وإذن فهو من الجنس الأدنى؟ أتكونين قد نسيت؟

كانت تتحدث دون أن ترفع صوتها، لكن غضبها كان يوحي بعدوانية مكبوتة. كان غضباً مثلجاً، ضافياً. تابعت بالنبرة نفسها:

- ما الذي قمت به للدفاع عنها؟ لقد تركت جدي يفرض قانونه. ألقيتم بها وكأنها مجذومة.

- هذا غير ممكن... لست جادة فيما تقولين... هذه الحكاية تعود إلى أكثر من أربعين سنة. كنتُ بالكاد في الثالثة عشرة من عمري.

- حتى لو كنتِ أكبر من ذلك بعشر سنوات لما تغير شيء.

- جيوفانا... ابنتي. أنت تذهبين بعيداً. أنت من جديد تستغلين ما أسررت لك به كي...

- هل الخطأ خطئي أنك قد أفشيت لي بأسرارك؟ إذا...

قاطعها صوت ماندرينو دفعة واحدة.

- يكفي! أنت تتحدثين مثل غبية. أمنعك من أن تصدري حكماً على أمك. عليها أو على أي كان!

- لست أنا من يصدر الأحكام وإنما هي!

- كفى! أنت تصبحين مثيرة للسخرية. كيف يمكنك أن تتخيلي بأن تكون أمك قادرة على احتقار كائن بسبب دينه أو عرقه، وخصوصاً عندما يتعلق الأمر بشعب تنتمي هي إليه؟ أنت غبية، افتحي إذن عينيك.

- أفتح عيني؟

كان صوتها قد انقلب فجأة إلى صراخ.

- وأنت يا أبي، لماذا لا تقوم بالمثل؟ لماذا لا ترفع هذه العصابة التي تمنعك من رؤية الحقيقة كما هي؟ هي لم تفعل، باستمرار، إلا أن تلتهمك، تحرقك. لقد خطفتك منا، مني، ومن طموحاتك الشخصية.

- جيوفانا!

- أنت تعتقد بأنك قد عدت لتعيش مع الأحياء، لكنك لم تفهم بأن هذه العودة ليست إلا خديعة! هي التي تحيا فيك. هي وحدها!!

استرجعت أنفاسها قبل أن تقول ضاغطة على كلماتها:
- أنت ميت! لقد مت بنفران!!
وقبل أن يبدي أيٌّ منهم أي رد فعل، كانت هي قد قفزت خارج العربة وشرعت تعدو قدماً أمامها.

* * *

خيّم الليل على الصباح، لافّاً الإقامة في عتمته. المصباح النحاسي الصغير المعلق إلى سقف الشرفة يتحرك ببطء معتملاً بالنسيم القادم من الصحراء. كان ممكناً رؤية الظلال تتمدد وتتشوش على إيقاع تأرجحه.
مرر يوسف كفه على شعر أمه.
- لا أعرف ما دهاها يا أمي. يحصل لي أن أتساءل عما إذا لم تكن أختي قد فقدت صوابها.
- أنت يا ولدي تعرف المثل الذي يقول: «إذا كنت تريد أن ترى كوابيس، فضع سريرك بمقبرة». لأسباب أجهلها، قررت أختك أن تنام بين الموتى. من أشهر أثارت كريم، وهذا الصباح أبويَّ. الحقيقة أن لها عليَّ مأخذاً. ما هو؟ الله أعلم.
التفتت نحو ماندرينو.
- ما رأيك يا ريكاردو؟
عقب الفينيسي متجهماً:
- أعتقد أن ذهن جيوفانا شبيه بالغرانيت: قاس وبارد.
- لقد حدثتها مع ذلك، لاحظ يوسف. ألم تقدم إليك أي تفسير؟
- اكتفت بأن كررت بأننا نعاملها بظلم. وقدمت أيضاً طلباً.
- طلب؟
اتكأ على الدرابزين محدثاً قعقعة.
- الأمر من العبث بحيث لا يستحق حتى أن نتحدث عنه.
- لكن ما هو؟ ما الذي تريده؟
صمت للحظة قبل أن يجيب:
- أن تغادرنا.

وجدت شهرزاد، المشدوهة، من نفسها القوة كي تسأل:
- وبماذا أجبتها؟

* * *

أبقت جيوفانا - الجالسة إلى قدم الجميزة العتيقة - عينيها موجهتين إلى الشرفة، وهي تجتر الكلمات الأخيرة التي تلفّظ بها أبوها:

إذا أردت الانصراف... انصرفي. فقط عليك أن تعلمي بأن هناك حاجزاً عالياً عليك تجاوزه. قد أكون مت بنفران، لكن ذلك لا يكفي للأسف؛ كي تتجاوزي عتبة الصباح، سيكون من اللازم أن أموت مرة ثانية.

هكذا، فحتى الهروب محظور عليها.

اقتلعت بعصبية حزمة نبات وركزت انتباهها على الشرفة. كانا هناك يتحادثان. يوسف انسحب. لم يكن بإمكانها سماع ما يقولانه، لكن من المفترض أنهما يتحادثان عنها.

رفعت عينيها نحو السماء المزينة بالنجوم. يشكل الليل، بالنسبة إليها، دائماً مرفأ وواحة قديمة بملايين السنوات تنام في ثناياها الكائنات المتعبة من حمل معاناتها. آه لو كان فقط بإمكانها أن تذوب فيه...

استمر المصباح يتأرجح بفعل يد لامرئية.

أحست فجأة وكأن شفرة ساخنة تغوص فيها.

كان ريكاردو قد شرع يعانق شهرزاد.

* * *

٢٨ ديسمبر ١٨٣٢.

ما كاد الصباح يبزغ حتى اجتاحت الصباح زغاريد وأصوات حادة مرتعشة، هي طريقة نساء الشرق في التعبير عن الفرح.

قطب ريكاردو حاجبيه وهو جالس إلى المائدة بملابسه المنزلية.

- ما الذي يحدث؟

- عرس، ربما. قال يوسف.

صبت شهرزاد لنفسها كأساً أخرى من القهوة اليمنية.

- وإذن فهو على الأقل عرس الباشا. اسمعوا...

كانت الأصوات تغدو أكثر قوة، مجتاحة كل القاهرة، من أفقر أحياء بولاق إلى مساكن موسكي الباذخة.

انتصب ريكاردو واقفاً.

- لم يسبق لي أن سمعت شيئاً مثل هذا.

- إلى أين؟

- لمعرفة ما يحدث.

سار شهرزاد ويوسف في أثره. بمجرد وصولهم إلى الحديقة التقوا بحسين وهو يعدو في اتجاههم فريسةَ إِثارة قوية.

- ما وراءك؟ سأل ريكاردو. لماذا هذه الزغاريد؟

- لستم إذن على علم؟ ابن باشانا المحبوب يقف على أبواب إسطنبول! لقد أباد الجيوش التركية بقونية.

- إبراهيم؟

- من غيره يا بيك؟ وحده أميرنا قادر على نصر مثل هذا.

- هذا غير ممكن، قال يوسف، ربما كنت مخطئاً.

- ألا تسمع؟ إنها مصر كلها واقفة!

تناظر شهرزاد وريكاردو مشككين. إذا كانا معاً قد أُعلما بالحملة التي قام بها محمد علي وابنه، فإن هذا الخبر قد أخذهما على حين غرة.

- أتعتقد أن إبراهيم قد يكون عصى أوامر الباشا؟ سألت شهرزاد.

- مستحيل.

- عصى أوامره؟ تساءل يوسف. لكن عن أي شيء تتحدثان؟

- لندخل. بعد قليل لن نعود قادرين على سماع أصوات بعضنا بعضاً.

- لكنني، أبي، أريد أن أفهم.

- لندخل. سأفسر لك. لكن قبل ذلك، عليَّ أن أغير ملابسي. تسر لي غريزتي بأننا في غضون الساعة المقبلة سنستقبل مرسولاً من نائب السلطان.

.

كل شيء بدأ منذ عام. كان محمد علي المتذمر من عدم اهتمام القوى الغربية به، والمحبط من موقف الباب، والمصاب بخيبة فشل خطته الرامية إلى

اجتياح شعوب البربر لمصلحة فرنسا - قد قرر الاستيلاء بالقوة على ما لم تمكنه منه الدبلوماسية؛ أي سوريا والاستقلال.

غادر الجيش المصري يوم ١٤ أكتوبر القاهرة، قاصداً في البداية سانت جان دارك التي أصبحت مدينة رمزاً بعد أن تكسر عليها الحلم الشرقي لبونبارت. غير أن إبراهيم، عكس الجنرال الفرنسي، كان قد فهم على الفور بأن سقوط هذه القلعة يقرِّر على سفوح سوريا ويتحقق بحملة لا تبقي ولا تذر. بعد ستة أشهر سقطت سانت جان دارك مثل فاكهة ناضجة.

كشف سقوط هذه القلعة، المشهورة بتمنّعها، عن ضعف الباب، وضاعف من الغل المتأجج سلفاً للشعوب الرازحة تحت النير العثماني. كان هذا السقوط قد أحدث بفرنسا فرحاً حقيقياً تجلى في الإعلان جهراً بأن لفرنسا قوة صديقة. حظي إبراهيم في المنطقة كلها بتقدير كبير ونظر إليه على أنه منقذ. منذ تلك اللحظة فتحت له باب سوريا. دخلها يوم ١٣ يونيو دون أن يلقى مقاومة. لم يصل الجيش التركي المقود بثمانية باشاوات، من بينهم باشا الألب، إلى أبواب مدينة حمص إلا يوم ٧ يوليو. وبينما كان الجنرالات يتبادلون المدح ويدخنون النرجيلة، هجم إبراهيم (الذي لم يكن قد نام إلا على بعد خمس ساعات من حمص وليس ثمان عشرة كما كان يُظن) على الباشاوات بما يلزم من مفاجأة. تحقق النصر في أقل من ساعة. بعد أن تم الاستيلاء على سوريا، كان واجباً التوقف عند ذلك الحد رغم الرغبة الجامحة لإبراهيم في القضاء المبرم على الباب العالي. وبوصف الأمير رجلاً عملياً، فإنه قد قرر إرغام الرأي العام الغربي على أن يعلن بصفة نهائية تأييده لمصر. غير أن تحقيق ذلك ليس له سوى سبيل واحد: اجتياح اسطنبول وإزاحة السلطان وإنهاء الهيمنة التركية. ورغم أن محمد علي ظل صامتاً فإنه كان يؤيد رأي ابنه.

في هذه اللحظة بالذات انتفضت القوى العظمى، التي ظلت سلبية حتى الآن؛ فبمجرد أن أصبح المشروع معروفاً عارضته بصرامة كل من إنجلترا والنمسا وروسيا. بل الأدهى أن فرنسا نفسها أعربت عن عدم موافقتها. فهي مصممة العزم على عدم دعم محمد علي. وهي إذ تدعمه، فشريطة أن لا يتجاوز أبداً الحدود المرسومة، ضمنياً، لتوسعه.

اعترت ريكاردو رعشة طفيفة فغادر الأريكة وتوجه إلى الموقد فحرك الجمر ثم قال:

-لا تترك صيحات الفرح هذه، المنبعثة من العاصمة، أي مكان للشك. لقد تم تجاوز هذه الحدود.

- ما الذي يجعلك متأكداً من ذلك؟ سأل يوسف.

- أشار حسين قبل قليل إلى مدينة قونية. أتعرف موقعها؟

أجاب يوسف بالسلب.

- في قلب الأناضول، على بعد مائة فرسخ من اسطنبول.

- مما يعني أن إبراهيم لم يهتم بالتحذير الغربي، وأن...

قاطعه الوصول المفاجئ لفاطمة.

- أعذرني يا بيك. لكن هناك شخصاً يريد مقابلتك أرسله الباشا.

بدت على ملامح ريكاردو ابتسامة.

- أترون؟ لقد أحسنت صنعاً بتغيير ملابسي. أدخلي هذا الرجل يا خديجة. أنا متأكد أن لديه أموراً هامة يريد إبلاغنا بها.

استولى على شهرزاد، المقرفصة بين المقاعد، شعور رهيب بأمور ستحدث: سيأخذونه مني من جديد.

الفصل الرابع عشر

الاسكندرية، ٢٩ ديسمبر ١٨٣٢.

تناول محمد علي إبريق القهوة الضخم ذا الفم الشبيه بمنقر طير التوكان وصب لماندرينو كأساً جديدة من قهوة اليمن.

- شكراً، جلالتكم.

- لك ذلك يا ريكاردو. ليس في ملك البشر الفانين أن يُخدموا دائماً من طرف باشا.

علت بسمة خرساء شفتي الفينيسي، لكنه لم يعلق. أخذ محمد علي رشفة من السائل الساخن وتابع:

- الحقيقة أن هذه هي طريقتي في التعبير عن امتناني لمن يسارعون بالاستجابة.

- مرسولك دقق بأن الزمن يضغط. كنت سأصاب بأزمة ضمير إن لم أستجب فوراً لندائك.

- مرسولي على حق. الوقت ضيق للغاية.

- قبل أي شيء، أريد أن أتحقق ما إذا كانت الإشاعة صحيحة. قونية، هل...

قال نائب السلطان مستبقاً:

- أجل. سقطت قونية. لقد أفلح ولدي - الذي واجه جيشاً أقوى من جيشه عدداً وعدة، ووُوجه بخيالة تركية تتكون من ١٠,٠٠٠ رجل، وبفضل النصح النابه للكولونيل سيف - في الانتصار على رشيد باشا، الوزير الذي

سارع إلى ملاقاته. كانت المعركة، على ما يبدو، رهيبة، لكن الله كان إلى جانبنا.

- عملياً، قد يكون يجري في شرايين ابنك شيء من دماء الاسكندر الأعظم.

- أو أيضاً بعض من العبقرية العسكرية لبونبارت، وهو أمر لن يفاجئني ما دمت أنا الذي ورَّثته هذا الإرث الباذخ.

- أنت، جلالتك؟

- ومن غيري؟ ألم أولد مثل الإسكندر بمقدونيا. ألم أولد سنة ١٧٦٩ مثل الجنرال الفرنسي؟ هذا المكان وهذا التاريخ ليسا، بالنسبة لمن يؤمن بالقدر، من فعل الصدفة. ثم من يؤمن بالصدفة؟ اللهم إلا بعض الأذهان الضعيفة وغير المؤمنة. وحتى لو وجدت الصدفة، فلن تكون إلا بفعل العلي القدير.

- لن أعاكسك الرأي. يكفيني أن ألتفت إلى الوراء وأن أتملى المسار الذي قطعته منذ نفران كي يوضع حد لشكوكي، إن وجدت أصلاً.

وضع نائب السلطان كفه بعطف على ذراع ماندرينو.

- جيد يا صديقي. نحن إذن ننتمي إلى العقيدة نفسها.

تناول سبحته وشرع، حسب عادته القديمة، يمرر حباتها بين الإبهام والسبابة.

- منذ مدة قصيرة، كنا في هذا المكان عينه. كان ذهنك آنذاك معلقاً بين السماء والأرض، وكنت قلت لك: أنا في حاجة إليك، أتذكر؟

- أجل، سعادتك.

- وإذن فقَوْلي ذاك لم يكن أبداً أصدق مما هو عليه الآن. أنا في حاجة إليك.

ظل الفينيسي يترقب.

- في رسالة مؤرخة بيوم ٢٢ أكتوبر، أبلغت ولدي الأمر الرسمي بعدم تجاوز قونية وبمغادرتها بعد توزيع غنائم الجيش العثماني.

مد نائب السلطان يده إلى مظروف سميك. استخلص منه حزمة رسائل وسلم إحداها لماندرينو.

- ها هو ذا جوابه.

تناول ريكاردو المطوي. قفزت بسرعة بعض المقاطع إلى عينيه:

علينا حسب أمرك أن ننثني عائدين فور وصولنا إلى قونية. غير أنه تناهى إلى علمنا بأن الصدر الأعظم يتقدم نحونا على رأس جيش قوي. وإذا ما تراجعنا فسيتم إرجاع ذلك إلى الخوف وعدم قدرتنا على مواجهة الحديد بالحديد.

أو أيضاً:

يمكننا الزحف على إسطنبول وإزاحة السلطان بيسر ودون صعوبة تذكر. لكننا بحاجة لأن نعلم إن كانت لديك النية في دعمنا حتى نتخذ الاحتياطات اللازمة، لأن التصفية الحقيقية لشؤوننا لن تتم إلا في إسطنبول. إلى هناك، وإلى هناك فقط علينا أن نتوجه كي نملي إرادتنا نحن أنفسنا.

ثم هذا المقطع:

قونية ليست هي إسطنبول. لن يكون الباب العالي مستعداً لإحلال السلام معنا إلا إن دخلنا العاصمة نفسها. أبي، هل عليّ أن أذكرك بأن السلطان العثماني لم يمض عقد سلام مع الروس إلا عندما ولج هؤلاء قلب البلد؟ لولا أوامرك المتواترة التي تحظر علينا كل تقدم لكنت هذا المساء على أبواب إسطنبول. إنني لأتساءل عن الدافع الذي يمكن أن نعزو إليه هذا الأمر بعدم التقدم. هل يتعلق الأمر ثانية بالخوف من أوروبا أم بشيء آخر؟ أرجوك يا والدي أن تتفضل بتوضيح هذا السؤال وبأن تخبرني بقراراتك النهائية في هذا الشأن، فالوقت يضغط...!

أعاد ريكاردو الرسالة إلى نائب السلطان.

- أتفهم الآن في أي وضع أوجد؟

- ما أفهمه، جلالتك، هو أنك تعيش هاجس نفران. تنهيدة واحدة من أوروبا، كلمة واحدة، ورقة تكفي كي تصدر أمراً لجيوشك بالعودة إلى حال سبيلها وتتخلى عن أحلامك.

انفجر الباشا صائحاً.

- أتظن أنني أجهل ذلك؟
- في هذه الحال، أترك الحرية لإبراهيم.
- ماذا تقول؟
- ما يجب، جلالتك. مائة فرسخ تفصل جيشك عن جاحدي إسطنبول. لن تسنح أبداً فرصة مثل هذه. لقد تطرقت إلى القدر؛ إذا سمحت لي بهذه الاستعارة أقول لكم بأن القدر شبيه بامرأة؛ امرأة لم تكف يوماً عن مراودتها عن نفسها. فإذا ما تخليت عنها الآن وهي تهبك نفسها فقد تصيبها بجرح قاتل. ليس ثمة أكثر رهبة من امرأة مهانة.

تناول محمد علي، من جديد، سبحته وجعل يديرها بعصبية حول سبابته.
- تطلب مني إذن أن أستجيب لطلب ولدي.
- هو يعرف أوروبا، فقد قام فيها بجزء من دراسته. وهو يعرف قيمة العمل المنجز. اسمح له بمواصلة تقدمه. استول على إسطنبول ثم فاوض بعد ذلك.

بالموازاة مع تفصيل ماندرينو لحججه، كانت عصبية محمد علي تتنامى. فجأة، اعترت جسد الباشا اهتزازة. وقف وعقد قبضته. أراد أن يتكلم لكن الكلمات اختنقت في حنجرته.
- آه! قال في قمة الغضب. من يخلصني من هذه العاهة الملعونة!

كان ماندرينو ينظر إليه غير مفاجأ، لكن بعطف. هو يعرف مثل كل المقربين من الباشا بأنه غالباً ما يقع فريسة فواق عنيد يفاجئه خلال لحظات التأثر القوية.
- لو كانت شهرزاد ها هنا لأمكنها ربما أن تريحك، سيدي. إذا كنت أتذكر جيداً، فهي قد نالت حبك بإشفائك من الفواق.
- تماماً. عندما مرقت في غرفتي... بالقصر.

أرغمه تشنج جديد على مقاطعة كلامه.
- في عزِّ الليل... كم كانت أرعبتني... لكن لنعد إلى موضوعنا...

تناول بسرعة وقبل أن يواصل، كأس ماء وشربها دفعة واحدة.
- أَترك الحرية لإبراهيم...
- نعم، سيدي. أكرر لك؛ استول على إسطنبول.

تصلب الباشا بفعل اهتزاز جديد. تجمدت قسماته. كان يتأمل، ثابتاً، نقطة محددة أمامه. أوحى حاله لماندرينو بأنه كأنه يواجه رؤية فوق طبيعية. ربما كان يرى عبر حدقتيه المتمددتين انفجار الإمبراطورية العثمانية والسلطان محمود جاث على ركبتيه والبيرق المصري يخفق على قمة مسجد سانت صوفي، ومصر محررة أخيراً.

* * *

كان جسد شهرزاد يتقلص من اللذة متصبباً عرقاً. حبست صرخة فتقلصت عضلاتها، قلبها متوقف وفمها مفتوح مثل غريق يلتمس بعض الهواء. أخيراً تركت جسدها يسقط على صدر ريكاردو.

امتزج الطيفان على التو وتوحد تنفسهما في العتمة.

وشوشت.

- حبيبي... لماذا لا توجد كلمة أخرى غير هذه؟

- لأن العشاق كلهم نهابون، يا حبيبتي. ولأنهم لم يجدوا منذ أن كانت الدنيا، كلمة ألذ على شفاههم.

- اخترع...

- أتعتقدين أن خيالي أكثر تحليقاً من خيال كبار الشعراء؟ عمر الخيام ذاته وجد نفسه مرغماً على تبليل جمله بالنبيذ كي يهبها معنىً جديداً.

- أنت أعظم من عمر الخيام. أنت ريكاردو ماندرينو. أنت مَلِكِي.

احتضنها بقوة وكأنه يبحث عن بلسم لألم.

- أي نوع من النساء أنت! من أين تستقين كل هذه الطاقة؛ هذه الملكة في الحب، حتى لا يخبو حماسك في أية لحظة؟ مر أكثر من عشرين سنة على اقتران حياتينا بكنيسة سانتي جيوفاني إي باولو. ظننت دائماً بأن الحب والرغبة سيستنفدان في زمن أقل من هذا. غير أنه... لا شيء، لا شيء استطاع النيل من هذا الشعور. كل شيء ظل كما هو. كيف وأين تعثرين على قوتك يا شهرزاد؟

ابتسمت.

- كيف أمكنك أن تندهش وكل شيء يأتيني منك؟ لا مصدر لي، وكل ما أفعله هو أنني أحاول أن أدبر العطيّة. هل سيكون لي ما يكفي من الوقت؟

بدا مصدوماً.

- ألسنا خالديْن؟

- أتعتقد؟

صمتت. بدت نظرتها متحللة في صور بعيدة. سأل:

- أين أنت؟

- في حلمي.

- حلم؟

- الحلم الذي أراه من مدة؛ منذ عودتك. حلم أكون فيه شهرزاد؛ شهرزاد الأخرى، الحقيقية، زوجة شهريار. أمتلك في هذا الحلم موهبة الحكي نفسها، التي كانت تمتلكها هذه المرأة الأسطورية، قدرة الاستحضار نفسها التي مكنتها لألف ليلة وليلة من إدهاش زوجها والإفلات من قبضة الجلاد. غير أن من أحكي له حكاياتي ليس هو الملك.

تساءل بملامحه.

- في حلمي، تفتح باب. يتسلل من الباب برد قارس، في الوقت نفسه الذي أرى طيفاً مدثراً في معطف أبيض. أعرف أنه يأتي لينتزعني من الصباح ومنك ومن طفلَي. تراودني رغبة في الصراخ، مرهوبة مرعوبة، غير أنني عوض أن أسعى إلى الهروب، أنتصب وأحادث الطيف. أكلمه... يبتدئ بتفحص ملامحي بفضول. يقترب. يجلس على حافة السرير. ينصت إليَّ بانتباه. كنت أعلم في أعماقي بأنني كلما استمررت في محادثته، نسي مهمته.

انقذفت فجأة على صدر ماندرينو والتصقت به.

- أنا خائفة يا ريكاردو... احمني، أنا خائفة...

- لكن ممَّ تخافين؟. أنا معك.

- خائفة من أن يفرق الباشا بيننا من جديد؛ خائفة من أن يرسلك بعيداً.

- أبداً. لا شيء ولا أحد سيفصل بيننا.

- أقسم على ذلك.

- أقسم لك.

تمددت على ظهرها مطمئنة، فاستعاد قلبها بالتدريج خفقانه الطبيعي.

- هل أخبرتك بأن يوسف سيذهب من جديد إلى قناة السويس؟

- لا، لكن ذلك لا يفاجئني. لقد اقتاده لينانت في حلم. أجهل ما إذا كانا سيدركان يوماً هدفهما، لكنني أجد مسعاهما مؤثراً. أنا سعيد بذلك، أيضاً، لأن ذهناً مشغولاً هو ذهن لا يعرف القلق إليه سبيلاً. أنا، على أي حال، فخور بيوسف. هو ثمرة زواجك الأول، غير أنني أشعر نحوه بالعطف نفسه الذي كنت سأشعر به لو كان من صلبي. من المفترض أن أباه كان سيكون فخوراً به.

- أنا أعتقد ذلك أيضاً.

- أي نوع من الرجال كان؟ لا أذكر أنك قد حدثتني عنه يوماً. أم أنه ينتمي إلى تلك الأشياء التي ما تزال هاربة. اسمه...؟

- ميشيل. ميشيل شلهوب. يكفي أن أقول لك بأن يوسف هو نسخة منه كي تعرف كل شيء.

- كيف توفي؟

- أثناء وقوع اضطرابات... كان ذلك زمن احتلال بونبارت لمصر. اجتاحت عصابة من المتعصبين الهائجين الإقامة. قتلوا الخادمة التي حاولت إرجاعهم إلى رشدهم. قتل ميشيل برصاصة. كنت أنا تحت رحمتهم، محتضنة يوسف. كان ما يزال صبياً. أنا مدينة إليه، على نحو من الأنحاء، بكوني لم أقتل بدوري.

- يوسف؟

- نعم. كان يبكي، مرهوباً. المفترض أن دموعه أيقظت شفقة أولئك الحمقى، لأنهم انصرفوا دون أن يمسونا بسوء.

- أية فاجعة رهيبة! أتساءل إن لم يكن لفقدان الذاكرة بعض الإيجابيات، فهو يمكِّننا من أن نلقي في النسيان ببعض الذكريات التي تؤلمنا.

- الذكريات والكلمات التي ترافقها.

سحبت الغطاء فوقها.

- هل حدثت جيوفانا؟

- ألم تقرر شن الحرب؟ عليها هي أن تتحمل النتائج. وكي أكون جدياً، فإنني لم أجد ما أقوله لها.

- أتعلم أنها تعسة؟

- هي التي تغذي تعاستها. لدي شعور بأنها، على شاكلة تلك الكائنات التي تضرم النار في حيواتها، تنتظر أن لا يبقى سوى الرماد كي تطلب العون. وعلى أي حال، فإنني كما قلت لك، لا أعرف ما أقوله لها.

اجتاحه غضب قوي ومفاجئ. قال بمرارة:

- ألم أمت بنفران؟

* * *

كانت جيوفانا تقطع الممر الذي يقودها إلى غرفتها. استمعت بوضوح للجملة الأخيرة التي تلفظها ماندرينو. توقفت وألصقت أذنها بالمصراع.

* * *

تناولت شهرزاد كف زوجها، محموقة من الاضطراب الذي سببت فيه دون قصد.

- لنكفّ عن هذا يا ريكاردو. أمام جيوفانا كل الوقت كي تصبح راشدة. من المرجح أنه لا ينفع في شيء أن تستسلم لها الآن.

* * *

سمعت جيوفانا خشخشة الأغطية. تخيلت أنهما ينقلبان أحدهما نحو الآخر، فينغلقان مثل مصراعي باب، على ماض، حائلين دون دخول العالم.

* * *

الإسكندرية، ٦ يناير.

كانت «ديوجين» القادمة من تونس، قد رست، مما يقارب الست ساعات، بميناء الإسكندرية، ولم يسمح بعد للركاب بالنزول.

تجمَّع المسافرون في الجهة الخلفية، مطلقين العنان لغضبهم.

- لكن هذا غير معقول! سأشكو إلى الشركة.

- سبعة وعشرون يوماً من الإبحار كي نجد أنفسنا محبوسين مثل حيوانات. هذا لا يغتفر.

- نحن، على أي حال، لسنا مصابين بالجذام!

تواصلت الاحتجاجات للحظة إلى أن ظهر ضابط في الممر.

- أيها السادة! قليلاً من الهدوء، من فضلكم. لدي إعلان أريد إطلاعكم عليه.

ران صمت فوري.

- الأمر هكذا! أنا آسف بأن أعلن لكم أن السيد كوسطال، وهو أحد المسافرين الذين استقلوا السفينة من تونس، قد توفي فجراً عندما أصبحت ديوجين على مسافة قصيرة من الشاطئ المصري. ربما يكون أحدكم قد شاهد نقالة محمولة من طرف السلطات الصحية للميناء. وتقرير الطبيب، للأسف، لا غبار عليه: السيد كوسطال توفي بمرض الكوليرا.

اندلعت حركة اندهاش بين الجميع.

- أيها السادة! أرجوكم... استمعوا إليّ! في مثل هذه الظروف، التي آسف لها، وأنتم لا تشكون في ذلك، يفرض علينا قانون الميناء أن ننحي السفينة لأربعين يوماً. ولا يمكن للمسافرين أن ينزلوا إلا بعد انقضاء هذا الأجل، وليس قبل ذلك.

تأمل الضابط المسافرين قبل أن يلخص بصوت آسف:

- تقبلوا، أرجوكم، اعتذاراتنا القلبية على هذا الطارئ، لكنكم تعلمون أنه لا خيار لنا أمام هذه الوضعية.

بمجرد انصرافه، بدا ظهر السفينة وكأنه سوق رائجة؛ سب واحتجاجات. وحدها شخصية، منفصلة قليلاً عن الجميع، كانت تحافظ على هدوئها بقدرية شرقية خالصة. يتعلق الأمر بشاب ذي قامة متوسطة وجبهة عريضة يعلوها شعر غزير فاحم السواد. لم يكن سنه يتجاوز الثلاثين. بعد أن شاهد، دون اهتمام يذكر، مرافقيه المعتملين، دار على عقبيه وصعد الممر آخذاً طريق قمرته.

ولجها وأغلق الباب خلفه ثم تهالك على سريره. مؤكد أن هذا التأخير يقلقه بعض الشيء، لكن ليس ثمة ما يدعو لأن يسمح لنفسه بأن تهِن. كل ما في الأمر أنه سيتسلم وظيفته بوصفه نائباً لقنصل فرنسا متأخراً بأربعين يوماً. سمح لذهنه أن يتيه، فكان أول من فكر فيه هو ماتيو؛ أباه ماتيو دي لسيبس. كان قد شرع يفتقده، خصوصاً وأن المرض الذي كان يعاني منه هذا الأخير من مدة قصيرة، لم يكن يترك له أملاً في أن يراه من جديد. كان الفراق بينهما رهيباً. لكن لم يكن ثمة من خيار. بذل العجوز ما يكفي من جهد كي يحصل

له على منصب نائب قنصل الإسكندرية هذا. كان يشعر وكأنه يخذله. ثم لماذا لا يعترف بالأمر؟ إن فكرة أن يستطيع أخيراً التحليق اعتماداً على جناحيه الخاصين يوقظ فيه، هو فرديناند، إحساساً حقيقياً بالحماس.

فكر في مصر التي سيكتشفها قريباً والتي لم يتعرف عليها إلا من خلال حكايات أبيه. ذلك أن ماتيو كان يعرف هذه الأرض حق المعرفة. فقد احتل، منذ خمس وثلاثين سنة، وظيفة قنصل مصر، زمن البعثة الفرنسية. كان بونبارت قد كلفه بمهمة سرية: العثور، ضمن الجيش العثماني، على رجل يملك ما يكفي من المميزات كي ينجح في أن يسمَّى باشا القاهرة من طرف الباب العالي، ثم مؤازرة تعيينه بعد ذلك. ويكون بإمكان هذا الرجل، لاحقاً، أن يتحالف مع فرنسا ويدافع عن مصالحها. بهذه الطريقة ساند ماتيو دي لسيبس، بتواضع، تعيين بكباشي بسيط يتيم، قادم من كفاليا، لا يعرف لا الكتابة ولا القراءة، ضابط معوز من الجيش التركي، عاشق لمصر. لكن لا شيء في هذا الشخص كان يؤهله كي يلعب دور التابع. قضى وقتاً وجيزاً، وبعد أن عرف أحابيل السياسة، تخلص من أوصيائه، رافضاً أي تأثر أو أية عرقلة مهما يكن مصدرها. وهو اليوم يتربع، بوصفه سيداً قوياً، على عرش البلاد واسمه محمد علي.

تمدد فرديناند بكسل على السرير. السؤال الذي يطرحه على نفسه الآن هو كيف يمكنه أن يتخلص من الضجر على هذه السفينة وأن يستغل هذا الانعزال القسري على نحو مفيد.

كان ممكناً تخمين، عبر الكوة، قمم الأسوار القديمة للأسكندرية. ارتفع صوت المؤذن في الفضاء الشفاف. اجتاح، رخيماً، الجلبة البعيدة للميناء.

كاد، من انشغاله بالنشيد الرخيم، أن لا يسمع الطرق على باب المقصورة.

قطب حاجبيه... من يكون الطارق.

بدا في إطار الباب رجل أسمر مزينة شفته العليا بشارب لافت يحمل علبة بين يديه.

- دي لسيبس أفندي؟

- نعم.

- اعذرني على الإزعاج. لكنني كلفت بأن أسلمكم هذا. أرسله إليكم السيد ميموت.

اطمأن فرديناند لسماعه اسم رئيسه.

- ليس هذا كل شيء. ثمة هذه الرسالة أيضاً.

فتح فرديناند، بلهفة، المظروف.

صديقي العزيز، أيها الزميل العزيز. لقد أُخبرت بالحادث المؤسف الذي طرأ على متن الديوجين. إنني لآسف لذلك حقاً. تجد رفقته ما تحيل به - هذا على الأقل ما آمله - هذه الأيام الأربعين أقل صعوبة في التحمل. وفي انتظار استقبالك بيننا، تفضل بقبول ترحيبي بك، مع آيات عبارات صداقتي الحقيقية.

القنصل العام لفرنسا

ألبرت ميموت.

- هل من جواب؟ سأل الرجل.

- بلِّغ تشكراتي الخالصة للسيد القنصل.

- حاضر، أفندي.

انحنى الرجل باحترام وانصرف عبر الممر.

بمجرد أن وجد فرديناند نفسه وحيداً، أزاح الغشاء الذي يلف العلبة.

اجتاح قسماته تعبير ارتياح واضح. كتاب. وهو الذي كان يفكر كيف سيشغل وقته. وصف مصر. لم يكن العنوان غريباً عليه؛ يتعلق الأمر بمجموع المعطيات التي جمعها العلماء الذين رافقوا بونبارت خلال الحملة الفرنسية.

تمدد فرديناند، بلهفة، على سريره وشرع يتصفح الكتاب.

لفت انتباهه، صدفة، فصل خاص (مشروع الربط بين البحر الهندي والبحر الأبيض المتوسط عن طريق البحر الأحمر وقناة السويس. بقلم جاك ماري لوبير.)

ما إن قرأ الصفحات الأولى حتى شعر بنفسه يُجتاح بإثارة عصية على المراقبة.

طريق مائي... قناة... عمل جبار.

سيقلص هذا العمل ما يقارب عشرة آلاف كلم من المسافة الرابطة بين مارسيليا وبومباي.

متوالية من الشخصيات غير العادية تنبعث من الأزمنة الغابرة، ساهمت كلها بقليل أو بكثير من السعادة في هذه المغامرة الرائعة.

(سيسوستريس... نيشاو... داريوس... الخليفة عمر، أمير المؤمنين، المنصور، منشئ بغداد... عالم الرياضايات لايبنز، وأخيراً بونبارت.)

آه لو اقترن اسمه، هو فرديناند دي لسيبس، بأسماء عمالقة التاريخ! هل يمكن لذلك أن يحصل؟

الفصل الخامس عشر

الجيزة، إقامة الصباح، ١٠ يناير ١٨٣٣.

ترددت شهرزاد للحظة بعد أن وضعت كفها على مصراع الباب. أصاخت السمع كما لو كانت تتلمس علامة أو جلبة تصبح، في الآن نفسه، مبعث تشجيع لها على ولوج غرفة ابنتها. لكنها لم تسمع شيئاً. هل تكون جيوفانا قد غفت؟ أخيراً دفعت المصراع.

لم تكن نائمة. كانت تتأمل الليل حالمة وهي جالسة على حافة النافذة. وعلى مائدة خشبية صغيرة مخرمة، يبعث شمعدان بنوره النحاسي المترنح.

- مساء الخير، جيوفانا.

لم تجب.

اقتربت شهرزاد من النافذة. شبكت ذراعيها وكأنها تشعر بالبرد.

- ألا تشعرين بالبرد؟

حركت الفتاة رأسها، نظرتها شاردة.

- أتعلمين بأن عيد ميلاد أبيك سيكون غداً مساء؟

لم تبدِ أي رد فعل.

- انصرم أسبوعان وما تزالين ترفضين فتح حوار مع ريكاردو. أتظنين بأنك تؤتين، بذلك، عملاً جيداً؟

- الأمر هكذا.

- يبدو لي، مع ذلك، أن قسوة كلماتك تدل على أنك تريدين صفحه.

- قسوة كلماتي؟

- أمور رهيبة يا جيوفانا. أتكونين نسيتها؟

ارتعشت جيوفانا.

«ألم أمت بنفران؟». طفت من جديد الجملة التي سمعتها بالممر، بضعة أيام من قبل، على صفحة ذهنها. هل سبق لها أن نسيتها؟

- عليك أن تعلمي أن الرجل الذي هاجمته لم يعد هو نفسه الذي عشنا معه قبل مأساة نفران. تطوُّر شفائه مشجع، يفوق توقعاتنا. لكن ذلك لا يعني بأنه لم يعد في ذهن ريكاردو صفحات كاملة قد لا تعود أبداً إلى البروز. إنه رجل مريض. ألا يستحق هذا إشارة مشجعة من طرفك؟

أمام جيوفانا كل الوقت كي تصبح راشدة. من المرجح أنه لا ينفع في شيء أن تستسلم لها الآن.

ضغضطت الفتاة قبضتها.

- مما يعني أن والدي رجل هش.

- أكثر هشاشة من أي وقت مضى.

مررت جيوفانا كفها على طول شعرها.

- لهذا السبب تسيطرين عليه كما يحلو لك؟

انقطع نفس شهرزاد.

- أي شيء تلعبينه؟ تستغلين هشاشة والدي كي تحتفظي به تحت رحمتك. أنت تجدين قوتك، في العمق، في ضعفه.

تقهقرت، مشدوهة، كما لو بفعل زوبعة عنيفة.

- هذا كابوس... كيف أمكنك أن تتصوري، ولو للحظة واحدة، بأنني أسعى إلى سرقة أبيك منك؟ هل كوني أحبه بهذه الطريقة هو الذي يحرمك من حبه لك؟ كان كاد يموت يا جيوفانا. لقد كدت لا أراه ثانية.

لم تبد أي رد فعل.

- استمعي إليّ جيداً، تابعت شهرزاد. أنت من لحمي ودمي. أنت استمرار لحياتي. انظري في وجهي!

أخذت وجه جيوفانا بالقوة بين كفيها وأرغمتها على مواجهة نظرتها.

- أنا أمك يا جيوفانا ولست غريمتك.

- تفحصت ملامحها باحثة عن أثر كلماتها. ظلت ابنتها جامدة.

- أكرر لك. غداً مساء سيتم الاحتفال بعيد ميلاد ريكاردو. وهي مناسبة كي تخطوي نحوه خطوة، دون أن يعاني كبرياؤك المريض من ذلك.
انغلق الباب، مصدراً صوتاً أصم حزيناً.
ظلت جيوفانا بلا حراك شاخصة بفكرها نحو النجوم. انفجرت، فجأة، منتحبة كالزوبعة. انحبست دموعها في صرخة خرساء انبعثت من أعماق روحها الممزقة.

* * *

القلعة، القاهرة، ١١ يناير ١٨٣٣.

وقف فرديناند أمام المرآة المهيبة للصالون المسمى صالون السفراء، متأكداً من أن لا شيء يشين بذلته. بعد أن اطمأن عاد للجلوس على أريكته قرب قنصل فرنسا.
- اعذرني على هذه الملاحظة، قال ميموت، فربما أكون مخطئاً، لكن يبدو وكأنك قلق.
- هل الأمر بهذا الوضوح؟
- بالقدر الذي سمح لي بأن ألاحظه. والحال أن لا شيء يدعوك إلى الخوف. الباشا رجل مهذب جداً.
- لا أشك في ذلك. كثيراً ما حدثني عنه والدي. فقط هذه كلها أمور جديدة بالنسبة إليّ. وأعترف، بالخصوص، بأنني قد اندهشت من الاستقبال الذي خصص لنا. أية أبهة! أية عظمة غمرت الموكب الذي صحبنا إلى ها هنا. أكثر من مائة فارس. والحرس الذي حيانا على مدخل القلعة...
- سترى بأننا سريعاً ما نألف ما يشرفنا كما نألف ما يقلل من قيمتنا. يكفي تأمل مسار ماتيو، أبيك، قنصل فرنسا بمصر على عهد بونبارت. وزير مملكة إيتوري، قنصل يكورفو. وذات صباح: السقوط.
- كان الأمر حتمياً، بعد هزيمة بونبارت.
- وبعد ذلك بمدة، المجد. عودة النسر، الأيام المائة، وبالنسبة لأبيك لقب كونت الإمبراطورية.
- مجد قصير، للأسف. فبعد عودة آل بوربون للتحكم في الأمور، رفض

لويس الثامن عشر تشغيل من كان يلذ للإمبراطور أن يلقبه بـ «مخلص آخر ساعة»

- هذا لم يمنع من أن يمنحوه، مع ذلك، منصب قنصل بفيلادلفيا. وأخيراً منصب قنصل بتونس. هذا بالضبط ما قلته: ليس ثمة بين ما يشرف وما يقلل من القيمة إلا بحجم شعرة. غير أن من المفروض ملاحظة أن أباك كان له مسار معتبر.

- هل سأكون جديراً به؟ ربما كان هذا هو سبب قلقي.

- ستكون جديراً به. أنا متأكد من ذلك. بالتجربة، ستصبح دبلوماسياً لامعاً. وعلى أي حال فأنت لست مبتدئاً. ألم تشغل منصب قنصل متدرب في لشبونة؟

- صحيح. إلى جانب عمي بارتليمي. أنا مدين له بأشياء كثيرة.

ألقى فرديناند، وهو يتكلم، بنظرة على ساعة جيبه.

- السابعة تقريباً. أتعتقد بأن الباشا لم ينسنا؟

اسمح لي بأن أذكرك، يا صديقي، بأن مصر توجد في حالة حرب. من المفترض أن يكون عاهلها مشغولاً للغاية. ذلك أن اعتمالاً قوياً تمور به الآن الأوساط الدبلوماسية. ابراهيم باشا يعسكر على بعد مائة فرسخ من العاصمة العثمانية وأوروبا كلها تحبس أنفاسها.

- سمعت بهذه القضية في تونس. أتعتقد بأن الباشا سيغامر بتجاوز التحذيرات المتوالية للقوى العظمى؟

- هذا هو السؤال الأكبر الذي نطرحه جميعاً. كل ما يمكنني أن أقوله لك هو أن اللحظة عصيبة.

حرك فرديناند رأسه ثم غيَّر الموضوع.

- ذاك الكتاب، وصف مصر... لن أوفيك أبداً الشكر على إعارتك لي إياه. هو مصدر حقيقي للمعلومات.

- أليس كذلك؟ كنت متأكداً من أنك ستستمتع بقراءته. هو كنز بالفعل.

- أعتقد أنك أنت أيضاً قد قرأته؟

أجاب ميموت بالإيجاب.

- ألم تدهشك ذكريات لوبير؟
بدا القنصل وكأنه يبحث في ذكرياته.
- تريد أن تتحدث عن تلك الفكرة المتعلقة بحفر قناة السويس؟
- فكرة مهمة، أليس كذلك؟
رفع ميموت حاجبيه.
- أرى، بالأحرى، أنها يوطوبيا. كل الذين حاولوا، من قريب أو من بعيد، إنجاز هذا العمل، سرعان ما عادوا إلى رشدهم.
كاد فرديناند يعارضه، لكنه أمسك عن ذلك. وعلى أي حال، في أي شيء كان اعتراضه سينفع؟
كان عليه، عندما أتوا، بعد لحظات، ليأخذوهما، أن يبذل مجهوداً كي يستجمع شتات أفكاره ويعمل، بالخصوص، على طرد تلك الكلمة التي ما انفكت تطرق ذهنه: السويس...

* * *

عكس المتوقَّع، لم يُدخلا إلى مكتب محمد علي وإنما إلى قاعة العرش. كانت شساعة القاعة المنارة بغابة من ثريات الكريستال مدوخة. فوق العرش سرادق من المخمل الأرجواني منتصباً لصق الجدار، منظره مهيب. في حين كان وسط القاعة عار تماماً. ومن الجانبين أقيمت أرائك مذهبة مغشاة بثوب الساتان، تبدو وكأنها تنتظر زواراً عظاماً.
تقدم ميموت وفرديناند، جنباً إلى جنب، نحو العرش حيث كان ينتظرهما محمد علي. أثار تفصيل متعلق باللباس، على الفور، انتباه القنصل العام: يلبس العاهل اللباس الذي خص به من مدة قصيرة جيشَه. سترة قصيرة بكمين مفتوحين على طول الذراع وسروال فضفاض على الفخذين مضغوط أسفل الركبتين، الوسط مشدود بعصابة قطنية واسعة. سيف في غمد مرصع بالجواهر، يتمايل على حزامه. «هذا شكل آخر من التميز على السيد التركي»، فكر ميموت.
- مرحباً بكما في القاهرة أيها السيدان.
حياه ميموت وسارع بالإشارة إلى زميله.
- جلالتكم، اسمحوا لي بأن أعرّف أحدكما على الآخر...

- السيد دي لسيبس... فرديناند دي لسيبس، ابن ماتيو... نعم، أعرف.

علا تعبير ترحيب قسمات الباشا وهو يضيف:

- هذا الاسم يوقظ في ذكريات سعيدة.

مال قليلاً إلى الأمام وهو يتأمل نائب القنصل.

- هل تعلم بأن أباك قد ساهم مساهمة كبيرة في تعييني؟

- ما دمتم تؤكدون ذلك، سيدي.

- أؤكده بالفعل. سيبقى اسم ماتيو دي لسيبس دائماً رمزاً للأخوة. أما بالنسبة لابنه، فهو يحتل سلفاً مكاناً أثيراً في قلبي. السيد دي لسيبس، أنت هنا في بيتك.

- آمل أن أكون جديراً بهذا الشرف العظيم، سعادتك.

تغير التعبير الودي لنائب السلطان عندما التفت إلى ميموت.

- ما أخبار فرنسا، أيها العزيز؟

- ماذا تقصد سيدي؟

- لقد فهمت. علينا أن لا ننتظر أي تغيير في موقف ملككم. فجلالة الملك لويس فيليب يواصل سيره مستظلاً بظلٍّ إنجلترا.

عقب ميموت بحماس مفاجئ:

- أرجوكم، جلالتكم، أن تحاولوا فهم موقف بلدي. فرنسا مستعدة لمساندتكم، لكنها تظل، مع ذلك، متشبثة بوحدة الإمبراطورية العثمانية. وهي وحدة شرعت حملتكم على اسطنبول تبلبلها.

- لا أهمية لذلك. سبق السيف العذل.

انتفض قنصل فرنسا.

- أنت لم يسبق لك أبداً أن التقيت بولدي، واصل العاهل. ذلك مؤسف. لَكنت علمت أي نوع من الرجال هو. عنيد ومقدام ومعتز بنفسه. في كلمة، هو من الرجال الذين لا نستطيع حبسهم في قفص ولا يمكن التحكم فيهم لا برسائل ولا بأوامر. مثل...

توقف.

- نابليون...

- احذر، سيدي. لقد اقترح القيصر لتوه على الباب العالي مساعدة عسكرية روسية. وأنتم تعلمون جيداً بأن هذه ذريعة ليبسط سيطرته على المنطقة. وهو ما لا يمكن لفرنسا أن تقبله.

- منضمة بذلك إلى رأي الحكومة البريطانية.

- وهو أمر ليس متواتراً سيدي.

- سنرى. لنترك الأمر إلى الأقدار.

اتكأ على مسند العرش.

- وفيما يتعلق بتغيير الهيئات القنصلية؟ هل تم اتخاذ قرار في هذا الشأن؟

عقب قنصل فرنسا بحزن:

- لقد قدر الدوق دي بروغلي، وزيرنا في الشؤون الخارجية، بأن الوقت ليس مناسباً لتغيير مثل هذا. سيستمر ممثلونا في حمل لقب قناصلة عامين.

- وليس سفراء.

انعقدت أصابعه بحركة نرفزة، على ذراع العرش. قال موجهاً كلامه لفرديناند دي لسيبس:

- النقود المصرية ضربت بالقاهرة، إذْ حررتُها من التبعية للعملة العثمانية. وقد حظرت استيراد القروش التركية. ومنذ زمن طويل لم تعد التقسيمات الإدارية هي نفسها التي وضعتها الباب. وفي البلد أجمعه، أصبح كل ما يمس، من قريب أو من بعيد، النظام المدني، تحت وصايتي. غيرت الملابس العسكرية والعلم. أملك الآن البحرية الأقوى في المنطقة. وأخيراً، يوجد ولدي على أهبة قلب نظام بيزنطة القديمة!

توقف عن الكلام عمداً كي يعطي وزناً أثقل لما سيأتي:

- السيد دي لسيبس. هل تعرف أبعاد إمبراطوريتي؟ خمسة وتسعون ألف ميل! أتسمعني؟ خمسة وتسعون ألف ميل! تمتد من نوبيا إلى الصحراء العربية، ومن السودان إلى الحجاز، ومن سوريا إلى سليسيا، من الإمارة الدرزية المارونية اللبنانية إلى كريت. هذه الإمبراطورية نفسها هي التي يرون أنها غير جديرة بأن تستقبل سفراء!

كان لسيبس على وشك الإجابة عندما دوت سلسلة طرقات على الباب.

قطب نائب السلطان حاجبيه.

- ما هذه الجلبة؟ من. . .

قبل أن ينهي كلامه انفتح الباب صارّاً ودلف طيف طفل إلى القاعة يعدو نحو العرش.

- سعيد! قال العاهل معنفاً. كيف جرؤت؟

ارتمى الطفل في أحضان أبيه، بينما تجمد الخدم على العتبة دون حراك.

- لكن، ما الذي حصل؟

- أبي، قال الطفل باكياً، ما عدت أقدر! الرأفة!

- الرأفة؟ ما الذي يعنيه كل هذا؟

أجاب الطفل:

- أنا جائع. . .

تغضنت جبهة الباشا غضباً.

- كم وزنك؟

- لا أدري. ما عدت أعرف.

سأل الخدم.

- كم؟

وشوش صوت مرتعش:

- مائة وست ليرات، سعادتك.

- مائة وستِ ليرات! ما عاد هذا طفل. إنه فرس نهر.

التفت نحو لسيبس.

- إلى بؤس السياسة تنضاف همومي العائلية. أخبرني أيها السيد دي لسيبس، أنت الرفيع مثل خيط، هل ترى من الصحي أن يزن طفل بالكاد في الحادية عشرة من عمره وزناً مثل هذا؟

- لنقل بأن وزنه يبدو لي، مقارنة بقامته، زائداً بعض الشيء.

- هذا هو رأيي أنا أيضاً، لكن ما العمل؟ جربت كل شيء؛ إن زاد وزنه عاقبته، وإن فقد منه كافأته.

ثغثغ الطفل، رأسه مدفون لصق بطن محمد علي:

- لم يسبق لك أن كافأتني قط. . .

- كيف كان بإمكاني أن أكافئك؟ أنت لا هم لك إلا أن تسمن.

تبادل فرديناند دي لسيبس نظرة باسمة مع ميموت، ثم اقترح:

- إذا تفضلتم بمنحي هذا الشرف، جلالتكم، فأنا مستعد للتكفل بصاحب السمو سعيد.

- تتكفل به؟ ماذا تقصد؟

- أنا أهتم بحميته الغذائية. ويمكننا مصاحبته للقيام ببعض التمرينات الرياضية.

- لكنني لا أفعل أي شيء آخر غير هذا! احتج الأمير الصغير. من مطلع الفجر حتى مغيب الشمس! هذا الصباح أيضاً كان عليَّ أن أقفز على الحبل لساعة كاملة. ثم...

- صه! عنّف العاهل.

سأل فرديناند:

- هل أنت جاد بالفعل؟ هل تشعر أنك قادر على تحمّل مسؤولية مثل هذه؟

- سأقوم بما أستطيع، سيدي.

- قد تكون المهمة قاسية، يا صديقي.

- لن تكون كذلك إن منحني الأمير ثقته.

ربت نائب السلطان على كتف ولده.

- ما رأيك؟

ازداد سعيد التصاقاً بأبيه.

- ما تريده، لكن ليشفقوا عليَّ وليعطوني ما أسدّ به رمقي.

- صحن مكارونا من غير شك!

لمع بؤبؤا الطفل ببريق نهم.

- آه! نعم...

- قد يكون مستعداً لبيع عرش مصر من أجل صحن عجائن! خذه أيها السيد لسيبس، إنني أعهد به إليك. لكنني أحذرك. في غضون أسبوع سنزنه. إذا لم يسجل الميزان نقصان أربع ليرات... ستكون معرضاً لحادثة دبلوماسية.

غمر إهاب تعريض ملامح فرديناند.

- هذا إن لم تكونوا، إلى حدود ذلك التاريخ، قد استوليتم على القسطنطينية، سيدي.

- لا أرى علاقة.

- ستكون من الغبطة بحيث يبدو لك مشكل سمنة ابنك بلا قيمة. ومن يدري فربما خصصته بمأدبة ماكارونا.

التفت سعيد، للمرة الأولى، وتفحص بخليط من الحذر والفضول من سيكون مسؤولاً عن انزعاجاته المقبلة.

* * *

أطلق يوسف صرخة نصر.

- كنت على حق! كان مهندس بونبارت مخطئاً!

أنهى لينانت دي بلفاند كتابة حاشية أخيرة على الخارطة التي تمثل قناة السويس، الموضوعة على طاولة من خشب الأرز، ثم أكد:

- نعم... ممكن أن يكون الخط مستقيماً. الفرق الملاحظ في الارتفاع من قبل لوبير، عوض أن يعرقل القناة يمكنه، على العكس من ذلك، أن يسهل إقامتها. ستتم إقامة هويسين قصد السيطرة على مياه البحر الأحمر والتحكم فيها. وبفتحهما عند كل مد، سيمكنان من الجريان الفوري لمياه البحر الأحمر نحو البحر الأبيض انحداراً. وليس هذا كل شيء...

وضع لينانت إصبعه على التصميم وواصل عرضه:

- وبتواتر إفراغ المياه ستُحفر ساقية يعمقها التيار ويوسعها شيئاً فشيئاً. هذا الإفراغ سيحول أيضاً دون انغلاق المصب بالرمال؛ فهو بتنظيفه للطمي سيسهل إنشاء مرفأ على الخليج. بذلك سنحصل، وبكلفة قليلة، على بزفور آخر؛ بزفور اصطناعي؛ واد ضخم من المياه المالحة القادرة على حمل سفن خاصة بأعالي البحار.

حمل يوسف، مأخوذاً بسعادته، صديقه بين ذراعيه وشرع يدور به.

- أنت عبقري يا لينانت! أنت عبقري حقيقي! أنت تستحق لقب بيك! ماذا أقول؟ أنت تستحق لقب باشا! عبقري!

- هيه! شيء من الهدوء، ستكسر ساقك، وساقي أنا أيضاً.

وضع يوسف الفرنسي على الأرض.

- لن يغفر لي لا الله ولا الناس. أنت من هذه اللحظة تنتمي للمستقبل.
- المستقبل! ماذا تقول؟
ضرب يوسف بكفه على الكشف الطوبوغرافي الموضوع على المائدة.
- فكر! لن يعود أي شيء كما كان. حتى هذه الساعة، كل المشاريع المتعلقة بحفر القناة كانت تتصور مسالك غير مباشرة. بعضها أكثر تعقيداً من البعض الآخر وأكثر تكلفة. وانطلاقاً من الآن لن يقف شيء في وجه حفر القناة في خط مستقيم بين بحرين.
- لا أريد ان أقوم بدور المُثَبِّط، لكن ما تزال هناك أمور كثيرة يجب أن تنجز. لا يكفي دحض اعتراض لوبير. يجب الانكباب على دراسة الميدان. أنظر... هنا بحيرة عمر، وهنا انخفاض القنطرة. وبين الاثنتين ثمَّ بحيرة التمساح، هدف بعثتنا المقبلة.
- يجب إذن الحصول على ترخيص جديد من الباشا.
- أتظن أنه سيرفض؟
- يرفض؟ أتمزح يا لينانت! إن ما نمنحه إياه لَهُوَ السيطرة على طريق الهند؛ التحكم في كل التجارة البحرية من العقبة وحتى بومباي! سيكون بإمكانه أن يحقق الحلم القديم لمثاله نابليون.
سحب، على الفور، صديقه من ذراعه.
- والآن، تعال. لقد تأخرنا كثيراً. سيشرع أبواي يقلقان.
- أبواك؟ لكن إلى أين سنذهب؟
نظر يوسف إلى صديقه نظرة مؤاخذة ودية.
- نسيت إذن! سيقام هذا المساء حفل عيد ميلاد أبي!
تردد الفرنسي.
- ذلك أنني... ليست لدي رغبة كافية في التسلي. أنا قلق بشأن مشروع البعثة هذا. أتساءل عما إذا كان العاهل سيكون مستعداً لتمويل هذا النوع من العمليات في الوقت الذي توجد فيه بلده في حالة حرب. ستكون أشغال الحفر مكلفة جداً.
- نحن نتكلم عن حلم، أليس كذلك؟
صادق لينانت على قوله.

- ليس للحلم يا صديقي من ثمن، وإلا فإنه لا يعود حلماً.

* * *

كان يسود جو متلألئ في القاعة الكبرى المفتوحة على حدائق الصباح. كانت شهرزاد، قبل مقدم الضيوف، قد أحرقت بخوراً ما تزال دوائر من دخانه الرمادي تحوم حول الثريات. توزع غالبية المدعوين في مجموعات صغيرة. أخذ بعضهم مكانه على الأرائك وظل آخرون وقوفاً. خدم، نوبيون في غالبيتهم، يطوفون بين الضيوف، مقترحين عصائر ومشروبات، متزيين بجلابيب بيضاء.

شهرزاد في قميصها الحريري الأسود تطوف بلطفها المعتاد، موزعة بسمات وكلمات ترحيب على المدعوين. غير أنها كانت، من حين لآخر، تتوقف وتجيل بصرها في القاعة ثم تنطلق من جديد. كان ظل غامق يعتم ناظريها.

تأهبت من جديد لتفحص الجمع عندما سمعت صوتماندرينو يقول متعجباً:

- أخيراً! كان الوقت قد حان!

ارتعشت واعتمل قلبها في صدرها، لكن الانفعال سرعان ما خف. لم يكن الأمر يتعلق إلا بيوسف ولينانت اللذين ظهرا لتوهما.

- كنا بدأنا نقلق، قال ريكاردو. بعد حين كنت سأرسل خادماً إلى القلعة.

- الخطأ خطئي، قال لينانت معتذراً. إجراء بعض الحسابات... لم أنتبه لمرور الوقت.

حرك الفينيسي سبابته.

- أيها الصديق العزيز، أنا أعرف مقدار أهمية أشغالكما، كما أنني على علم بمدى شغفكما بها، غير أن عليكما، مع ذلك، أن تستمعا إلى نصائح رجل عجوز: اتركوا بعض الوقت للراحة.

استدار وخاطب المدعوين المحيطين به:

- السيد لينانت دي بلفاند وولدي يوسف. هما معاً مهندسان مائيان لدى صاحب الجلالة.

استقبل الرجلان بحرارة.
- خذا مكانكما، قال ريكاردو وهو يشير إلى أرائك ما تزال فارغة.
- لحظة، قال يوسف معتذراً.
- إلى أين؟
- أسلم على أمي.
- لكن هذا عيد ميلادي، وأنا أرفض أن يشاركني فيه أحد.
في اللحظة التي تلفَّظ بهذه الكلمات انبعث في عينيه شعاع تأثر.
عندما اختفى يوسف، أمسك بقنينة شامبانيا وعرضها أمام لينانت.
- شامبانيا فرنسية! هدية من قنصلكم، السيد ميموت. تشرب قليلاً منها؟
- بكل فرح، سيدي.
عندما اقترب يوسف من أمه، رآها تختفي عبر الباب الذي يفضي إلى الحديقة.
اقتفى أثرها.
كان المنظر، في الخارج، مُناراً بالكاد بضوء النجوم الخافت. كان عليه أن يتفحص الظلال للحظة كي يلمحها. أدارت إليه ظهرها، واقفة، يداها مجموعتان، مخبوءة جزئياً بأوراق زهور الغار.
بدت وكأنها قد أحست بوجوده، فانتفضت انتفاضة خفيفة واستدارت.
- مساء الخير يا يوسف.
- ماذا قرَّرَت؟
- لن تأتي.
- هذا غير مفهوم.
آتت حركة استسلام.
- هذا الصباح أيضاً استحلفتها أن تبذل مجهوداً، لكن الجدار قد يكون أكثر إحساساً منها.
ضغط يوسف قبضتيه مصمماً.
- طيب، سأذهب لأحادثها.
أمسكت بمعصمه.
- لا! يجب ألا تفعل ذلك.

- دعني أفعل يا أماه.

- لا! أختك في الواحدة والعشرين من عمرها. ما عادت طفلة. إذا كان قلبها قد أصيب بالخرس في هذه السن، فلا أنت ولا أي كان يستطيع أن يفعل شيئاً. قلت لها كل شيء. الأمر، منذ الآن، لها. هي، وهي وحدها يمكنها أن تقرر ما إذا كانت تريد الاستمرار في العيش في العتمة أو الانفتاح على النور. الخيار لها.

أمسكت بحزم بذراع يوسف.

- تعال يا ولدي. لا أريد أن يفتقدني ضيوفي.

كانت الشمعات الستون تترنح فوق حلوى عيد الميلاد المهيبة. تحلّق الضيوف حولها وشرعوا يرددون اسم ريكاردو ماندرينو. اقترب الفينيسي، يده في يد شهرزاد، ببطء من المائدة. مال على الشموع. بيد أنه، عوض أن ينفخ عليها، ظل ساكناً. كان ممكناً التأكيد بأنه كان ينتظر أمراً أو شخصاً ما.

تنفس بعمق مالئاً صدره هواءً.

في هذه اللحظة بالذات جعل نفسٌ قادم من الجهة الأخرى ضوء الشموع يترنح.

عاد ريكاردو، مشدوهاً، للانتصاب. تفرسته جيوفانا بحنو. لم ينتبه أحد لقدومها.

- لم أنفخ يا أبي، إلا على الأيام التعسة، تمتمت قائلة. ولتكن لك أسعدها.

استمر الفينيسي يتأملها. تبنّى المدعوون حولها موقفاً محايداً، أشبه ما يكون بشهود لم يشاهدوا شيئاً.

طاف ريكاردو، دون أن ينبس، بالمائدة ووقف أمام جيوفانا. تأمّل أحدهما الآخر للحظة ثم مد ذراعه نحوها. ارتمت في أحضانه كما تنقذف بعنف موجة على حاجز.

وشوش بصوت خفيض:

- ابنتي... مفضلتي.

الفصل السادس عشر

١٢ مايو، الاسكندرية. إقامة قنصل فرنسا العام.

كانت الراقصة الشابة التي لم تتجاوز بعد ربيعها السابع عشر، وأمام النظرة المشدوهة لفرديناند دي بلسيبس، تدور حول نفسها وتهتز، شبه عارية، عبر القاعة العابقة بالدخان. شعرها المصبوغ بالحناء يحلق في الهواء، حاجباً للحظات شفافية الأنوار الخافتة للمصابيح، قبل أن ينسدل في خصلات على طول كتفيها.

موسيقي بدون عمر ينقر على دربوقته، توحي ملامحه بقرف، على النقيض من الضيوف المجتمعين بإقامة السيد ميموت، قنصل فرنسا العام. حتى يوسف ولينانت كانا يبدوان مسحورين. أما الدكتور كلوت، الحاضر بدوره، فكان يبدو مفتوناً. لم تكن الفرجة تشبه الرقصات العادية في شيء. الرقصة المسماة «رقصة النحلة» متفردة؛ مثيرة للحواس؛ التماعة شهوانية، توحي لكنها لا تصرح، وتذكي الخيال.

كانت الجميلة صفية، رغم حداثة سنها، تتقن هذا الفن المتفرد الذي لم يهدف فقط إلى الحركة وفق الإيقاع وإنما، بالخصوص، إلى تقمص دور دون تكلف. الحكاية بسيطة: فتاة تتجول غير عابئة بشيء، هائمة في خيالاتها، فتتخذها نحلة، فجأة، هدفاً لها ساعية لأن تحط على شفتيها. تحاول الفتاة، مرعوبة، إبعاد الحشرة؛ تتنحى هذه الأخيرة، لكنها سرعان ما تعاود محاولتها، فيبدأ فر وكر تعاند النحلة خلاله، محاولةً السيطرة على فريستها، مقبلة مدبرة على نحو ملتبس.

أخيراً تطلب الفتاة، يائسة، النجدة من متفرج كريم يكون له الشرف المضطرب في أخذ البئيسة بين ذراعيه الحاميتين.

كانت هذه الرقصة الإيماءة، على أي حال، ستظل مطبوعة ببعض السذاجة لولا أن المواقف مع توالي الرقص أضحت أكثر فأكثر التباساً، ولولا أن ملابس الراقصة شرعت تتساقط قطعة قطعة إلى أن أصبحت عارية، لا تحتفظ إلا بشال تتظاهر بالاحتماء خلفه.

كانت صفية، لاهثة، مفككة الأوصال، تمشي وتجيء خفيفة، تبرق قطرات العرق التي اجتاحت بشرها، تحت الأضواء، مثل جواهر. جرت ساقية دقيقة بين نهديها وانزلقت إلى سرتها في اتجاه ما بين فخذيها.

أخيراً، وبحركة من مؤخرتها في الهواء، بدت وكأنها تخور فتهالكت على الأرض ومدت ذراعيها المتسولتين، في حركة ميلودرامية، نحو المتفرج الأقرب منها. كان، يا للصدفة، هو القنصل العام للنمسا السيد فابير.

تطلّب الأمر إلحاحاً ماكراً من الجمهور كي يغادر مكانه، بحركة مرتبكة، ويحتضن الفتاة بين ذراعيه.

استُقبل عناقهما بموجة من التصفيقات.

بعد أن هدأت القاعة، مال قنصل فرنسا نحو فرديناند.

- هيه! أعجبك العرض؟

- إنه مدهش بالفعل. يمكنني أن أؤكد لك أنه يكفيني، من الآن فصاعداً، أن ألمح نحلة كي أتذكر هذه الأمسية. لكن ما فاجأني أكثر من أي شيء آخر هو هذه الإباحية الاستثنائية. في بلد تعتبر نساؤه حريماً، وبعد أن أضحى طبيعة ثانية لهن، أعترف بأن عرضاً من هذا النوع يعتبر مفارقة. ألا ترى رأيي؟

- هذه ميزة كل الشرق يا صديقي. كيمياء معقدة ليس بإمكاننا تحليلها. وعلى أي حال فلست الوحيد الذي يطرح هذا السؤال. وحسب بعض الإشاعات فإن نائب السلطان يتأهب لحظر رقصة النحلة هذه.

- حظرها؟ ها هو ذا أمر مؤسف.

- اطمئن. سيوجد دائماً محظوظون يستمرون في استقبال فتيات مثل صفية. وكما هو الشأن بالنسبة لكل محظور، فإن الرغبة فيه تزداد تأججاً.

استقبلت قهقهة عامة ملاحظة القنصل.

وشوش يوسف خفية في أذن لينانت:
- ننصرف؟
- فكرت في ذلك، لكن انصرافنا سيثير الانتباه، فنحن إنما أتينا لتونا.
- لكن لماذا قبلت هذه الدعوة وأنت الذي لا تكف عن الشكوى من أن الوقت لا يكفيك لأشغالنا.
- نعم، أعلم. لكنني هذه المرة لم أستطع التملص. لا تنس أنني مواطن فرنسي. وبصفتي تلك، لي بعض الواجبات التي عليَّ أن أضطلع بها تجاه قنصلنا. لكن ماذا لو عادت الجميلة صفية؟ سيخف اشمئزازك، أليس كذلك؟
أراد يوسف أن يحتج، لكنه سمع صوت السيد ميموت يصيح في صديقه:
- قل لي يا سيد بلفاند، أنت الذي توجد وراء كل الأعمال المائية التي أنجزت في هذا البلد، أفترض أنك قد سمعت عن قناة المحمودية؟
- بالطبع. يتعلق الأمر بالممر المائي الذي حفره نائب السلطان قصد الربط بين النيل والاسكندرية.
- ممتاز.
مد ميموت يده نحو شخصية في حوالي الستين من عمرها، نحيلة ويعلو شفتيها شارب رمادي كثيف مفتول من طرفيه، يبدو أسفله فم عريض بشفتين رطبتين.
- أقدم لك السيد مورافييف، موظف بقنصلية روسيا. قدم لنا السيد مورافييف لتوه معلومة أعترف بأنها قد أقلقتنا بعمق. يبدو أنه قد تم، قصد إنجاز قناة المحمودية هذه، إخضاع حوالي ستين ألف فلاح للأعمال الشاقة، دون مأوى ودون وجبات منتظمة وتم حتى إهمال تزويدهم بالأدوات الضرورية التي كان بالإمكان أن توفر عليهم بعض الجهد. هل هذا صحيح؟
احتسى لينانت جرعة نبيذ ووضع الكأس.
- نعم، سيدي.
انفرجت شفتا مورافييف.
- أترى يا سيد ميموت؟ لم أكذب عليك.
- بالفعل. أقر القنصل. وكما قلتَ، ففي الأمر ما يصدم.
توجَّه الروسي بالكلام مباشرة إلى لينانت:

- بما أنك تبدو على علم بذلك، فمن المفترض أن تكون على علم أيضاً بأن شروط العمل هذه قد تسببت في وفاة آلاف متعددة من العمال: خمسة عشر ألفاً إن لم تخنّي الذاكرة.
- خمسة آلاف؟ استغرَبَ صوت.
- الرقم غير مؤكد، عقّب لينانت. غير أن هذا لا يعني أنه ليس قريباً من الرقم الحقيقي.
سارع مورافييف بالتوضيح:
- وفضلاً عن ذلك، يقولون بأن الجثث قد استُعملت في إعلاء الحواجز.
أحدث هذا التصريح اعتمالاً بين الحضور.
- لا أستطيع تصديق ذلك، قال ميموت مبهوراً.
- اسأل إذن السيد دي بلفاند.
- رغم أن أي توضيح لم يقدم في هذا الشأن، أجاب لينانت، فإن كل شيء يوحي بأن هذا الأمر كان ممكناً.
تناول مورافييف، مرتاحاً، الكلمة من جديد:
- أتعلم الآن لماذا قلت لك بأن حياة فلاح، في ذهن نائب السلطان، لا تساوي أي شيء أكثر من ذرة رمل؟ لقد ردَدْتَ عليّ حكمي، لكن من الواجب الاعتراف بأن محمد علي قد فرض على هذا البلد حكماً استبدادياً. انظر كيف استولى على كل الأراضي الفلاحية، داعياً الفلاحين إلى التخلي له، عن طيب خاطر أو بالرغم عنهم، عن ممتلكاتهم. وعلى أي حال، فإنه يكفي سؤال الشعب لمعرفة أن هذا الشخص غير محبوب.
- أليس هذا هو المصير المشترك لكل الرجال العظام؟ تدخّل يوسف للمرة الأولى.
- تحدثت لتوك عن الأراضي الزراعية. يمكنني أن أبيّن لك، بسهولة، بأن سياسة محمد علي في هذا المجال، إن لم تكن الوحيدة، فهي على الأقل من بين أكثر السياسات ملاءمة لحاجيات هذا البلد.
آتى الروسي حركة شك، مما زاد من حماس يوسف.
- أتعلم أنه، وبفضل وضوح رؤية العاهل، قد أدخلت إلى مصر أربعون ألف آلة ستسمح برفع مياه النيل إلى حواف النهر. فبتحفيز منه وضعنا - أشار

إلى لينانت - السيد دي بلفاند وأنا نظاماً لشق القنوات مناسباً للزراعات الصيفية، بما فيها زراعة القطن. لا توجد محافظة في أعالي مصر أو أسافلها لم تحفر بها، ودائماً بأوامر من صاحب الجلالة، قنوات وسدود. في هذه اللحظة التي أحادثك فيها، وصلت أشغال شق القنوات، وحدها، إلى مليون وخمسمائة متر مكعب. أتعتقد بأن هذه نتائج نظام استبدادي؟

عقّب مورافييف بجفاف:

- عرضك لا يخلو من أهمية، لكنه لا يغير من الحقيقة شيئاً. محمد علي يحكم حكماً استبدادياً. وحتى شعبه لقبه: الباشا الظالم.

لم يستطع يوسف، هذه المرة، التحكم في نفسه.

- مستبد! هل تعرف أحداً استطاع وسط الصعاب التي لا حد لها، والمواجه لمعارضة وإنهاك القوى العظمى الأجنبية، أن يشمل بلده بالأعمال الجليلة؟

توقف وحرص على أن يفصل بين الكمات.

- بما أننا قد تطرقنا للقوى الأجنبية، يمكنني أن أعدد لك الضغوط الإنجليزية، لكنني... وثبّت عينيه في عيني محادثه - أكتفي بأن أذكر لك تلك الإشاعات التي تقول بأن سفناً ضخمة... روسية، تبحر هذه اللحظة نحو البوسفور، مستعدة للإغارة على ابن العاهل.

أنهى حديثة هازئاً:

- بالطبع، هذه ليست سوى إشاعات...

لم يغضب موظف القنصلية.

- أشرت إلى جليل أعمال نائب السلطان... بالنسبة إليّ، لا أرى سوى بؤس وقمع.

- لكن سيدي. مدارس! مستشفيات! مصانع! منشآت حديثة من كل نوع، سمحت لمصر بولوج الحضارة من بابها الواسع. ستة عشر ألف شجرة غرست! مطبعة وطنية! الهاتف الجوي المنشأ بين القاهرة والاسكندرية. طرق! مدرسة للطب أنشأها الدكتور كلوت الحاضر الآن بيننا. لكنني أريد أن أثير قضية تخصك أنت بالذات، أنت الأجنبي، يا سيد مورافييف؛ لسنوات طويلة، لم تكن توجد مدينة واحدة، تحت الحكم المباشر للباب، بإمكانك أن

تجتازها دون أن تتعرض للسب أو تنهب. واليوم، وبفضل ذاك الذي تصفه بالمستبد، أصبح بإمكانك أن تسافر كما تحب من الألب إلى القاهرة، ومن المدينة إلى الخرطوم، أو على طول وادي النيل، شاعراً بأنك آمن أكثر مما تكون حتى في بعض المدن الغربية!

- هذا، بالنسبة إليك، يبرر الخمسة عشر ألف قتيل بقناة المحمودية؟

في هذه اللحظة نفسها تدخّل صوت هادئ لكنه صارم:

- عندما يكون الموت في خدمة الحياة، نعم، سيدي.

أحدث هذا التدخل مفاجأة وسط المدعوين. تابع الرجل:

- هذه القناة مكنت الاسكندرية من الماء الصالح للشرب. والماء رمز الحياة! هو يسمح للمدينة بالتواصل مع النيل. بفضله يسافر الناس ويتنقلون. ذاك أيضاً حياة! رغم أن فقد كائن - فلاحاً كان أو أميراً، هو أمر رهيب، إذا لم تكن هذه الوفاة من أجل لا شيء، واستطاعت على العكس من ذلك خدمة رغد عيش أناس آخرين - فإن السبب الذي قاد إذن إلى هذه الوفاة سبب معقول.

أخذت المناقشة منحىً جديداً. احتدت النبرات. اغتنم ليناتت الفرصة ليسأل صديقه خفية:

- هل تعرف هذا الرجل؟

- أبداً. أظن أنني لمحته في بداية هذه الأمسية. هذا كل ما في الأمر.

- هو جريء على أي حال.

ثم لاحظ، مغيّراً نبرة صوته:

- كنت أجهل أن لديك هذه القدرة على تحميس الجموع.

هز يوسف كتفيه تعبيراً عن مرارة.

- حتى لو افترضنا أن ذلك صحيح، فإنني لا أستشعر منه فرحاً. أتريد مرافقتي إلى الخارج؟ أنا في حاجة إلى تنفس بعض الهواء.

كان الليل هادئاً بين الخروب والممرات المحفوفة بشجيرات الضِّراوة.

خطا يوسف وليناتت بضع خطوات في الحديقة. كانا يسمعان عن بعد صوت الأمواج التي تأتي لتنتحر على شاطئ المنتزه.

- أنا ما عدت أتحمّل هؤلاء الأشخاص البلداء! قال يوسف غاضباً.

يؤكدون ويحكمون ويتهمون وكأن الله بذاته يتحدث بأصواتهم!
- أنت ما زلت تكتشفهم يا صديقي. الدنيا ملأى بهم.
- لكن من أين له هذا العمى؟ كل شيء أسود، كل شيء أبيض. لا وجود للألوان عندهم.
- ثمة تعبير لوصف هذه الحالة: عمى الألوان.
- أجل. مع الفرق الوحيد المتمثل في أن الدماغ هو المصاب عند هؤلاء الناس.
- في كل الأحوال، لدي انطباع بأنك قد أصبحت، منذ هذا المساء، شخصاً غير مرغوب فيه لدى القيصر نيكولا.
- كما هو الشأن بالنسبة لأبي لدى إنجلترا؛ لم تعد ثمة بلاد كثيرة نستطيع الذهاب إليها.
قطع حديثهما صوت خطوات قادمة. التفتا معاً. كان واقفاً أمامهما الرجل الذي وقف في وجه مورافييف معارضاً.
- أيها السيدان، بدأ حديثه بأدب، اعذرا تطفّلي... ظننت أنني قد فهمت، قبل قليل، بأنكما مهندسان مائيان.
- هذا صحيح.
- أحب، إن لم يكن لديكما اعتراض، أن أتحادث معكما. آه، اطمئنا، ليس هذا المساء، لكن غداً أو في أي وقت شئتما.
- بكل فرح، لكن هل يمكنك إخبارنا بشأن أي موضوع؟
- حول موضوع المحمودية، أعتقد؟ سأل يوسف.
- لا يا سيدي. أعتقد أننا قد ناقشنا موضوعها بما يكفي.
- إذن؟
تنهد الرجل تنهيدة قصيرة.
- يتعلق الأمر بقناة السويس...
- قناة السويس؟ كرر لينانت معتملاً.
- نعم.
- اعذرني، قال يوسف، لكن مَن سيادتكم؟
- اسمي لسيبس، فرديناند دي لسيبس.

الفصل السابع عشر

الاسكندرية، ١٤ مايو ١٨٣٣.

نادراً ما عرف ميناء الاسكندرية نشاطاً مثل هذا. كان ممكناً القول بأن نصف سكان المدينة أتوا كي يستقبلوا، في جو بهيج، المسافرين الفرنسيين الثلاثة عشر الذين نزلوا لتوهم من (لا كلوريند). كلما تقدم الموكب عبر المدينة أصبح أكثر كثافة وأصبحت التعاليق أكثر وقاحة. ذلك أن الناس لم يسبق لهم أن شاهدوا روميين لابسين لباساً مثل هذا...

بذلة؟ خلعة؟ سترة منتفخة يبرز تحتها قميص أبيض دون ياقة، أزرارها، وهو تفصيل فريد، معقودة على الظهر. شال كبير يتدلى سامحاً برؤية عقد مشكل من سلسلة من الحلقات ومن خليط من المعادن. السروال الأبيض يذكر بدثار مخَصَّر. الأحذية سوداء. على الوسط حزام واسع من الجلد المبرنق مزين بقرط عريض من النحاس. قبعة حمراء على الرأس. وبغية مضاعفة غرابة هذا الزي، طرز على الصدر منه بأحرف بارزة حمراء، اسم كل فرد.

كان إميل بارولت يمشي متألقاً إلى جانب المترجم الذي يقوم بدور الدليل.

التفت فجأة نحو أقرب مرافقيه، وهو ملحن شاب في الثالثة والعشرين من عمره، اسمه فيلسيان دافيد.

- أنظر يا دافيد! أليس هذا الحماس نفسه الذي ساد بـ (لا كامبيير) عندما كنا نصعد، منذ شهر، على متن السفينة بمارسيليا؟

صادق فيلسيان على قوله.

تابع بارولت:

- لن أنسى أبداً الجو الذي ساد خلال ذلك اليوم. ضاق الميناء بالجماهير المتزاحمة. لم تكن الزوارق كافية كي تسع كل أولئك الذين أرادوا الصعود لتحيتنا على متن (لاكلوريند). كان البحر مترعاً بالزوارق المتماسة والجو معتملاً بالأناشيد المتنوعة المحتفية بنا.

لم يكن بارولت مبالغاً فيما قاله. كانت لحظة الانطلاق نحو الشرق مؤثرة بالفعل. لم تفسد الأمور إلا بعد ذلك، بإسطنبول.

بمجرد وصولهم إلى العاصمة العثمانية شرع رفقاء المرأة يمشون في مختلف الأنحاء، مبشرين، وبالخصوص - وفقاً لتعليمات أونفنتان - حريصين على خلع قبعاتهم كل مرة تظهر أمامهم، على الطريق، امرأة فقيرة كانت أو غنية.

تابعوا بحثهم متنقلين من ساحة إلى أخرى، مقيمين اجتماعاتهم في مقاهي البوسفور وحتى في المقابر، إلى أن كان اليوم الذي اقترح عليهم - في لحظة سعادة - ضابط تركي ظُللت شفتاه بشارب بديع، أن يحضروا مراسيم وصول السلطان محمود المنتظر يوم غد في منتصف النهار أمام المسجد الأعظم. كان من يدعي بأنه ظل الله على الأرض سيؤدي به نسكه.

هل حان وقت نمو البذرة السانسيمونية التي لم تبذر إلا من مدة قصيرة وفي قلب أرض الإسلام؟

حضر الرفقاء في الوقت المحدد إلى فناء المسجد الأعظم الذي لم يكن سوى الكنيسة القديمة المهداة من طرف قسطنطين، قروناً من قبل، إلى العناية الربانية والتي كانت تسمى آنذاك سانت صوفي. لكن من الذي ما يزال يتذكر؟

أقبل محمود الثاني في موكب عظيم. رفع بارولت، في البداية، قبعته باحترام، لكن دون أن يزيحها كلية؛ فرغم أن السلطان كان هو ظل الله في الأرض، فهو ينتمي قبل أي شيء آخر إلى جنس الذكور، وبالنتيجة، فلا حق له في تحية زوجة المستقبل نفسها. قلد الباقون رئيسهم. رد السلطان التحية - أو على الأقل هكذا ظنوا - واختفى داخل المسجد.

كيف يمكن تفسير التحول الغريب الذي ستعرفه الأحداث؟

عندما خيّم الليل ألقي عليهم القبض.

بالطبع، لم يكن الأمر يتعلق باعتقال بالمعنى الحقيقي للكلمة. لكن ذلك لم يمنع من أن «الحواريين» اقتيدوا ووضعوا بإقامة في أحد أجنحة القصر. لم يكن بإمكانهم مغادرته إلا بعد بضعة أسابيع. في ليلة اكتمل بدرها فوق البوسفور، وُضعوا على متن زورق والوجهة هي سميرن.

منذئذ فقد وجودهم في تركيا بريقه. ما عاد أمامهم سوى التوجه إلى مصر.

واليوم يفكر فيلسيان من جديد، وهو يمشي في دروب الاسكندرية، في تلك التحية التي وجهها إليهم ظل الله في الأرض. هو متأكد الآن. لم يكن الأمر متعلقاً بتحية بل بالأحرى بنظرة مطبوعة برزانة مصطنعة من قبيل تلك النظرات التي تلقى على مخلوقات معروف مصيرها سلفاً.

- لقد وصلنا، قال بارولت أمام منزل اجتاحته شمس منتصف النهار؛ إقامة القنصل الفرنسي العام، السيد ميموت.

فتح ذراعيه ورفعهما قليلاً نحو السماء تعبيراً عن الامتنان.

- إخواني! ارشفوا هذا الهواء الأيودي الصاعد من البحر! انظروا إلى هؤلاء الناس الشجعان الذين يحفوننا بنبل. تسر لي الرياح بأنهم يستشعرون نبل مهمتنا.

استطلع فليسيان الناس المتجمعين حولهم. بضعة فلاحين ومتسول أعور وأطفال ومروّض قرد وبائع عصير خروب يصدي، للفت الانتباه، بصنجين بين أصابعه.

- مصر! مصر يا مهد الرجال، قال بارولت متأثراً. غداً، هذه الليلة، في لحظة الوحدة والصمت، أعلم أن عبقرية المرأة التي ما تزال أسيرة على أرضك المقنعة ستبرز لنا. وسنستقبلها!

هل يتعلق الأمر بصدفة؟ بمجرد إنهائه لخطبته ظهرت، في انعطافة الطريق، فلاحة متشحة كلية في إزار وهي تحمل بتوازن مذهل جرة فخارية على قنة رأسها. على الفور، ومثل رجل واحد، رفع الحواريون قبعاتهم وحيوها باحترام بالغ وكأنها كليوباترا قد عادت إلى الحياة.

غير أن رد فعل الفلاحة، للأسف، لم يكن كما كان منتظراً. أطلقت

ساقيها للريح، مذعورة، فسقطت جرتها. عندما أصبحت بعيدة عن الأنظار استندت إلى جدار مسترجعة أنفاسها.

عملياً، لهذه الكائنات القادمة من الغرب عادات غريبة.

وعلى الفور أخذت تسب. من سيعوض جرتها؟

* * *

القاهرة، ١٥ مايو ١٨٣٣.

كان منزل لينانت دي بلفاند يقع في قلب الأزبكية التي أضحت حياً أرستقراطياً منذ أن جعلها نابليون مقر إقامته العامة، منذ حوالي خمس وعشرين سنة.

تسلل شعاع شمس عبر فتحات المشربية مثيراً الصور والخرائط الطوبوغرافية المنثورة على مائدة الأرز الكبيرة. انبعثت من الخارج أصداء الشارع وخليط من روائح التوابل والغبار. دعا يوسف فرديناند لمصاحبته إلى الشرفة حيث ينتظرهما لينانت.

- أنا سعيد بأن أراك من جديد، أيها السيد دي لسيبس.

تناول لينانت مقعداً من السوحر المفتول وقبل أن يقعد عليه نائب القنصل، شرع يتأمل المشهد حوله.

- ما أجمل هذا!

أشار بإصبعه في اتجاه بحيرة ماء بدا لجينها وكأنه صحن صفيحي موضوع تحت الشمس.

- غريب. لم أكن أتصور أن أجد بحيرة في هذا المكان.

- إنها بحيرة الأزبكية. ماؤها الآن قليل. هي تستحق اسمها بوصفها بحيرة، فقط عند صعود مياه النيل. كانت أيام المماليك ذات شأن. هنا كان يأتي الفرسان كي يحتفلوا بنصرهم في مباريات البولو.

البولو؟

- نعم، أنا أعلم أن هذا مستغرب الآن، غير أن ذلك صحيح. كان المماليك شغوفين بالبولو. وللعودة إلى البحيرة أقول لك بأنك محظوظ بمشاهدتها، إذ ستجفف عما قريب.

- هذا أمر مؤسف، أليس كذلك؟

- ما عاد هذا التجمع المائي صحياً. هذا مع العلم أنها، في الصيف، تجلب جيوشاً من الذباب. لكن اطمئن، فالعين لن تتضرر ما دامت حديقة ستقوم مقامها.

جلس فرديناند.

- قضيت الساعات الأربع والعشرين الأخيرة في زيارة عاصمتكم. أتدريان ما الذي أدهشني أكثر من غيره؟ هو ذلك التمازج الكبير بين الأديان. عُدّدَت لي أكثر من عشرين بيعة ولا أدري كم من الكنائس القبطية وأكثر من ثلاثين صومعة. هذا أمر ملفت.

- يهود ومسيحيون ومسلمون، لاحظ يوسف. ألا ينتمون جميعهم إلى الشعب نفسه الذي هو شعب أهل الكتاب؟ هكذا كان الأمر دائماً في الماضي، في مصر على الأقل. وعلينا أن نأمل في أن تستمر المعجزة.

- ما دمت قد أشرت إلى الماضي، فإنني أعترف لكما بأنني قد لعبت لعبة أثناء تجوالي بالقصبة؛ حاولت أن أتنقل في الزمن كي أتصور كيف كانت هذه المدينة منذ قرون خلت.

- آه! كانت بالتأكيد أروع بكثير مما عليه اليوم. كانت تسمى أم الدنيا.

أم الدنيا...، كرر فرديناند، ثم تلا: (من لم ير القاهرة لم ير الدنيا. أرضها موشاة بالذهب ونيلها أعجوبة. نساؤها شبيهات بحوريات الجنة. دُورها قصور وهواؤها اللطيف المعطر يسعد قلبي. كيف لا تكون كذلك وهي أم الدنيا؟)

- هنيئاً قال يوسف مطرياً. قليل من الناس يعرفون أصل هذه العبارة. أنت إذن قرأت ألف ليلة وليلة.

- بفضل والدي. ربما كنتما تعلمان بأنه قد تقلد لمدة من الزمن منصب القنصل العام بعد البعثة الفرنسية. فأنا مدين له بالمعلومات المتواضعة التي أملكها عن مصر.

أنت تبدو وكأنك تحذو حذوه بالمسار الذي اخترته.

- أحاول ذلك. فهو رجل كنت أكن له إعزازاً كبيراً.

- تتحدث عنه بصيغة الماضي، لاحظ ليناتت.

تغممت قسمات نائب القنصل الشاب.
- لقد توفي منذ مدة قصيرة، للأسف.
- أنا آسف، سيدي.
حرك فرديناند رأسه في صمت.
- ماذا لو تحدثنا بالأحرى عن المستقبل؟
- عن قناة السويس مثلاً؟
اعتدل فرديناند في مقعده.
- تماماً.
- سنعرف أخيراً لماذا أنت مهتم بهذه المنطقة إلى تلك الدرجة.
دعا لينانت، بحركة من يده، نائب القنصل الشاب كي يبدأ.
- أفترض أن اسم جاك ماري لوبير ليس غريباً عنك.
- ليس معروفاً عندنا وحسب، وإنما كثيراً من كان سبباً فيما اعتورنا من اضطرابات.
- لم أفهم. اضطرابات؟
- كنت بدأت تفسر لنا سبب اهتمامك. تابع من فضلك.
- تلعب الصدفة أحياناً دوراً غريباً. كانت السفينة التي حملتنا من تونس قد طولبت بأن تبقى أربعين يوماً بعيداً عن مرسى الاسكندرية. وعندما فكر رئيسي، السيد ميموت، في كل تلك الساعات الفارغة التي كان عليَّ أن أواجهها، تفضل بتمكيني من وصف مصر. وكما تعلمان، فهو يضم ذكريات لوبير. كان لي إذن كل الوقت كي أقرأها إلى أن حفظتها عن ظهر قلب. على الفور ولدت فكرة في ذهني: مشروع أخرق... حفر قناة السويس.
تملّى لسيبس، مقطوع الأنفاس، لينانت دي بلفاند.
- هكذا إذن؟... أنت تعرف!
- لا شيء يدعو إلى الدهشة. أليست القناة هي الموضوع الرئيسي لتلك المذكرات؟
أقر فرديناند كلامه دون أن ينبس.
- أصل إذن إلى هدف زيارتي. أريد أن أعرف إن كان المشروع قابلاً للتحقق. تقنياً أقصد.

- الجواب هو نعم.

- هذا غريب. أجبتني دون أدنى أثر لتردد. كما لو كنت تحمل الجواب دائماً في قلبك.

غادر ليناننت فجأة مقعده.

- هلاَّ تفضلتما معي إلى الداخل؟

عندما وصلوا أمام طاولة الأرز الكبيرة، قال ليوسف:

- لك الكلمة.

أشار ابن شهرزاد إلى الخرائط المتناثرة.

- أمامك عمل سنوات عدة. وهو يحتوي على كم من المعلومات لم يسبق أن حُصِّل من قبل. الجزء الأول يضم الكشوفات المائية لمصر العليا كلها. أما الجزء الثاني فهو مخصص للمنطقة التي تهمك: القناة. سيكون من العبث أن أحدثك عن عدد الساعات التي استنزفت في دراسة أدق البحيرات وأشد الحقول المائية تواضعاً.

صمت يوسف للحظة قبل أن يواصل.

- كان ليناننت قد تصور مشروعاً أول. كان ينوي ربط البحرين عبر داخل مصر السفلى.

- قناة غير مباشرة.

- نعم. لكن هذه الفكرة عوضت، منذ زمن قريب، بفكرة أخرى أكثر معقولية وبتكلفة أقل وتفتح أبعاداً عظيمة للإبحار.

- قناة مباشرة؟ قال فرديناند وقد أصبح محياه فجأة محموماً. لكن، إذا ما اتخذنا مذكرات لوبير مرجعاً، فإن هذه الإمكانية قد استبعدت دائماً بسبب اختلاف في المستوى بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط.

- خطأ.

كان ليناننت هو من أجاب.

- تريد أن تقول بأن هذا الاختلاف في المستوى غير موجود؟

- بلى.

- إذن؟

- لن يشكل عائقاً أمام الحفر في خط مستقيم. وحساباتي موجودة، وهي تؤكد ذلك.

شرع قلب فرديناند دي لسيبس يخفق بدقات كبيرة متسارعة.

- هلاّ تفضلت بأن تشرح لي؟

أعاد المهندس، كلمة كلمة، العرض الذي كان قد قدمه، منذ أسابيع، ليوسف، ثم خلص:

- على أي حال، سنسلك الانحدار الطولي الكبير الذي يُفتح مستقيماً، من الشمال إلى الجنوب، بين بيلوز والسويس. في هذا الانحدار الطبيعي للقناة ستقام ثغرة، قطيعة، بحفر قناة من خلال قطْع ضخم.

- وإذن! قال لسيبس متعجباً بنبرة متحمسة، فنحن لم نعد أمام خرافة! ما عاد شيء يعارض انطلاقة المشروع.

علت ملامح محادثيه عبارة حلم.

- إن حماسك، يا سيد دي لسيبس، قال لينانت، لَمُؤثر. لكن هل فكرت في التعقيد الكبير للمهمة؟ في العوائق المنصوبة في الطريق؟ لا يكفي الالتفاف على مشكل يتعلق بالربط بين نقطتين، وإنما وجب العمل على توفير وسائل السير بالمشروع إلى نهايته.

- أتعتقد أنني لم أفكر في ذلك؟ منذ أن علمت بمذكرات لوبير، لم يمر يوم، بل ساعة، دون أن أفكر في المشكل. كنت أشعر بأن هذه القناة يمكنها أن تغدو حقيقة. أما الآن، فأنا متأكد من ذلك.

- أنا أيضاً. غير أن السؤال هو: كيف؟ كيف الحصول على التزام نائب السلطان؟ فبدون موافقة محمد علي، لا مجال للتفكير في أية ضربة معول. أين سنحصل على المال الضروري؟ هذا دون الإشارة إلى الجانب السياسي في المسألة. ذلك أنه سيبرز، دون أدنى شك، منذ اللحظة الأولى.

عوض أن تهدئ هذه الحججُ التي قدمها لينانت نائبَ القنصل، لم تفعل إلا أن زادته حماسة.

- يجب التصرف مرحلة بمرحلة. أول صعوبة علينا تجاوزها، في نظري، هي التي ذكرتها لتوك، في مستهل حديثك: إقناع صاحب الجلالة. هل قدمتما إليه تصميماً؟

- أتعتقد أنه يجهل المشروع؟ لقد اهتم بمذكرات لوبير أساساً بسبب الإعجاب الذي أبداه دائماً تجاه مَثَله: بونبارت. أما بالنسبة لتسليمه تصميماً، فقد كان علينا، قبل ذلك، أن نمتلك معطيات ملموسة. والحال أن المعطيات الوحيدة الجديرة بالاهتمام هي المتعلقة بمستوى البحرين. وهي، بالأحرى، غير قابلة لإقناع نائب السلطان كي ينضم إلى ورش بهذه الضخامة، أليس كذلك؟

- اعذراني على إلحاحي. المشكل ليست هي هذا. العنصر المهم، في نظري، هو جس نبض جلالته. حاولا أن تعرفا، على وجه التدقيق، وجهة نظره في القضية. إذا بدا غير مهتم فمن باب تحصيل الحاصل أن ذلك سيقلل من فرص تحقيق المشروع. وبالمقابل، فإن موقفاً إيجابياً من قبله سيذلل الكثير من الصعاب. أتفهمان؟

تبادل لينانت ويوسف نظرة.

- أيها السيد دي لسيبس، أعتقد أنك على صواب. سنحدّث جلالته في الموضوع.

اتقدت عينا فرديناند دفعة واحدة.

- برافو! أنا متأكد من أن هذه الخطوة ستفتح آفاقاً جديدة. ومن جهتي، يا صديقي، فإنني سأقوم بكل ما أستطيع لمساعدتكما. بمجرد عودتي هذا المساء إلى الاسكندرية سأتطرق للموضوع مع السيد ميموت. من يدري...

أصبحت نبرة صوته أجش.

- ثمة، ربما، بالنسبة لحكومة فرنسا، دور كبير تلعبه.

اقترب ببطء من الطاولة وشرع يلامس بكفيه الكشوفات مثل خبير مياه يجس مجاري المياه الباطنية.

- من أجل فرنسا، ومن أجل مصر، لكن أيضاً من أجل كل ذوي الإرادات الحسنة.

* * *

- جيوفانا، قال ماندرينو بلطف، لو كنت تستطيعين فقط أن تحاولي إفراغ قلبك.

- ما الفائدة؟

- لا أريد الاختباء خلف جمل جوفاء، لكنني كنت دائماً من أولئك الذين يؤمنون بأن الكائنات إن استطاعت الكلام، فإن العالم لن يكون على الحال الذي هو عليه الآن. في كلمة، في كلمة واحدة، يمكن للأمل أن ينبجس.

- أو الألم.

تنهد الفينيسي. كان الجو حولهما أشد شفافية من الكريستال. كتلة الأهرام السمراء المذهبة بارزة في السماء الزرقاء. انقضت أربعة أشهر على أمسية عيد الميلاد. أربعة أشهر عمل ريكاردو خلالها على الاقتراب شيئاً فشيئاً من ابنته، كاداً في فهم، وبالخصوص، في تهدئة هذه الروح المضطربة. أمس فقط اعتقد بأنه قد تمكن من ذلك. وقد كفى أن طرأت تلك الحادثة الغبية - حكاية عائمة لملح لم يحفظ جيداً - كي تنقدح الشرارة من جديد بين الفتاة وأمها. ألقى بنظرة آلية نحو الفرسين الكميتين المصطفين على قدم الكثيب، وقال بصوت مسموع بالكاد:

- يكون الألم أحياناً قضية اختيار...

- تقصد أن الناس يقررون، عن طيب خاطر، أن يعانوا؟

- أو يقررون رفض السعادة. وهو ما يؤدي إلى النتيجة نفسها.

- أعلم بأن هذا لن يكون حالي أبداً.

- ومع ذلك...

عاندت وهي تعتدل بسرعة.

- لا َ أنا أتألم، لكن فقط عندما يجرحني الآخرون!

- الآخرون...

مد كفه في الهواء راسماً نصف دائرة.

- أين هم؟ هنا لا أرى أحداً غيري وغيرك والصحراء والفرسين. في البيت، بالصباح، ثمة أخوك وخديجة وحسن. ولا أتصور أن أحداً منهم يريد أن يجرحك.

استدرك، على شاكلة من يتذكر.

- صحيح... هناك أيضاً أمك.

لم يبد عليها أي رد فعل.

- لكن لنسياني مبرره. فأنا لا أعرف أماً قادرة على أن تجعل ابنتها تعاني، وإلا فإنها ستكون مصابة بمس.

كان، في الوقت نفسه الذي يتحدث، يتفحص الفتاة بحدة ظاهرة.

- أليس كذلك يا جيوفانا؟

ظلت متشبثة بخرسها.

كرر سؤاله بقوة.

وإذن فقد صاحت بعنف يشبه السعار:

- أنا لا أحب أمي وهي لا تحبني!!

أصبح هواء الصحراء فجأة مثلجاً. ارتفعت جلبة، جهة المصطبات، شبيهة بصرير باب، أم لعل الأمر لم يكن متعلقاً سوى بأزيز رمل تخدش القبور؟

- أنت لا تحبين أمك؟

كرر ماندرينو الجملة وكأنه يحدث نفسه.

- أتعلمين على الأقل لماذا؟

ظلت صامتة؛ صمتُ عنادٍ مصحوب بارتعاش حقيقي للشفتين.

قال:

- سأجيبك.

انعقدت أصابعه على شاكلة من يصلّي.

- لأنك تريدين أن تصبحي مثلها ولا تفلحين.

- ماذا تقول؟

- الحقيقة. تريدين أن تكوني قوية مثلها، لكنك لا تدركين إلا الغضب. تريدين أن تصبحي حكيمة مثلها لكن حكمتك ليست إلا تعباً. تريدين أن تحبي لكنك لست سوى متملِّكة. تريدين التصرف والقيام بما تقوم به هي لكنك تظلين مجرد شاهدة. تريدين لأحلامك أن تدرك أهدافها لكنك تنسين أن السهم كي يحلّق لا مناص له من قوس ثابت. تريدين أن تعطي بقدر ما تعطيه هي لكنك لم تفهمي بأننا فقط عندما نبذل أنفسنا نكون قادرين على أن نعطي للآخرين. هذا هو التفسير.

جثم ضباب رطب على بؤبؤي الفتاة، حاجبة الجوهرة التي عادة ما تكون

شديدة الصفاء. سمعت نفسها تردد بصوت خافت:

- تحبها كثيراً، أليس كذلك؟

- بقدر ما أحبك.

اجتاحتها فجأة رغبة في أن تعدو وأن تضيع في بحر الرمال. ذلك أن كلام ماندرينو قد أبرز لها مسلَّمة لم يسبق لها أن فكرت فيها، أو عملت دائماً على استبعادها: ما كان بإمكان عقلها أن يقبله كان قلْبُها يرفضه. عندما كانت تعرب عن رغبة في فتح ذراعيها، كانت قواها الداخلية تصيح فيها: حذار! خذي حذرك من العالم! كل مرة كانت تحاول أن تشمل الآخر بنظرة هادئة ومنصفة، كانت تجد نفسها، أكثر من أي وقت مضى، محبوسة وسط العتمة. وأخيراً، كان ممكناً أن تكون جيوفانا أخرى تحيا داخلها. وهي جيوفانا تعرف، وبإمكانها أن تخبرها كيف يمكننا أن نعطي لأنفسنا بأنفسنا. إذا كان الأمر كذلك، فإن هذا النصف قد يكون مشابهاً للظل الذي يعكسه جسد عندما تصيبه الشمس من الأمام. من يلتفت أبداً لمشاهدة ظله؟

انطلقت الكلمات رغماً عنها تقريباً.

- أريد أن أحاول... لكن بدونك لن أستطيع.

- لا نستطيع فعل شيء بمفردنا. سأكون موجوداً.

كانت ستجيبه عندما جعل عدوُ فرسٍ الأرضَ تهتز من حولهما. فارس، ممسك بالزمام، كان يعدو في اتجاههما.

- يبدو أنه آت إلينا...

ما كان عاد الفارس، وهو عسكري، إلا على بعد خطوات منهما. كان فرسه يعدو وسط غبار مثار.

- ماندرينو بيك! من قبل صاحب الجلالة، قال وهو يسلمه مطوياً.

أمسك ريكاردو بالرسالة.

- هل ينتظر مني سعادته جواباً فورياً؟

- لم أتلق أمراً بذلك، يا بيك.

- طيب، لتصحبك السلامة.

أدى العسكري تحية واستدار فأطلق مطيته عبر الكثبان نحو الجيزة.

- ما هذا؟ سألت جيوفانا وقد توترت فجأة.

بدا أن ريكاردو لم يسمعها، غارقاً في القراءة. بعد لحظة قال:

- تعالي، سنعود.

أمسكت بمعصمه.

- ماذا هناك؟

- دخل إبراهيم قوتاهية.

- قوتاهية؟

- على بعد خمسين فرسخاً من اسطنبول.

أطلقت صرخة فرح.

- لكن هذا رائع.

- ليس إلى ذلك الحد.

- آه! ألم تكن تقول بأن وسيلة مصر الوحيدة كي تكون حرة مستقلة هي القضاء على السلطان العثماني؟ وكنت أقنعت حتى محمد علي بذلك؟

- إذا حكمتُ انطلاقاً من هذه الرسالة، فقد تمت زعْزعَةُ قناعَتِهِ. لقد قرر وضع حد للمسيرة المظفرة لإبراهيم.

- يتم إيقافه وقد أصبح على هذا القرب من الهدف؟ لماذا؟

- سيكون التفسير طويلاً. تعالي، لنعدْ إلى الصباح.

عندما كانا متوجهين إلى الفرسين سألت:

- وفيم يهمك أنت كل هذا؟

- قلت لك ذلك لتوي. نائب السلطان يطالب بأن يوقف ابنه زحفه على الفور. وهو يخشى من أن لا يستطيع بريد عاد أن يقنعه بذلك.

ازدردت ريقها.

- مما يعني؟

- أنَّ على رسول ثقة أن يتوجه إلى عين المكان، إلى قوتاهية.

- ونائب السلطان يريد أن يكون هذا الرسول...

لم تنه جملتها، كما لو أن ما تلفظته من كلمات كاف لتجسيد ما تتوجسه.

- عن حق أو عن باطل، يرى محمد علي أنني الوحيد القادر على إقناع إبراهيم. لكنني أطمئنك: لم يقرَّر شيء بعد.

اجتاحها برد مثلج.

- أبي . . . أنت لن تقبل. لن تتوجه إلى تركيا.
وسع الخطو.
- أجب، أرجوك . . . أنت لن تذهب إلى تركيا.
- إذا لم يكن من الأمر بد، أعتقد أنني سأذهب.
- لا شيء يرغمك على ذلك!
- إلا جانب الواجب.
أحست أنها غير متحكمة في قدميها.
- الواجب؟ لكنك استجبت له ألف مرة.
قفز إلى ظهر فرسه.
- هيا، لنعد.
حركت رأسها بعناد.
هناك شيء آخر. قل لي أرجوك.
- أنت محقة بالتأكيد. هناك ما هو أهم: الصداقة التي تربطني بالعاهل. لكنني أكرر لك: لم يؤخذ بعد أي قرار.
- تنصرف من جديد!
أمسكت أصابع الفينيسي بحيوية بالزمام.
- قوتاهية ليست نهاية العالم.
- نفران بدورها لم تكن نهاية العالم!
- هيا الوقت متأخر يا جيوفانا.
قالت شبه صائحة:
- وأنا! هل فكرت فيما سأصيره أنا؟
- ها أنت تتحدثين الآن مثل زوجة غيورة. على أي حال، وإذا ما ذهبت، فإن الأمر لن يتجاوز أسبوعين على أكبر تقدير. وأنت لن تبقي وحيدة. سيكون يوسف إلى جانبك.
- يوسف . . . وأمي؟
- ماذا تعتقدين؟ سترافقني إلى قوتاهية . . .
ظلت فاغرة فاها.
- هيا يا جيوفانا. تعالي أرجوك.

الفصل الثامن عشر

أجالت شهرزاد، شاردة، ظفرها على طول نقوش الصينية النحاسية ومررتها بين الفراغات المرصعة بشذرات فضية.

- يتلخص الاختيار، كررت، في كلمات قليلة: أن أموت من القلق أو أن أتبعك في تهورك.

- لا، قال ماندرينو، أنت تبالغين. أولا، ليس مؤكداً أنني سأذهب، ثم إن الأمر لا يعدو أن يكون رحلة.

تأملته مع ابتسامة شاحبة.

- رحلة؟ فقط؟ قوتاهية ليست هي الاسكندرية. نحن لن نتوجه إلى مزرعة الزهور أو إلى فينيسيا. ما تعتزم القيام به هو رحلة بحرية في بلد في حالة حرب، في قطر قاس وصعب.

- أنت تبالغين. تركيا ليست جحيماً. لقد سبق لي أن عبَرتها.

- كان ذلك منذ زمن طويل، وفي ظل ظروف مغايرة.

حبس حركة انزعاج.

- نعم، أعلم. فشعري قد ابيضّ وحفر الزمان تجاعدي وأضحت زرقة عيني أكثر خفوتاً. لكن لا تقلقي، فأنا ما زلت بصلابة الأهرام.

- ريكاردو... بإمكان نائب السلطان أن يكلف شخصاً آخر بهذه المهمة، وأنت تعرف ذلك.

- وإذا كان الأمر باختياري أنا؟ هل سبق لك أن طرحت هذا السؤال على نفسك؟ لأي شيء أضحى وجودي مشابهاً بعد عودتي من نفران؟ يحصل لي

أحياناً أن أنظر إلى نفسي في المرآة، فماذا أرى؟ طيفاً يثخن وناراً تخبو، وأرى مستقبلي جامداً.

- والحاضر الذي لا يؤخذ بعين الاعتبار.

- الشيء الوحيد الذي يؤخذ بعين الاعتبار هو مستقبل أي كائن. فمن اللحظة التي لا تعود لنا جدوى، نصبح من قبيل الموتى.

بمجرد نطقه بهذه الكلمات عاد إلى ذاكرة شهرزاد الحوارُ الذي دار بينهما في فينيسيا. كانت قد عبرت عليه لتوها وشرعت تحاول طمأنته على المستقبل. قاده الحديث إلى الكلام عن خوفه من الموت. كان قال:

لقد أصبح هذا الخوف بلا قيمة أمام عار أن لا نكون صالحين لشيء. لن أستطيع أن أعيش جامداً. أبداً.

وها هو، اليوم، يكرر الكلمات نفسها بالحماس نفسه.

أما عدت تنصتين إليّ؟

أعادها السؤال إلى الحاضر.

بلى، بالعكس.

- أريد الاستمرار في الحياة، يا شهرزاد. لا أريد أن أعيش جامداً، أريد أن أتحرك. أنا عطشان، هل يمكنك أن تفهمي ذلك؟

- ما أفهمه هو أن ظمأك لا يرتوي. أتذْكُرُ البئر التي توجد على مشارف الإقامة؟ لم تجف لا في عهد والدي ولا في عهد والده قبله. أمس أيضاً استقيت منها ماءً؛ كان صافياً كالقمر، منعشاً كالليل. إذا أراد الله، سيكون الأمر نفسه مع ابنينا ومع أبنائهما أيضاً. في هذا العالم حيث تسود الصحراء، كنت دائماً مقتنعة بأن هذه البئر لم تحفر وإنما هي معجزة، هبة من السماء مُكّنا منها بصفتها وديعة. هي شبيهة بحياتنا يا ريكاردو.

صمتت ثم وشوشت وكأنها تثير لغزاً.

- أن تخشى العطش، في الوقت الذي تكون بئرك عامرة؛ أليس هذا عطشاً لا يمكن ريه أبداً؟

لم يُدلِ بأي تعليق، مستغرقاً في تأمل طويل لم تجرؤ على مقاطعته.

* * *

- عمَّ يبحث هؤلاء السادة؟ صاح محمد علي.

أشار إلى مجموعة من حوالي عشرين شخصاً لم يكونوا يكفون عن النظر إليه من على جانب الجبل المشرف على البحر وعلى مصنع السفن.

أجاب سيريزي ببعض الضيق:

- إنهم أولئك الفرنسيون الذين سبق لي أن حدثتك عنهم، سعادتك. السانسيمونيون.

- السانسيمونيون... اسم غريب. ماذا يريدون؟ هذه هي المرة الثالثة على الأقل التي ألقاهم هنا. هل يحبون السفن إلى هذه الدرجة؟ أم أنهم أتوا ليبدوا إعجابهم بما أنجزته؟

- لا هذا ولا ذاك، يا صاحب الجلالة. ألم يخبركم مساعدكم؟ إن أحدهم، وهو شخص يدعى إميل بارولت، يأمل أن يحصل على لقاء.

- ماذا يريد أن يقول لي؟

- أوه... أعتقد أنه يريد أن يحادثك في بعض المشاريع التي لها علاقة بمصر، وعن بعض الأفكار.

- مشاريع، أفكار. ألا يمكنك يا سيريزي بيك أن تكون أكثر وضوحاً؟

- الحقيقة أن ذلك يبدو لي، أنا أيضاً، غامضاً...

بدا نائب السلطان نافد الصبر.

- هيا، أرجوك، ابذل مجهوداً!

- يتعلق الأمر بجمعية عالمية، بتنظيم سلمي للعمال، وبمجيء زوجة-أم سيتجسد فيها نصف المسيح و...

سعل قبل أن يقول:

- مساواة الرجل والمرأة.

سأل محمد علي مبدياً بعض الحيرة:

- قل لي يا سيد سيريزي، متى وصلوا إلى الاسكندرية؟

- منذ أسبوع، أو ربما أكثر. لماذا، جلالتكم؟

في الوقت الذي كان سيريزي يطرح سؤاله، مرت مجموعة السانسيمونيين، على بعد أمتار قليلة مفصولين بالحرس الشخصي للعاهل. رفعوا قبعاتهم وانحنوا باحترام.

رد عليهم محمد علي، بابتسامة مفتعلة، تحيتهم.

- ماذا كنتم تقولون، جلالتكم؟ قال سيريزي.
- ماذا؟ تمتم العاهل.
- كنتم تريدون معرفة متى حل هؤلاء بمصر.
- وسمعت جوابكم: منذ أسبوع. هذا قليل على أي حال.
لم يستكنه سيريزي التلميح.
قال نائب السلطان على الفور:
- كنت أجهل أن بإمكان شمس هذا البلد أن تذيب العقل بهذه السرعة!
سحب زمام مطيته بحركة حادة.
- تعال يا سيريزي! لي موعد مع مواطنكم دي بلفاند.
عندما مر محمد علي، مسرعاً على جواده، أمام السانسيمونيين، خصّهم بتحية أخرى أكثر إفصاحاً من المرة الأولى.

* * *

- أنا منهك، قال سعيد وهو يتهالك على الرمل. منهك.
كانت كرة الشمس الحمراء، فوق بحيرة مريوط، تبدو وكأنها معلقة على خط فضي مسطور على الأفق، مستعدة للانتقال إلى الجهة الأخرى من الكون. وكان لون وردي رائق قد غشى المياه الثابتة وأطياف الصيادين. التحق فرديناند بالطفل وشرع يجفف بمنديل العرق السائل على محياه الذي يكاد يكون بلون الشمس القرمزي نفسه.
- أنا منهك، كرر الأمير. هذا فوق طاقتي.
- ومع ذلك، فنحن لم نغْدُ إلا لنصف ساعة، سعادتك. وأنتم تعلمون بأن هذا ليس كثيراً.
- ليس كثيراً؟
اعتدل سعيد.
- هل تعلم، يا سيد دي لسيبس، أي استعمال زمن كان لي منذ مطلع النهار؟ سأخبرك. على الساعة السادسة صباحاً كان لي الحق في فنجان شاي وقطعة خبز جافة، بلا زبدة ولا مربى ولا بيض ولا حتى فول. بعد ذلك أتى أستاذي في التربية البدنية ليأخذني إلى درس الرياضة، وكان الاتجاه هنا هو

صاري السفينة. ثلاث مرات متتاليات! هل سبق لك أن تسلقت صاري سفينة؟

- أوه... لا، سعادتك.

- إنه عال. عال للغاية. حركة خاطئة وتجد نفسك قد اختزلت إلى حساء فتة. بعد ذلك أتى دور القفز على الحبل، وعند نهاية الصبيحة، ساعة من التجديف.

- أعترف أن...

- انتظر... لم أنته بعد. بعد غذاء هزيل، أتوا ليأخذوني لإنجاز درسي في المسابقة. أخيراً، وبعد ساعة من ذلك، أتى دوركم يا سيد دي لسيبس. وإذن، فعندما تقول لي بأن نصف ساعة من العدو جرياً على الأقدام ليس بالشيء الكثير...

قطع كلامه ورفع سبابته.

- نسيت! عندما كنا نسكن القلعة على المقطم، كنت مجبراً، مرة في الأسبوع، على القيام بدورة حول الأسوار. ولحسن الحظ، فقد أعفيت من هذا التمرين منذ أن أصبحنا نقطن رأس التين.

- آه... ذلك أن الأمر قد يكون اعتبر مبالغاً فيه.

- أبداً.

قال عابساً وهو ينكس رأسه.

- ذلك أنْ ليس ثمة أسوار حول رأس التين.

مد فرديناند دي لسيبس، متَجَاوزاً، يده لسعيد وساعده على الوقوف.

- هيا سعادتك، سنعود إلى القصر. وعلى أي حال، فالمساء قد حل.

- انتظر، يا سيد دي لسيبس، ليس على الفور.

رفع الأمير كفاً إلى أذنه.

- اسمع...

كان صوت المؤذن، محمولاً بالنسيم، يحلق فوق المقطم.

- أحب هذا الدعاء... هل تعرفه؟

- لا، أيها الأمير سعيد.

شرع الطفل ينشد مقلداً صوت المؤذن:

- «الماجد، الواجد، الواحد، الأحد، الصمد...»

توقف.

- هل تعرف ما هذا؟

وجد فرديناند نفسه مجبراً على أن يجيب ثانية بالنفي.

- أسماء الله الحسنى... هي مائة، لكن تسعة وتسعين منها فقط هي التي يذكرها الناس. الاسم المائة لا يعرفه إلا الله.

كان صوت المؤذن يصدح صابغاً المشهد ببعض الجلال.

- أحب هذا الدعاء. كرر سعيد.

- هل يمكنني أن أسألكم عن السبب، سعادتكم؟

- ذلك أنه يبعدني عن الناس.

- أنت إذن لا تحبهم؟

- هل يمكننا أن نحب من يجعلوننا نعاني؟... لا، أنا لا أحب الناس.

- للأسف. فأنتم إذْ تُبعدُون الناس تُحْرَمُون صداقتهم.

- أنا لا أدري عمَّ تتحدث. الأمير لا يكون له صديق. وعلى أي حال، ما الصداقة يا سيد دي لسيبس؟

بدا نائب القنصل متفكراً للحظة.

- لقد ذكرتم لتوكم أسماء الله.

- نعم...

- الشيء نفسه يصدق على الصداقة؛ فعندما نكون محاطين بتسعة وتسعين شخصاً، فإن شخصاً من بينهم سيكون متفرداً بالنسبة إليكم.

- لماذا؟

- ببساطة، أيها الأمير سعيد، لأنكم ستكونون أنتم أيضاً متفردين في عينه هو.

شرع الفتى يتفحص مخاطَبه باندهاش وإعجاب.

- سأفكر في الأمر يا سيد دي لسيبس... قال بهدوء. سأفكر في الأمر.

* * *

- هكذا يا سيد دي بلفاند، حفر القناة لن يسبب في الفيضانات التي تحدّث عنها القدامى...

عبَّ محمد علي من تبغه وشخص ببصره إلى السقف متفكراً.
ظل على تلك الحال للحظة أمام أنظار لينانت ويوسف المتسائلة.
- أتعرفان بأن هذه ليست هي المرة الأولى التي تم التطرق فيها إلى القناة؟
- بالطبع، جلالتكم، أجاب يوسف. لكن مع فارق أننا اليوم نملك معطيات جديدة تسمح لنا بتطوير حفر خط مستقيم؛ حفر أقصر وأكثر انفتاحاً على آفاق أكثر شساعة. وعلاوة على ذلك، نحن نملك الآن خارطة جغرافية دقيقة للأمكنة، مما يتيح لنا وضع مشروع تقني حقيقي.
صادق محمد علي على كلامه دون أن يتخلص بشكل نهائي من تفكره.
قرر يوسف أن يذهب أبعد.
- إن سمحتم لي، جلالتكم، سأتطرق لنقطة أساسية تعد لمصلحة القناة. سنساهم في تطور الموارد التجارية والثقافية لبلدكم بجعله قاب قوسين أو أدنى من أوروبا. ستشكل مصر، بفضل حقوق العبور، مصدراً مباشراً للعائدات القادرة على مضاعفة ثروتها الاقتصادية. القناة في مصلحة مصر، لكنها ستساهم أيضاً في بناء مجدكم الشخصي. تذكروا أن التلاقي بين البحرين سيتم في عهدكم، وسيلهج العالم بجرأتكم.
- مجدي الشخصي؟
أصدر الباشا حركة خفيفة من كتفيه.
- أتظن أن مجدي لم يبن بعد؟
- اعذرني. ليس هذا ما قصدت.
- وحتى لو كان لم يبِنْ بعد، قاطعه نائب السلطان، فأنا أبلغ من العمر أربعة وستين عاماً. أتظن أن شخصاً سليماً في بدنه وفي عقله يسعى إلى الجري وراء هذا الشيء الهارب الذي هو المجد؟ ثم تحدثت عن الجرأة...
حرك نائب السلطان رأسه مرات متعددة من اليسار إلى اليمين.
- أنت شاب يا ابن ماندرينو؛ أنت لم تتعلم بعد شيئاً من الحياة. سأطلعك على سر. وأنت أيضاً يا سيد دي بلفاند. استمعا. يكون علينا أن نبدو أكثر جرأة عندما نكون أكثر ضعفاً. انظروا كم كان ضعفي كبيراً خلال كل هذه السنوات.
توقف للحظة وتغممت عيناه بعض الشيء.

– لقد فهمت بأنني قد أصبحت قوياً عندما شعرت بأن عليَّ أن أكون حذراً.

أضاف بسرعة وبصوت يكاد يكون غير مسموع، كما لو كان يخاطب نفسه:

– لو كان فقط بإمكان ولدي إبراهيم أن يفهم...

ثم عاد ليقول بنبرة حازمة:

– أنا لا أجهل شيئاً من إيجابيات القناة ومن الخيرات الكثيرة التي يمكن أن تدرّها على مصر. أنا لست ضد إقامتها.

ولَّد هذا التأكيد الأخير علامات ارتياح لدى مخاطبيْه. لكن محمد علي سرعان ما آتى حركة من يده وتابع:

– أنا لست ضد إقامتها، كرر، غير أن بعض الشروط لا بد أن تحترم.

– أي شروط سيدي؟

– فيما بعد.

عبَّ من تبغه ونفث سحابة دخان أزرق وواصل:

– حسب علمي، أبحاثكما لم تنته بعد.

– نعم، للأسف، لكن مواصلتها رهينة بكم.

– وإذن فأنا آذن لكما! تقدما. ضعا التصاميم والخرائط وقدِّرا التكلفة. سأساعدكما وسأجيب بالإيجاب عن كل متطلباتكما، سواء تعلقت بالمال أو بالعتاد أو باليد العاملة. لن يُرفض لكم طلب. وعندما تفرغان من المشاكل التقنية عودا إليّ. آنذاك سنعمق البحث.

– شكراً لكم، سموكم. كرمكم يثلج صدرنا ويريحنا.

– ألم أقل لكما بأنني مقتنع بما ستدرّه القناة على مصر من خير؟

– مصر والعالم، أجاب يوسف. وبالمناسبة، يسعدني أن أخبركم بأننا نحظى بدعم غير مشروط من السيد نائب قنصل فرنسا.

– السيد دي لسيبس؟

– نعم، سيدي. نادراً ما قابلنا شخصية شغوفة مثل هذه. لقد أكد لنا بأنه سيعمل، بواسطة السيد ميموت، على جعل فرنسا تهمتم بهذا المشروع.

وسع محمد علي ذراعيه بشكل قدري.

- أعانه الله على مساعيه.

آتى العاهل حركة تعني بأن اللقاء قد أدرك نهايته.

لفظ لينانت ويوسف على الفور صيغ الآداب المعمول بها وتقدما نحو العتبة.

ما كادا يخطوان بضع خطوات حتى علا صوت الباشا:

- «ستجعل قناة السويس - التي ستجمع بين مياه المحيط الهندي ومياه البحر الأبيض المتوسط - من مصر، الغنيمةَ الوحيدة التي تسمح لفرنسا بالوقوف في وجه القوة البحرية العظمى لإنجلترا!». أتعرفان لمن هذه الكلمات؟

تناظر الرجلان حائرين.

- مواطن السيد دي لسيبس، ومواطنك أنت أيضاً سيد دي بلفاند. عرفتما من؟

أجابا بالنفي.

- بونبارت، يا أبنائي، بونبارت...

* * *

بمجرد مغادرتهما ديوان نائب السلطان، سأل يوسف لينانت:

- ما قصده؟ ألا ترى بأن ملاحظته الأخيرة غامضة؟

- بالعكس. بدت لي واضحة للغاية.

- كيف؟

- نائب السلطان جاد في قوله بأنه لا يعارض إقامة قناة السويس. غير أنه عندما أشار إلى بونبارت أراد أن يفهمنا بأن الأمر يتعلق قبل كل شيء بقضية سياسية.

- لكن المشروع عالمي، احتج يوسف. هو لا يهم أمة مخصوصة وإنما العالم أجمعه. إنجلترا وفرنسا وكل هذه القوى التي تتطاحن الآن فيما بينها، ستجد هنا الفرصة لتتحد من أجل قضية تتجاوز مصالحها الشخصية.

- أتظن، يا صديقي، بأن هذه ليست فكرتي أنا أيضاً؟

كانا قد أدركا نهاية الممر الذي يفضي إلى أعلى السلم المرمري الضخم الذي يقود إلى الطوابق السفلية.

- كيفما كان الحال، فسنكون جاحدين: «مال وعتاد ويد عاملة. لن يُرفض لكما طلب.» أليست هذه كلماته؟

أخذ بذراع صديقه بحماس.

- إذن، وما دامت المسؤولية قد ألقيت على عاتقنا... فلنذهب يا عزيزي، إن السويس تنتظرنا!

- أنت على حق يا لينانت، فلنذهب.

الفصل التاسع عشر

قوتاهية، تركيا، مايو ١٨٣٣.

كانت أضواء المخيم المقام على طول السهل المحدب لقوتاهية كثيرة إلى درجة أنها تجعل المرء يفكر في سماء من النجوم معكوسة. كانت تلك النجوم تضيء صفحة أخرى من كتاب شهرزاد. القلق من فراق ريكاردو أقوى من كل الحجج التي يقدمها العقل. عند مغادرة الصباح فجراً وعندما بدأ الوجه الأفطس لأبي الهول يتلاشى، شعرت بنفسها مجتاحة بكلمات أنشودة معروفة. ألم يكن ذلك تحذيراً؟ «قلب الإنسان حقل شاسع: الشغف يحرقه والحب ينيره.» هل يحصل لها أن تحب ماندرينو بشكل آخر غير الشغف؟

- أنا سعيد بأن أراك من جديد ست ماندرينو. أعادها صوت إبراهيم باشا من شرودها.

- إنها سعادة متبادلة، سيدي.

كانا قد وصلا إلى المخيم منذ يومين، غير أنها لم تتعود بعد على الوجه الجديد للأمير. انصرمت سنوات ست على لقائهما بإيبدور، لكن الوجه الجديد هو الذي طبعه الزمن على ملامحه. التعب وضغط المعارك كانا قد تركا أثرهما على الرجل، وبالخصوص تلك المسيرة الاضطرارية التي قادته، خلال ثلاثة عشر يوماً، من قونيا إلى قوتاهية، عبر سهوب الأناضول، في عز فصل الشتاء، في درجة حرارة لم يكن لا هو ولا رجاله مستعدين لها. كان شعر الأمير يبدو مصبوغاً بثلوج جبل توروس، إذ أضحى الآن أبيض تماماً. ووجهه منهك مثل المنظر حوله.

انصبغت مهمة ماندرينو، فجأة، بطابع مأساوي. كيف يمكن إقناع رجل بذل كل هذه التضحيات وبنى كل هذه الآمال؛ رجل له كل هذا الاقتناع بصواب ما يقوم به - بأن عليه أن يلقي بآماله على الأرض وأن يضع عصابة على أحلامه.

قدم الفينيسي، خلال يوم وصولهما نفسه، لابن محمد علي الرسالة التي تتضمن الأمر القاطع بعدم التقدم إلى الأمام ولو لميل واحد.

كان الأمير قد ثنى الورقة واكتفى بأن صرح بصوت خافت:

- ستة أيام تفصلني عن قصر السلطان. يمكن القول بأنها مسافة مضحكة. وها أبي، بإرادته، يدفع بإسطنبول إلى أطراف الدنيا.

لم يضف شيئاً ولاذ بصمت مذهل بما كان ينبعث منه من حزن. كان محتملاً أن يلقي إبراهيم برسالة نائب السلطان في النار لو لم تكن مبادئ الاحترام قد ترسخت لديه منذ الصِّبا.

- أنا أعرف ما تشعرون به، سعادتكم، وأخمن أية خيبة أمل تشعرون بها. أنا أقاسمكم مشاعركم. لكن ليس بإمكاننا أن ننحي وجهة نظر جلالة والدكم جانباً. أوروبا بأجمعها تعارض. فعشية مغادرتي كانت إنجلترا، على لسان قنصلها العام الكولونيل كامبل، قد هددت بإرسال أسطول أمام الاسكندرية.

- إنجلترا! أوروبا! وفرنسا؟ ما الذي تقوم به فرنسا؟

- فرنسا، سعادتك، أعربت دائماً عن صداقتها لوالدكم. وهي ترغب في دعمه وأظل راسخ الاعتقاد بأنها ستفعل ذلك. لكنكم قد أنزلتموها وضعية معقدة بشكل رهيب. فحكومة لويس فيليب تتمنى، من جهة، أن تنافح عن شرعية الامتياز الذي حققتموه أنتم ووالدكم، وتبقى، من جهة أخرى، متشبثة بقوة بالوحدة الترابية للإمبراطورية العثمانية. وهي وحدة مهددة اليوم من طرفكم وغداً من طرف التدخل الروسي.

- وبذلك تكون فرنسا تحذو حذو إنجلترا.

- أنتم لا تتركون لها الخيار. لا تنسوا بأن ثمة حلماً يروج منذ زمن طويل في ممرات المستشاريات الأوروبية: تقاسم الإمبراطورية العثمانية.

قال إبراهيم بحزن:

- تقاسم الإمبراطورية العثمانية... حلم يعود إلى أربعة وثمانين عاماً.

- وأنتم تعلمون أنه سيتحقق. ففي مستقبل قد يكون قريباً، لن يعود لهذه المنطقة من العالم الملمح نفسه. ستتقاسم القوى العظمى المخلفات التركية. وأمام هذا الرهان الضخم، لا يعود لمصر من وزن أكثر من حبة أرز.

انتصب إبراهيم واقفاً قبضته نحو السماء.

- آه لو كان أبي فقط قد استمع إليّ! لم يكف عن التردد منذ أن ولجت أرض تركيا! كم من أوامر ومن أوامر مضادة! كم من المماطلات! لقد دامت هذه الحرب أكثر من سنة ولم يُصدِر أي قرار صريح! لقد كان أبي على الدوام في أعقابي كي يكبح تقدمي الظافر.

- ذلك أنه في الوقت الذي كنت تقيم فيه معاركك، كان هو يعمل على إبطال مفعول الفخاخ التي تنصبها الدبلوماسية الأوروبية. تذكروا نفران، سعادتكم.

- أبي، يا ريكاردو بيك، رجل عظيم. وأنا أخصه بكل الإعجاب. لكنني ألاحظ للأسف بأن ذهنه تحليلي على نحو مبالغ فيه. الأمر الواقع هو شكل الفعل الوحيد الذي ينحني العالم دائماً أمامه. ما كان يجب ترك وقت لأوروبا كي تبدي رد فعل! ما كان يجب ذلك!

مسح بيده الخيام المقامة حوله.

- انظر إلى جيشي. ما عادت لدي إمكانيات لإطعامه منذ أن حكم عليَّ بأن أظل في موقعي. هذا البلد صحراء! لا تنبت فيه إلا الأحجار والعليق! أين أنا من شواطئ النيل وحقولها المخضرة؟

شرع يذرع الأرض المغبرة بخطوات عصبية.

قالت شهرزاد لنفسها، وهي تراه على تلك الحال، بأنه ينتمي، لا شك، إلى ذلك النوع من الفاتحين الذين إن فُتِحَ العالم أمامهم يذهبون إلى أقصاه. أولئك الرجال - من أمثال الاسكندر وجانكيزخان - الذين لا يقفون إلا عندما يسقطون.

كان الزمن يبدو جامداً تحت سماء ليل الأناضول. عاد الأمير أخيراً نحو الزوجين وتهالك على الرمل وساقاه مثنيتان تحته.

- ممتاز. ها هي ذي الرسالة التي سأرسلها إلى والدي. سأمتثل لأوامره ولن يتجاوز أحد من جنودي قوتاهية. لن أستولي على إسطنبول؛ لكن لا

مجال لأن أعود على أعقابي. أو بالأحرى، ليس قبل أن أحصل على وعد من القوى العظمى بأنها ستستجيب لطلباتي.

- أي طلبات أيها الأمير إبراهيم؟

- من الناحية السياسية: استقلال مصر. ومن الناحية الترابية أصر على الحصول على منطقتيْ عليا وسيسيليا. أقصد كل الساحل الجنوبي للأناضول، الذي يعد تكملة لأراضي سورية التي ستكون من الآن فصاعداً جزءاً لا يتجزأ من الأمة المصرية. أصر أيضاً على الحصول على جزيرة قبرص. سنجعل منها محطة لأسطولنا ونقطة حراسة نابهة لضفاف الأناضول وطرق الهند. وأخيراً، أطالب بمقاطعة أدنة مع مرفأ على البحر لتسهيل نقل الخشب الضروري لأسطولنا.

ركز بصره على ماندرينو.

كانت ملامح الفينيسي تعكس ابتسامة.

- ماذا يحصل؟ قال لإبراهيم غاضباً. لماذا هذه الابتسامة؟

- لأنني نادراً ما لاحظت هذا التطابق في الفكر بين ابن وأبيه. ما عددتموه لتوكم هي لائحة المطالب نفسها التي أرسلها سلفاً جلالته إلى القوى العظمى. لم تغفل أي مطلب مما طلبه. ولم تغير أي كلمة مما استعمله.

لاحظت شهرزاد:

- على أي حال، سيدي، فأنتم لستم مجردين كلية من ذلك العقل التحليلي الذي تؤاخذون به أباكم.

لم يخفَ على مخاطبها النبر الفكه الذي تلفظت به. أجاب:

- ماذا تريدون الست ماندرينو، اللبؤة لا تلد بغلة.

ثم قال موجهاً حديثه لريكاردو:

- كنا نتحدث عن موقف فرنسا. أتظن أنها ستساند مطالبنا؟

- يمكنني أن أؤكد لكم بأن دبلوماسياً فرنسياً، هو الأميرال رواسان، يوجد الآن في إسطنبول من أجل أن تحتفظ مصر بمكتسباتها.

أغطس إبراهيم يده في جيب سرواله الفضفاض وأخرج سبحة عاجية وشرع يسبح.

- أقول لنفسي، عندما أقيِّم الأمور، بأن وضعية بلادي هي أصعب وضعية عرفتها عبر التاريخ. هي أمة في طريق التشكل. وكل مرة تعمل خلالها على الحصول على استقلالها عبر صراع مرير، وتحاول أن تتأكد من تحالف القوى العظمى، تعود هذه لتتجمع مثل رجل واحد كي تنتصب ضد مصر.

أصدر تنهيدة تشبه بكاءً مختنقاً.

- أتدري كيف سينتهي كل هذا؟

رفع وجهه المتألم تجاه السماء المزينة بالنجوم.

- ستموت مصر.

* * *

باريس، مايو ١٨٣٣.

كان يصعد إلى النافذة ضجيج العربات المسُوقة بالجياد، والصدى المخنوق لارتطام الحوافر بالأرض المبلطة لشارع كادي.

وضعت جوديث غريغوار قطعة الثوب المبللة على جبهة كورين. حاولت هذه أن تعرب لها عن امتنانها غير أن الكلمات انطفأت على حافة شفتيها اللتين جففتهما الحمى.

- عليك أن لا تتعبي، وشوشت جوديث. نامي.

النوم؟ لا، بالخصوص لا. من خلال غمام دقيق رأت صديقتها منحنية فوقها. ما كانت لتستطيع، ربما، تعَرُّفَها لولا صوتها الأليف. المرض يقرضها منذ ما يقارب الأسبوعين. تشعر أن جسدها الفتي يستنزف ويفقد من جوهره وينزلق نحو هوات بلا قرار.

كانت الليالي، بالخصوص، هي التي تبدو مضنية. ما إن يستولي عليها النوم حتى تمرق كوابيس مكشرة ومخلوقات شوهاء تحاول يائسة الفرار منها وهي تعدو بكل قواها في غابات ذات أشجار هزيلة تثني أغصانها على طريقها كما لو كانت تريد أن تأسرها.

النوم... يجب أن تبقى صاحية... بالخصوص أن لا تنام.

ما أصل هذا المرض الشارع في إفنائها، كما تفني السنوريات طرائدها؟ حتى الدكتور لودو المعروف بدقة تشخيصاته أبدى عجزه عن تقديم تفسير.

أرعش اهتزازُ كتفيها، كلَّ جسدها. زلزلتها سلسلة عطسات. حصل لديها الانطباع بأن رئتيها تُجتثان منها.

- عزيزتي المسكينة، قالت جوديث بشفقة.

- ما السبيل إلى النوم؟

- لا. اطردي هذه الأفكار! سترين أن غداً سيكون أحسن. الدكتور قال ذلك.

(لكن لا يا أماه. أنت مخطئة. أكرر لك. لقد طمأنني الطبيب بأن الأمور في طريقها إلى التحسن.)

كيف يمكن تجاور هذه الجمل؟

(إن كان ثمة أمر أندم عليه ندماً شديداً، فهو أن الحظ لم يسعدك كي تتعرفي على جديْك. إنه أمر محزن... وأنا المسؤولة عنه.)

لم يسبق لصوت سميرة أن كان بهذا الوضوح.

شعرت بأنها تغفو.

كان الأمر غريباً. في هذه الصور التي تلمحها بعضُ الشمس ودفءٌ لطيف أيضاً وصحو رائق. ربما كان هذا هو الموت.

بدا أن قاهر أشسع صحراء في الكون يمد نحوها ذراعيه. كان ينتظرها مثل عشيق مخلص. ذهبت لتجلس قريباً من الشط، غير عابئة بالأرض الطينية التي لطخت ملابسها. اجتاح شعور لا يوصف بالاطمئنان كل جسدها. قالت لنفسها بأن لا شك أبداً يرقى إلى يقينها: هي بالفعل ابنة النيل.

* * *

ارتعشت شهرزاد الملتصقة بجسد زوجها تحت سقف الخيمة.

- أنا أشعر بالبرد يا ريكاردو.

من بعيد، سمعت جلبة غريبة منبعثة من سهوب الأناضول. أصوات لا تشبه في شيء تلك التي تصدي في الدلتا أو في الصحراء. اهتزت العصا التي تغلق الخيمة بفعل هبة ريح مثلجة.

أحاط ريكاردو جسد زوجته بذراعيه وضغطها إليه.

- المعذرة. المعذرة أن فرضت عليك هذا السفر.

- لا يُفرَضُ أبداً شيء على أحد. إن كنت أوجد هنا فلأنني أردت ذلك. الضعاف وحدهم يلقون بما حصل لهم على عاتق الآخرين. هل أنا ضعيفة يا ريكاردو ماندرينو؟

شتت هبة ريح جديدة شعاع الضوء المنبعث من المصباح الزيتي.

سألت:

- هل تظن، مثل إبراهيم، بأن مصر ستموت؟

- أي جواب تريدين سماعه؟

فكرت للحظة ثم انفصلت عن زوجها وأطفأت الفتيل. آنذاك اجتاح الظلام آخر شعاع كان ما يزال يترنح على السهوب.

* * *

الاسكندرية، يونيو ١٨٣٣.

لم تستطع غرفة طعام فندق سسيليا أن تسع الجميع بسبب الفضول المتأجج الذي أثاره الإعلان عن المؤتمر. ويمكن أيضاً أن يكون السبب في هذا الإقبال هو الرغبة في حضور حدث يخرج عن المعتاد. فضلاً عن أن وسائل الترفيه كانت نادرة بالنسبة للأقلية الأوروبية الصغيرة.

كان السيد ميموت وفرديناند دي لسيبس يحتلان الصفوف الأمامية، يجلس إلى جانبهما كل من لينانت ويوسف إضافة إلى جيوفانا. كانت قد قبلت مرافقة أخيها دون حماس يذكر. كان يوسف يقوم مقام الوصي عليها منذ أن توجَّه أبواه إلى تركيا. يوجد حولها، في ديكور من الطرابيش الحمراء والأثواب اللبدية، دبلوماسيون وموظفو قنصليات وتراجمة، فضلاً عن بعض الشخصيات المقربة من محيط محمد علي. كان الاسكندريون قد قرروا الاستماع إلى هذه المجموعة التي حطت الرحال بمصر منذ ثلاثة أشهر.

السانسيمونيون. هكذا كانوا يدعون.

ها نصف ساعة قد انقضى على خطاب إميل بارولت. كانوا يستمعون إليه، إن لم يكن بشغف، .فعلى الأقل باهتمام حقيقي.

كان في ملبس الشخص ومرافقيه ما يأسر الانتباه. فرغم الحر الخانق ورطوبة شهر يونيو، لم ير أحد من المجموعة أن يخلع سترته الفضفاضة ولا

الياقة الضخمة التي تزين أعناقهم. حتى القبعة التي يعتمرونها كانت تبدو وكأنها مقيمة على رؤوسهم إلى الأبد.

كبتت جيوفانا حركة تثاؤب راودتها، في اللحظة التي كان بارولت ينهي الحديث عن فكرة التنظيم السلمي للعمال.

استرقت نظرة إلى أخيها فعجبت بعض الشيء من اكتشافها لمظهره النشط. الاهتمام نفسه كان بادياً أيضاً على الوجوه حولها. استنتجت من ذلك أن شيئاً قد تكون ضيعته وسط هذا الكم من الكلمات والمصطلحات. آنذاك قررت أن تبذل مجهوداً واستدارت نحو المتحدث.

توالت الدقائق. تحدّث بارولت في موضوع المرأة المخلِّصة والزوج الإلهي، فشعرت جيوفانا بنفسها، على الرغم منها، مفتونة هي أيضاً بما يقال.

انتهى الخطاب فعلت التصفيقات المجاملة، لكن غير المجردة من الحرارة، محيية السانسيموني.

- ما رأيك؟ سأل ميموت والجمهور يتوجه نحو باب الخروج.

- مهم، لكنه للأسف طوباوي، أجاب يوسف.

- وأنت يا فرديناند؟ أهذا هو رأيك أيضاً؟

- في الحقيقة، يصعب عليَّ إبداء رأي دقيق. لدي الانطباع بأن هؤلاء الناس يحملون فكرة عظيمة، لكنها مغطوسة في كم من المعتقدات غير اللائقة.

- هذا هو رأيي أنا أيضاً، أكد ميموت.

- قد يكون كلامي مفاجئاً لكم، تدخَّل لينانت، لكنني أعتقد، رغم كل شيء، أن هذه علامات تكوُّن مجتمع جديد. بديهي أن ليس كل الأفكار المقترحة قابلة لأن تعتنق. فأنا لا أقبل مثلاً تلك الفكرة التي تقول بتعويض الأعمال الشاقة للفلاحين بزيادة في الضرائب. يبدو لي أن لا معنى لها وأحسن منها سنُّ مبادئ للتوزيع العادل.

- ماذا تقصد بـ«العادل»؟ سأل فرديناند.

معاملة الفلاحين المصريين على أنهم مجتمعون على عمل موحد وتوزيع ثمار الغلة بين الجميع حسب العمل الذي أنجزه كل فرد.

- عد يا صديقي إلى الواقع، عقب ميموت. إن ما تقترحه أنت يصبّ في نفس يوطوبيا هؤلاء السادة. وعلى أي حال، فإن محمد علي لن يقبل أبداً بأمرٍ مثل هذا.

- سيكون مخطئاً، قالت جيوفانا فجأة. أنا أؤيد فكرة السيد دي بلفاند. أن يجازى الفلاحون على عملهم، لَهو العدل في حقهم. إن عاهلنا، عندما أصبح سيداً لكل الأراضي الفلاحية، إنما جعل من مصر ضيعة كبرى يستفيد هو وحده من خيراتها. ألا ترون بأن الوقت حان لتصحيح هذه الوضعية؟

فاجأ ميموت النبرُ المتحمس للفتاة، فاضطر إلى بعض اللين.

- بالطبع، أيتها الآنسة. لكن في هذه الحالة بالذات، لن يتعلق الأمر بتغيير وإنما باضطراب حقيقي سيكون من نتائجه إعادة النظر في كل اقتصاد بلدكم.

- لنا الإمكانيات للقيام بذلك. وإلا، فهل تعتقد بأن الباشا كان سيرفض عرض القرض الذي اقترحه الروتشيلديون والمصرفيون الذين يبحثون، منذ أشهر، على أن يُوطِّدوا لسياستهم المالية؟ أتعلمون بأن التجارة مع الخارج تتضاعف كل سنة؟ ولمصلحتنا؟

استرجعت أنفاسها.

- شعبنا عارٍ، يا سيد ميموت. ولا بد أن يأتي يوم يكون ضرورياً التفكير في إلباسه. وإلا فإنه هو من سيعرينا.

عندما صمتت، بدا أن شفتيها ترتعشان قليلاً. احمرّت وجنتاها ولمع بؤبؤاها كما لو بفعل نار داخلية.

تأمل يوسف أخته، مشدوهاً، كما لو كان ينظر إلى غريبة. لم يفهم. كل الأحكام التي كان قد أطلقها عليها حتى الآن، انهارت دفعة واحدة.

سأل بصوت بدا في نبره الإعجاب بأخته:

- جيوفانا... لكن من أين حصلت على هذه المعلومات؟

- ربما لأنني أستمع، وأحتفظ في ذاكرتي بما أسمع.

تمتم:

- كنت... كنت أجهل أنك تهتمين بشيء آخر غير...

- غير شخصي؟

أجاب بـ «نعم»

- أنت على حق. لكن يحصل لي أحياناً أن أتصور أن مصر هي أنا أيضاً.

* * *

اعتدل ريكاردو فجأة تحت الخيمة وقد أخذ الفجر يبزغ. ضغط براحتيه على صدغيه اللذين شرعا يخفقان بعنف. كانت آلام دماغه لا تقاوم إلى درجة أنه كاد يصرخ. عض شفتيه. أضحت أصابعه بيضاء من شدة ما ضغط. شرع جرذ في نهش لحمه وإتلاف دماغه بأسنانه. وضع كفه على عينه المحتقنة موقناً بأن المقلة ستسيح خارج مدارها. العرق يغرق جسده. أدرك الألم درجة تمنى معها أن يفقد وعيه.

ثم، وكما بدأ الألم فجأة، شرع يتلاشى، بدأ ينحسر عبر موجات ومراحل إلى أن أدرك عتبةً الألمُ فيها أكثر إنسانية.

أمسك بكف شهرزاد. كانت ما تزال نائمة.

الفصل العشرون

الاسكندرية، قصر رأس التين. مايو ١٨٣٣.

- دائماً مائة ليرة! صاح سعيد مرعوباً. لم أفقد إلا ست ليرات خلال خمسة أشهر!

نزل الأمير من على الميزان وتهالك على الأريكة مهزوماً.

حاول فرناندو التخفيف من خيبة أمل الطفل.

- يعتبر ذلك أمراً جيداً، سيدي. تصور لو أن وزنك، رغم كل التضحيات، ظل كما كان، أو أفظع من ذلك، زاد.

- هذه كارثة، يا سيد دي لسيبس! ألم يقل أبي بأن على وزني أن يكون أقل من ٩٠ ليرة، مقارنة مع سنواتي الإحدى عشرة؟

ثم أضاف بصوت حزين:

- وغداً عيد ميلادي.

- لا تقلق. سأؤكد لصاحب الجلالة بأنك قد أعربت عن امتثال مثالي. أنا متأكد من أنه سيفهم بأن لا حيلة أمام المستحيل.

- أنت لا تفهم والدي يا سيد دي لسيبس. إنه لا يفهم (إلا) المستحيل.

- لا، سموكم. نائب السلطان ليس جلاداً. وأنت ابنه.

حرك سعيد رأسه غير مقتنع.

- يحصل لي أحياناً أن أحلم بأنني ابن فلاح أو أي رجل من عامة الشعب. هؤلاء الناس ليسوا أغنياء، لكنني متأكد من أنهم يأكلون حتى الشبع. في العمق، البدانة أو الهزال هما همان من هموم الأغنياء. أحلم ليلاً، يا سيد

دي لسيبس، وكذلك نهاراً. أرى استعراضاً لقوافل من قطع الحلوى والكنافة والبقلاوة والخبز المدهون بالعسل... وعندما أفيق من حلمي أنتبه إلى أن الحقيقة ليست سوى كابوس.

ثم قال بألم:

- آه! لو كنت فقط ابن فقير.

شعر فرديناند أن ليس لديه ما يقوله. فصحيح أن يأس الطفل كان مفهوماً. من المفترض، مع الحمية التي خضع لها، أن يفقد على الأقل خمس عشرة ليرة. والحال...

- أتسمحون لي بأن أنسحب للحظة، سعادتكم؟ لن يطول غيابي.

- تفضل، سيد دي بلسيبس. أنا سأنام. سأنام وأحلم ما دام لم يبق في ملكي إلا ذلك.

ثم تهالك، مثل كتلة، بين الوسائد.

* * *

باريس، مايو ١٨٣٣.

دلفت جوديث إلى غرفة كورين متهللة الوجه.

- اسمعي! لدي خبر رائع أزفه إليك!

انقلبت الفتاة، شاردة، على ظهرها.

في ضعفها الكبير هذا، لا شيء في الدنيا يمكنه أن يحيل سعادَةً حالةَ الإنهاك التي تعيشها منذ أسابيع.

- قولي...

أتت جوديث لتجلس على حافة السرير.

- سيطلق سراح الأب أونفنتان!

- هذا أمر جيد.

- كيف؟ فقط؟

- ماذا عساني أقول أكثر من هذا؟

- أن تقولي ألف شيء! أن تقفزي من الفرح وأن تصرخي من السعادة!

حاولت كورين أن تعتدل على الوسادة لكنها عدلت عن ذلك لافتقادها للقوة.

- ما رأيك؟ ألحّت جوديث.

- أتصور أن ذلك سيخلّف ارتياحاً كبيراً لدى السانسيمونيين. وكيف أُفرج عنه؟

- بمناسبة الماجدات الثلاث.

- هذا جيد، كررت كورين باهتمام قليل.

في ماذا عسى إطلاق سراح الأب أونفنتان، في العمق، يهمها، ما دام سراحه لا يغير شيئاً من الهزال الذي قرضها؟ آه لو كان بالإمكان تشخيص علة مرضها. (السل الرئوي، تمتم الدكتور لودوس، مضيفاً بسرعة: غير أنه لا يمكنني أن أقول ذلك بصفة قطعية.)

شعرت بكف جوديث تحضن كفها.

- عزيزتي المسكينة، ألم تعرفي بعدُ لأي سبب يعتبر هذا الخبر رائعاً؟

ظلت كورين صامتة.

- مصر...

- مصر؟

- أنت إذن لا تتذكرين؟ ألم أسرَّ لك منذ أشهر بأن لدى الأب نية التوجه إلى هذا البلد لإنجاز أمور عظيمة؟ لم أخبرك أيضاً برسالته: (لن ننادي على أية امرأة وإنما سننظر إلى كل اللائي سيأتين إلينا على أن الله نفسه هو الذي بعثهن.)

كانت ملامح كورين، أثناء حديث صديقتها، تتغير.

- تريدين أن تقولي... إن...

- نعم! يمكنك أن تكوني ضمن المسافرين.

كاد الانفعال يرعش شفتيها. شعرت بدقات قلبها تتسارع.

- تحدثت عنك لأغلايي سانت هيلر، مرافقة قائدنا. لقد تلوْت عليها كلامك، كلمة كلمة.

مطّت جوديث شفتيها قبل أن تواصل بنبر منشد: (المساهمة في تحرير أخواتنا المصريات)، أليس هذا ما كنت تريدين؟

- و . . . بماذا أجابت؟
- بأن لا شيء، من وجهة نظرها، يحول دون مرافقتك لهم.
- آه يا جوديث. لا أستطيع أن أصدق. . . سأذهب إذن إلى مصر؟
- سنذهب؛ لأننا جورج وأنا سنرافقك. سنركب البحر بمجرد مغادرة الأب لسجن سانت بلاجي.

أغمضت كورين عينيها، ليس بسبب تعبها الكبير، وإنما لأن صوتاً أليفاً كان يوشوش في أذنها:

- أتدرين بأن لي أختاً. . . أنسيت اسمها؟
- كيف يمكنني نسيانه؟ هو اسم لا ينسى: شهرزاد.

* * *

الاسكندرية. نهاية مايو ١٨٣٣.

خلص البارون دي بواسلكومت، بصوته الأجش، في الصمت الملبد لقاعة العرش:

- وهكذا تنتهي هذه الحرب، يا صاحب الجلالة، لمصلحة مصر. ها أنتم سيد باشوية آكرا والقدس ونابلس وطرابلس ودمشق والألب. سيد فلسطين وكل سوريا ومقاطعة أدنة التي طالما اشتهاها ابنكم. غير أن الأهم من كل ذلك أنكم ستتحكمون، من الآن فصاعداً، في معبر توروس مما سيحميكم من عدوان تركي محتمل، وسيسمح لكم، عند الاقتضاء، حتى بالهجوم على الباب. إنكم بامتلاككم لهذه المعابر تكونون قد امتلكتم مفتاح الأناضول. لكن لنعترف بأننا قد لامسنا مأساة رهيبة.

عقّب محمد علي:

- صحيح، أيها السيد البارون. لكنني أصر على التدقيق بأننا ما كنا لنصل أبداً لهذه الحال لو لم تكون أوروبا قد دفعت بي نحو الباب المسدود. هل تعلم بالكلام الذي بلغني والذي نطق به السلطان نفسه؟ (لن يكون محمد علي، بالنسبة للباب، سوى أفعى أدفأناها في أحضاننا.) هو كلام قاس بالنسبة لشخص ما انفكت مصر تسانده.
- أعلم سيدي. لكن فكروا الآن في المستقبل. لقد طويت الصفحة.

شبك الباشا أصابعه فوق بطنه.

- طويت الصفحة، غير أن عليكم أيها السيد البارون أن تحتاطوا. فالصفحة التي فتحت قد لطخت سلفاً. فأنتم بمنعي من ولوج منزل السلطان تركتم الباب موارباً. ولن يلبث أعداء فرنسا أن يلجوه.

- تتحدثون عن الروس طبعاً.

- هل تتصورون أن ينسحبوا من البوسفور دون مقابل؟ إن فرقهم العسكرية تحط رحالها على بعد ميلين من خيام إبراهيم، بقرية أونكيار - سكيليسي. إن بإمكان جنرالات القيصر أن يلْمَحُوا عن بعد قباب سانت صوفي. احتفظوا جيداً بما أقوله لكم: إنهم لن ينصرفوا بأياد فارغة.

كان بإمكان البارون دي بواسلكومت أن يفند كلام مخاطبه، لكنه عدل عن ذلك؛ فقد كانت إشاعات شرعت تروج في الأوساط الدبلوماسية بأن روسيا وتركيا كانتا على وشك توقيع اتفاقية دفاع مشترك.

* * *

ارتعشت أرنبة أنف سعيد كما لو بفعل دغدغة. ظن في البداية أنه ما يزال غارقاً في حلمه، لكنه اعتدل ما دام أن الرائحة تواصلت.

كان فرديناند منحنياً عليه، في يده طبق مكارونا.

- بسم الله الرحمن الرحيم... أأكون قد دخلت، دون علم مني، جنَّةَ عدن؟

- ليس بعد، سيدي. لكن هذا يمكن أن يكون مدخل الطريق الذي يقود إليها.

اعتدل سعيد وشرع يتأمل، مبهوراً، الصحن مغتبطاً.

- مكارونا... سكنتني رؤيتها منذ خمسة أشهر. منذ خمسة أشهر وأنا أحيا فقط بفكري اللحظة السحرية التي سيستقبل فيها قصري هذه الأكلة الربانية.

- كفوا إذن، سموكم، عن الانتظار عبثاً.

استولى الأمير على الصحن بلهفةِ نائمٍ يخشى تلاشي حلم سعيد. أغطس شوكته وحمل إلى شفتيه أول لقمة.

- الله أكبر! تمتم وهو يتذوقها بافتتان.

لم يعد يتحكم في نفسه. قفز على الصحن. ما عاد يأكل. شرع يفترس.

- قل لي يا فرديناند، قال فمه ملآن، هل تعد لذة الأكل، من بين كل اللذات، هي التي لا تضاهى؟

- لنقل بأنها جزء من لذائذ الوجود. لكن ثمة لذائذ أخرى مهمة.

- ما هي؟

- اللائحة طويلة. لكن هل تعتقدون، فعلاً، بأن اللحظة هي لحظة تفلسف؟

ألح:

- أذكر لي واحدة اعتباطاً. التي تتبادر الأولى إلى ذهنك.

فكر فرديناند.

- تجاوز الذات، ربما، سعادتك.

جحظت عينا سعيد.

- ما الذي يعنيه هذا؟

- هل سبق لك أن بنيت قصوراً من رمال؟

- غالباً. بل هي لعبتي المفضلة.

- أثناء بنائك لقصرك، ألا تأتي الأمواج لقرض أسواره؟

- بالطبع، وهو ما يثير حنقي دائماً.

- فتهمل بناءك.

- هذا صحيح. لكن بتلك الوسائل المتواضعة، هل يمكننا مقاومة قوة الأمواج؟

- في ذلك يكمن تجاوز الذات.

- أن تقاوم الضحكة الساخرة للمياه؟ لكن لا أحد يستطيع.

- لذلك يعد من يستطيع القيام بذلك إنساناً نادراً. ويصبح أكثر ندرة في اليوم الذي يكون قادراً، رغم تحطيم بنائه، على الذهاب أبعد.

- أبعد؟ يعني؟

- لقد أشرت إلى الضحكة الساخرة للمياه. على هذا الإنسان أن يكون قادراً على أن يضحك بدوره، لكن بضحكة أعلى حتى لَتَعْلُو على ضحكة المياه نفسها.

مرر الطفل كفه في خصلاته المبعثرة وظل متفكراً مثبتاً بصره بحدة على فرديناند.

- يبدو أنني قد أزعجتك بنظرياتي، قال نائب القنصل.

- أبداً يا فرديناند.

سأل فجأة:

- تحب أن تراني أضحك بتلك الطريقة؟ أعلى من العاصفة وكلّ جلبة الأعاصير؟

- سأكون سعيداً بالفعل.

مال سعيد على أذنيه ووشوش:

- صحن آخر من المكارونا... واحد فقط.

* * *

سار يوسف خلف جيوفانا فدخلا ديوان نائب السلطان. أدار لهما نائب السلطان ظهره، عيناه في اتجاه حصن قايتباي. ظل على تلك الحال للحظة قبل أن يستدير.

- اقعدا يا ابنيّ

وعندما كانا ينفذان أمره واصل:

- طلبت منكما الحضور لأنني قدرت أنكما تتشوقان لمعرفة أخبار عن أبويكما.

- هذا صحيح، سيدي. لقد رحلا منذ عشرة أيام وقد شرعنا نطرح أسئلة.

- اطمئنا. هما الآن قد يكونا أخذا طريق العودة.

- الحمد لله.

حمل محمد علي ورقة وسلمها ليوسف.

- هذه رسالة من أبيكما. انظرا الفقرة التي تهمكما. هي أسفل الصفحة. الباقي يهم أمورنا السياسية.

وقبل أن أنهي، ألتمس من جلالتكم أن تتفضلوا بإخبار طفليّ بأننا في صحة جيدة وأننا، عند تسلمكم هذه الرسالة، قد نكون، إن شاء الله، على بعد ثلاثة أيام من القاهرة. ليعلما أننا نفتقدهما وأننا

لمجرد التفكير في أننا سنلتقي بهما ننسى كل تعب الرحلة.

آمل أن يكون يوسف قد أحسن السهر على أخته وأن تكون هي قد تحملت وصايته.

شهرزاد أيضاً تعرب لكما عن حبها. لم يمر يوم واحد لم نذكر فيه اسميهما...

ما تلا ذلك كان خاصاً أيضاً بنائب السلطان. وانتهت الرسالة بحاشية:

حاشية: اغفر لي سيدي إضاعة وقتكم؛ لكنني سأكون ممتناً لكم إن قلتم لجيوفانا بأنني قد أخذت، من زمن قصير، قراراً يخصها. وبالفعل، فقد قررت أن الوقت قد حان كي يتكلف أحد أفراد العائلة، غيري وغير شهرزاد، بزراعة القطن بمزرعة الزهور. وبما أن يوسف لا يحيا إلا من أجل قناة السويس وأعماله المائية، مَنْ غير جيوفانا مؤهل لحمل المشعل وحراسة أرض الأجداد المقدسة؟ لا أحد يستطيع تقلد هذا الدور بعزة وبشجاعة غيرها.

عندما أنهى يوسف قراءة الرسالة سلمها للباشا وانثنى نحو أخته باسماً.

- ها أنت قد اعتليت عرش مزرعة الزهور...

لم تجد جيوفانا، مذهولة، ما ترد به.

- أعتقد أن أباك محق في اهتمامه بهذا الإرث. وعلى أي حال فعائلتكم هي العائلة الوحيدة في مصر التي تملك أرضاً فلاحية. وهو ما يمثل ثروة عظمى.

عَبَر شعاع شاك مقلتي جيوفانا.

- وهل لديكم نية لتغيير هذا الوضع؟

- ليحفظني الله يا ابنة ماندرينو! أنا أخشى العين اللعينة!

- على أي حال، وإذا ما رجعت إلى هذه الرسالة، فإنك لن تواجه أمي، هذه المرة، وإنما ستواجهني أنا.

تنهد محمد علي.

- وأنا الذي يقال عني بأنني أقوى نائب سلطان! لحسن الحظ أنْ لا أُذنَ أخرى تنصت إلى هذه المحادثة، وإلا لكنت فقدت عرشي.

أصبحت نبرته أكثر جدية وهو يتوجه بالحديث إلى يوسف:

- أشار أبوك إلى قضية القناة. ما أخبارها؟

- في غضون زمن قصير، سيكون بإمكاننا، ليناتت وأنا، أن نقدم لكم تقريراً مفصلاً. وسيكون لكم كل الوقت كي تأخذوا قراركم.

وبالمناسبة، فإنني، إن كنت أتذكر، قد أخبرتكم بالاهتمام الذي يوليه لسيبس لهذا المشروع، وبالدعم الذي يود تقديمه إلينا. هل ترون مانعاً في أن ينضم إلى اجتماعنا المقبل؟

- أبداً. نائب القنصل صديق. وقد أصبحت، من مدة قصيرة ممتناً له. فبفضله يبدو أن ابني قد استعاد وزناً معقولاً. لم يحصل ذلك بالسرعة التي كنت أود، لكنه قد حصل بقدر كاف مما جعلني أحمد مجهوداته.

- أنت تتحدث بالتأكيد عن الأمير سعيد، قالت جيوفانا.

- نعم.

- هل يمكنني أن أطرح عليكم سؤالاً سيدي؟ ما الذي يزعجكم في أن يكون وزن وريثكم زائداً ببعض الليرات؟ أتعتقدون أن الملك العظيم يكون عظيماً بوزنه؟

- بين الهزال والبدانة ما بين الغزال ووحيد القرن من اختلاف. أن يبقى الإنسان رشيقاً معناه أنه يجهد نفسه وفق نظام معين. والنظام هو الخصلة الأولى التي يجب أن يتمتع بها من سيكون ملكاً في المستقبل.

- لكن لا شيء في سعيد يشبه وحيد القرن!

- ما الذي تعرفينه عن الموضوع؟ هل سبق لك أن التقيت بسعيد؟

- بالطبع. وقد أضناني ذلك اللقاء.

قطب الباشا حاجبيه.

- إن مشهد طفل يُرغَمُ على تسلق صاري سفينة، معرضاً لأن يدق عنقه، كان قد بدا لي وكأنه غير إنساني، كي لا أقول مرعباً!

احمرّت وجنتا محمد علي.

- أتلمّحين، يا ابنة ماندرينو، إلى أنني كنت أريد شراً بابني؟

- بالطبع لا، جلالتكم. لكنه كان ممكناً أن تعربوا عن حِلْمِكم. فلو قدر أن أعيد إليكم سعيد، ذات صباح، إرباً، فإن مصر هي التي ستُحْرم ملكاً. وبالنسبة إليكم، أنتم الذين تريدون توريث هذا البلد لعترتكم، اعترفوا بأنه

سيكون أمراً مؤسفاً أن يُفْقَد أحد أفراد هذه العترة من أجل حكاية مبتذلة كحكاية الوزن هذه.

بدا أن هذه الملاحظة قد أصابت محمد علي في الصميم، لأنه استند إلى مسند أقرب كرسي كما لو كان على وشك أن يخور.

- ما سنّك، سأل فجأة.

- في غضون أسبوع سأنهي عامي الثاني والعشرين.

- أنت تسبقين سنك... كانت أمك في الثلاثين عندما اقتحمت عليَّ قصري، ذات ليلة ربيعية. وكنت قد وجدتها متعجرفة؟

إن كانت الفتاة قد اعتقدت بأنها لم تذهب بعيداً في كلامها، فإن ملاحظة نائب السلطان الأخيرة قد أثبتت لها العكس.

حط محمد علي بنظرة نارية على يوسف. قدّر يوسف بأن من الأحسن الانصراف. أخذ أخته من ذراعها ودعاها لأن تنهض.

- إلى اللقاء، جلالتكم، قال بخجل.

لا جواب.

الفصل الواحد والعشرون

الاسكندرية، يونيو ١٨٣٣.

بأمر من الأخوين فيانيلو، صاحب (برانسيب إرديتاريو)، صعد غيوسيبي غاريبالدي حاملاً علم السانسيمونيين إلى ظهر السفينة وهي تلج مرفأ الاسكندرية. كانت الألوان الثلاثة، الأبيض والبنفسجي والأحمر، ترفرف في السماء المصرية.

تأمل بروسبير أونفنتان، مبهوراً، هذه الألوان الثلاثة التي ترمز إلى مبادئ حركته: الأبيض للحب والبنفسجي للإيمان والأحمر للعمل. ما رسمه، أشهراً من قبل، داخل زنزانته بسانت بلاجي، كان آخذاً في التحقق. وضع كفه اليمنى مبسوطة في شكل أفقي ليتقي الضوء وتملى الشرق؛ ذاك الشرق التي تغفو قناة السويس في حضنه.

سأل مساعديه، دون أن يلتفت؛ وهم ثمانية في المجموع، من بينهم المهندس هنري فورنيل وشارل لامبرت وبولان تلابو وسوزان فوالكان:

- هل تؤمنون بالمصادفات؟

ثم واصل على الفور:

- اليوم هو فاتح نوفمبر. ألا يذكِّركم هذا التاريخ بشيء؟

- هذا اليوم مخصص بالنسبة إلينا لأبينا المؤسس.

- أليس غريباً أن يكون وصولنا مصادفاً ليوم مثل هذا؟ والأكثر غرابة أيضاً هو أن اليوم يوم جمعة، .وهو بالنسبة للمسلمين يوم مقدس.

- إنها علامة إضافية. . .، قال لامبرت. والآن من الذي يمكنه أن يشكك في الطابع الرباني لرسالتنا؟

كانت المدينة تقترب وتصبح أكثر وضوحاً. بدأوا يميزون أكثر فأكثر المشهدَ والأطياف التي تمشي وتجيء في النور الذهبي. كانوا على وشك وضع القوارب في الماء.

- الآن أراهم، صاح فورنيل! ها هو ذا بارولت، وهناك أميز كايول!

- ومن بجانبه؟ أليس هو فليسيان دافيد؟

اتكأ أفراد المجموعة الصغيرة على الحاجز وشرعوا يتنافسون في التعرف على رفقائهم الذين سبقوهم إلى أرض مصر.

وضعت جوديث، قلبُها طافح فرحاً، ذراعَها على كتف جارتها.

- هنا بدأ كل شيء.

أرادت كورين شديد، معقودة الحنجرة، أن تجيب، لكنها لم تستطع.

لا كلمة تقدر على ترجمة شعورها. العطور التي تفوح من حولها وروائح التوابل والرمال الحارة، كل ذلك كان يبدو غير مجهول عندها. هنا عاشت أمها لنصف قرن؛ في هذه الشوارع الصغير المغبرة ترعرعت.

هي ستحتفل، في فاتح نوفمبر، بسنواتها السبع والعشرين. كانت هذه المصادفة تحجب كل المصادفات الأخرى.

- سيداتي وسادتي، قال المسمى غريبالدي، بصوت موقع... تفضلوا معي.

حملت كورين حقيبتها الصغيرة، ناظراها دائماً على الاسكندرية.

***

دفع ريكاردو، الجالس بالمطبخ، عابساً، صحن الفول الذي قدمته إليه لتوها الخادمة، وصب لنفسه فنجاناً ثانياً من قهوة موكا.

رغم ذهاب خديجة وجيئتها بالمطبخ، لم يكن شيء يشوش على الصمت الهادئ الذي يسود المنزل. يوسف ذهب إلى الاسكندرية وجيوفانا وشهرزاد ما تزالان نائمتين.

كانت تلمح، عبر النافذة، أولى خيوط الفجر التي تطرد عتمة الحديقة وتغمرها، تدريجياً، بلون وردي رائق.

- ألا تأكل يا ماندرينو بيك؟ سألت خديجة وهي تعثر على صحن الفول لم يمسس.

- لا شهية لي هذا الصباح.
- كنت تفضل، ربما، لو أعددت لك شيئاً آخر؟ بيض مثلاً.
رفض ماندرينو.
- هل أنت في صحة جيدة؟
- أريد فقط أن أسترجع هدوئي الذهني وأن أنسى سهوب تركيا.
- هل هناك تفكير في سفر آخر بهذا البعد سيدي؟ أولئك الناس برابرة!
لم يكن ريكاردو قادراً على الثرثرة. شيء واحد يشغله الآن. بالأمس، وبمجرد أن غفا، شعر بالألم المرعب الذي سبق له أن شعر به عندما كان بتركيا. ظن، مثل المرة الأولى، أنه يموت. وهو الآن متأكد من أن الأمر لا علاقة له بآلام رأس عادية. يتعلق الأمر بشيء آخر. هل عليه أن يحدث الدكتور كلوت في الأمر؟ بإمكان الطبيب الفرنسي أن يفسر له. لكنه ألغى هذه الفكرة بمجرد ولادتها. كان دائماً يتأفف من كل ما له علاقة، من قريب أو من بعيد، بالمرض. استشارة طبيب تعني سلفاً الاعتراف بالضعف. وعلى أي حال، فإن هاتين الأزمتين لا تعنيان شيئاً أكثر من أن هذه الرحلة الأخيرة كانت متعبة أكثر من المتصور وأن للجسد حدوداً.
- ابيضَّ شعري وحفر الزمان ملامحي وأضحت نظرتي أقل زرقة. لكن لا تقلقي، فأنا بصلابة الأهرام.
هل كان أخطأ؟
- صباح الخير، أبي!
وقاه صوت جيوفانا من الاستمرار في تفكيره.
- أنت مبكر اليوم.
أجاب وكأنه يلعب.
- ماذا تريدين. يبدو أن رغبة الشيوخ في النوم تقل شيئاً فشيئاً.
- يوم ستصبح أنت شيخاً، سيتزوج محمد علي امرأة إنجليزية.
فاجأته هذه المقارنة إلى درجة أنه انفجر ضاحكاً.
- عندما ألتقي نائب السلطان سأخبره بتلميحك. أنا متأكد من أنه سيقدره.

- لن يفعل، إن أخبرته بصاحبة التلميح. لدي الانطباع بأن العلاقة التي تقوم بيننا باردة.

صبت لنفسها كأس حليب وأتت لتقعد أمام والدها.

- حدثته عن سعيد. هل تعلم أنه يُرغم ذلك الطفل الشقي على تسلق صواري سفن بهدف واحد، هو أن يفقد من وزنه.

- سمعت، بالفعل، كلاماً عن ذلك. لكنني أعتقد دائماً بأن الأمر يتعلق بمزحة.

- هي الحقيقة عينها. كان عليك أن ترى سعيد كما رأيته لتفهم أي تنكيل يمثله هذا التمرين بالنسبة إليه. وإذن فقد سمحت لنفسي أن أدافع عنه أمام الباشا.

انضافت خشيةٌ إلى ذهول ريكاردو.

- آمل ألا تكوني قد ذهبت بعيداً.

- قلت له بأن الاعتراف بعظمة ملك لا يكون مرهوناً بهزاله. ولو كان الأمر كذلك لكان محمد علي تافهاً لأنه بعيد عن أن يكون ذا شكل مقبول، أليس كذلك؟ وقد نبهته إلى أنه لو أعيد إليه سعيد، ذات صباح، جثة هامدة، فإنه سيحرم مصر من وارث للعرش. أليست هذه هي الحقيقة؟

اغتم وجه ريكاردو.

- ثمة حقائق لا تقال دائماً. وبالخصوص عندما نكون نحادث عاهلاً.

- أنت يا أبي من يتحدث بهذه الطريقة؟ منذ أن كنت صبية وأنا لا أراك تتصرف إلا بأن تتحدث بصوت عال عما لا يجرؤ الآخرون على قوله.

- وإن كنت أنا فاقداً لوعيي؟ إن كان أبوك أحمقاً!

- سيكون ذلك مؤسفاً.

تأملت، حالمة، كأس الحليب وسألت:

- أما تزال على رأيك بأن تذهب إلى مزرعة الزهور؟

- أجل، إلا إن كنت أنت ما عدت تشتهين ذلك.

أجابت على الفور:

- أريد ذلك أكثر من أي شيء آخر في الدنيا.

- بعد قليل سأتوجه إلى الاسكندرية لمقابلة نائب السلطان. لا أعتقد أنني سأغيب أكثر من ثمانية أيام. بمجرد عودتي سنرحل.

أصدى صوت خطوات في المنزل. قد تكون شهرزاد أفاقت. ارتشف ريكاردو آخر رشفة من قهوته وانتصب واقفاً.

- سأذهب كي أستعد.

أوقفته جيوفانا وهو متوجه نحو العتبة.

- بابا!

التفت.

- شكراً.

- على ماذا؟

- على مزرعة الزهور.

- قلت لك ذلك: مَنْ غيرك يمكنه أن يصبح حارس تلك الأرض؟

تهلل وجه الفتاة.

- رغم حمقي؟

- فات الأوان على إعادة تربيتك.

ثم تمتم وهو ينصرف:

- أو إعادة تربيتي أنا...

* * *

الاسكندرية، يونيو ١٨٣٣، إقامة القنصل العام الفرنسي.

- لا أريد أن أبدو متشائماً، يا سيد أونفنتان، لكنني أخشى ألا يكون لصاحب الجلالة وقت فارغ الآن.

وبالنتيجة، فإن أمر الحصول على لقاء ضعيف للغاية.

ألحّ قائد السانسيمونيين بقوة:

- أنا لا أشك في ذلك، لكن الأمر متعلق بمستقبل مصر. مصر وكل العالم أيضاً.

انتزعت هذه المبالغة بسمة خفية من ميموت. تفحص من جديد رؤوس الأقلام التي سجلها قبل اللقاء:

ماري، جيروم، هنري فورنيل، مهندس، تلميذ قديم بمدرسة المعادن، سيَّر لمدة أربع سنوات مصنع بروسيفال بمارن العليا، ثم مَصَاهِر كروزوت.

شارل لامبرت. ممنوح بإعدادية دواي، ولج مدرسة البوليتكنيك سنة ١٨٢٢ وتخرج منها سنة ١٨٢٤، حاصل على المركز الأول في فوجه.

توماس أوربان أبولين، المدعو أوربان. ولد بغيانا. دراسة موفقة بثانوية مرسيليا.

إميل بارولت. أستاذ الآداب بإعدادية سوريز... مؤلف عدة دراسات عن الشرق.

وإذا أضفنا إلى هذه الأسماء بروسبير أونفنتان، كان لزاماً الاعتراف بأن هؤلاء الأشخاص لم يكونوا أول القادمين. سأل ميموت، وهو يرفع بصره عن وثيقته، فرديناند دي لسيبس:

– ما رأيك؟ هل هناك إمكانية لإقناع صاحب الجلالة؟

– هل تسمحون لي بأن أكون صريحاً؟

وعقب إشارة تشجيع، قال مخاطباً زائريه:

– أيها السادة. دون أن تكون لدي الرغبة في الإساءة إليكم، عليكم أن تعلموا بأن سمعة حركتكم، المرتبطة ربما بأطاريحكم السياسية والأخلاقية، تزرع البلبة في الأذهان. وممثل اسطنبول حاضر هنا كي يشهد على ذلك. وهو ما تضاف إليه تلك القضية المتعلقة بالمال. فبعض من رفاقكم الذين سبقوكم إلى مصر أبدوا نزوعاً مشيناً نحو مطالبة المقيمين الفرنسيين بإعانات مالية كي يسددوا ديونهم. وكي أستعمل تعبيراً مبتذلاً أقول لكم بأنكم تُعتبرون عناصر مشوشة.

تبادل أعضاء الفرقة الخمسة نظرات ملؤها الصدمة.

– تتحدثون بالتأكيد عن كازمير كايول؟ قال توماس أوربان.

– لا أهمية للأسماء. الأفعال وحدها تعتبر.

– وماذا تريدون يا سيد دي لسيبس؟ قال أونفنتان مدافعاً. فإخواننا، وفي

انتظار الحصول على ما يقضون به حوائجهم، لا خيار لهم إلا الالتجاء إلى كرم مواطنيهم.

- لكن، اعترفوا بأن الأمر مزعج للغاية.

- ليس هذا وحسب، واصل ميموت. فثمة تلك الحادثة المتصلة بتلك السيدة الإنجليزية، والمسماة ستان...

بدا وكأنه يبحث عن الاسم.

- ستانهوب، تمم بارولت. لكن مسعانا هنا لا يتسم بأي شيء يستدعي الإدانة. لقد قابلنا هذه الشخصية بلبنان بهدف واضح. كانت الإشاعة تقول بأن السيدة ستانهوب تملك رؤية تنبّئية حول مخلصة أنثى. لا علم لكم، ربما، بذلك، لكن بحثَنا عن الم...

- اميل!... قاطع أونفنتان بجفاف. نحن نخرج عن الموضوع.

واصل ميموت، مع ذلك، كلامه:

- قبل إغلاق القوس، أذكركم بأن السيد أوربان، الحاضر معنا هنا، قد حصل من هذه المرأة على ترجمان وتموين ومطايا وهبة بخمسمائة قرش لكل مرافق من مرافقيه.

قال أوربان، وقد مسه كلام ميموت في العمق:

- أنتم، على أي حال، لن تؤاخذوا المرأة على كرمها.

وجد أونفنتان صعوبة في ضبط حركة امتعاض.

- هذا ماض، سيدي القنصل. أما بالنسبة للمستقبل فيمكنني أن أطمئنكم بأن لدينا نية فعلية للعثور على شغل مهما يكن متواضعاً ويسمح لنا بان نحصل على ما نعيش به.

- ممتاز. والآن، تفضلوا بإعطائنا فكرة عن المشاريع التي تهم، إن كنت قد أجدتُ الفهم، - «مستقبل مصر». سيسمح لنا ذلك بأن ندافع عنكم أحسن أمام نائب السلطان.

أجاب أونفنتان بحماس، وكأنه لم يكن ينتظر إلا هذه اللحظة:

- الحقيقة أن مشاريعنا لَهي من الثراء بقدر العوز الذي نحن عليه. من هذه المشاريع، ثمة مشروعان عزيزان علينا. وأعتقد أن الشخص المؤهل لعرضهما أمامك هو أخونا هنري فورنيل؛ وله الكلمة.

شكره المهندس.

- في البداية، هناك السكة الحديدية. مصر تفتقر إليها. وقد فكرنا بأن أول خط يمكن أن يربط القاهرة بالسويس. هي عملية ستكون تكلفتها منخفضة نسبياً. وما دام أن مصر بلد منبسط، فلن نكون ملزمين بإجراء أشغال تسوية للأرض. وفضلاً عن ذلك، فنحن لن نخشى الدعاوى التي ترتبط بهذا النوع من القضايا والتي عادة ما يرفعها ملاك الأراضي. فأنتم تعلمون بأن لا شيء من هذا يوجد في مصر.

صمت قبل أن يعلن:

- ويتعلق الأمر الثاني بقناة. قناة تربط بين البحرين.

قمع لسيبس اهتزازة.

- قناة؟

- بالتأكيد، أجاب أونفنتان. في منطقة قناة السويس. هل سبق لأحدكم أن قرأ «وصف مصر»؟

أجاب ميموت وفرديناند معاً بأن «نعم»، وهما يحاولان التحكم في مفجأتهما.

- وإذن فمن الطبيعي أن تكونا قد انتبهتما لمذكرات لوبير. فهو يتطرق لفكرة الجمع بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط. هذا الحلم هو الذي نسعى إلى تحقيقه. نعم السيد دي لسيبس، قناة.

الآن يفهم ميموت تلك الفخامة التي كان يتحدث بها أونفنتان في بداية اللقاء.

- هذا أمر مذهل بالفعل، عقّب فرديناند. هل ستصدقونني إن قلت لكم بأنه لا يمر يوم واحد، منذ مقدمي إلى مصر، دون أن تحتل قناة السويس تفكيري؟ ولا يتعلق الأمر بي وحسب؛ فقد التقيت هنا برجلين شغوفين بالموضوع مثلي.

بدا أونفنتان أكثر اهتماماً.

- من هما؟

- الأول فرنسي اسمه لينانت دي بلفاند. وهو مهندس مائي. والثاني مصري؛ مهندس هو أيضاً، اسمه يوسف ماندرينو. أبوه هو المستشار الأكثر

حظوة لدى نائب السلطان. وقد سبق لنا أن تحدثنا إلى السيد ميموت عن جعل فرنسا تبدي اهتماماً بالمشروع.

- لكن هذا رائع! صاح السانسيموني باندهاش.

ثم واصل بإيقاع محموم:

- يجب أن نقابلهما! ما السبيل إلى ذلك؟ هل يمكنك أن تهيّئ لنا موعداً.

وقف أونفنتان، فريسة إثارة قوية، وأعلن لرفاقه:

- ألم أقل لكم بأن مفتاح مستقبلنا يوجد بالسويس! بالسويس وبمصر؟

سأل لسيبس:

- هل سبق لكم، السيد أونفنتان، أن قمتم بدراسة للمشروع؟

- بالتأكيد. وقد وضع مهندسونا، ومن بينهم السيد طالبو والسيد فورنيل، تخطيطاً حتى.

عاد أونفنتان لتوجيه الحديث إلى ميموت:

- ألا ترون يا سيدي القنصل بأنكم تملكون من العناصر ما يكفي لإقناع الباشا بخصنا بمقابلة؟ ألم يعرب السيد دي لسيبس، لتوه، عن اهتمامكم الشخصي بهذه القناة؟ يكفي أن تتجمع إراداتنا لتحقيق هذه الأمور العظيمة.

- أعدكم بأن أقوم بكل ما أستطيع كي تقابلوا محمد علي. أطلب منكم فقط أن تبدوا بعض الصبر. لقد خرج البلد لتوه من صراع مرير. ورغم أن السلم قد وقع، فإن التوتر ما يزال حياً في ذهن نائب السلطان. وفي انتظار ذلك، أريد أن أستضيفكم. أظن أنني قد فهمت بأنكم تنزلون بفندق الإخوة باستر؟

- تماماً.

- ما دمتم تفتقرون بعدُ إلى الإمكانيات، أقترح عليكم أن تأتوا لتنزلوا هنا. الإقامة شاسعة، تفوق ما نحتاج إليه السيد دي لسيبس وأنا. نملك من المساحة ما يكفي لخمسة أشخاص.

صحح ميموت:

- عفواً سيدي القنصل، لكننا ثمانية. وفي المجموعة ثلاث نساء.

- أنا سعيد بذلك، فالجمال الأوروبي نادر بالاسكندرية.

- سأسلمهن غرفتي، اقترح لسيبس بتلقائية. فالنساء يولين أمور الراحة اهتماماً أكثر منا نحن الرجال.

- هذا فضل منكم، قال أونفنتان شاكراً. أنا في غاية التأثر. لكن هل أنت متأكد من أننا لا نزعجكم؟

- ما دمت أقترح عليكم ما أقترحه.

- وإذن فنحن نقبل بسعادة. وبالمقابل، فإننا نعدكم بأن نقوم بما نستطيع كي تكون إقامتنا لأقصر مدة ممكنة.

ثم سأل وهو يلتفت إلى لسيبس:

- هل يمكننا أن نلتقي بالمهندسين اللذين تحدثت عنهما قبل قليل؟

- منذ الآن، إن شئتم. لي موعد معهما في هذا المكان نفسه عند الساعة الحادية عشرة.

- هذا ممتاز! بذلك سيكون لنا الوقت الكافي للتطرق لهذا الحلم الذي طالما ملك علينا شغاف القلب.

انتصب السانسيمونيون واقفين، استجابة لإشارة من زعيمهم.

- بإذنكم، نذهب لنأتي بأمورنا.

ما إن انصرفت المجموعة حتى تمتم ميموت بصوت متفكر:

- قناة... هل تؤمن بالقدر، يا سيد دي لسيبس؟

أطلق الأب العنان لفرحته وهم في طريقهم إلى نزل الإخوة باستر.

- الطريق يفتح أمامنا، أيها الإخوة! وسيكون طريقنا ملَكِياً!

صادق المريدون على كلامه. بارولت وحده بدا أنه لا يقاسمهم فرحتهم.

- أيها الأب، قال متردداً، كل هذا يبدو واعداً، لكن... والأم؟ المرأة المخلصة، نصفكم الرباني... ما مصير بحثنا؟ الجانب المادي مهم بالتأكيد، لكن ما مآل آمالنا الروحية؟

- لقد فكرت في ذلك ملياً، يا إميل. أكثر مما تتصور. وقد وصلت إلى خلاصة. أثناء ركوب البحر رأيت رؤيا؛ رؤيا غير واضحة طرحت لي، أعترف بذلك، مشاكل بما تحمله من تعقيد ومن تناقضات.

تجمد المريد مشدوداً مثل قوس.

- هل تذكر يوم تطرقنا للمرة الأولى لنوايا فقيدنا المعلم، الكونت سان

سيمون؟ كان ذلك بزنزانتي بسانت بلاجي. يومئذ كنت حدثتك عن الأم وعن قناة السويس، لكن أيضاً عن باناما. كنت أسررت لك بأن سان سيمون كان قد اقترح سنة ١٧٨٣ على نائب ملك المكسيك حفر القناة للربط بين المحيطين.

- بالضبط.

- وإذن فقد ظهر لي بوضوح تام في الرؤيا أننا سنعثر على الزوجة بأمريكا الوسطى وليس البتة في الشرق.

- بأمريكا الوسطى؟

- نعم يا بارولت، بباناما.

- هذا... هذا لم يكن منتظراً بتاتاً.

وضع أونفنتان سبابة حاسمة على صدر مريده.

- وحده الإنسان قليل الإيمان يندهش أمام الخوارق! وأنت لست كذلك يا إميل.

بدا متفكراً.

- عليك أن تذهب إلى هناك، وهناك ستنتظرنا.

بدا بارولت مهزوزاً تماماً.

- أعذرني، لكنني أجد صعوبة في استيعاب رؤيتك و...

أنا جاد!

ثم واصل:

با - نا - ما! سترحل بمجرد حصولنا على الوسائل التي تمكنك من العبور.

أمسك أونفنتان بذراع بارولت بقوة.

- آه يا أخي! كم أغبطك على استطاعتك إنجاز مهمة بهذا النبل.[1]

---

(١) إذا كان بارولت قد نصح، بالفعل، بالرحيل إلى باناما «رسالة أونفنتان المؤرخة ب ٨ غشت»، فذلك لأن أونفنتان سرعان ما استشعر الخطورة التي يمثلها الحماس الصوفي لمريده والعواقب الوخيمة التي يمكن أن تترتب عنه. لم يذهب، بارولت، في نهاية المطاف، إلى باناما وإنما إلى الجزائر حيث أقام زراعة بالأطلس. وهناك انتُخب عضواً في المجلس التشريعي.

الفصل الثاني والعشرون

الاسكندرية، يونيو ١٨٣٣.

كان بإمكان كورين، من نافذة القنصل، أن تلمح جزءاً من مصنع بناء السفن. كانت سفينةٌ في طور البناء تبدو، في وضعها، وكأنها هيكل عظمي لحوت عملاق.

على يسارها تنتصب بناية جليلة؛ أخبروها بأن الأمر يتعلق بقصر نائب السلطان.

حصل لديها الانطباع، منذ مقدمها، أنها تعيش في حلم. لم تكن مندهشة من شيء وإنما كانت معجبة بكل شيء. البؤس وحده كان يصدمها. بؤس هؤلاء الرجال مدبوغي الجلد بفعل الشمس، والذين ينضح منهم شيء عصي على الوصف، يشبه الانقياد العبودي وشكلاً من التمرد الخجول الذي يحول بينهم وبين الإعراب عما بهم.

لكنها كانت تشعر بنفسها مرتاحة؛ مثل حيوان عاد إلى مجاله وأصواته وروائحه.

أخرجتها جوديث وسوزان فوالكين من أحلام يقظتها بولوجهما الغرفة.

- هيه... لم تتعبي بعد من هذا المنظر؟

- بالعكس. كل ساعة تمر تتركني على جوعي.

تقدمت سوزان حتى أدركت النافذة.

- ثمة أمور كثيرة يجب القيام بها في هذا البلد. ثمة فقر كثير يجب القضاء عليه.

- كنت أفكر في ذلك. الأمر محزن للغاية.

- منذ مجيئنا من أسبوع، صدمت من ملاحظة طغيان النظرة القدرية على هذا الشعب. لا شيء يعادل انقياده العميق. ينتهي كل شيء بنطق الكلمة المقدسة: الله كريم - الله رحيم. الفلاح المسكين الجائع العطشان، يفقد ابنه: الله أراد ذلك. الله كريم. لذلك وجبت علينا مساعدة هؤلاء الناس. علينا القيام بذلك. واجبنا يكمن في إخراجهم من شقائهم وإذهاب حزنهم.

تأكدت كورين، وهي تسمع النبرة الصادقة المنبعثة من كلمات رفيقتها، كم كانت أخطأت بشأن سوزان فوالكين. عندما كانت اكتشفت، شهراً من قبل، بأن سوزان عشيقة للامبرت، كان أول رد فعلها أن أدانتها. منذئذ، وخصوصاً أثناء الرحلة، تعرفت أكثر عليها. كانت لطيفة وكريمة بشكل نادر.

واصلت سوزان:

- علمت أن كل ما له صلة بالصحة يسيّره فرنسي يدعى الدكتور كلوت. قد يكون حتى أسس مستشفىً وكلية للطب. قلت مع نفسي إن بإمكاننا ربما أن نعرض عليه خدماتنا. أفترض أن المساعِدات الطبيات نادرات في هذا البلد. وقد تكنَّ ربما غير موجودات. ما رأيكما؟

- هذه فكرة رائعة، قالت جوديث.

- تماماً، أكدت كورين. سأكون سعيدة بأن أعمل معك في هذه المهمة. سيكون لدي أخيراً انطباع بأنني أقدم خدمة.

- إذن سأحادث السيد دي لسيبس في هذا الشأن. هو رجل لطيف. أنت ترين كرمه وهو يسلمنا غرفته. أنا متأكدة من أنه سيساعدنا كي نلتقي الدكتور كلوت.

- لماذا لا نتحدث إليه فوراً؟

- تصوري أن هذه هي فكرتي أنا أيضاً. لكنه الآن يوجد في اجتماع مع الأب ومهندسين مصريين.

- علينا إذن أن نغتنم لحظة انصراف هؤلاء الأشخاص.

وضعت كفيها على جافة النافذة واستنشقت بعمق الهواء البحري.

- يا إلهي! كم يجعلنا هذا نغير اللون الرمادي لباريس! أعتقد أنني لن أملّ أبداً من هذه السماء الزرقاء.

- أفكر في ذلك! أنت ربما لك عائلة هنا؟ ألا تحبين محاولة العثور عليها؟

تبادلت نظرة متواطئة مع جوديث.

إن كانت تحب؟ هي لا تعيش، منذ أن غادرت مارسيليا، إلا من أجل هذا الأمل.

* * *

وجَّه يوسف، أسفل غرفة المرأتين الشابتين، في مكتب القنصل العام، سبابته إلى القناة على الخريطة.

- سيحدث الربط الثاني إذن بين بحيرة عمر وبحيرة التمساح. بعد ذلك تصورنا شرياناً ثانياً يخترق هضبة البردان إلى غرب بحيرة المنزلة والبحر الأبيض المتوسط.

كان هنري فورنيل وأونفنتان ينتبهان إلى الشروح باهتمام بالغ.

وكان إلى جانبهم لينانت دي بلفاند يمرر بين أصابعه سبحة، بعصبية تلميذ أمام ممتحنيه. فقد كان خريجو المدارس الكبرى هؤلاء، لا يكفّون عن إدهاشه.

ألقى بنظرة على فرديناند فأدهشه هدوؤه. كانت حاله تُنَاقِضُ اعتماله الداخلي هو!

بعد أن أنهى يوسف عرضه أخذ فورنيل الكلمة على الفور.

- أيها السيدان! اسمحا لي بأن أعرب لكما عن مقدار إعجابي بالعمل الذي تنجزانه. أما نحن فقد وضعنا تصوراً لتخطيط آخر مختلف تماماً. وهو تخطيط غير مباشر: ينطلق من أقصى شمال البحر الأحمر، بمحاذاة آثار قلسم، ويعوج نحو الغرب مروراً ببولاق وضاحية القاهرة ليعود إلى الصعود إلى غاية الاسكندرية، إلى جانب بحيرة ماريوت. لكنني أعترف بأن فكرتكم أكثر إغراءً.

شعر لينانت بأنه قد تخفف من عبء ثقيل. كان يخشى أن يجد خريجو البوليتكنيك هؤلاء في دراسته مادة للسخرية. بقي عليه الآن أن يخبرهم بأن مشروع القناة غير المباشر لا مستقبل له. كان على وشك التلفظ بنقده عندما دوى صوت فرديناند دي لسيبس في الغرفة.

- اعذروني أيها السادة. ليس من عادتي أن أتقمص دور مفسد الفرح، لكنني أجد من واجبي أن أثير انتباهكم إلى عنصر يبدو لي أساسياً. لن ينجز أي شيء إن لم نعمل منذ البداية على أن نستميل إلى قضيتنا الشخصية الوحيدة التي يبقى هذا المشروع مرهوناً بها؛ أقصد محمد علي.

- لكنه لم يُبدِ أي اعتراض، قال يوسف محتجاً. وقد حدثناكم عن مقابلتنا له.

مسد فرديناند شاربه بحركة آلية.

- بالفعل. وحدسي يخبرني بأن العاهل أقل استعداداً للمشاركة في هذه المغامرة مما يبدو عليه. وعلى أي حال، فأنا أؤكد لكم أنه دون التزام رسمي، ستبقى القناة مجرد خط وهمي مرسوم على الصحراء.

- سنقنع الباشا! أجاب أونفنتان. سنصنع منه البطل الحقيقي لتقدم مصر الاقتصادي!

- أود بالفعل أن أصدقكم، أقر فرديناند، غير أن ثمة مشكلة أخرى علينا تجاوزها: التمويل. هل لديكم فكرة عن هذا الموضوع؟

- أكثر من فكرة يا سيد دي لسيبس. لقد فكرت في ذلك ملياً. فبعد إنجاز الجانب التقني، سيكون ممكناً إنشاء شركة أبحاث دولية مشكلة من شركاء ومن مكتتبين. وأنا متأكد من أن الغرف التجارية لليون ومارسيليا ستشارك فيها كما ستشارك فيها أيضاً الشركة الصناعية لفيينا وجماعة ترييستا (بسبب مصالحها البحرية). أما بالنسبة لإنجلترا فإن شركة الهند المنتمية إليها ستجعلها تكون من بين المنخرطين الأوائل في المجموعة.

- بكم تقدّرون تكلفة الأشغال؟

- يذكر لوبير في مذكراته مبلغاً يقارب الثلاثين أو الأربعين مليون فرنك. كان ذلك من حوالي نصف قرن. ويبدو لي اليوم مبلغ أربعين مليوناً مقبولاً.

- وكم سيكون عدد العمال؟

أجاب تلابوت:

- إن عدنا إلى المذكرات: حوالي عشرة آلاف.

- تطلّب الأمر عشرة أضعاف هذا العدد لشق قناة المحمودية.

- لا يهم! قال فرديناند حاسماً. لا أريد أن أكرر ما قلته، ولكن دون موافقة صاحب الجلالة، تبقى كل هذه الأمور بلا قيمة.

قطب أونفنتان حاجبيه. كان يبدو أن عناد نائب السلطان قد بدأ يغيظه.

- يعتمد الأمر إذن عليكم وعلى القنصل العام لتجلية الأمر. أما فيما يخصني فأنا على أتم استعداد لمقابلة الباشا في الساعة واليوم اللذين يختارهما.

- لقد وعدكم السيد ميموت بالتدخل لمصلحتكم. وهو رجل كلمة.

- أنا متأكد من ذلك.

- والآن، بإذنكم، أريد أن أنصرف. لدي موعد لا يحتمل التأخير.

كان فرديناند قد انتصب وهو يقول ذلك.

وقف يوسف أيضاً.

- أذهب أنا أيضاً. عليَّ أن أعود إلى البيت.

لحظة بعد ذلك، كان الرجلان ينزلان الدرج المفضي إلى الباب الخارجي.

- أي شخصية يملك هذا الأونفنتان!! علق يوسف. أقل شيء يمكننا أن نقوله عنه أن أفكاره مرتبة. أليس هذا رأيك أنت أيضاً؟

أبدى فرديناند حركة تهرب.

- شيء واحد مؤكد، وهو أن أونفنتان مع فورنيل متأكدان بالفعل من جدوى أطروحتهما. أما الباقي...

عندما ولجا الساحة المزينة بنافورة، لمحا الطيفين المؤنثين لكورين وسوزان المقبلتين للقائهما. كانت الأخيرة هي من بادرت نائب القنصل.

- نهارك سعيد، سيد دي لسيبس.

- نهارك سعيد، سيدتي.

- نريد مرة ثانية أن نعرب لكم عن امتناننا على حسن الضيافة. شكراً جزيلاً.

- ليس الأمر بشيء، سيدة فوالكين. لم أقم إلا بما هو طبيعي، ثم قدَّم يوسف:

- صديق. السيد ماندرينو. السيدة سوزان فوالكين.

- تحياتي.

سارعت سوزان بتقديم مرافقتها.

- كورين. أخت سانسيمونية، لكنها صديقة قبل أي شيء آخر.

مالت الفتاة برأسها باحتشام.

- تشرفنا يا آنسة.

تلاقت، في لحظة خاطفة، عينا كورين ويوسف.

- هل يمكنني أن أقوم بشيء من أجلكما؟

- نود لو قابلنا الدكتور كلوت. هل بإمكانكم أن تهيّئوا لنا موعداً معه؟

- نعم، لكن ماذا عساني أقول لكما؟... هو رجل مشغول جداً. لا أدري إن كنتما تعلمان، لكنه مكلف بالخدمات الصحية بمصر. وهي مهمة جسيمة.

لاحظت سوزان ببراءة:

- لكن، لا يمكن لأحد أن يرفض طلباً لنائب قنصل فرنسا!

شرع فرديناند يضحك.

- لكن، أيتها السيدة فوالكين العزيزة، وضعيتي كدبلوماسي لا تمنحني كل السلطات. لكنني، مع ذلك، أعدكما بأن أقوم بما أستطيع حتى يستقبلكما.

- إن سمحت لي، اقترح يوسف، ربما استطعت أن أسرّع الأمور؛ فكلوت صديق لوالدي.

- ستقومون فعلاً بذلك؟

- بالطبع.

- ها أنت إذن قد حصلتِ على ما تشائين، قال فرديناند.

ردت سوزان ببسمة عرفان.

- كيف سأخبركما بيوم الموعد، سأل يوسف.

- تترك لنا رسالة هنا بالقنصلية.

دقق فرديناند:

- هاتان السيدتان صديقتان للسيد أونفنتان.

- مريدتان، صححت كورين.

سَلَّتْ يوسفَ سرعةُ الفتاة في التصحيح.
- هكذا، إذن، يا آنسة. أنت أيضاً سانسيمونية.
- نعم، سيدي. هل هذا يدهشكم؟
- لا، أو...
- أو ماذا؟
تملاها بفضول.
- أمر غريب...
- ما الغريب؟ أن أكون سانسيمونية؟
بدا يوسف باحثاً عن الكلمة.
- اعذروني على المقاطعة، لكنني سأتأخر، قال فرديناند.
حييا بسرعة المرأتين وتوجها نحو المخرج.
عندما خرجا، سأل فرديناند:
- اعذر فضولي، لكن ما الذي وجدته غريباً إلى تلك الدرجة لدى الفتاة؟
- غريب؟ كرر يوسف كما لو كان يعود من شرود.
- ما بك عزيزي؟ هذه هي الكلمة نفسها التي استعملتها أنت.
- صحيح. لنقل بأنني قد عثرت في هذه الفتاة على إهاب عائلي.
- لكن ماذا تقول؟
- لون العينين... شكلهما، رموشها الطويلة التي ترف مثل أجنحة فراشات ولون الجلد.
لا أفهم شيئاً.
- مصرية... أقسم إن هذه الفتاة مصرية. لكنني قد أكون مخطئاً بالتأكيد.

* * *

الجيزة، إقامة الصباح، ١٥ يونيو ١٨٣٨.
- ألم تنسيْ شيئاً؟ سأل ريكاردو.
أشارت جيوفانا إلى حقيبة جلدية صغيرة.
- كل شيء هنا.

- هل أعدَّ حسين العربة؟
- هو شارع في إعدادها.
انضمت الفتاة إلى أبيها على الأريكة.
- أنا سعيدة للغاية بالذهاب...
- أعتقد أن هذه الاستراحة القصيرة بالمزرعة ستريحنا. لقد أتعبتني رحلة الاسكندرية أكثر مما أتعبتني رحلة الأناضول.
- كيف حال عاهلنا؟
عقَّب مدَّعياً عدم الاهتمام:
- أظن أنني قد سمعت بأن سعيد ما عاد يتسلق صواري السفن. قد يكون جلالته قدَّر بأن التمرين متعب للغاية.
- أترى... كنت إذن على حق عندما أعربت عن اعتراضي!
- لا تذهبي بعيداً. كل ما في الأمر أن سعيد قد أرسل إلى فرنسا لسانت سير كي يتابع دراسته. وإذن فإن الباشا قد يكون قدّر بأن إغناء معارف الأمير أهم من حل مشكلة وزنه.
بدت جيوفانا مفحمة.
- لو كنت أعلم بأن ملاحظتي ستُحدث كل هذا الاهتزاز...
- دون أن تكون لدي نية التقليل من قدرتك على الإقناع، اعلمي بأن قرار الباشا هو جزء من تقليد. إبراهيم كان قد أُرسل، أيضاً، إلى سانت سير.
وضع ظهور شهرزاد حدّاً لحوارهما.
ولجت الغرفة تحمل صينية عليها غرافة عصير جوز هندي وثلاثة كؤوس صغيرة.
- قلت إنكما قد تكونان، قبل انصرافكما، في حاجة إلى ما ينعشكما. فرغم أن الشمس لم تشرق إلا من أقل من ساعة، فإن الجو يبدو مع ذلك حاراً.
وضعت الصينية على المائدة النحاسية.
- مؤسف بالفعل أن لا تنضمي إلينا، قال ريكاردو. فأنت تحبين كثيراً مزرعة الزهور.

- قررت أن أهتم بعض الشيء بالصباح. ثم إن يوسف قد وعدني بأن يأتي ليقضي معي أربعاً وعشرين ساعة. لم تسنح لي الفرصة، بعد عودتنا من تركيا، أن أراه إلا في النادر. أنا أفتقده.

- أنا أفتقدك أنت أيضاً.

- تفتقدني؟ لكنني معك..

- أنت معي للحظات فقط.

ثم أضاف بسرعة، بنبرة متحدية:

- وماذا لو اختفيت؟ لو كان علينا أن لا نلتقي أبداً؟

اقتربت منه بتلقائية ومسدت شعره بحنان.

-أنت مجنون دائماً يا ريكاردو ماندرينو. لقد عشنا بعد نفران وفيافي تركيا، ولن تنال منا بالتأكيد مزرعة الزهور!

- ومن يدري...

دعا جيوفانا لأن تأتي معه.

- هيا. أريد أن أصل إلى الفيوم قبل حلول الظلام.

سبقتهما شهرزاد إلى عتبة المنزل.

- اهتمي بأبيك يا جيوفانا.

أجابت الفتاة بالإيجاب بنوع من التصلب. كانت تخشى أن تستجيب شهرزاد لإلحاح ريكاردو! هذه هي المرة الأولى التي ستوجد فيها وحدها مع أبيها. وأي شخصٍ ثانٍ، كائناً من يكون، سيحرمها جزءاً من سعادتها.

ضغط ريكاردو زوجته إليه ثم توجَّه نحو العربة.

كان حسين ينتظرهما، السوط في يده، مستعداً لبدء الرحلة.

ظلت شهرزاد لمدة طويلة على العتبة بعد أن اختفوا في الأفق. كان ذهنها قد قام بجولة في الزمن. تذكرت بأن رجلاً تحبه بنوع آخر من الحب كان أخذها هي أيضاً إلى مزرعة الزهور؛ حدث ذلك منذ زمن طويل.

كان يوسف يومئذ قد أوقف الجياد وأمسك بشهرزاد وحملها عالياً إلى درجة أنه كان بإمكانها أن ترى أكبر جزء من المنظر

- انظري جدياً يا ابنتي... هنا تغفو جذورنا. لقد شكّل هذا المكان أول ثروة لوالدي.

كانت آنذاك في التاسعة عشرة من عمرها، وكان الرجل هو أباها.

واليوم، جيوفانا هي التي ستعيش تلك اللحظة السحرية. ودت لو انضمت إليهما؛ فهي لا تريد أن تعيش أية لحظة بعيداً عن ريكاردو، لكن لا؛ المستقبل لجيوفانا؛ المستقبل هو جيوفانا.

كانت السماء حمراء فوق الصحراء.

عادت بخطوات وئيدة إلى داخل المسكن الخالي.

الفصل الثالث والعشرون

الاسكندرية، قصر رأس التين، يونيو ١٨٣٣.

تحت الثريات المتلألئة بالأنوار، كان محمد علي مقرفصاً فوق بساط بوخارا الصوفي، وهو يتفحص جاحظ العينين، بنظرة طفولية، مجسم القطار الذي وضع تصوره هنري فورنيل. أطلق السانسيموني، بدفعة، القاطرة التي شرعت تترنح على سكة خشبية صغيرة، ساحبة بصعوبة ثلاث مقصورات إلى أن أصبحت أسفل أنف الباشا.

كان لينانت دي بلفاند ويوسف وفرديناند دي لسيبس يراقبون المشهد بالفضول نفسه، وهم جالسون متربعين.

- هلاً أعدت الكرة! رجا محمد علي.

وضع فورنيل، دون تردد، القطار على مسنده الخشبي ودفعه مرة ثانية.

كان الباشا يلتهم المشهد. عندما أدرك القطار نهاية مساره، انتصب واقفاً وكأنه متأسف واتخذ الوضع الذي يليق به كعاهل.

- هذا رائع، رائع للغاية. تهانئي الحارة السيد فورنيل.

انتصب فورنيل واقفاً بدوره. تفصيل خاص: كان قد تخلى، بطلب من السيد ميموت، عن لباس السانسيمونيين ولبس لباساً عادياً. فبالأمس قال لهم قنصل فرنسا بأنه من غير اللائق الحضور أمام نائب السلطان بلباس يعتبره الجميع لباساً شاذاً.

- أشكركم، سموكم؛ قال فورنيل. من باب تحصيل الحاصل أن هذا التصميم الذي وضعه نحاتنا السيد ألريك لا يشكل إلا رمزاً. غير أن بالإمكان

أن أؤكد لكم أننا قادرون على إنتاجه في حجمه الطبيعي وبتدقيق، ليتحرك بين القاهرة والسويس.

عقّب نائب السلطان وهو يمسد لحيته الناعمة.

- أنا لا أشك في قدراتكم يا سيد فورنيل. غير أنه سبق لي أن استدعيت، وهو سلوك شاذ لا يقاس عليه، مهندساً إنجليزياً هو السيد غايوقاي. وقد وعدت إنجلترا بأن تكون هي منشئة خط السكك الحديدية. أنا متأسف. وصلتم متأخرين.

عكست ملامح السانسيموني خيبته على الفور. غير أنه اقترح مع ذلك:

- سموكم، ربما استطعتم تصور تقسيم عادل للمشروع. تصنع إنجلترا السكك الحديدية وتصنع فرنسا القطار وتضع التخطيط.

- سبق لي أن قلت لك السيد فورنيل إن الأوان قد فات.

احدودب المهندس.

- غير أنني، واصل محمد علي، سأؤاخذ نفسي إن لم أستغل مهاراتكم. أنت على ما أعتقد خبير معادن؟

- نعم، سيدي.

- في هذه الحال، ما رأيكم في أن تتولوا إدارة معادن سوريا؟ يمكنني أن أرسلك إلى هناك حيث نحن بحاجة إلى رجال مؤهلين مثلكم. ويمكنك أيضاً أن تعول على أجرة مريحة.

أجاب فورنيل بصوت متردد:

- لا أدري، جلالتكم... امنحوني فرصة للتفكير.

- بالطبع. القرار لكم.

كان يوسف، الذي لم يفته شيء من المحادثة، غارقاً في غموض كامل. هم هنا للدفاع، قبل كل شيء، عن مشروع قناة السويس، وإذا بالفرنسي - الذي استولى على انتباه الجميع، قد انطلق في مشروع السكة الحديدية. وقد كان، فضلاً عن ذلك، يشعر بارتياح أن قرر زعيمُه عدمَ المشاركة في هذا اللقاء. وذلك، حسب تعبيره، حتى «لا تشكل شخصيته عائقاً.» أما بالنسبة لنائب السلطان فلا أحد يجهل بأنه لم يكن يحب الإنجليز. فلماذا إذن هذا القرار بأن يسند إليهم مشروع السكة الحديدية؟

التفسير الوحيد الذي يمكن إعطاؤه لسلوك فورنيل هو أنه، على ما يبدو، كان أكثر قدرة على الإقناع بمشروع السكة الحديدية منه بحفر القناة. أما عن اختيار نائب السلطان، فلم يجد له يوسف، على الأقل إلى حدود هذه اللحظة، أي تفسير.

ساد صمت قلق في القاعة، قطعه لينانت قائلاً:

- سيدي، لقد طلبت منا، منذ بضعة أشهر، أن نواصل دراسة مشروع قناة السويس وإطلاعكم على نتيجة أشغالنا. وهي الآن رهن إشارتكم. فرغم أن بعض المشاكل تظل قائمة، فإن الضروري الذي يسمح بالشروع في الحفر قد توفر. وقد أصبح، الآن، من الصعب علينا أن نذهب أبعد من ذلك دون الاطلاع على قراركم.

- القناة... طبعاً.

قال وقد أمسك بعلبة نشوقه وشرع يديرها في راحته:

- والسد؟

- عفواً، سيدي؟

- السد، يا سيد دي بلفاند، السد!

غادر الباشا مكانه وهو ينظر لمخاطبيه من فوق.

- أتدري ما كان يقوله مواطنك نابليون؟ «يجب أن لا تضيع أية قطرة من مياه النيل.» والحال، ما الذي يحصل الآن؟ عند كل فيضان تتبخر ملايين الأمتار المكعبة من منبع الحياة هذا وتستمر الصحراء في الانتصار. واليوم، أي حل لهذه المأساة يُقترح عليّ؟ قناة و... قناة.

ازداد صوته ارتفاعاً.

- سأجيبكم حول هذه النقطة. نعم، أنا مقتنع تماماً بالفائدة التي يمكن لمصر أن تجنيها من القناة. ولو كان بإمكاني أن أحقق حلمين في حياتي لحظيت قناة السويس بالأولوية، ولحل حلم إقامة سد على النيل في المرتبة الثانية. ربما فاجأكم كلامي، لكنني قضيت أكثر من ليلة أفكر في هذا الموضوع. أنتما روحان كبيرتان متساميتان، والأرواح الكبيرة تكون عادة غير واعية بحقائق الحياة.

صمت للحظة.

- لنتحدث عن هذه القناة. أنا أعلم أن فرنسا والنمسا تدعمان المشروع، لكن ما الشأن بالنسبة لإنجلترا؟ عدد كبير من الأمم يأمل في أن يلتهم مصر، لكن إنجلترا هي أكثرها شراهة. وقناة السويس ستزيد من شرهها هذا. آنذاك ستكون مصالح إنجلترا أكثر ولن يتمكنوا من التحكم في أنفسهم. فإما أنهم سيجعلون من أرض مصر حقلاً مسلحاً للدفاع عن إمبراطوريتهم، وإما أنهم سيستعملون الفيتو للاعتراض بكل شراسة على المشروع. فأنتم تعلمون أن لا مشروع يمكنه أن يخطو خطوة واحدة دون مساندة حكومة إنجلترا.

عقّب يوسف:

- لكن لماذا أنتم مقتنعون إلى هذا الحد بالرفض الإنجليزي، جلالتكم؟

- لأن هذه بديهية يا ابن ماندرينو! ما الذي ستجلبه القناة قبل أي شيء آخر؟ تحسن مستوى التواصل. وهو ما يتعارض مع المصالح التجارية والسياسية والعسكرية للإنجليز.

- أخشى أن لا أكون قد فهمت حجتكم بشكل جيد.

رفع محمد علي عينيه إلى السماء.

- جيد. أنت ترغمني على أن أضطلع بدور المعلم. وإذن فافتح أذنيك جيداً؛ وأنتم أيضاً أيها السادة. تظل طريق الهند هي الطريق الملكية لإنجلترا. وقد ظلت مراقبتها هي أولوية الأولويات بالنسبة إليها. ولهذا السبب احتلت، من بين مناطق أخرى، الرأس وجزر أسونسيون وسانت هلين. ولو حصل أن فتحت طريق أخرى غداً - أكثر اختصاراً وأقل مسافة بين إمبراطوريتها الشرقية وإمبراطورتها الغربية - فكيف يمكنك أن تتصور بأن تظل بلا حراك؟

احتج فرديناند دي لسيبس:

- سيدي، ألفت انتباهكم إلى أن هذه القناة لا يمكنها أن تشكل إلا امتيازاً كبيراً بالنسبة لشركة الهند العظمى. وأنتم تعرفون أي وزن تحظى به في مجالس نواب صاحبة الجلالة ملكة إنجلترا. يمكن أن أكون مخطئاً، لكنني أعتقد بأن هذا البلد سيكتفي بالارتكان للحياد.

- أنت ما تزال شاباً يا سيد دي لسيبس، وما يزال قلبك هشاً. أتمنى أن لو كنتَ على صواب، لكن للأسف، لا أعتقد ذلك.

صمت وشبك ذراعيه.

- لقد تحدثنا عن إنجلترا، لكنها ليست الوحيدة. فمن بين القوى العظمى هناك روسيا. ما سيكون رد فعلها من وجهة نظركم؟
- لا أرى سبباً لاعتراضها. بل على العكس، ستفتح القناة لأسطولها مدخلاً مباشراً للشرق. وهو أمر له أهميته على المستوى الاستراتيجي.
خطا محمد علي بضع خطوات وأمسك بأنبوب شيشة موضوع على المائدة الواطئة وأشعلها على مهل. ارتفعت سحابة دخان زرقاء من موقدها وشرعت ترقص في الهواء. أخذ نائب السلطان نفساً ثم أعلن:
- موافق. لن أعترض على القناة.
ثم واصل، دون أن يترك الوقت لمحادثيه كي يتمثلوا قراره:
- لي، لتحقيق ذلك، شرطان. الأول: أن تتفق القوى العظمى على ذلك وتكتب لي طلباً في شأنه. سآمر بالشروع في العمل ساعة بعد ذلك. الثاني: لا مجال لأن أوافق لشركة خاصة أجنبية بحفر القناة، وبالأحرى استغلالها. مصر لها ما يكفي من الثروة كي تضطلع بتحقيق المشروع على خير وجه دون مساعدة رؤوس الأموال الأجنبية، كما أنها لا تفتقر إلى اليد العاملة؛ ويمكنني أن أستعمل في ذلك كل جيشي. إن اجتمع هذان الشرطان فسيكون لي حظ أن أرى قبل موتي أسطولي يبحر بين ضفتي الصحراء.
عقّب فرديناند دي لسيبس بصوت مهزوز:
إن كنت قد أجدت الفهم فأنتم تطالبون بعقد ضمان دولي، تجنيباً لمصر من مخاطر الحفر.
- ما أطلبه، يا سيد دي بلسيبس، هو أن تكون قناة السويس لمصر، لا أن تكون مصر لقناة السويس.
توقف وأخذ نفس دخان جديد سرعان ما نفثه.
- لنعد الآن إلى السد. وهنا أتوجه بالحديث، بالخصوص، إلى مهندسيّ المائيين الحاضرين معنا. لقد سجلتم بطبيعة الحال بأن شعبة روزيت - ضحية ظاهرة أترك لكم تفسيرها - تستقبل من المياه أكثر مما تستقبله شعبة دمياط، إلى درجة أن مرور السفن فيها، خلال السنوات التي يقل فيها مستوى مياه النيل، يصبح مستحيلاً. وما دمنا لا نجد علاجاً لانعدام التوازن هذا، فمن المجدي تنمية الزراعة الصيفية. مناطق عديدة، هي من بين أغنى مناطق مصر،

مهددة بالاختناق. إن فهمتم هذه، فهمتم كم تُعدُّ هذة المشكلة أولوية قصوى. القناة يمكنها أن تنتظر، ولكن البطن الفارغ لا ينتظر.

لاحظ يوسف:

- لقد اقتُرحتْ، جلالتكم، حلولٌ كثيرة لهذه المشكلة. و...

قاطعه الباشا:

- أعلم. حلول هي من الكثرة بحيث ضعت بينها. يقترح بعضها سد الوادي عند مدخل الدلتا لرفع مستوى المياه وتسريع وتيرة جريانه، وتتصور أخرى بكل بساطة إغلاق شعبة روزيت، وتقترح أخرى خطة لتهيئة قنوات الري الأساسية. لكنني أتوقف عند هذا الحد. سيكون مملاً تعداد كل الحلول المقدمة. ما أريد أن أعرفه هو رأيك، يا سيد دي بلفاند. لقد درستها جميعاً، فأيها تختار؟

أجاب بلفاند دون أدنى تردد:

- لا أختار أي اقتراح منها، جلالتكم.

- كيف؟

- أعتقد أنه يجب قطع شعبتي الوادي معاً، بواسطة منشآت منظّمة. هذه، من وجهة نظري، هي الوسيلة الأكثر فعالية.

قال محمد علي متفكراً:

- وإذن، سنحدث لجنة خبراء تكون مكلفة بفحص مجموع المشاريع وتحديد أحسنها لنأخذ به. وأنت، سيد دي بلفاند، من سيترأسها وسيكون نائبك هو ابن ماندرينو.

مد يده في اتجاه هنري فورنيل.

- كما أشجعكم على أن يكون تعاونكم مع أصدقاء السيد فورنيل تعاوناً قوياً. فأنا أعتقد أنني قد فهمت بأنه يوجد بينهم خبراء ذوو كفاءة عالية.

تهالك على أريكة وقال:

- إن ما أقترحه عليكم هو أن ترفعوا تحدياً وأن تحلوا مشكلة تقنية لم يسبق لها مثيل. ولكم الآنَ أن تثبتوا أنكم في مستوى هذه المغامرة.

ما إن أنهى محمد علي كلامه حتى كان كل شيء قد اتضح في ذهن يوسف. فقبل لحظة، كان قد اندهش من أن رأى العاهل مستعداً لإسناد بناء

السكة الحديدية للإنجليز. إن الثعلب العجوز، إذْ تصرف بتلك الطريقة، إنما أراد أن يطبق نظرية عزيزة عليه هي نظرية البهلوان. سيسند مشروع السكة الحديدية للإنجليز، ولفرنسا مشروعاً مائياً ضخماً. بذلك يحتفظ، بمهارة، بالتوازن بين الدولتين.

تقدم فرديناند دي لسيبس قريباً من الباشا.

- أنا، جلالتكم، أفهم وأنضم إلى رغبتكم في وضع حد لجوانب النقص التي يعاني منها بلدكم بقوة. غير أنني لا أستطيع منع نفسي من أن أَعْتَبِر مؤسفاً تخَلّيكُم عن النجاح الباهر الذي كانت قناة السويس ستمثله. وإن سمحتم لي، فإنني ألفت انتباهكم إلى أنكم قد اقترفتم خطأً في التقدير أثناء تحليلكم الذي قدمتموه قبل قليل. فأنتم قد أغفلتم تماماً، للأسف، أهمية الدور الذي كان من شأن فرنسا أن تلعبه إلى جانبكم. بإمكانها سيدي أن تقوم بالكثير. رغم أن يديها تبدوان غالباً مغلولتين.

أجاب الباشا بصوت عالٍ:

- سيد دي لسيبس. قريباً سيكون عمري ستاً وستين سنة. وغالباً ما يكون بإمكان الرجال المتقدمين في السن أن يستشعروا ارتفاع الأمواج قبل حتى أن تهب الرياح. تذكروا أيضاً ما أقوله لكم اليوم. اطبع هذه الكلمات في ذاكرتك. إن كان يوماً على فرنسا ومصر أن تحفر فراش قناة السويس، فإن إنجلترا هي التي ستنام فيه.

سقطت الخلاصة مثل شفرة مقصلة.

* * *

كانت جيوفانا تمشي، كفها ممسكة بذراع أبيها بين النخيل وأشجار الأوكلبتوس. كانا قد وصلا منذ حوالي أسبوع إلى مزرعة الزهور. لا تتذكر أنها كانت في يوم من الأيام أقرب إلى السعادة مما هي اليوم. كان يبدو لها، أحياناً، أنها ستلمس هذه السعادة في أوراق الشجر وفي البياض الناصع لشجيرات القطن وفي حركات الفلاحين.

غداة وصولهما، رافقها أبوها ليقوما بجولة في الحقول. جعلها تكتشف الفتنة السرية لمزرعة الزهور، تلك الفتنة التي تعلّمها هو أيضاً من شهرزاد. قدّم جيوفانا للفلاحين ولزوجاتهم ولرؤساء العمال ليس بوصفها ابنته وإنما

بوصفها سيدة المكان المستقبلية. منذئذ شرع الرجال ينحنون لها احتراماً عندما تمر أمامهم.

- كل ما ترينه حولك، شرح ريكاردو، هو من إنجاز أمك.

شرح لها كيف أن شهرزاد، بعد وفاة والديها ومقتل زوجها الأول، عندما اجتاحَ الصباحَ مجموعةٌ من مثيري القلاقل - التجأت إلى هذا المكان الذي لم يكن آنئذ إلا ضيعة مهملة. كان سنها آنذاك خمساً وعشرين سنة، ولم يكن يوسف آنئذ إلا صبياً. وبشجاعتها وعنادها أصلحت كل شيء وحدها. قضت أشهراً كاملة في محاولة حل مشكلة لغزِ القطنِ ذي الألياف الطويلة، إلى أن أتى اليوم الذي استطاعت فيه أن تحقق حلمها بفضل عالم زراعة فرنسي. وهذا القطن، اليوم، هو ما صنع شهرة مصر ومزرعة الزهور.

أنصتت جيوفانا بانتباه. وإذا كانت قد أعربت عن إعجاب بقوة أمها، فإن هذا الشعور كان، بالرغم منها، مصحوباً بذلك النوع من الحرقة الداخلية. كما لو كانت الجمرة الموضوعة على قلبها قد تأججت.

- وسيكون لك، غداً، أن تسودي بمزرعة الزهور.

شعرت، في لحظة خاطفة، بأن رأسها يدور. هل ستكون في مستوى هذه المهمة؟

قال ريكاردو، وكأنه قد قرأ أفكارها:

- الآن، تعالي معي. سأريك «حديقة مصر.»

- حديقة مصر؟

قادها نحو الجوادين.

بعد حوالي نصف ساعة ترجلا على شاطئ بحيرة، يزين أطرافها قصب ويمتد حولها منظر أخضر بهي. أمسك الفتاة من ذراعها وقادها عبر أشجار النخيل الظليلة وزهور البردي.

- انظري.

كان الماء أمامها يلمع بفعل شمس الظهيرة. وكان مركب يتهادى على الماء مرسلاً ظلال صواريه المجهزة بأشرعة.

- نحن في أكبر واحة بالبلد. أقصد واحة الفيوم. منذ بضعة ملايين من السنين، كان هذا هو المكان الذي يفضله الفراعنة لمزاولة صيدهم إلى أن

جفف أحدهم المستنقعات وبنى خزاناً في المكان الذي يتجاوز فيه الوادي ضفته. وبذلك وفر فرصة إنشاء خزان دائم. وهو الذي ترينه الآن، أي بحيرة قارون. ونتيجة لذلك تضاعفت الأراضي الصالحة للزراعة. كل شيء يزهر هنا، حتى الحجر وحتى الروابي. أما الحياة فتمتد إلى تخوم الواحة.

- لذلك سميت حديقة مصر؟

أكد لها ذلك.

- إن من شأن ما تتملّينه الآن أن يُذهب خشيتك. لا يمكن لمزرعة الزهور أن تموت وهي على أرض بهذا الغنى. اللهم إلا أن تكوني أنت قد قررت العكس. كل ما يحيط بك هو من أجل الوقوف إلى جانبك. يكفيك أن تنادي عليه كي يأتي الثراء الطبيعي الغافي في هذه الأرض ليتدحرج تحت قدميك.

- أتعتقد بأن الأمر بهذه البساطة؟

- إن تعلمت اللغة السرية وتعلمت الإنصات، نعم، أؤكد لك ذلك.

- أية لغة؟ وما الذي يجب الإنصات إليه؟

-أنا لا أعرف هذه الأشياء جيداً كي أعلمك إياها. أما أمك، من جانبها، فتعرفها عن ظهر قلب. وستسر لك بها عندما يأتي اليوم المناسب.

امتطيا الجوادين وتوجها نحو بحر يوسف؛ القناة التي تغذي البحيرة. مشيا على طول شواطئها الطينية المحفوفة بأشجار الجوز الهندي والخروب، ثم توقفا للحظة بقرية سنهور حيث ألحوا عليهم كي يحتسوا كأس شاي بالياسمين ويتناولوا حبات تمر. حدجتهما جاموس بنظرة غاضبة، عند مرورهما، وهي تهش بذيلها على أسراب الذباب الذي ينهش وركيها.

في أحد هذه البيوتات المبنية باللبِن، أخذت جيوفانا فكرة عن الفقر في مصر. غرفة واحد. بضعة ثقوب على الجدار تسمح لبعض الضوء بأن يلج، وحُصُرُ أسل موضوعة على الأرض مباشرة، يأكلون وينامون عليها. جِرَار ومصباح زيتي، تلك هي كل ثروة هذه العائلة.

أي تعارض مع عظمة رأس التين ومنازل الأثرياء بالقاهرة والاسكندرية.

سلّمهم ماندرينو ما كان يحمل من نقود ثم أخذا طريق العودة.

- أبي... أتفهم لماذا كنت قلت يوم عيد ميلاد المسيح، ونحن نخرج

من القداس، بأننا لا نستحق هذا الشعب؟ كنت فقط أحاول أن أشرح فداحة الظلم السائد.

- أنا واع بذلك يا جيوفانا. لكن ما الحل؟ ورغم أنني قد أغضبك، فإنني أكرر سؤال أمك: ماذا عساهم يصبحون دوننا؟ حتى عندما نريد تغيير الأمور فإننا لا نستطيع. نحن لسنا سوى حلقات متواضعة في سلسلة. السلطة ليست بيدنا وإنما في يد الدولة.

- والدولة ليست كريمة.

- ربما... لكن لها عذراً: هي ليست حرة. هي تعيش حالة حصار. والأفظع أن أحداً لا يعرف ما سيكون مصير مصر بعد وفاة محمد علي. مصير الأسرة الحاكمة في يد اسطنبول والغرب. من سيحكم هذا البلد؟ باشا يعيّنه ويفرضه السلطان؟ رجل ينفذ أوامر القوى العظمى؟ بونبارت جديد؟ لا، يا جيوفانا، الأمور ليست بتلك البساطة.

- ولماذا لا يكون الحاكم امرأة؟

جحظت عيناه.

- امرأة؟

انطلقت ضحكته العالية نحو مغيب الشمس.

- أنتِ مثلاً؟

قالت بتحدّ:

- لو حانت فرصة! فرصة واحدة لما ترددت. سأهتبلها من أجل مصر، حتى لا أعود لمشاهدة هذه المشاهد العارية.

الفصل الرابع والعشرون

القاهرة، يوليو ١٨٣٣. مستشفى قصر العين.

كانت رائحة أثر حادة تسود بمكتب الدكتور كلوت. لم يكن بالإمكان القول بأنها تنبعث من مكتب الحجرة نفسها أو من الممر أو الوزرة التي يلبسها الطبيب. ومهما يكون مصدرها فإن كورين قد وجدت صعوبة في التأقلم معها. لم تتأثر بالرائحة وحدها، إذْ كان منظر المرضى يزعجها بالقدر نفسه. كانت على طول الممر الذي قادهن إلى مكتب كلوت قد لمحت تلك الأجساد المهزولة الممددة في الصمت البارد للغرف. ورغم أن النظرة كانت خاطفة، ولم يكن فيها ما يدعو إلى التقزز، فإنها قد شعرت بقلبها ينقبض وبكفيها تصبحان نديتين. أما سوزان فوالكين وجوديث، فعلى العكس منها، كانتا تبدوان مستريحتين كما لو أن المعاناة ومجاورة الموت كانتا بالنسبة إليهما أموراً مألوفة.

- ها أنتم يا دكتور على علم بكل شيء.

وضع كلوت كفيه مبسوطتين على مكتبه. ترك سوزان، حتى الآن، تتحدث وهو ينصت بانتباه دون أن يعمل البتة على مقاطعتها.

- اسمحي لي، أيتها السيدة فوالكين، قبل كل شيء، أن أقول لك كم أنا متأثر بخطوتك وكذا بخطوة صديقتيك. مهنة التمريض هي أفضل مهنة، لكنها أيضاً هي المهنة التي لا يُعترَف لها بفضل؛ هي تُخَص بكل سلبيات الممارسة الطبية دون أن تحظى بإيجابياتها. لذلك أثرت في خطوتكن كثيراً. غير أنني للأسف، لا أعرف كيف أستطيع إرضاءكن.

ارتسمت علامة خيبة على وجوه زائراته.

- لكننا لا نطلب أي أجر، قالت جوديث. كل ما نريده هو أن نقدم يد العون.

- هذا ما فهمته بالضبط. وعلى أي حال، فالمال لن يشكل عائقاً. فقد مكنني الباشا، والحمد لله، من وسائل إنجاز مهمتي. لا. المشكل مرتبط بشيء آخر.

غادر كلوت مقعده ودار حول مكتبه، ثم أتى ليجلس أمام النساء الثلاث.

- مصر، كما تعلمين، ليست هي فرنسا. إن دولة التقاليد هذه لا تسمح بأن يعالج النساءَ رجالٌ، والعكس. وتنطبق هذه الوضعية أيضاً على التعليم. وحتى هذا التاريخ، لا توجد ممرضات بمصر. وبالنتيجة، فنحن ليس عندنا نساءٌ قادرات على تعليم مثيلاتهن. لقد بذلت مجهوداً جباراً كي أحصل من نائب السلطان على إذن بتكوين إماء سوداوات وحبشيات بكلية أبي زعبل. وقد حاولت أيضاً أن أنتزع منه وعداً بتأسيس مستشفى خاص بالنساء في القاهرة. وقد أجاب بالإيجاب عن المقترحين معاً. غير أنهما يظلان، للأسف، على الورق. أتفهمن الآن في أية حيرة أوجد؟

بدا أن حجج الطبيب لم تكن لتنال من تصميم سوزان فوالكين.

- بالتأكيد. لكن ثمة بدائل أخرى يا دكتور. يمكنك ربما أن تدخلنا إلى أسر مصرية نقوم فيها بدور الوصيات، مما سيمنحنا فرصة محاولة تعلم اللغة العربية من خلال اتصالنا المباشر بالأطفال. ويمكنكم في الوقت نفسه أن تسهروا على تعليمنا تعليماً طبياً يسمح لنا بولوج وسط الحريم والقيام هناك بدور ذي جدوى، وربما مدرّ للربح أيضاً.

- سوزان على صواب، قالت كورين مؤيدة. بالأمس فقط، وأنا أتحادث مع القنصل العام، علمت بأن ابنة طبيب فرنسي، هو الدكتور دو ساب، كانت تساعد أباها مساعدة فعلية. وعلى أي حال، فإن وضع أدوية على الجروح لا يعد بدعة.

شبك الدكتور كلوت ذراعيه وتملّى باسماً النساء الثلاث.

- من يتأملكن يستخلص بأنكن قد فكرتن في الأمر ملياً. بالفعل، إن ما اقترحتنه لتوّكن يبدو معقولاً، لكنه لا يحل، مع ذلك، مشكلة تكوينكن. لا وقت لي كي أقدم لكن دروساً خصوصية. وبالمقابل. . .

مسد بحركة حادة شاربه.
- قد يكون ثمة حل... غير أنه سيتطلب منكن الخضوع لعملية إخراج...
انتظرن أن يدقق فكرته.
- ما رأيكن في أن تحضرن الدروس التي أقدمها في كلية طب أبي زعبل؟
- لكن... ألم تقولوا لتوّكم بأنه محظور على النساء، حسب تقاليد البلد، حضورها؟
- لن ينطبق عليكن هذا الحظر.
مطت النساء الثلاث شفاههن حائرات.
تابع كلوت:
- سيكفي، ببساطة، أن تتقنعن... بقناع الرجال.
- أتمزح؟
- أبداً. سيخفي جلباب شكلكن وستخفي عمامات شعركن. وبما أن قرار قبولكن بالكلية لا يتعلق إلا بي، فأنا لا أرى ما يمكن أن يمنعكن من ذلك..
ثم أضاف:
- كل ما في الأمر أنكن ستعتبرن غلماناً مخنثين بعض الشيء.
بعد أن انجلت لحظة المفاجاة الأولى، التفتت سوزان نحو صديقتيها.
- ما رأيكما؟ هل استهوتكما الفكرة؟
سارعت كورين بالموافقة.
- بالطبع. ثم ما الذي سنجازف به؟
- وحسب علمي فإن أعناق الغلمان لا تقطع، قالت جوديث مازحة.
- اطمئني سأعارض ذلك بشدة.
- جيد. متى سيكون بإمكاننا أن نحضر أول درس؟
عليكن قبل ذلك أن تسكنّ هنا بالقاهرة، وإلا فإنني لا أعرف كيف يمكن أن تكونّ في الاسكندرية وأن تأتين إلى الكلية.
- لكننا لا نعرف أحداً يمكنه أن يؤوينا هنا بالعاصمة.
- ربما كان ثمة من يقوم بذلك!
ظل كلوت متفكراً.

- لقد أشرتن إلى صديقي الدكتور دو ساب. إنه رجل كريم ويملك، فوق ذلك، مسكناً شاسعاً. أعتقد أنه لن يرى مانعاً في أن تقطن معه في انتظار عثوركن على منزل. فهو متزوج من امرأة رائعة، حبشية، وابنته هانم لطيفة بدورها. ستكن عنده مستريحات. سأحادثه في الأمر هذا المساء.

- لا نعرف كيف نشكركم يا سيد كلوت.

- عليَّ أنا أن أعرب لكن عن امتناني. أنا في حاجة ماسة إلى ممرضات. ستقدمن لي عوناً ثميناً.

غادرت النساء الثلاث الطبيب راضيات. وعندما كان يرافقهن إلى الباب سألت كورين:

- حضرة الدكتور كلوت. أنتم تعرفون بالتأكيد عدداً كبيراً من الناس في هذا البلد. هِل سمعت بأسرة شديد؟

- شديد... لا أعتقد.

- هي أسرة مسيحية كبرى تعيش بالقاهرة. أفرادها يونانيون كاثوليك.

عقّب كلوت، آسفاً:

- أنتن تعرفن أن في مصر أكثر من أربعة آلاف كاثوليكي. هذا الاسم لا يعني لي شيئاً للأسف.

- اعذرني على الإلحاح. هم أناس أغنياء جداً. ملكوا ولا يزالون يملكون، بالتأكيد، إقامة بضيعة شاسعة على تخوم الصحراء، قريباً من الأهرام بالجيزة.

- ضيعة؟ الوحيدون الذين يملكون أراضي حسب علمي، في مصر كلها، هم آل ماندرينو. كان الباشا قد أصبح مالك كل الأراضي.

- ماندرينو...، كررت كورين حائرة. هل أنتم متأكدون؟

- نعم يا آنسة، وأكثر من ذلك، فهم أصدقاء مقربون. ريكاردو ماندرينو هو مستشار صاحب الجلالة.

- ماندرينو ليس اسماً عربياً، أليس كذلك؟

- هذا صحيح. ينتمي الرجل إلى الطبقة الفينيسية النبيلة. لكن هذا لا يمنع من أنه مصري بالقلب وبالتبنّي. من المفترض أنكن تعرفنه ما دام ابنه يوسف هو الذي ألح عليَّ أن أستقبلكن!

- هذا ما لا يغفر لنا! صاحت سوزان.

ثم سارعت توضح لصديقتيها:

- أتذكرين؟ إنه الرجل الذي التقيناه منذ حوالي ثلاثة أسابيع رفقة السيد دي لسيبس. هو من اقترح علينا، بودّ، أن يتوسط لنا لدى الدكتور كلوت.

هي بالطبع تتذكر. وكانت، على أي حال، قد تأثرت بشخصيته. هي تؤاخذ نفسها على أنها لم تقترب منه.

- إن كان الأمر لا يعد تدخّلاً في شؤونك الخاصة، هلاّ قلت لي في أي شيء يهمك أمر آل شديد؟

- لأن لي بهم روابط قرابة. أمي مصرية، وأختها من أسرة آل شديد.

- أمك؟ مصرية؟ كان عليّ أن أشك في ذلك؛ فلك جاذبية بنات هذا البلد. ولدت بفرنسا؟

- نعم، وعشت بها حتى الآن.

- على أي حال، أعدك بأنني إن سمعت شيئاً عن آل شديد، فإنني لن أتأخر في إخبارك.

حيّت النساء الثلاث الطبيب ثانية ثم انطلقن في الممر الذي كانت ما تزال تنبعث منه تلك الرائحة الحادة التي تقبض القلب. لكن كورين، هذه المرة، كانت تبدو غير مبالية بها. كانت تسترجع المحادثة التي أجرتها لتوها والتي أثارت في ذهنها أسئلة عديدة.

ماندرينو... شديد... أية علاقة يمكن أن تكون قائمة بين هذين الاسمين؟

* * *

كان يوسف يجلس حول المائدة بغرفة طعام الصباح، مشاركاً، لأول مرة، في غداء يوم الأحد الذي لم يحضره منذ مدة طويلة. واصل وهو يلقي في صحن الملوخية بصلاً مفروماً وخلاً:

- هذا صحيح. أنا أعترف بأن موقف محمد علي قد خيب أملي. لو كنتم فقط قد رأيتم بأية طريقة وضع حداً لمشروع شق القناة! ثم قال مقلداً صوت العاهل بطريقة كاريكاتورية: «ما أريده يا سيد دي لسيبس هو أن تكون القناة لمصر لا أن تكون مصر للقناة.» تصوروا مقدار ما شعر به نائب القنصل من

خذلان! هو لم يشعر وحده بالخذلان، طبعاً. نحن لم نكن أحسن حالاً منه.
عقبت شهرزاد:
- ربما أضفتُ خيبة أمل أخرى إلى خيبتك. أعتقد أنه أمر عادي أن يحذَر نائب السلطان القوى العظمى. لقد أثبت الماضي كما يثبت الحاضر، كل يوم، أنه لا يمكننا الاعتماد عليها بشكل دائم.
ثم طلبت من جيوفانا، الجالسة إلى جانبها، رأيها في الموضوع.
- أنا أتفق معكِ، لكن مع إبداء تحفظ: لقد أصاب السيد دي لسيبس عندما قال بأن علينا أن لا نقلل من الدور الذي يمكن أن تلعبه فرنسا. وعلى أي حال فإن هذا البلد قد قدم الدليل، مع ذلك، على إخلاصه لمصر ولمحمد علي بالخصوص.
- أشكرك أيتها الأخت الصغيرة، قال يوسف بفخامة. هذه هي المرة الأولى التي أراك ترين رأيي.
- إذا كنت قد فهمت جيداً، قال ريكاردو، فأنتم ستشرعون في بناء هذا السد على الدلتا.
- أجل... وما أشعر به من رضىً عن ذلك ناتجٌ عن أن المشروع الذي دافع عنه لينانت قد فاز على بقية المشاريع. ومن المفترض أن تنطلق الأشغال مع بداية الأسبوع المقبل. وبالمناسبة، ربما اندهشتم إن علمتم بأن هذه المجموعة التي وصلت حديثاً لمصر، أقصد السانسيمونيين، ستشارك بشكل فعال في الورش.
- هذا أمر مدهش بالفعل، قال ماندرينو. أيكون محمد علي إذن قد وضع فيهم ثقته؟
- هذا ما يؤكده قراره. وأنا مضطر، على أي حال، أن أعترف بأن لهؤلاء الناس أفكاراً جذرية حول تنظيم العمل. لقد أصدر رئيسهم، السيد أونفنتان، سلسلة من المقترحات ستصيب المسؤولين بحيرة كبرى. تصوروا أنه يقترح، من بين أمور أخرى، عدم تشغيل الرجال الذين تفوق سنهم الأربعين والأطفال الذين يقل عمرهم عن عشر سنوات. وأكثر من ذلك، فهو يقترح تشغيل ذوي الإعاقات حتى لا تكون الإعاقة ضمانة ضد التجنيد.
- الاقتراح ليس مجرداً من حسن نية، قال ريكاردو.

- ليس هذا كل شيء، فهو يستفيد من المبادئ العسكرية ويقترح أن يكون العمال منظمين في ثماني عشرة كتيبة، مقسمة إلى عشر سريات تقسم بدورها إلى خمس مجموعات. وفي كل كتيبة يعين ستة عمالٍ بوصفهم مكوِّنين، يمنحون أجراً قدره خمسة وعشرون قرشاً. وهو يتصور أيضاً منح الجميع، دون تمييز في الرتبة، وجبات أكل متماثلة وحقيبة ولحافاً مع بدلة.

- بدلة؟

- هي عبارة عن كسوة من كتان وحزام جلدي وقبعة للاحتماء من الشمس. لكن كل ما سبق ليس هو الخارق للعادة.

ابتلع يوسف لقمة ملوخية قبل أن يتابع:

- يمكن للعمال أن يأتوا بزوجاتهم وأبنائهم. وهؤلاء أيضاً يمكنهم المساهمة في العمل مقابل أجر يناسب ما يقومون به.

- هذا السيد لا يفتقد الأصالة. بقي أن نعلم ما إذا كان الباشا سيقبل هذه البلبلة.

- عليه أن يقبل، عقبت جيوفانا. وهل ثمة ما هو أكثر إذلالاً من نظام العمل الشاق! منذ قرون وهم يجندون الفلاحين بالقوة ويسندون إليهم أشدّ الأعمال قسوة دون أن يتلقوا أي أجر. أنا أؤكد لكم أن هذا السيد أونفنتان، إن نجح في تغيير الأمور، سيجد فيّ مريدة جديدة.

قطبت شهرزاد حاجبيها.

- أنا لا أعرف شيئاً عن هؤلاء الناس، لكن الإشاعات التي تتداول في القاهرة من شأنها أن تصدم أكثر الأذهان تسامحاً. لا تتمتع النساء اللائي ترافقنهم بفضائل كبرى؛ فهن يعشن مع الرجال في اختلاط غريب. ويحكى بأنهن يبشرن بالحق في الطلاق.

- يسمّون هذا تحرر المرأة، قال يوسف. ليس الأمر، ربما، إلى تلك الدرجة من السوء.

قاطعه صوت ريكاردو.

- ستعلم يا ولدي بأن التحرير ليس لا أكثر ولا أقل من إخراج كائنات من سجن لحبسها بسرعة في سجن آخر. توجد النساء اليوم في حريم وغداً سيكوننّ في مصانع.

- قطع وصول الخادمة المحادثة. وبمجرد انصرافها واصل يوسف:
- كيفما كان الحال، فإن فلسفتهم لا تتضمن أموراً سلبية فقط. وإن حكمت انطلاقاً مما لاحظته على السانسيمونيات اللائي التقيت بهن أمكنني القول بأنهن محترمات.
أوقفت جيوفانا ملعقتها على حافة شفتيها.
- ماذا تقول؟ تعرفت على هؤلاء النساء؟
- نعم. كان ذلك منذ بضعة أسابيع بقنصلية فرنسا. كانت إحداهن، وتدعى كورين، مع صديقتها، ترغبان في أن يستقبلهما الدكتور كلوت.
- ما قضين بمصر بعدُ إلا هذا الوقت ومرضن؟ تساءل ماندرينو؟
- لا، لسن مريضات! شرح لي كلوت بأنهن يردن الاشتغال ممرضات أو مساعدات-معالجات. هن لا يطالبن حتى بأجر.
- هذا أمر مستحيل تماماً. التقاليد المصرية لا تسمح أبداً بهذا النوع من الأنشطة.
- هذا ما قاله لهم، أيضاً، الدكتور كلوت. وباقتراح منه، وافقن على حضور دروسه بالكلية.
- لكن بأية طريقة؟
- مقنّعات بأقنعة رجال!
جعلت الصورة شهرزاد تهتز.
- يوسف. أنت لست جاداً.
- سيؤكد لك ذلك كلوت.
- ما أعمار هؤلاء النسوة؟ سألت جيوفانا.
- إحداهن قد تكون في الخامسة والثلاثين تقريباً. أما كورين فأصغر بكثير. لا أعتقد أنها قد تجاوزت ربيعها الخامس والعشرين.
- هذا غريب، قالت بإهاب مشكك.
- هن مستعدات للعمل دون مقابل؟
- لا. أنت أشرت إلى لقائك بهاتين السيدتين، ومع ذلك فأنت لم تذكر، لمرتين، إلا اسماً واحداً: كورين.
احمرّت وجنتا يوسف.

- لا أدري ما قصدك....

* * *

- اقطعوا، سموكم! صاح فرديناند وهو يوجِّه سيف تدريبه نحو قلب سعيد.

التقف الفتى ضربة فرديناند وحاول من جهته، برشاقة مدهشة بالنظر إلى بدانته، توجيه ضربة سرعان ما اعترضها دي لسيبس.

كانت صلصلة السيفين، بقاعة الأسلحة الخالية، تختلط بتلاحق أنفاس الأمير الشاب. كان هذا الأخير - معتمراً قناعه ولابساً لباس المسايفة - يتصبب عرقاً، متميز الملامح، وهو يحاول تطبيق التعليمات الدقيقة لنائب القنصل.

- كن أكثر رشاقة يا سيدي! أكثر رشاقة.

دون أن يترك فرديناند لشريكه وقتاً لاسترجاع أنفاسه، قام بسلسلة أخرى من الهجمات بإيقاع جهنمي. ومن الغريب أن الأمير لم يكتف فقط بحسن مقاومة هذه الهجمات المتكررة، وإنما كان من الممكن ملاحظة أنه يعرب عن افتتان بالمبارزة

كان المتسايفان بحركاتهما الدقيقة يتنقلان على الأرضية الصارة تحتهما، وهما يقدمان، في بعض الأحيان، صورة راقصين ينفذان برنامج رقص متخيل.

عند نهاية آخر معركة، تمدد سعيد محاولاً، بإتقان، أن يوجّه ضربة لشريكه، لكنه فشل للأسف.

- ممتاز، سموكم! قال فرديناند مادحاً وهو يزيح قناعه. كنت رائعاً اليوم.

كشف سعيد وجهه بدوره.

- ممتاز؟ أنت تريد أن تقول لا يعتبر هذا ممتازاً! هذا مثير للحنق! لن أستطيع تسجيل أي نقطة عليك!

أزاح قفاز المسايفة وقذف به إلى الجهة الأخرى من القاعة.

- أنا على أي حال لا أتقن أي شيء...

جر قدميه وتهالك على كرسي مسنداً ظهره إلى الجدار محزون العينين.

اقترب لسيبس.

- أنتم مخطئون إذْ تفعلون هذا بنفسكم، سيدي. هل تعتقدون أنه

بالإمكان إتقان المسايفة من خلال عشرة دروس لا غير؟ أنا أصر على القول بأنكم قد حققتم تقدماً مدهشاً.

- أنت رجل طيب. . . لكن كل مدحك لن يصنع مني رجلاً رشيقاً. كان أبي صادقاً عندما شبهني بفرس النهر!

جلس فرديناند إلى جانبه.

- إنه مخطئ، تحديداً، في هذا التفصيل. الواقع أن الذي ما زلتم تفتقرون إليه هو امتلاك التقنية. البقية تأتي من تلقاء نفسها. بمجرد أن لا يبقى انتباه المسايف مركزاً على طريقة إصداره لحركاته يدرك تلك الرشاقة. آنذاك، كل رشاقته وكل قوته تتجمعان في سِن سيفه. سترون أنكم ستدركون، مع الوقت، هذه القدرة على التحكم.

- أسماء ضربات، وأسماء وضعيات. أنا أعتقد بأنني سأنتهي بأن أضيع بينها.

- سعادتكم، أنتم تريدون حرق المراحل، كما لو. . .

- كما لو كنت ضعيفاً في كل شيء. هذا كل ما في الأمر! أليس عليَّ أن أثبت لأبي كفاءتي في أمر ما؟

تمالك نفسه وهو يقول:

- اعذرني! مزاجي عدواني.

لم يجب لسيبس. اكتفى بأن أزاح ببطء قفازيه ووضعهما على ركبته.

سلط عليه سعيد نظرة فاحصة.

- أنت أيضاً، بكل تأكيد. . .

- عفواً، سيدي؟

- أقول بأنك أنت أيضاً تبدو عدواني المزاج.

- ما أوحى لكم بذلك؟

- لقد بدأت أعرفك، يا سيد دي لسيبس. أكاد أعرفك كما تعرفني.

مرر فرديناند أصابعه على قطعة الجلد التي تغشي القفازين.

- ربما أكون، بالفعل، معكر المزاج بعض الشيء.

- هل بإمكاني أن أعرف السبب؟

- لا تؤاخذوني، سموكم. يتعلق الأمر، لنقل. . . بخيبة أمل.

أنار شعاع متخابث بؤبؤي الأمير.
- أتكون خطيبتك قد تخلت عنك؟
بدا حنين على محيا فرديناند.
- بشكل ما...
- هذا ليس خطيراً.
قال مفخماً كلماته:
- أنت تعرف حال النساء! نقدّرهن ويخيّبن أملنا. هذا على أي حال ما يقوله والدي.
ثم أضاف بإهاب شيخ حكيم:
- ولا يستحق التقدير إلا الأبدي، والأبدي غير مرئي.
- دون شك، سيدي. أنتم على صواب. لكن ثمة أموراً يمكننا أن نحيلها مرئية وهي تحمل الخلود في ذاتها...
ستكون مصالح إنجلترا أكثر ولن يتمكنوا من التحكم في أنفسهم. فإما أنهم سيجعلون من أرض مصر حقلاً مسلحاً للدفاع عن إمبراطوريتهم، وإما أنهم سيستعملون الفيتو للاعتراض بكل شراسة على المشروع. فأنتم تعلمون أن لا مشروع يمكنه أن يخطو خطوة واحدة دون مساندة حكومة إنجلترا.
عبر طيف وصورة محمد علي، في رمشة عين، ذاكرة فرديناند.
انحنى بحيوية مفاجئة نحو الأمير.
- أتدرون ما الذي أستشعر الرغبة فيه فجأة؟
أجاب سعيد بالنفي.
- ألا تخمنون؟
- لا، كرر الأمير.
رفع فرديناند ذراعيه وقال بصوت منخفض:
- المكارونا... سيدي. أعتقد أن هذه الوجبة يمكنها أن تذهب أشدّ الخيبات قسوة!
حرك سعيد رأسه وكأنه عالم جليل.
- أعتقد أنك على صواب يا فرديناند.

الفصل الخامس والعشرون

الجيزة، إقامة الصباح، يناير ١٨٣٤.

أنهت شهرزاد بحركة دقيقة تزيين عينيها بعود الكحل الصغير، ثم وضعته في صندوق الأصباغ ومالت برأسها قليلاً إلى الوراء مستطلعة إن كان وجهها قد أضحى في كامل زينته. عكست لها المرآة صورة مترعة حنيناً.

خمس وخمسون سنة... تأملت تجاعيدها المتجمعة حول حافتي شفتيها مثلما يتأمل مراقبٌ آثارَ رياح على المشهد. تعرفتها بسرعة، بل لقد حفظتها عن ظهر قلب من فرط ما تأملتها. تعرفت أيضاً أولى انكماشات جلد عنقها. ومنذ مدة قصيرة كانت قد كفت عن أن تخفي بالحناء الخصلات الرمادية التي بدأت تتخلل شعرها الأسود الطويل، مقتنعة بأن لا فائدة من مخاتلة الزمن. إن كانت ملامحها ما تزال جميلة وبسمتها متهللة، وإن كانت طراوة سحنتها تبقيها دائماً مشتهاة، فإنها لم تكن تستطيع منع نفسها من أن تقول بأن ذلك ليس أكثر من بقايا شباب ولَّى

- شهرزاد...

ارتعشت. انتزعها حضور ريكاردو من تأملها. اقترب منها وأمسك بكتفيها ثم قادها إلى النافذة.

- أنظري...

كانت الأهرام المتكئة على الأفق تبدو منفصلة بعضها عن بعض بفعل أشعة الشمس، وتعطي الانطباع بأنها سفن شراعية عملاقة مندفعة في الرمال بين الكثبان. وكانت قافلة جمال تمشي، خطّاً واحداً، مع النسيم نحو الشرق.

- هل يمكننا أن نحلم بمنظر أجمل من منظر شروق الشمس في الصحراء؟

تملّته مبتسمة.

- أتكون قد أصبحت، فجأة، ذا روح رعوية، يا سيد مندرينو؟

- ربما. ويمكن أيضاً أن أكون قد أصبحت أتذوق أكثر من الماضي كل يوم جديد، كما لو...

صمت فجأة وأصبح لون حدقتيه قريباً من لون الفجر الأكمد.

- ماذا دهاك؟

- لا شيء. لقد قلتها لتوك: لي روح رعوية.

ودون مقدمات أمسك بوجه شهرزاد بين كفيه.

- أما تزالين تذكرين أول يوم التقينا فيه؟

لم تتردد البتة.

- كان يوم جمعة. يوم ٨ أكتوبر ١٨٠١.

كانت قد قدمتنا لبعضنا تلك السيدة...

- الست نفيسة. كانت قد قضت يومها بمزرعة الزهور وكنت أنت أتيت لتأخذها.

قلدت طريقة تقديم السيدة نفيسة:

- ريكاردو ماندرينو... شهرزاد ابنة شديد.

عقّب هو بالطريقة نفسها:

- متشرف، سيدتي العزيزة. حدثتني السيدة نفيسة عن جمالك، لكنني أعترف بأن إطراءها كان أقل بكثير من الحقيقة...

شرع يضحك.

- أية عبارة مبالغ فيها، هي!

- لأنك لم تصدق منها كلمة واحدة؟

- بالعكس. لكن لنعترف بأنه كان بإمكاني أن أجد طريقة أخرى للاقتراب منك. غير أنني اليوم، وبعد ثلاثين سنة، أقول لنفسي بأنني لم أكن قط، مثلما كنت آنذاك، قريباً من الحقيقة.

مسد شعر شهرزاد.

- أنت جميلة. لم يسبق لك أن كنت بهذا الجمال.

- أنت عملياً، يا ريكاردو ماندرينو، لن تكف أبداً عن مفاجأتي. كان

اليأس، قبل مجيئك، شارعاً في الاستيلاء عليّ أمام المرآة، وكنت ألعن في داخلي الآلهة على أن تكون بهذا الظلم في حق النساء.

- أترين! نخطئ دائماً عندما نتراجع عن حكمنا في حق الآلهة.

انفصل عنها.

- علينا أن لا نتأخر. من المنتظر أن ينطلق الحفل على الساعة السادسة مساء، وأمامنا طريق طويل.

- دقائق وأكون جاهزة.

- أذهب لأتأكد من أن جيوفانا جاهزة والعربة معدة. أقول لك، بيننا، بأنني أفضل عدم حضور هذه الأنشطة، لكن كيف كان بإمكاني أن أرفض في حين سيحضر حتى الفلاحون؟

- لن يتفهم الباشا غيابنا، ولا إبراهيم أيضاً.

- هذا مؤكد.

تنهد.

- وغداً سينتظروننا في حفل تدشين ورش السد.

- نعم، لكن بالنسبة لهذه المناسبة، أنا أصر على الحضور، من أجل يوسف.

- أفهم ذلك. اطمئني، ليست لدي نية التخلف.

ثم أعلن فجأة:

- شهرزاد. سأنسحب من العمل.

تأملته متفاجئة.

- ظلت الفكرة تنضج في ذهني لبعض الوقت. لقد تعبت من التبعية للقصر وتعبت من أن أعيش متوجساً متسائلاً عن المهمة المقبلة التي ستسند إليّ. ستظل صداقتي لمحمد علي قائمة، بل ستكون أقوى مما مضى، لكن الوقت حان كي أفكر قليلاً في نفسي، كي أفكر فينا.

- هل حادثت صاحب الجلالة في الأمر؟

- ليس بعد؛ لكنني لن أتأخر في محادثته مع أول فرصة تسنح.

- سيكون تأثير ذلك عليه أكثر من تأثير ضربة زلزال. هل أنت واعٍ بذلك؟

- أنا بالأحرى واعٍ بأن لا أحد يفوق الآخرين. كل شخص يمكن تعويضه

بآخر. ورجال مثل بوغسيان وأدهم وأرتين وسيريسي وأيضاً الكولونيل سيف؛ كلهم أشخاص أصحاب قيمة كبيرة. سيجيدون أحسن مني الوقوف إلى جانب الباشا وتقديم النصح له.

- هذه أيضاً هي قناعتي. لكن علينا أيضاً أن نعلم بأن العلاقات التي أقمتها معه حتى الآن هي علاقة استثنائية. لم تكن الثقة وحدها هي التي تربط بينكما؛ محمد علي وأنت. كانت ثمة أيضاً محبة حقيقية.

- سبق أن قلت لك بأن صداقتي له دائمة. وسأنصت إليه دائماً. فقط، ما عاد مجالٌ كي أغادر إلى أي مكان كان.

ثم أضاف دفعة واحدة وبصوت خفيض:

- أنا لا أعرف كم سنة بقيت من عمري...

وضعت بسرعة إصبعاً على شفتيه.

- أمنعك من الحديث عن هذه الأمور!

- غير أن الأمر ضروري، ما دام هو سبب قراري..

أشار إلى المشهد المتوهج عبر النافذة.

- أنا أريد أن أستمتع بلحظات مثل هذه، ولا يمكنني أن أفعل ذلك إلا إن كنت بجانبك، هنا، بالصباح. الآن أعرف أن السفر إلى قوتاهية كان حماقة.

ظلت صامتة. كيف تعبّر له عن الارتياح العميق الذي تستشعره؟ أرادت ألف مرة، منذ أن عثر أحدهما على الآخر، أن تطلب منه التوقف عن الترحال، لكنها لم تجرؤ يوماً على التلفظ بالكلمات، مسكونة دائماً بفكرة القبض على الزمن الضائع. كان ذلك، بالتأكيد، هو سبب عدم اعتراضها البتة على اضطلاعه ثانية بوظائفه إلى جانب نائب السلطان، وهو سبب مرافقتها له إلى تركيا. ظلت مسكونة دائماً، منذ عودتها من نفران، بهذه الفكرة: لقد أعطاها أكثر مما أعطاها أي رجل آخر. هل عرفت على الأقل كيف ترد له ولو جزءاً يسيراً مما قدمه لها؟

كان ثمة ذلك الحكم القاسي لجيوفانا...

أنت تستغلين هشاشة أبي كي تحتفظي به تحت سيطرتك. أنت، في العمق، تستمدين قوّتك من ضعفه.

* * *

كانت القاهرة، مع ميل الشمس نحو المغيب، تتوهج تحت آلاف الزغاريد التي تطلقها أصوات النساء الحادة. كانت المدينة، من قمة المقطم إلى غاية نهاية بولاق، ترفل في الموسيقى والابتهاج. مرق بدويون من الصحراء قاطعين، بتخييل فائق السرعة، القصبةَ تحت الصراخ والتشجيعات. كان الفرسان يتنافسون في إقدامهم، وهم واقفون على جيادهم الأصيلة، أذرعهم مفتوحة أو واقفون على الركاب، مانحين سعادة كبرى للجمهور الغفير.

أقمشة متعددة الألوان تعلو الأزقة، وفي النوافذ تعتمل مناديل. كانت نساء قد غادرن حتى الحريم وأتين ليعربن عن إعجابهن.

- إبراهيم! إبراهيم! الله معك.

كان هازم الأتراك والمنتصر في سانت جان دارك وفاتح قوتاهية وجبال التوروس يتقدم على رأس جيشه، ممتطياً فرساً شركسياً رائعاً. وكان أبوه، من فوق الأسوار، محاطاً بالأعيان، ينظر إليه.

لم يكن يظهر على محمد علي أيّ انفعال. لم تكن عيناه ترفان، فقط كان يشعر بفخر كبير.

سأل شهرزاد وريكاردو:

- ألا توجد لديكم، أنتم المسيحيين، جملة من المفترض أن الله تلفظ بها وهو يتحدث عن ابنه؟ لقد قيلت لي ذات يوم لكنني ما عدت أتذكرها.

تبادل الزوجان نظرة حائرة.

- لا سيدي، لا أدري، قال ماندرينو.

- ريكاردو بيك، كنت أشك دائماً بأنك وثني بعض الشيء. لكن أن تكون زوجتك كذلك، أيضاً، فذلك ما يصدمني. ألا تهتم بالكتب السماوية؟ أنا متأكد أن هذه الجملة موجودة.

- سيدي، قالت جيوفانا، أنا أعرفها.

رمقها محمد علي بنظرة حذرة.

- أنا أنصت إليك...

رتلت ببطء:

- هذا هو ابني المحبوب الذي أودعته كل ثقتي.

دارت حدقتا العاهل تحت جفنيه.

- جيد، يا ابنة ماندرينو. . . هذا يعوض قليلاً وقاحتك السابقة.

تملى ريكاردو وجه ابنته مفاجأ، لكنه لم يصدر أي تعليق.

اختفى الموكب لتوه خلف آخر أسوار قلعة بابل التي تفضي إلى حي القاهرة العتيقة. استغلت جيوفانا الفرصة كي تتفحص الناس حولها. قفز بصرها على الوزراء والقناصلة والعلماء كي يستقر على رجل وامرأة على يمين نائب السلطان. لم يكن يظهر من المرأة المحتجبة كلياً في ثوب موصلي أبيض سوى العينين المكحلتين. أما الرجل، فرغم أنه يبدو فقط في العشرين من عمره، فيبدو رخواً، ذقنه مزدوج ولونه ميال إلى الرمادي. لكن ما كان ينضح منه هو المحير. كان من الصعب القول ما إذا كان الأمر يتعلق بصلف أو بقسوة.

سألت جيوفانا أباها خلسة:

- من هذان؟

- هو؛ عباس حفيد صاحب الجلالة؛ وهي ابنته البكر نازلة هانم، وتلقب بالأميرة الكبرى.

- وسعيد؟ كيف لا يكون حاضراً اليوم؟

- أعتقد أنني قد أخبرتك من قبل. سعيد أُرسل إلى فرنسا كي يتابع دراسته. أبحر أمس على متن «المحروسة».

- كان الأمر جدياً إذن؟

عندما تذكرت الشاب شعرت بوخز في قلبها. تراءى لها متعباً منثنياً يحاول، بطريقة تدعو إلى الشفقة، تسلق الصاري. تمنت أن يكون سعيداً في هذه اللحظة.

وصل الموكب لتوه إلى مدخل القلعة. بعد قليل، سيجتاز إبراهيم العتبة، وكما جرت العادة بذلك، سيترجل وسيتقدم للسلام على أبيه.

كانت كورين شديد وحيدة وسط الحشود وهي تصفق بقوة، جاهلة كل شيء أو تكاد، عن هذا الجنرال. شرحوا لها فقط أنه ابن نائب السلطان وأنه يعود رافلاً في المجد. هي في الحقيقة كانت فقط تعرب عن سعادتها بمغادرة الاسكندرية وبالاستقبال الحار الذي خصتها به عائلة الدكتور دو ساب. كان كلوت على حق عندما قال بأنهم أناس رائعون.

* * *

كانت المأدبة قد أشرفت على نهايتها، غير أن الخدم، في قاعة الطعام، كانوا ما يزالون في حركة دائبة، يأتون بمشروبات منعشة وبالقهوة والمرطبات.

كانت جيوفانا غير راضية على أن وضَعَها قدرُها قبالة الرجل الشاب ذي الملامح المرتخية. على يساره يجلس الكولونيل سيف وأبعدَ، يجلس فرديناند دي لسيبس وميموت. كان عدد الفرنسيين يقارب عدد المصريين؛ فحول الكولونيل وحده كان يجلس ماري وكادو ودوميرج وكيسون. كان حاضراً أيضاً سيريزي والدكتور كلوت وليفرون الذي كان قد قام، منذ بضع سنوات، بدور وسيط نائب السلطان لبناء فرقاطة بأوروبا، وبوسون الذي رقي لرتبة نائب أميرال، والدكتور دو ساب المكلف، منذ زمن قصير، بخدمة الصحة العسكرية، وآخرون. لكن الضيف الذي لم يكن أحد ينتظر حضوره هو شارل لامبرت. لم يُستَدع أونفنتان ولا فورييل ولا أي فرد من أفراد المجموعة. لا شك أنه قد استفاد من وساطة لينانت الذي كان يشتغل إلى جانبه في إقامة تصاميم وتخطيطات السد الذي سيقام على الدلتا.

- ماندرينو! قال الدكتور سيف، أتدري أن ابنتك شديدة الشبه بك؟

- كيف لا وهي ابنتي؟

وأعتقد أنها قد ورثت عن أمها أخلاقها العالية.

- خطأ! قال نائب السلطان. لم ترث عنها إلا السلبيات.

- ألست قاسياً في كلامك، سيدي! عقّب سيف بأدب.

- أنتم، أيها الكولونيل، تدخل شهرزاد، الذي تعرفون جيداً صاحب الجلالة، من المفترض أنكم تعرفون بأن قسوته ليست في الغالب سوى إعراب عن حب.

التفتت نحو محمد علي.

- ألست على صواب، سموكم؟

كان كل جواب الباشا أن أغطس يده في سلة عنب.

- أنا أتذكر، سيدتي، قال سيف، توقفكم منذ سبع سنوات بإيبيدور عندما كنت منخرطة في ذلك البحث المستحيل. لقد نجحت حيث كان الجميع يرى أنك ستفشلين. لم تسنح لي الفرصة يوماً كي أقول لك ذلك، لكنك نلت إعجابي.

- صديقي سيف محق، قال إبراهيم. لم يثنك عن عزمك لا أسطورة اكسليبيوس ولا الخوف من الفشل.

ثم وجَّه الخطاب بتلقائية إلى جيوفانا:

- لك فعلاً أم استثنائية.

- بالطبع، سيدي. وكما قال صاحب الجلالة، فأنا لست سوى نسخة شاحبة منها.

ثم افتعلت بعض الابتهاج، لكنه كان واضحاً أنها لا تمزح.

- لا يا آنسة، قال سيف. صاحب الجلالة إنما يناوشك. أنا لا أصدق كلمة واحدة مما يقول.

- ومع ذلك، فتلك هي الحقيقة، يا كولونيل. فأمي، كما لاحظت، عن حق، تنجح حيث يرى الجميع أنها ستفشل. أما بالنسبة إليّ، فالعكس هو الصحيح. هل تعون مقدار معاناتي؟

التفتت نحو شهرزاد.

- أليس كذلك يا أماه؟

- كل ما يمكنني أن أجيبك به، عزيزتي، هو أن كل من يحمل في أعماق روحه رغبة في المعاناة ينتهي بأن يخلق فرصاً كي يعاني. وكما هو معروف، المعاناة هي جنة الحمقى.

ثم واصلت على الفور موجهة الحديث إلى سيف:

- ما إحساسكم يا كولونيل وأنتم تجدون أنفسكم بالقاهرة بعد كل هذه السنوات من الغياب؟

- سعادة حقيقية، سيدتي. لا سوريا ولا موري استطاعتا تعويض فقد مصر. وإذا كنت فخوراً بالمحاربة إلى جانب الأمير، وإذا كان كل نصر يغمرني سعادة، فإنني كنت أفتقد الأشخاص الأعزاء. كنت أستعجل لقاءهم.

توقف للحظة.

- بالمناسبة، سأقيم في الأسبوع المقبل، استقبالاً بمسكني. هل ستشرفونني بحضوركم؟

شكره ماندرينو بلطف.

- هذا لطيف من جانبكم، كولونيل، لكنني لا أدري إن كان وقتي سيسمح بذلك.

ألح سيف.

- ستقام الأمسية على شرف سمو الأمير. ابذلوا مجهوداً. نحن نعول فعلاً على حضوركم وعلى حضور زوجتكم، طبعاً.

- وأنا؟ قالت جيوفانا فجأة.

تنحنح الكولونيل.

- بالطبع، يا آنسة. أنت مرحب بك أيضاً.

- اطمئنوا لن أقلد أحداً؛ فأنا أعرف تماماً كيف أتصرف أثناء مناسبات اجتماعية مثل هذه.

كان رد فعل ريكاردو فورياً.

- ما تزالين في حاجة، طبعاً، لأن تتعلمي أموراً كثيرة. وأولها أن تتعلمي كيف تقعدين ثابتة في مكانك.

التفتت الفتاة بعنف نحو أبيها. كانت على وشك أن تعقب، لكن ما قرأته على محياه جعلها تحجم. غضبٌ متَحَكّم فيه غير أنه مهدِّدٌ بشكل رهيب.

لحسن الحظ، أنقذ الموقف الرجل الشاب ذو القسمات الرخوة.

- قل لي، كولونيل سليمان، أتصور أن عدداً من مواطنيك سيكونون حاضرين خلال حفل الاستقبال هذا؟

كان قد أتقن مخاطبة سيف باسمه العربي.

- بالطبع، يا عباس بيك.

تحرك الشاب في مقعده حركة لا احترام فيها وقال بنوع من الجفاف:

- ربما استطعت، إذن، أن تعيدهم إلى رشدهم حتى يكفوا عن استغلال ما يتمتعون به من امتيازات.

بدا سيف مبلبلاً.

- أتظنون أنهم يستغلونها إلى تلك الدرجة؟

مط حفيد محمد علي شفتيه بطريقة غامضة.

- أوه... هي إشاعات تروج هنا وهناك.

- أتعرفون ما الذي يقولونه عن الإشاعات؟ الإشاعة تقترب، والصدى يعيد ترديدها، ولا أغبى من صدىً.

هل شعر الشاب بالسهم الذي وجّهه إليه الفرنسي أم فضّل تجاهله. اكتفى بأن رفع ذقنه وانطوى في صمته.

خفّت حدة التوتر ومرت بقية الأمسية في جو هادئ. حاولت شهرزاد، مرات متعددة، أن تثير انتباهها، لكنها ما عادت ترفع بصرها عن صحنها منذ الحادثة.

عندما قُدِّمت آخر قهوة انتصب محمد علي واقفاً.

- تعالوا! قال لضيوفه. قاذفو الشهب الاصطناعية يكادون يثقبون سماء القاهرة احتفاءً بولدي!

بعد لحظة، كان كل المدعوين على السطيحة.

أحاط العاهل كتفي ابنه ابراهيم بحنان.

- انظر يا ولدي... هذه المدينة ملك لك. وغداً سيكون دور مصر كلها.

بمجرد إنهائه للجملة شرعت الشهب الاصطناعية تفرقع في السماء، وسرعان ما خبا ضوء النجوم أمام الأضواء الساطعة للشهب متعددة الألوان.

* * *

عبّ محمد علي، في صالون القلعة، من الشيشة، وقال بصوت حزين:

- عاد ولدي يا ريكاردو واحتفظت بالأراضي التي فتحتها. كان من المفترض أن أفرح بذلك، لكنني لا أستطيع.

رغم الساعة المتأخرة، كان قد قاد الفينيسي إلى مأواه الخاص. بعد لحظات التحق بهما إبراهيم.

جلسوا ثلاثتهم، أرجلهم مثنية تحتهم حول مائدة واطئة عليها صينية من فضة. وفي زاوية، قرب النافذة، كانت مبخرة ما تزال تُصعِد دخاناً يعطر الجو برائحة المسك.

- لا أستطيع أن أسعد لأن الحمل الموضوع على كتفي المتقدمتين في السن سيصبح أثقل من أن يحتمل.

- أنتم، سيدي، في السادسة والستين من عمركم، وأنا في التاسعة والستين.

- نعم، لكنك لست على رأس إمبراطورية.

- تحدثتم عن الحمل الذي يحط على كاهلكم، لكن متى أصبحت الانتصارات أثقالاً؟

مدّ الباشا أنبوب الغليون الطويل إلى ولده.

- قل له يا لإبراهيم. اشرح له في أية وضعية توجد مصر الآن.

- منذ ثلاثين سنة ونحن نوجه مواردنا البشرية والمالية للجيش وللبحرية. ثلاثون سنة من الحروب. هذه الحرب الطويلة ضد الباب أو باسمها قوضت ازدهارنا. وإذا ما استمرت هذه الظروف فإن الكنز سيفنى في غضون عام. في ذمتنا اليوم ثلاثة أشهر من أجرة الجيش، وليس ذلك كل شيء؛ يكفي تأمل الخارطة: تمتد الإمبراطورية المصرية من مصر إلى آسيا الصغرى. أية أمة تستطيع المنافحة عن أرض بهذه الشساعة وعن حدود بهذا الامتداد والاحتفاظ فيها بجيش مستعد دائماً للقتال؟

- في هذه الحال، لا خيار لك ولا لأبيك.

- أعرف! قال محمد علي. عليَّ أن أتحلى بكل شجاعتي وأن أعلن استقلال مصر.

- تماماً، جلالتكم.

- كما أن علينا، فضلاً عن ذلك، أن نأخذ بعين الاعتبار عنصراً جديداً لم نتوقعه. فقد وُلِدَ شعور وطني مصري، منذ مدة قصيرة، وبدأ يأخذ شكلاً ملموساً؛ فبالأمس فقط، استقبل والدي ممثلين للعلماء أتوا ليخطروه بنفاد صبرهم وبمساندتهم له. خطوتهم هذه تصبح ذات شأن عندما نعلم بأن أساتذة القانون هؤلاء كانوا يعارضون، في الغالب، ما نقدم عليه من إجراءات.

- بالتأكيد. وإذا ما تجاهلتم هؤلاء المواطنين فإنكم قد تتعرضون لنقدهم.

تملى محمد علي.

- أنتم، يا صاحب الجلالة، عندما ستعلنون استقلالكم، ستكونون منادين بحقكم الصرف. ألم تكن اليونان أيضاً محافظة عثمانية؟ اليونان اليوم بلد حر. ألم تكن للسلطان الحقوق نفسها في الجزائر؟ ومع ذلك تجاهل الملك لويس

فيليب، منذ نزول الفرنسيين في هذا البلد، تسلط الباب على هذا البلد، وأصبحت الجزائر أرضاً فرنسية. لماذا ستعارض القوى العظمى قراراً له كل ما يبرره؟

- لماذا؟ لا تدَّعي أنك لا تعرف يا ريكاردو! أنت تعرف مثلي تماماً أن ثمة عائقاً كبيراً، عنيداً، وهو، تحديداً، موافقة القوى العظمى! كان العالم، في كل الأزمنة، محكوماً من قبل مجموعة من البلدان تقرر في الأخلاق الكونية. وحسب ما تقتضيه مصالحها تصرح ذات صباح بأن هذا الأمر مشرف، وهو الأمر نفسه الذي كان بالأمس مذموماً!

- تصرفوا، إذن، على ضوء ذلك، سيدي.

دعم إبراهيم ريكاردو.

- أعلم أننا لن نعرف أبداً وضعية أكثر ملاءمة من الوضعية التي نعيشها اليوم. توجد جيوشنا على بعد أميال من اسطنبول ونحن سادة سوريا والسودان والعربية. لُقِّبُوا، بوصفكم فاتحاً، باللقب الذي يناسب هذه الوضعية، وضعوا بيد ثابتة التاج على رأسكم! وأؤكد لكم أن لا السيف ولا الدبلوماسية، آنذاك، ستؤاخذكم على ذلك.

شرع محمد علي يتنفس بعمق مرات متعددة، حتى ما عاد يُسمَع في الصالون إلا نفسه المخنوق بعض الشيء.

- سأبدأ بإرسال طلب مكتوب إلى القوى العظمى. بعد ذلك سأجس نبضهم.

- اعذرني، سيدي، لكن ذلك سيكون من قبيل الخطأ الفاحش. إن اتكالكم على المفاوضات عوض الجرأة سيحيل نجاحكم مستحيلاً؛ حتى ولو كانت كل حجج الدنيا في مصلحتكم. ابنكم على صواب. اسمحوا لي بأن أستشهد بهذه الجملة من اتجاه فلسفي: «ما ترفضون قبوله في اللحظة، لا يعيده الأزل أبداً.»

لم يجب العاهل. كان يبدو أن معركة محتدمة تدور داخله.

- ماندرينو بيك، أنا متأكد تماماً من حقي إلى درجة أنني إن لم أعلن استقلالي في هذه الدنيا فإنني سأعلنه في الآخرة.

الفصل السادس والعشرون

حاولت جيوفانا، وهي تدفن رأسها بين الوسائد، أن تتحكم في الانتحاب الذي يهز جسدها. لو كانت فقط تملك شجاعةَ أن تموت؛ لو لم يكن الموت يوقظ فيها الرعب نفسه الذي يوقظه في أبيها، لكانت قد توجهت بفرح نحو العدم.

أي جنّي يسكنها حتى تعرب، فجأة، عن تلك الرغبة المنبعثة من أحشائها في عض كل الذين يحيطون بها؟ ما يزال دائماً ذلك الجزء الآخر منها هو الذي يتحكم فيها. مستبدٌّ أعمى يقرر بفظاظة أن يتصرف وأن يحرك جيوشه، التي تجد نفسها أمامها مجردة من أي سلاح. لم يعد من قلبها، بعد أن اجتِيحَ، سوى الرماد.

غير أنها حاولت، مع ذلك، تكميم الوحش. بل لقد خالت أنها قد استطاعت الانتصار عليه منذ تلك الأيام التي قضتها بمزرعة الزهور. لكن ها قد أصبح كل شيء في حاجة لأن يعاد من جديد. من المفترض أنها تنتمي لتلك الكائنات التي أودعت بها الطبيعة من الشر أكثر مما أودعت من الخير.

هذا هو ابني المحبوب الذي أودعته كل ثقتي... ليست الصدفة هي ما جعلها تتذكر هذه الجملة؛ وعلى أي حال فهي الجملة الوحيدة من الإنجيل التي يمكنها أن تسردها اعتماداً على ذاكرتها. كانت قد قرأتها لأول مرة، خلال درس في العقيدة عندما كان عمرها بالكاد أحد عشر عاماً. منذئذ ما حلمت إلا بأن يقول لها أبوها هذه الكلمات. غفا هذا الأمل فيها، خلال كل تلك السنوات الماضية، إلى أن أتى قرار ريكاردو بتمكينها من مفاتيح مزرعة الزهور ليحيل هذا الحكم ممكن التحقق.

لكن الأحلام هشة لا تحتمل الخيانة.

بدأت تضرب الوسائد بهياج. انفرجت شفتاها. كانت تشعر في أعماق أحشائها بصرخة تصعد؛ بصرخة حيوان مجروح. كانت وحيدة بالمنزل. أهملوها جميعاً كي يتوجهوا لحضور حفل تدشين السد. لم يكن يسمعها أحد. انتصبت فوق سريرها مستعدة لإطلاق الصرخة، لكنها ظلت فاغرة فاها مثل غريقة يعوزها الهواء.

* * *

كان ورش السد قد أنشئ في مركز المنطقة المسماة «بطن البقرة»، بقيادة لينانت ويوسف ومساعديهما السانسيمونيين. كانت الخيام قد أصبحت تشكل قرية صغيرة من الثوب تلقي بظلالها المهتزة على طول مدِّ النباتات وشجر النخيل. وعلى بعد خطوات منها كان النهر الإله يواصل مجراه غير عابئ تماماً بذهاب وجيئة الكائنات الإنسانية. أيعتقد هؤلاء الفانون بأنهم قادرون على ترويض ما لا يروض؟

اليوم يوم ابتهاج لأن الحجر الأساس لمدرسة المهندسين كان سيوضع. أتت ذهبية فاتنة في زينتها بالرسميين الذين من بينهم الكولونيل سيف مصحوباً بأدهم بيك ممثل نائب السلطان وفرديناند دي لسيبس وريكاردو وشهرزاد.

احتلت الصدارة، على المائدة النصوبة وسط المخيم، خمور بورغوني وبروفونس والشامبانيا؛ هدية القنصلية الفرنسية. طيور تشوى على النار، وتحت ظُلَّة تعزف فرقة عربية قطعة موسيقية تشبه إلى حد ما نشيد مارسيليا.

- تهانئي، أيها السيد أونفنتان. حفلكم هذا نجاح باهر.

قطع زعيم السانسيمونيين حديثه مع لينانت كي يشكر من أطرى عليه.

- أنا سعيد أن ينال إعجابكم يا أدهم بيك. إنه ليوم عظيم.

- يقول لكم صاحب الجلالة بأنه آسف على عدم استطاعته الانضمام إلينا، لكن أمور الدولة... أنتم تفهمون طبعاً.

بالطبع. لكنهم معنا، وعبركم نستقبل بعضاً من صاحب الجلالة.

بدا أدهم متأثراً بالاستعارة. واصل لينانت:

- اعذرني. أنا أعرف أن الوقت ليست وقت محادثات جدية، لكن هل

يمكنك أن تخبرنا إن كان ثمة جديد بخصوص الاقتراحات التي أرسلناها إليكم؟

ثم سارع بأن أضاف:

- أطمئنكم يا أدهم بيك بأن التعديلات التي يقترحها السيد أونفنتان تناسب الجميع وتحيل صورة صاحب الجلالة صورة مكللة بالمجد.

مط ممثل نائب السلطان شفتيه منزعجاً.

- إن ما تطلبونه منا مستحيل. لقد قرأت تقريرك بإمعان. هو، بالتأكيد، حافل بالنوايا الحسنة، لكن لا يمكننا أن نبلبل، بين عشية وضحاها، تقاليد هذا البلد.

- نحن، يا أدهم بيك، نحترم التقاليد. فهي روح الأمة. لكن لا تلوموني إن قلت بأن نظام الأعمال الشاقة هو نظام غير إنساني، وفي جميع الأحوال، لا معنى له. إننا إذْ نلتمس بأن تقدم للعمال تعويضات وإذْ نريد أن يأكلوا بشكل مناسب وأن يُستعمل جنودٌ عوض فلاحين أشقياء ينتزعون من حقولهم ومن أسرهم؛ إنما نقدم مطالب تنبني على احترام أبسط الشروط الإنسانية.

دعم لينانت زعيمَ السانسيمونيين:

- أعتقد صادقاً بأن السيد أونفنتان على صواب. ألا يمكنكم إعادة النظر في قراركم؟

بدا أدهم بيك مضايقاً.

- سأحاول يا سيد دي بلفاند. لكنني لا أعدك بشيء. وبالمقابل، فقد تحدثت إلى نائب السلطان عن المساكن المبنية وعن مستشفى الورش، ولم يبد حولهما اعتراضاً.

- ها هي ذي إذن خطوة إيجابية أولى. أشكرك من كل قلبي.

- لكن فكروا مع ذلك في الباقي، ألح لينانت. أؤكد لكم أن هذه التعديلات ستضاعف فعالية الأشغال.

تلفّظ أدهم بيك ببعض كلمات موافقة.

- عليَّ الآن أن أغادركم. أذهب لتهنئة الكولونيل سيف. لا أدري إن كنتم على علم بأن صاحب الجلالة قد قلده لتوه لقب باشا.

عندما كان أدهم بيك يبتعد، قال أونفنتان ببعض الحزن:

- ومع ذلك، فالأمر مؤسف.

- هيا! لا تدع نفسك تهزم! سننتهي بأن نجعل قضيتنا تنتصر. سيلغى نظام الأشغال الشاقة عاجلاً أم آجلاً.

- ليس هذا هو المشكلة.

أشار إلى الورش.

- أنا فخور بأن أساهم في هذه المغامرة. لكنني أقول لنفسي، في الآن ذاته، بأن مشروعاً آخر كان بإمكانه أن يستفيد من هذا التنظيم الجيد.

- القناة... ما تزال تفكر فيها.

- نعم يا لينانت؛ وأكثر من أي وقت مضى. سأذيع لك سراً: قلت لنائب السلطان طلباً بإذنٍ للذهاب إلى القناة مع بعض من رفاقي. وقد وعد سيف بتمكيننا من الخيام والمؤونة التي ستحتاج إليها البعثة.

بدا لينانت مفاجأ.

- الكولونيل؟ كيف حصل ذلك؟

- تصور أنه يكنّ تقديراً كبيراً لمجموعتنا، وأنه قد قرر من تلقاء نفسه مد يد العون لنا.

- على أي حال، أنتم قد استملتم أناساً كثيرين بمصر: سيف وميموت ولسيبس وأنا نفسي طبعاً... أعتقد أنكم ما كنتم تطمحون لمثل هذا.

قال أونفنتان وكأنه يواصل فكرة:

- سأصدمك. إنني لا أرى في هذا السد رغم أهميته، العملَ الصناعي الذي سيكون له الأثر البالغ على العالم كما كان الشأن بالنسبة للمعارك الكبرى التي خاضها الإسكندر أو القيصر أو نابليون.

- ربما كنت محقاً، لكن يجب النظر إلى السد على أنه الخطوة الأولى.

- خطة عملاقة؛ أعترف بذلك، لكنها لا تسجل على «الطريق الأعظم للمجد الصناعي». للسد ميزة أنانية؛ ميزة وطنية صرفة.

صمت للحظة.

- هل يعتبر محمد علي منذوراً لأن يُثَبِّت في الكون ذلك المجد العظيم المرتبط بشن معارك ضد عناصر الطبيعة؟ بدأت أشك في ذلك. وبالمقابل، فإن ما أنا متأكد منه هو أنه يهيئ لمقْدَم هذا المجد بشكل أقوى من أي عاهل

آخر. لقد أتيت إلى مصر لأن هذا الاقتناع كان حاصلاً لدي عندما كنت في فرنسا، فأصبحت متطوعاً في جيش هذا المهيِّئ الكبير للمجد السلمي.

- وهو موقف يشرفك، السيد أونفنتان. وكي نعود إلى القناة، فإنني لم أفقد الثقة كلية في مستقبلها. أنا متأكد من أن المشروع سيرى النور عاجلاً أم آجلاً.

- إن شاء الله... وفي كل الأحوال، ومهما يكن، فسأقاوم في هذا الاتجاه ضد كل العوائق وكل المشككين.

خطا خطوات في اتجاه المنصات حيث تجمع الكل.

- هيا يا صديقي! لنلتحق بالآخرين.

* * *

- أقدم لكما السيد أونفنتان، خاطب يوسف أبويه.

- سيدتي العزيزة، أقول لكم على الفور بأنني أتشرف كثيراً بمقابلة أمٍّ شاب بهذه المواهب.

ثم انحنى بعد ذلك أمام ماندرينو.

- تحدث لي السيد دي لسيبس عنكم وعن التأثير الذي تحظون به لدى صاحب الجلالة.

- لقد بالغ نائب القنصل كثيراً. إننا لا نؤثر إلا على الكائنات الهشة، وهو ما يعد، كما لا تشكون في ذلك، بعيداً كل البعد عن محمد علي.

- بالطبع. لكنني متأكد من أنه يعرف كيف يقدر حكمة نصائحكم.

- كنت أود أن لو كان لي تأثير والدي نفسه، قال يوسف. لكنت، آنذاك، أفلحت في جعل الباشا يلعب ورقة القناة.

- ربما أصبح الوقت في مصلحتنا. لقد جعلني السيد دي بلفاند ألاحظ أعداد الأشخاص الذين ينضمون لنظرياتنا.

- هو محق بالتأكيد. وماذا لو قلت لكم بأن أختي نفسها قد بدت معجبة ببعض أطروحاتكم!

- ذلك ما لا يدهشني. أصبح عدد النساء اللائي يلتحقن بنا يتزايد أكثر فأكثر. ستنمو هذه الحركة، من وجهة نظري، أكثر فأكثر خلال السنوات القادمة. هذا مؤكد.

- من أين لكم هذا اليقين؟ سأل ريكاردو.

- ببساطة، لأن النساء ما عدن يطقن أن يعشن مكممات. لقد حان وقت السماح لهن بالكلام. يجب الاستمتاع بكلام أخواتنا السانسيمونيات وسماعه لاكتشاف كم عانين من احتجابهن. هن أكدن لنا أن لا جديد ولا جيد سيطرأ دون التحرير المسبق للمرأة.

حبس ريكاردو تثاؤباً.

- نعم. أفهم... بدءاً بتحرير الجنس.

- ولم لا؟ أليس الحب حقاً للجميع؟ أليس الطريقَ الملكي الذي يقود إلى عدْن؟

ثبت الفينيسي بصره في الأرض متفكراً.

- أنا أجهل، يا سيدي، إن كان هذا التحرير سيحيل النساء أكبر شأناً أو أكثر سعادة. آمل فقط أن لا تكون لهذه الجنة التي تمنونهن بها خلفية جحيمية.

قدّر يوسف أنه من المناسب تحويل مجرى الحديث.

- أنا لم أشاهد السيد فورنيل. آمل أن لا يكون مريضاً.

- للأسف، السيد فورنيل توجّه إلى سوريا. لقد رفض، لأسباب شخصية، الانخراط في بناء السد.

- للأسف...

استغل ماندرينو لحظة صمت فصرح:

- معذرة على إنهاء هذه المناقشة الثرية، لكن، وكما يقال في فرنسا - وأصدر حركة تجاه المنصات المترعة طعاماً - البطن الجائع لا أذن له.

وجّه إشارة صغيرة متواطئة لابنه وساق شهرزاد.

بمجرد أن خطوا بضع خطوات، لاحظت شهرزاد:

- إن حكمْتُ انطلاقاً من ملامحك المقطبة ومن طريقة الفرسان التي تخلصت بها، أستنتج أنك لم تقدر كثيراً كلمات السيد أونفنتان.

كان كل تعقيب الفينيسي أن أبدى امتعاضاً.

- لم أكن أعلم، يا سيد ماندرينو، بأنك محافظ إلى هذه الدرجة! صحيح أنني كنت متحفظة تجاهه، لكنني اليوم مرغمة على مراجعة حكمي عليه. أفكاره التي يدافع عنها ليست كلها عبثية.

توقف ريكاردو.

- أنت لست جادة! بل نظرياتهم عبثية!

- ليس كلها. انظر إلى حالتي أنا؛ لو كنت عشت متشبثة بالتقاليد، أتظن أنه كان بإمكاني، في بلد مثل مصر، أن أحقق الأشياء القليلة التي حققتها في حياتي؟ أتعرف نساء كثيرات خاضعات، استطعن إنشاء مثل مزرعة الزهور، بالرغم من كل شيء ومن الجميع؟ أتعرف منهن الكثيرات اللائي استطعن اقتحام غرفة نائب السلطان، في قلب الليل، لإرغامه على إبطال قرار اتخذه؟ أنا لن أتحدث عن تلك الرحلة إلى موري. . . فهي حماقة خالصة لا تستطيع القيام بها إلا امرأة تهزأ بالقواعد القائمة. أنت تزوجت، في العمق، امرأة سانسيمونية وُجدت قبل الأوان.

شعر ريكاردو بأنه قدم مُس في عمقه، فقال شبه محذِّر:

- احذري من أن أتبنى أنا بدوري أفكارهم؛ فنساؤهم، حسب ما سمعت، متحررات للغاية.

لم تُبدِ شهرزاد، على غير المتوقع، أي رد فعل. انتبهت إلى فتاة ذات شعر أصحر قادمة نحوهم.

- يومكم سعيد. هل أقدم لكم الطعام؟

- بكل فرح.

- ماذا تشتهون؟ حماماً مشوياً؟ شريحة لحم غنم؟

- شريحة لحم غنم.

ثم سألت شهرزاد:

- هل تفضلون شيئاً آتيكم به؟

بدا أنها لم تسمع سؤالها. كان عليها أن تكرره.

- الشيء نفسه؛ شريحة لحم غنم.

انصرفت الفتاة نحو المائدة بخطوات رشيقة.

- ماذا دهاك؟ سأل ريكاردو قلقاً. تبدوين متغيرة.

- من هذه الفتاة؟

- عمن تتحدثين؟

- هذه الفتاة، تلك. . .

وجهت إصبعها نحوها.
- ماذا عساني أعرف عنها؟ خادمة، دون شك.
- أمر غريب.
بدا غير فاهم.
- هذا التشابه: الأنف، الخالة نفسها على الوجنة. إنها صورة من أختي.
- سميرة؟
- نعم. مع ثلاثين سنة أقل.
- آه!!
هز كتفيه وواصل الحديث في موضوع آخر. تابعت، بشكل عائم، أحاديثه عن آخر قرارات نائب السلطان، إلى أن عادت الفتاة للمثول أمامهم.
- تفضلا، قالت وهي تمد لهما صحنين. أتمنى لكما شهية طيبة. وعندما كانت تهم بالانصراف، سألتها شهرزاد:
- آنسة، هل يمكنني معرفة اسمك؟
- كورين.
- و... أنت من السانسيمونيين؟
- نعم.
قدرت أن هذا الاعتراف ربما أزعج شهرزاد:
- على أي حال، بشكل من الأشكال.
- عليَّ أن أذيع لك سراً، قال ماندرينو بنوع من المزاح. أتدرين أن لك أختاً توأماً؟
- آه!
بدت غير فاهمة.
- تجدك زوجتي شديدة الشبه بأحد أفراد عائلتها.
- بمن يتعلق الأمر؟
- بأختها. يبدو أنك نسخة منها.
عَبَرت ارتعاشة ملامح كورين.
- آمل أن لا أكون قد آذيتك.
- لا... لا، أبداً.

شعرت بنفسها مثيرة للسخرية. لماذا يخفق قلبها بكل هذه القوة؟ لا يتعلق الأمر، بالتأكيد، إلا بمحض مصادفة.

- أنت في مصر منذ مدة طويلة؟ سألت شهرزاد.

- ستة أشهر تقريباً.

- أنت فرنسية، طبعاً.

- عزيزتي، احتج ماندرينو. ألا ترين أنك فضولية بعض الشيء؟

تجاهلت كورين ملاحظة الفينيسي وأجابت بكلمات متقطعة:

- أنا نصف مصرية؛ ولدت أمي بالجيزة. توجهت إلى فرنسا في عهد البعثة الفرنسية. كان أبي منتمياً لجيش نابليون. هو...

ظلت جملتها معلقة. أصبحت مخاطَبَتُها شديدة الامتقاع. لا. هذا غير ممكن...

حصل لديها شعور، فجأة، بأن حرارة الشمس حولها أضحت لا تحتمل. كان وجهان يتقابلان في ذهنها؛ وجه أمها ووجه هذه المرأة التي أمامها. الوجه البيضاوي ورسم الشفتين. التماثل يفرض نفسه ومعه هذا الجو الذي يمكنها أن تقسم إنه عائلي.

- تعالي... تعالي يا ابنة شديد.

سمعت الكلمات في الوقت ذاته الذي رأت فيه الذراعين المرتعشتين الممدودتين نحوها.

أما يزال ثمة مجال للشك؟

تركت نفسها تُضغَط إلى صدر شهرزاد. وعندما لامست جلدَها وشمت رائحتها، علمت أنها قد عثرت أخيراً على المرسى.

الفصل السابع والعشرون

- جيوفانا. أقدم لك كورين شديد... ابنة خالتك

حيّت جيوفانا، مبهورة، الغريبة وهي تسأل أبويها بعينيها. كان يوسف متهلل الوجه.

- هيا نجلس، اقترح الفينيسي. سيكون الوضع أنسب للحديث.

ولجوا الصالون. أنار ريكاردو المصابيح وجلس بدوره على أريكة.

- هذا غير معقول...، كرر يوسف.

يقول هذا للمرة الثالثة منذ أن قدم له أبواه كورين بموقع الورش. لو كان فقط قد خامره الشك في أن الغريبة التي قابلها منذ ثلاثة أسابيع في ساحة القنصلية تنتمي لآل شديد! ابنة خالته!

- لقد قلتها للسيد دي لسبيس! قلت له بأن لك إهاباً عائلياً.

أثارت ملاحظته ابتسامة خجولة على وجه كورين.

- لو فسرتم لي! رجت جيوفانا. أريد أن أفهم.

- إنها قصة طويلة، قالت شهرزاد. كان ذلك منذ ثلاثين سنة... في زمن البعثة الفرنسية.

وكما تُحكى حكايات الساحرات، قصت عليهم حكاية سميرة، قاطعة كلامها بين الفينة والأخرى لتحصل على تأكيد من الفتاة، ثم تواصل الحكي. وأخيراً أدركت آخر مرحلة؛ أي اللقاء بورش السد، فقالت منهية كلامها:

- ثم يأتون ليقولوا لي بأن الله غير موجود!

- هيه! سأل ريكاردو جيوفانا، ما رأيك في كل هذا؟

- لا يمكنني إلا أن أكرر كلمات أخي: هذا غير معقول. غير معقول لكنه مبعث سعادة بالغة.

قالت ذلك بجدية حقيقية.

- من الآن فصاعداً، قالت شهرزاد، لن نكون يا أبنائي أربعة بالصباح بل خمسة.

أخذت كف كورين وضغطتها بحنان.

- من الآن فصاعداً، اعتبري أنك هنا في بيتك.

- أشكرك، سيدتي. غير أنني...

صاحت شهرزاد:

- سيدتي؟ هل سمعتم؟ أنت يا كورين ابنة أختي؛ من دمي! ناديني، من فضلك، كما شئت، لكن لا تناديني بالخصوص «سيدتي». ماذا كنت تريدين أن تضيفي؟

- أنا متأثرة جداً بكرمكم، غير أن هناك الآخرين... الصديقة جوديث غريغوار التي حدثتكم عنها، ودراستي بالكلية، ثم عليَّ أيضاً أن أُحَصِّل بعض المال.

- مال؟ لكن عن ماذا تتحدثين؟ ابنة من آل شديد لا تشتغل! لا أدري كيف هي الأمور في فرنسا، لكن للنساء هنا واجبات أخرى غير الاشتغال خارج البيت.

- تحرير المرأة هنا متأخر، قال ريكاردو متفلسفاً وهو يبتسم.

- ذكرت الآخرين، قالت شهرزاد، تقصدين أصدقاءك السانسيمونيين؟

أجابت كورين بالإيجاب.

- مما يعني، قال ريكاردو، أنك مرتبطة فعلاً - كاد يقول «بهؤلاء الناس» لكنه عدل - بهذه المجموعة.

- لنقل إنني أشعر بأنني مدينة لهم. وعلى أي حال، فبفضلهم استطعت العودة إلى مصر. وعندما توفيت أمي هم الذين آووني وأطعموني.

- لكنك كنت، في المقابل، تشتغلين! ألم تقولي إنك كنت تهتمين، من بين أمور أخرى، بالغسيل وبالتدبير المنزلي؟

- بلى.

- وإذن؟ أنا لا أدري، بالفعل، في أي شيء قد تكونين مدينة، اللهم إلا
- أبدى بعض التردد - اللهم إلا إن كنت تريدين العيش على طريقتهم.
عقدت كورين أصابعها بعصبية.
- هل يمكنني أن أبوح لكم بسر؟
كانت نبرة خشية قد تخللت صوتها.
- ما عدت أقاسم السانسيمونيين شيئاً.
بدا الارتيح الذي خلّفه تصريحها بادياً للعيان.
- صحيح أنني قد أحسست في البداية بأنني شديدة القرب منهم، وصحيح أن كرمهم وطيبتهم ورغبتهم في تحسين أحوال العالم قد أثرت فيّ، غير أن الأمور تطورت. طرأت قضية «المسيحية الجديدة» التي بدأت تصدمني، وقضية المرأة-المُخلِّصة، والاعترافات القسرية التي يفرضها الأب...
- الأب؟ سألت شهرزاد. أي أب؟
- هكذا ننادي قائد الحركة، السيد أونفنتان.
وعندما لاحظت علامات الشك التي أثارها تصريحها، رأت أن عليها أن تدقق:
- نعم، أعلم. أنا أيضاً كنت أجد هذا اللقب غير مناسب. وهناك أيضاً سلوك بعض النساء.
أطلقت تنهيدة.
- لهذا السبب قلت لكم بأنه ما عاد ثمة شيء يجمعني بهذه المجموعة.
- أين المشكلة إذن؟
- ليس ثمة مشكلة، أكدت شهرزاد. ما دمت كنت وحيدة، ما كان لديك من خيار. أما الآن فلك أسرة. وهل هناك ما هو أهم من أسرة؟
- تظنون، بالفعل، أن بإمكاني أن أبقى معكم؟
- كورين، تدخلت جيوفانا بسلطوية غير منتظرة، أنا من يطلب منك ذلك.
وعندما أبدت كورين دهشتها، واصلت:
- تمنيت دائماً أن تكون لي أخت، وأنت، ألم تتمني ذلك؟

إن كانت قد تمنت ذلك؟ كيف الحديث عن الفقد الذي عانت منه؟ كيف يمكن الحديث عن تلك الوجوه الغريبة التي لم تكن تشعر تجاهها سوى بمشاعر محايدة؟ كيف يمكنها أن تشرح بأنها لم تكن تنتظر، منذ وفاة أمها، سوى هذه اللحظة؟

- سأبقى، قالت بصوت خافت. أنا في أمسّ الحاجة إليكم.

كان يوسف صامتاً، في زاويته، يفترسها بعينيه.

* * *

الإسكندرية، ورش بناء السفن، فبراير ١٨٣٤.

كان محمد علي يبدو - على الكورنيش المطل على ورش بناء السفن - في قمة الانفعال. خطا بضع خطوات أمامه قبل أن يعود نحو الكولونيل كامبيل، القنصل العام لإنجلترا.

- لكن لماذا هذا العناد؟ لماذا هذه الرغبة في التدمير؟ فرنسا، من جهتها، مستعدة للاعتراف باستقلالي، وإذن فلماذا تعارضون أنتم هذه الإرادة؟

- حكومة اللورد بالمرستون...

- اللورد بالمرستون! لنتحدث عنه! لم يسبق لسياسة بلدكم أن كانت بهذه القسوة وبهذا التصلب التي أصبحت عليه منذ أن أضحى وزيراً للخارجية منذ أربع سنوات!

- سيدي، هل تؤاخذونه على أنه يدافع عن مصالح بلده؟

- عزيزي الكولونيل كامبيل، هل تعني مصلحة بلدكم أن تحقروا الأمم الأخرى؟ انظر إليّ. أنا رجل عجوز. وقريباً ستتخلصون من هذا الباشا الذي ينغص عليكم. كل ما أريده هو أن أكون متأكداً، قبل وفاتي، من مستقبل أسرتي. أريد أن تمر إليها هذه القوة التي بنيتها. هل تعتبر طلبي هذا بتلك الدرجة من العبث؟ لماذا لا تقومون بإبداء إشارة؟

- يرى اللورد بالمرستون أن الوضع الراهن هو أحسن وضع يمكن أن يستمر. أذكركم بكلامه: «سينظر لأي إعلان للاستقلال على أنه عدوان، وإن طلبت الباب العالي مساعدة إنجلترا، فإنه سيجدها مستعدة لتقديمها له.» ومن جهة أخرى، فقد أثرتم، جلالتكم، موقف فرنسا. اسمحوا لي بأن أعارضكم

وبأن أثير انتباهكم إلى أنها لا توافق على مشروعكم. وهو الموقف نفسه الذي تبديه بقية القوى العظمى.

- السيد القنصل العام! ليس لأنكم أرسلتم نابليون إلى سانت هيلين، يجب اعتباركم الناطق الرسمي باسم فرنسا! إنني أحادث الآن ممثل إنجلترا وليس ممثل لويس فيليب. أجيبوني: لماذا وافقتم على انفصال اليونان وبلجيكا وترفضون الاعتراف بانفصال مصر؟

لم يجب كامبيل.

- لماذا لا تقولون شيئاً؟ دُلَّنِي، في التاريخ، على تابعٍ بمثل قوّتي اكتفى بأن يكون من الرعية ولم يزحزح نير الطاعة؟ ألا تفهمون أنهَّ من باب الظلم أن تريدوا استمراري في حمل النير؟

انتهى القنصل بأن رد:

- لقد شرحت لكم الأمر، يا صاحب الجلالة. بلدي يعارض تقسيم الإمبراطورية العثمانية. ثم إنه لا يمكنكم أن تقارنوا وضعيتكم بوضعية اليونان أو بلجيكا. إن طريقة حكمكم لمصر وطموحاتكم لَتعد عناصر في غير مصلحتكم.

كاد محمد علي يختنق.

- طموحاتي؟ طريقتي في حكم مصر؟

علا صوته مثل زئير:

- لكن يا كولونيل كامبيل! لقد التهمتم سكوتلندا واستوليتم على إيرلندا وجوعتموها! مستعمراتكم ممتدة على طول أمريكا الشمالية والهند وأفريقيا! أنتم تجولون على جزء من العالم بخيلاء وكأنكم تجولون ببكنغهام! ثم تجرؤون على الكلام عن طموحاتي؟

حاول أن يسترد أنفاسه، لكن أخذته نوبة فُواق. لذلك قال دفعة واحدة وكأنه يخشى أن يعجز عن إنهاء جملته:

- تحملون إلى بالمرستون الرسالة الآتية: سأحتفظ برغبتي في إعلان استقلالي مثلما يتم الاحتفاظ بعصفور في راحة اليد. لا يمكنني أن أسجنه إلى ما لا نهاية.

رد الدبلوماسي دون تردد:

- وإذا، لا يخامركم شك، سيدي. سيكون ذلك بمثابة إعلان حرب. الحرب الأخيرة مكنتكم عملياً من كل ما كنتم تأملونه. لا تذهبوا أبعد من ذلك. ستفقدون في لحظة واحدة كل ما اكتسبتموه، لأنكم، هذه المرة، لن تجدوا في طريقكم جيش السلطان العثماني وإنما جيش إنجلترا.

أبدى العاهل، بين انقباضتين، حركة من يده معلناً أن الحديث قد أدرك نهايته.

* * *

كانت الساعة تشير إلى حوالي السادسة صباحاً عندما دوت الصرخة في إقامة الصباح.

قفزت شهرزاد من سريرها. اندست في جلابية وسارعت إلى الممر الذي يقود إلى غرفة يوسف. عندما أدركت عتبتها، كادت أن يغمى عليها. يوسف يئن فاقداً للوعي، ممدداً على سريره. انحنت جيوفانا عليه وهي تتلفظ بكلمات محموقة.

- ماذا حصل لك؟ صاحت شهرزاد.

ودون أن تنتظر جواباً هرعت إلى سريره. كان يلهث، منقبض الملامح غارقاً في عرقه، جسده يهتز من الارتعاش. طمأنها إحساسها بنفسه.

- يوسف... أرجوك...

حضر ريكاردو بدوره متبوعاً بكورين. قدّر، في لحظة، الوضعية.

- جيوفانا! أَمَرَ، اذهبي فوراً للبحث عن الدكتور كلوت! وليرافقك حسين بالعربة! هيا، أسرعي.

- أرافقك، اقترحت كورين بتلقائية.

- لكن، أبي، قد يكون كلوت بالكلية يقدم دروسه... ربما يكون...

- سيأتي من أجل ولدي! نفذي ما أمرتك به! هيا!

اقترب بدوره من يوسف الذي ما يزال فاقداً للوعي وشرع يضربه برفق على وجنتيه مرات متعددة. تحرك الشاب بضعف وهو يئن.

- إنه يسترجع وعيه، نحتاج إلى ماء ورد البرتقال.

سارعت شهرزاد إلى المطبخ.

- يوسف، كرر ريكاردو.

حرك هذه المرة جفنيه وفتح عينيه قليلاً. كانتا تلمعان مثل مرآة انعكست الشمس على صفحتها.

- الحال أحسن... لا تخش شيئاً. كل شيء على ما يرام.

صادق يوسف على كلام أبيه بوهن. كان ممكناً تصور أن حاله تحسنت عندما اهتز بعنف واعتدل قليلاً ثم شرع يتقيأ بدفعات متتالية. عاد، فور ذلك، إلى التمدد ببطء منهكاً. تسللت من بين شفتيه متتالية من الكلمات غير المتجانسة. كان يهذي.

عادت شهرزاد إلى الغرفة حاملة في يدها قنينة ماء ورد البرتقال. حاولت، بمساعدة ريكاردو، أن تجعل يوسف يشرب منها، لكن دون جدوى. تواصلت ارتعاشاته. تقلص وجهه بفعل الحمى الحارقة. بدا وكأنه يرزح تحت وقع تجفف داخلي حاد.

عندما أتت جيوفانا وكورين بالدكتور كلوت، كان الزمن قد قارب منتصف النهار.

جس الطبيب جسد يوسف وقاس النبض وفحص الإبطين وثنية الفخذ. عندما انتصب واقفاً، كانت ملامحه قاتمة وحادة.

- ماذا هناك؟ سأل ريكاردو بنفاد صبر.

- من غير المجدي أن لا أصدقكم القول.

صمت للحظة قبل أن يقول:

- طاعون دبيلي.

شعر الموجودون بالغرفة بأن الأرض تميد تحت أقدامهم.

أمسك الفينيسي كلوت من ذراعه.

- هذا غير ممكن! قد تكون مخطئاً!

- كنت أتمنى ذلك... لكن لا مجال للشك. غدد في ثنيتي الفخذين وتحت الإبطين وحول منطقة العنق والحمى القوية والقيء. هذه أعراض كلاسيكية... انظر.

رفع ملابس نوم يوسف إلى منتصف قامته. وجَّه سبابته إلى الجهة اليسرى على مقربة من ثنية الفخذ.

- هذه للأسف علامة تلغي كل الافتراضات الأخرى... ثبت ريكاردو وشهرزاد بصرهما في المكان الذي أشار إليه الدكتور كلوت.

كان الجلد قد شكّل نوعاً من فقاعة محاطة بدائرة قشرية دميمة. هي أول دبيلة في شكل كيس يتجمع فيه القيح.

الطاعون...

كانت الكلمة ترن مثل قرعة حزن. تخيم على أذهان الجميع صور جثث عارية عن اللحم تسيل ببطء وعربات جر الموتى تجول في أزقة خالية. ذلك أن يوسف، إن كان قد أصيب، فمعنى ذلك أن آخرين غيره مصابون أيضاً. في القاهرة أو بالدلتا أو في ورش السد.

* * *

- أخبرني بالحقيقة، يا بارتليمي، هل أصبح يوسف محكوماً بالموت؟

كانوا مجتمعين بالصالون، متطلعين للقرار النهائي لكلوت.

- لا أستطيع قول أي شيء. لو كان الأمر متعلقاً بطاعون الرئة لكان جوابي رسمياً: ما كان بإمكان ابنكم أن يعيش أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام. لكن كل شيء الآن ما يزال ممكناً. يوسف شاب وقوي البنية.

ضغطت شهرزاد بعصبية المنديل الذي تمسكه بيدها. كان ذهنها يستقبل شروحات الطبيب، لكن قلبها يرفضها. هذا غير ممكن. لم يكونوا يتحدثون عن ابنها.

كورين، المنكمشة في زاوية من الأريكة قريباً من شهرزاد، لم تجرؤ على قول أي شيء. كانت تحبس أنفاسها، متجَاوَزة. ريكاردو وجيوفانا وحدهما كانا يعطيان الانطباع بضبطهما لنفسيهما. سألت جيوفانا:

- هل ثمة من علاج يا دكتور؟

مرر الدكتور بآلية راحته على ملامحه البارزة.

- حسب معرفتي، لا يوجد علاج لهذا الداء. البتة. كل ما يمكننا أن نقوم به هو أن نشق الدبيلات كلما ظهرت، مع إعطائه شيئاً من مسكن اللودانوم ولفه في إزار مبلل لجعل درجة حرارته تنزل. هذا كل ما نستطيعه.

- في انتظار الموت...

لم يُبد كلوت أي تعليق. ذهب ليأتي بحقيبته الجلدية الصغيرة، فأخرج منها قارورة لون ما بداخلها مصفر.

- خذ، ريكاردو. تُشرِبه ست قطرات عند المغيب، ثم يومياً، عند منتصف النهار وفي المساء، لكن احذروا تجاوز هذا القدر؛ فاللودانوم قاتل إن قدم بجرعات مبالغ فيها.

أمسك الفينيسي القنينة وسلمها بآلية لشهرزاد. أمسكت بها وفحصتها بنظرة غريبة. اندهش ماندرينو من التحول الذي اجتاح ملامحها في غضون ساعات.

* * *

ارتفع، في اليوم الموالي، عَلَمُ الطاعون الأصفر على القلعة وعلى المآذن وعند مداخل أحياء الضاحية. لكن القاهرة لم تكن المدينة الوحيدة التي اجتاحها الوباء؛ فمع بزوغ فجر اليوم الثالث ظهرت الحالات الأولى في الإسكندرية. عين فرديناند دي لسيبس رئيساً لمفوضية الصحة العمومية. كان المرض ينتشر بسرعة فائقة، إلى درجة أن نائب القنصل اضطر إلى تحويل القنصلية إلى مستشفى. أعرب نائب القنصل عن نكران للذات منقطع النظير، فقسم وقته بين الإسكندرية والعاصمة، حسب خطورة الوضع في كل منهما. كان أصعب شيء هو إخلاء الأحياء المصابة من ساكنيها. كان غالبيتهم يرفضون، مذعورين، مغادرة مساكنهم أو حتى الاستجابة لشروط التطهير.

أصاب الوباء أيضاً، خلال الأسبوع الموالي، دمياط وروزيت وغالبية قرى الدلتا.

تُجُوزَت المحاجر الصحية التي هيأها الأطباء الفرنسيون بسرعة فائقة؛ فلم تعد تمر ليلة واحدة دون أن تعلو سماءَ مصر صيحاتُ النائحات الحادة.

الجرذان تجري على غير هدىً في الأزقة برائحتها النتنة، ظانة أنها بعدوها ربما تفر من النفوق، ظانة أنها هي نفسها تنقله.

خُيِّر الناس بين أمرين: الهروب أو مقاومة الآفة. وعندما بدأ الموتى يتكاثرون وسيطر الهلع على المدن، فرض الاختيار الأول نفسه. سرعان ما أصبح الوادي يغصّ بالمراكب التي تصعد نحو أعالي مصر. ربما يكون

راكبوها قد قالوا بأن الآلهة القديمة قد تشملهم بحمايتها ما دام إله المسيحيين والمسلمين قد أعرب عن عجزه.

استولى الخوف على محمد علي نفسه؛ فبعد أن أمر بإغلاق الإدارات والمدارس لمدة أربعين يوماً، انعزل مع عائلته بين جدران القلعة، منقطعاً عن التنقل ومحمياً بثلاثة نطاقات صحية.

كان ثمة تفصيل لا يصدق: كان ممكناً لمح، ضمن هذا العماء المنتشر في كل مكان، ومن حين لآخر، أشخاصاً يلعبون الكرة في الأزقة الخالية. وقد شرحوا للغربيين المندهشين بأن الأوبئة تحملها فيالق من العفاريت؛ فأحياناً، وعندما يتعب أحدها من التحليق في الأجواء، يهوي على شخص فيكون فريسته. وهدف اللعب بالكرة هو تكسير الدائرة التي يشكلها العفاريت فوق الآدميين.

كان مسجد السيدة زينب، حامية القاهرة، هو المكان المقدس الوحيد الذي يسمح للنساء بولوجه. وإذن فقد أتين في أمواج للاحتماء به. كانت الدعوات تمتزج بالنحيب وبالعويل باليأس الأخرس. وعلى عتبة المسجد، كان نساك مغشوشون وبلا ضمير، يبيعون ماءً مباركاً ذا قدرات خارقة.

كان محتضرون يحملون موتى إلى حدود أبواب المدن، وخلت العاصمة من الحياة.

صحت سوزان فوالكين، ذات صباح، في منزل الدكتور دو ساب، جسدها مجتاح بنميشات، هي أولى أعراض الداء. وُضعت مصاصات على بطنها وأُشربَت ماءً مصمغاً وجرعات مترعة بمسكن اللودانوم. هل كان لهذا العلاج آثار مباركة؟ عاشت السانسيمونية، لكن حليمة، زوجة الطبيب، لم تعش، وكذلك ابنتها الشابة هانم. أيام قليلة فصلت بين موت المرأتين. ولم يتأخر دو ساب في اللحاق بهما، لكن، بالنسبة إليه، قد يكون الحزن هو الذي قتله.

ورش السد نفسه لم يسلم من الأذى. سقط العمال تباعاً، أولهم أدهم.

ثم كان الدور دور السانسيمونيين. قضى ألريك، النحات الشاب الذي وضع مجسم القطار الصغير لصالح فورنيل، بين ذراعي أغاريث كوسيدير

مرافقة أونفنتان. ثم توفي لامي وفوكارد ودو مولار دو ماريشل والقائمة طويلة. وإذا كان الأب هو أحد الناجين القلائل، فلأنه كان قد ذهب، خلال الأيام الأولى للوباء، للكرنك بأعالي مصر رفقة دي لامبرت ومرافقين آخرين.

خلال اليوم الأخير للوباء، شرعوا يعدون الموات؛ تجاوز عددهم مائتي ألف.

* * *

عندما أفاق يوسف، ذاك الصباح، اندهش من العتمة التي تلف الغرفة.

سبر العتمة فاكتشف كورين نائمة على أريكة، عند قدم سريره. حاول أن يجلس، فهاله المجهود الذي بذله. لم يسبق له أن ظن أن بإمكان المرء أن يكون بهذا الضعف.

هل خشخشة الأغطية هي ما جعل كورين تنتفض، أم هي تلك الحاسة السادسة التي يكتسبها أولئك الذين ينامون بجانب المرضى؟ ثنت ساقيها ووضعت قدميها على الأرض. ظلت في البداية صامتة واكتفت بمراقبة يوسف بنوع من التوجس وكأنها تريد أن تتأكد من أن الذي تلمحه ليس إنذاراً إضافياً وإنما علامة على ذلك التحسن الذي طالما التمسته في دعواتها. فقد عرفت، خلال الأسابيع الأخيرة، من حالات السعادة الزائفة ما يجعلها تحذر من ملاحظتها. فقط عندما توجَّه إليها صوت يوسف أصبح لديها اليقين بأن الأمر يتعلق هذه المرة بالشفاء.

غادرت الأريكة وأتت لتجلس على حافة السرير.

-كيف تشعر الآن؟

- ضعيف...

- هذا طبيعي. كانت مدة المرض طويلة.

- كم استغرقت؟

- اليوم، ثلاثة أسابيع.

بدا مرعوباً ومرر كفه على طول وجنتيه المهزولتين الملتحيتين.

- قد يكون مظهري غريباً.

- مظهر من قاوم لمدة طويلة. انتهى الآن كل شيء. أتريد طعاماً؟

كانت قد انتصبت مستعدة للتوجه نحو العتبة.

- كورين...

أشار إلى الأريكة التي ما تزال آثار كورين بارزة عليها.

- أنت... قضيت الليل هنا؟

أجابت بنعم ثم واصلت بسرعة:

- سأخطر الآخرين. سيكونون في غاية السعادة. لقد أخفتنا. أتدري...

شعر بنفسه مبهوراً من فكرة أن تكون قد قضت الليل قرب سريره. كان انفعاله سيكون أشد لو علم بأن كورين كانت قد تحولت، منذ اليوم الأول من مرضه، إلى كلب وفي، وأنها لم تغادره البتة، إلى درجة أنها قد رفضت تناول طعامها إلا بالقرب من سريره.

رفع بوَهَنٍ كفه كي يعرضها لشعاع ضوء متسلل عبر المصراعين. اجتاح كفه دفء مألوف. إنه على قيد الحياة.

الفصل الثامن والعشرون

الإسكندرية، أغسطس ١٨٣٥.

كان الرصيف يعج، كالعادة، بخليط من الناس. عندما أدرك فرديناند لينانت دي بلفاند مكان رسو الزورق، أمر فرديناند الحمال بالتوقف والتفت نحو صديقه.

- والآن، يا صديقي، أعتقد أن لحظة فراقنا قد أزفت. وأنا أصر على أن تعرف كم كنت سعيداً بمعرفتك.

- كانت السعادة متبادلة، وسأفتقدك.

وعندما سأله:

- هل تعارض فعلاً العودة إلى باريس؟

أجاب بوضوح تام:

- أنا متعب يا لينانت. لقد حطمتني تلك المعركة ضد الوباء. وعلى أي حال فميموت قد نُقِل ومن المفترض أن أعين بلاهاي أو بمالقة.

- لو كان لك الخيار، أي المدينتين تختار؟

- مالقة، دون أدنى تردد.

- تجذبك إسبانيا إلى هذه الدرجة؟

- كنت دائماً ضعيفاً أمام الأندلس. ثم... سيكون ثمة البحر الذي سيذكرني بالإسكندرية. وفضلاً عن ذلك، لي عائلة بإسبانيا بإقليم البادخوس تحديداً. ولدي رغبة أكيدة في أن أراها من جديد.

- أقارب؟

- ابنة أخت أمي الكونتيسة دي مونتيخو وابنتها أوجيني.
التمعت عينا لينانت بنظرة ماكرة.
- آه!... صحيح أنك ما زلت أعزباً.
- لا يا عزيزي! أنت مخطئ! أوجيني ليست سوى طفلة! أدركت لتوها سنواتها التسع.
تراجع لينانت دون أن يتخلى عن رأيه.
- بالفعل. زوجة في هذه السن لن ينظر إليها نظرة إيجابية في الهيئة الدبلوماسية. لكنني لست قلقاً بالنسبة لمستقبلك العاطفي. صوت ما يسر لي بأنك - بعد أن قضيت كل هذه السنوات بمصر - قد أصبحت ناضجاً كي تعثر على من سيختارها قلبك.
- لا أريد أن أعاكسك، غير أنني، منذ وفاة والدي، ما عادت لدي حاجة لبناء أسرة.
- هذا طبيعي. وعلى أي حال، ومهما حصل، تذكر بأن لك صديقاً بمصر.
- أعرف يا لينانت.
صمت، ثم أصبح صوته أكثر تأثراً.
- إن كان ثمة شيء آسف عليه، فهو أننا لم نستطع تحقيق حلمنا.
وجَّه إصبعه نحو «الانوراطو» الراسية في عرض المياه.
- على هذه السفينة سأحمل بعضاً من السويس.
- أنا أقاسمك ما تشعر به من مرارة. لكن، ربما أفلح آخرون حيث فشلنا نحن.
ثم قال فجأة:
- لا أدري إن كنت على علم بذلك، غير أن الباشا قد أذن لأونفنتان بأن يتوجّه إلى القناة كي يشتغل فيها، رفقة ستة أشخاص. لدي الانطباع أنهم كما لو كانوا يريدون التحقق من حساباتي.
- صحيح؟ كنت أعتقد أن السانسيمونيين مغضوب عليهم من طرف صاحب الجلالة، بسبب موقف زعيمهم أثناء الوباء. كان يبدو أن محمد علي لم يرقه انصراف أونفنتان إلى أعالي مصر، واعتبره بمثابة هروب. ألم يأمر

بوقف تسليمه السبعمائة وخمسين قرشاً التي كان خصصها له مقابل مساهمته في أشغال السد؟

- لا علم لي بذلك. غير أن هذا لا يمنع من أن الإذن قد وقع له بيد الباشا.

- على أي حال، أنا لا يمكنني إلا أن أتمنى لهؤلاء السادة مزيداً من الحظ الذي لم أظفر به أنا. وكذلك لك أنت، لأنني أفترض أنك ستستمر في دعمهم.

قطب لينانت حاجبيه.

- إن بقيت في حوزتي سلطة. فمنذ مدة قصيرة، ولأسباب أجهلها، حصل لدي الانطباع بأن نائب السلطان تخلى عني. انظر ما الذي حصل بالسد... كل الأعمال أوقفت دون سابق إخطار، وبين ليلة وضحاها.

- ليست سبل الرب وحدها مغلقة؛ سبل الملك مغلقة أيضاً. اصبر... ستنقشع السحب. صاحب الجلالة يقدرك عالياً ولا يمكنه أن يتخلى عنك إلى الأبد.

ثم عانق لينانت.

- وداعاً يا صديقي. اهتم بنفسك.

تملّى المشهد لآخر مرة.

- من يدري إن كنت سأرى هذه المدينة ثانية...

- أنت تعرف المثل الذي يقول: «محكوم على من شرب من ماء النيل مرة أن يعود لضفافه؛ وإلا فإن العطش سيلازمه طول حياته.»

- دون شك يا لينانت، دون شك.

افترت شفتاه ببسمة حالمة.

- أتساءل عمَّا إذا لم تكن تسكنني، سلفاً، أعراض هذا الوسواس.

انثنى وجلس في القارب الذي سيقوده إلى السفينة.

ظل لينانت لمدة طويلة، بعد ابتعاد السفينة، على الرصيف، ثابت البصر على الأفق.

* * *

ساعد يوسف كورين على النزول من فوق الفرس ووضعها على الأرض

حاملاً إياها من خصرها. ازداد محيا الفتاة احمراراً على احمرارِ الانفعال. لم يكن احمرارها ناتجاً فقط عن درس الفروسية الأول هذا، وإنما أيضاً عن خشيتها من أن تكون مثيرة للسخرية. كان قرب الرجل الشاب منها يبلبلها، فانضاف إليه هذا الاحتكاك الجسدي. صحيح أنه احتكاك خاطف، غير أن إحساسها بيديه تلامسانها، وهما يدا أول رجل يمس جسدها، جعل حواسها تضطرم.

بذلت مجهوداً كي تتماسك، فقالت بمرح:

- سأكون فارسة ممتازة، أليس كذلك؟

- أنا متأكد من ذلك. لكن عليك أن تعلمي بأنك في حاجة إلى وقت كي تصلي إلى درجة الامتياز. إن ترويض الفرس لَيُعَدُّ سعادة تعجز الكلمات عن وصفها. وفوق ذلك، لا يكفيك أن تعرفي كيف تركبينه؛ عليك أيضاً أن تتعلمي كيف تعتنين بمطيتك؛ كيف تغسلينها وكيف تداعبينها. في كلمة: أن تحبيها. فإن كان أساسياً أن يشعر الفرس بسيطرة فارسه، فإن عليه أيضاً أن يشعر بحبه.

- أن أحبه لن يكون أمراً صعباً. وبالنسبة للبقية سأتعلم.

أشار إلى أبي الهول المنتصب قريباً منهما.

- أترين! هو ليس مرعباً ولا مذهلاً إلى تلك الدرجة التي كنت تتصورين.

- يمكننا حتى أن نقول بأنه جميل. ومؤسف أن يكون أنفه مكسوراً.

- خطأ المماليك. كانوا يستعملونه هدفاً أثناء تدريبهم على الرمي بالمدفعية؛ وهي مدفعية لم يتقنوا يوماً استعمالها. يكفي أن تري الطريقة التي شطبهم بها أبو نبارت.

- أبو نبارت؟ تقصد بونبارت؟

- نعم. كذلك كان المصريون ينادونه. أضافوا إليه «أبو».

واسمه، سألت وهي تشير إلى الأسد ذي الرأس الآدمي، هو «أبو الهول»؟

- نعم. لكن لا تسأليني عن السبب الذي جعل المصريين يلصقون به هذا الاسم؛ أنا أعرف فقط أسطورته؛ فمنذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة، نام أمير يدعى ثوتموزيس في هذا المكان. مثل له في الحلم إله الشمس هارماكيس

ووعد الأمير بتمكينه من مملكة مصر إن أخرجه من تحت الرمال. قام الأمير بذلك فأصبح فرعوناً.

كانت كورين تنصت إليه باهتمام كبير. لم يكن الحكي هو ما يأسرها وإنما كانت مبهورة أكثر برنة صوت يوسف؛ فمنذ أن عرفته منذ ثمانية عشر شهراً، كانت تُدهش بملكته هذه في طبع المواضيع الأكثر خطورة بطابع الرقة.

- هل ستعود إلى الورش؟ سألت.

- ليس قبل مدة معينة. لقد أوقفت الأشغال بأمر من محمد علي.

- أعتقد أن ذلك كان ناتجاً عن الوباء.

- ربما. لكنني أشك في أن الباشا قد وجد صعوبة في تمثل الصرامة التي تفترضها قضية مثل هذه. حتى الآن، كان يقيس صعوبة أي مشروع بعدد العمال المشتغلين. فهو لم يفهم، مثلاً، لماذا يعتبر خشب البناء هامّاً إلى تلك الدرجة، ولماذا كان لينانت يصر على ذلك. تصوري أن الأمر وصل به حد أن اقترح تدمير أحد الأهرام كي يستخلص منه الحجر الضروري لبناء السد.

- لَكانَ أقدم على فعل إجرامي!

- الحمد لله أنه تراجع عن فكرته. الحقيقة أن أسباب وقف الأشغال هي أكثر تعقيداً مما تظهر عليه. ثمة، في المقام الأول، الأزمة المالية الناتجة عن الحروب. فقد مر أسبوعان ولم يصرف بعد أي أجر، كما أن كل عمليات إرسال النقود قد قطعت. أصبح إذن من الضروري بعضُ الاقتصاد في صرف المال. وقد انضافت إلى هذه المشكلة مشكلة سياسية، وهي، من وجهة نظري، مشكلة حاسمة.

- وما دخل السياسة في قضية داخلية؟

- لدي الانطباع بأن نائب السلطان يسعى إلى معاقبة الأوروبيين، والفرنسيين تحديداً. فقد أسر لي والدي، أمس، بأن صاحب الجلالة قد رفض، لأول مرة، الإذن لطلبة يريدون التوجه إلى فرنسا لإنهاء دراستهم. قد يكون أجاب: «لقد أتيت بفرنسا إلى مصر، فليستفيدوا من ذلك.»

- ولماذا هذا التغير؟

- الغضب. المرارة، دون شك. لقد أعلَمَت حكومة لويس فيليب بأنها لن تدعم طلب استقلال نائب السلطان. والحال أن هذا الأخير كان اعتقاده

راسخاً في دعم فرنسا. كان مقتنعاً به. فكانت خيبة أمله وحزنه رهيبين.

- هذا مؤسف. السد مشروع جيد. وأنا أفكر أيضاً في الخيبة التي قد يكون أعرب عنها السانسيمونيون المساكين. فبعد أن طحنهم الطاعون وتخلى عنهم الباشا، لن يتأخروا، على ما أظن، في جمع أمتعتهم.

- بعضهم سينصرف، وبعضهم سيبقى في مصر رغم كل شيء. أنا لا أتصور كيف يمكن لشخص مثل شارل لامبرت أن يعود إلى فرنسا وهو قد أسس لتوه ببولاق مدرسة البوليتكنيك؛ وهي مؤسسة تُقدَّم على أنها زبدة النظام التعليمي المصري. كما أن الباشا والمقربين منه يجلّونه.

صمت للحظة.

- لكن هذه ليست سوى تقلبات الحياة. أنا متأكد من أن استياء نائب السلطان من فرنسا لن يستمر. تقوم بينه وبين فرنسا قصة حب هي من القوة بحيث لن يستطيع أي ظرف وضع نقطة نهاية لها. أنا أشبهها دائماً بزوجين عجوزين؛ ثارت بينهما عواصف وستثور أخرى.

- تتحدث مثل حكيم ذي خبرة كبيرة في الحب وفي العلاقات الإنسانية. أيكون ذلك، ربما، مجرد حدس؟

تملاها بدوره.

- وأنت يا كورين؟ ماذا تعرفين عن أمور الحب؟

- أوه! ما قرأته عنه في الكتب. حكايات كبيرة وجميلة، لها نهايات سيئة دائماً.

- دائماً؟ مؤلّفوك متشائمون للغاية. أنا أعتقد، على العكس من ذلك، أن حكايات الحب السعيد هي أكثر بكثير مما يُتصوَّر. غير أن أثر حكايات الحب اليائسة يكون أكثر وقعاً من حكايات الحب السعيدة.

- تبدو شديد الثقة بنفسك.

- وكيف لا أكون كذلك؟ ألم أعش في ظل السعادة؟ انظري إلى أبوي؛ هما لم يقدما لي سوى نظرة زوجين مترابطين بشكل رائع؛ لم يستطع الزمن النيل من علاقتهما. أبي الآن في آخر عمره، غير أنني عندما أفاجئه وهو يضع نظرته على أمي، أكتشف فيها الحنان نفسه الذي كانت تحمله في أيام علاقتهما الأولى.

ثبت بصره على الأفق.

- الأمنية الوحيدة التي لدي هي أن أنقل إلى أبنائي، إن أراد الله أن يكون لي أبناء، المثال نفسه.

أنصتت إليه بانتباه وهي تقارن، بالموازاة مع ذلك، ما تسمعه، بحياتها هي مع المصير الشقي لسميرة. فعلى العكس من يوسف، كان المثال الوحيد الذي عرفته هو الحزن والوحدة اللذان عانت منهما أمها. هي لا تشك في أن السعادة موجودة، لكن ما يثيرها هو أن يكون رجل قادراً على أن يعرب عن هذه السعادة. وعلى أي حال، ما الذي يدهشها؟ كل ما يأتي من يوسف لا يمكن أن يكون إلا طاهراً وجميلاً.

* * *

انزلق الكأس من بين أصابع ريكاردو وانكسر على الأرض في صوت مكتوم. تشبث الفينيسي بدعامة الباب. كان كل ما حوله يدور، والصالون يترنح. استطاع، بعد جهد جهيد، أن يدرك الأريكة فتهاوى عليها. رفع كفه إلى صدغه وضغط عليه كما لو كان يسعى إلى إيقاف انبثاق دموي. تكاد عروقه تتمزق ويكاد ذهنه يسحق بهذا التشنج الواخز.

لم يكن قد شعر بهذا الألم منذ مدة، فاستنتج أن سفره إلى قوتاهية هو سبب الأزمة. كان حتى قد أعرب عن غبطته أن لم يزر الدكتور كلوت. لكن ها كل شيء قد عاد من جديد. كتم أنة. وضدّ الضوء، لمح من بين جفنيه نصف المغلقين شكلاً مغلفاً في معطف أبيض يتقدم نحوه. لم يستنتج منه أي عدوانية ولا ما يثير الخوف. هو الموت إذن في شكل ملاك؟ هز وخز جديد جسده. انكمش في وضع جنيني وانتظر. إن كان الرب موجوداً، فلا يمكنه أن لا يفكر في المعاناة التي تشعر بها خلائقه خلال لحظات آخر الحياة هذه، خلال الدقائق التي تسبق الغرق الأخير. كان عليه، ربما، أن يتنبأ بهذا. وضع الملاك شيئاً من ناردين أو صبر على جبهته فأوقف، بشكل معجز، اضطراب أعضائه. ما عاد يشعر بألم. خمد ببطء ودون ألم.

الملاك، الآن، شديد القرب من ريكاردو. تضوع منه عطر. غريب... كأنه أريج زهر وياسمين.

- ريكاردو.

رف جفناه. هل للملائكة صوت آدمي؟
كرر اسمه. لامست قطعة ثوب مبللة وجنتيه.
استجمع ما تبقى من مزق وعيه وأرغم عينيه على الانفتاح كي يميز بوضوحِ أكبرَ الشكلَ المائلَ عليه. لم يكن الشكل الوحيد. انضاف إليه شكل آخر.
- أبي...
إنها جيوفانا.
تحاول خفية مسح الدموع المغرورقة تحت جفنيها.
رفض أن يبدو كئيباً. كانت حزينة بما يكفي.
- لا بأس عليَّ يا ابنتي، قال بضعف. ليس هذا بشيء. مجرد توعك.

***

غمام المساء يحلق فوق الصباح، وفراغ الصحراء يدلف إلى الصالون.
اتكأ ريكاردو على وسائد الأريكة وأبدى بسمة.
- أتريان؟... لا داعي للقلق. كل شيء على ما يرام الآن.
سألت شهرزاد متصلبة الملامح:
- ليست هذه أول مرة ينتابك هذا الألم، أليس كذلك؟
كذب:
- كيف كان بإمكاني أن أتحمل أزمة مثل هذه دون أن تنتبها للأمر؟ هذه أول مرة، بالطبع.
- لا أصدقك.
- ومع ذلك فهي الحقيقة.
واصل على الفور:
- ليس ثمة، على أي حال، داعٍ للقلق. أشعر الآن أنني في صحة جيدة.
جثت جيوفانا عند قدم الأريكة ونظرت إلى أبيها بصرامة.
- ستستشير طبيباً. أنا أفرض عليك ذلك.
بدأ يضحك.
- تفرضين؟ متى كان بإمكان فتاة أن تفرض شيئاً على أبيها؟ أتكونين

تحت تأثير السانسيمونيين؟ أتكونين - توقف عند الكلمة - متحررة؟ إن كان الأمر كذلك، فأنا أنصحك بأن تعيدي النظر في موقفك. هنا ريكاردو ماندرينو هو الذي يحكم، ولزمن طويل قادم.

سارعت شهرزاد بالرد:

- ليس من عادتي أن أتبنى آراء جيوفانا، لكننا، منذ الغد، سنعمل على استقدام الدكتور كلوت. يجب أن تعالج.

انتصب ريكاردو واقفاً وعلا المرأتين بخيلاء.

- لا شيء! أتسمعان؟ لا شيء سيرغمني على أن أتأوه في أحضان طبيب أو أي كان! أنا أتنفس وقلبي ينبض؛ هذا كل ما يهم. إن أصبح عليَّ غداً أن أكون معوقاً بهذا الجسد - وأشار إشارة احتقار إلى جسده - فإنني سأضع له حداً دون أدنى تردد قبل أن يضع هو حداً لي. والآن ما عدت أريد أن أسمع حديثاً عن المرض. هل هذا واضح؟

لم تعر جيوفانا بالاً لتحذير أبيها وعقبت:

- لو كنت أنا من يتحدث هكذا لكان الأمر عادياً، إذْ طالما أعربتُ عن أنانية قوية؛ لكن أن تأتي هذه الكلمات منك، فهذا أمر لا يغتفر. سيكون هجوماً منك على الحب الذي تقول بأنك تكنّه لنا.

ثبتت بصرها في بصر الفينيسي.

- ما دمتَ أنت الذي تحكم. . . فافعل، إذن، ما يحلو لك.

ما إن أنهت جيوفانا جملتها حتى اجتاز يوسف وكورين عتبة الصالون عائدين من جولتهما. تجمدا - البسمة على شفتيهما - وهما يكتشفان الملامح المتوترة.

نقل يوسف بصره من أبيه إلى جيوفانا ثم توقف عند شهرزاد.

- ما الذي يحدث؟

أجاب الفينيسي دون أن يترك لشهرزاد الوقت كي ترد:

- أخبار سيئة من القاهرة.

- الطاعون؟

- لا . . . المعاكسات السياسية التي لا تنتهي.

ضرب الهواء بكفه.

- سيعود كل شيء إلى طبيعته كالعادة.
أبدى بعض المرح وهو يسأل كورين:
- هيه؟ كيف مرت الرحلة الأولى على صهوة الفرس؟
- أعتقد أنني لم أكن شديدة السوء.
التفتت نحو يوسف.
- ما رأيك؟
- كنت ممتازة.
عاوده القلق.
- هل أنتم متأكدون من أن كل شيء على ما يرام؟
أبدى ريكاردو بعض الامتعاض.
- أنت عنيد يا ولدي! ما دمنا نقول لك بأن كل شيء على ما يرام فالأمر كذلك بالتأكيد.
- طيب. أكف عن الالحاح.
أمسك كورين من كفها وقال، لكن هذه المرة بجدية:
- نريد أن نخبركم بشيء. لقد قررنا أن...
توقف عند بقية الجملة واستجمع أنفاسه ثم صرح:
- لقد قررنا، كورين وأنا، أن نتزوج.
رافقت الكلمة الأخيرة صيحة سعادة. سارعت شهرزاد نحو كورين واحتضنتها بينما أخذت جيوفانا بتلابيب أخيها.
- وأنا التي كان يقال لي بأنني سأنتهي بالزواج من لينانت دي بلفاند!
أترين... كل شيء ممكن.
ربتت شهرزاد بحنان على كتف كورين.
- هذا رائع. أنت تمنحيننا سعادة فائقة. ما كان بإمكاني أن أنتظر هدية أحسن من زواج ابنة سميرة من ابني. مبروك... ألف مبروك.
اقترب يوسف من ريكاردو الذي التزم الصمت إلى حدود هذه اللحظة.
- ما بك يا أبي؟ يبدو أن الخبر لم يسعدك.
- ألم تنسيا بأنكما ابنا خالة؟

- وما المشكلة؟ أية أهمية لذلك؟ نحن منسجمان تماماً مع التقاليد، أليس كذلك؟

- بلى.

بدا متفكراً للحظة.

- فلتسعدا يا ولديّ... استمرار سلالتي أصبح مضموناً. الآن يمكنني أن أنصرف بهدوء.

لم تستطع شهرزاد التحكم في ارتعاشة. أمر ما في صوته أصابها بالبرد.

الفصل التاسع والعشرون

القاهرة، ١ أكتوبر ١٨٣٥.

أتت كورين لتقف إلى جانب يوسف عند قدم الهيكل. كانت تبدو في ملابسها البيضاء الرائعة وكأنها قد خرجت لتوها من حكاية أو من إحدى تلك الأيقونات المقدسة التي تزين جدران كنيسة درب الجنينة الصغيرة.

كانت كل عائلة شديد مع الأصدقاء المقربين متجمعين في الجناح المركزي للكنيسة. سوزان فوالكين وجوديث غريغوار حاضرتان أيضاً. كانت كورين قد اختارت أن تكون جوديث إشبينتها، أما يوسف فقد اختار طبعاً لينانت.

كانت شهرزاد، الواقفة في الصف الأمامي، تتأمل المشهد وذهنها معتمل بخليط من الانفعالات. انبثقت خيوط الماضي كما لو من زجاج مغبر.

- أنا فخور بك يا ولدي. اعمل على إسعادها.

- تلك هي رغبتي الوحيدة. لا أرجو شيئاً آخر في الدنيا غير أن أهب شهرزاد قليلاً من السعادة التي أجدت أنت إعطاءها إياها.

- وأنجبا لنا وريثاً! ذكراً قوياً وشجاعاً!

كانت تلك تعليمات يوسف، أبيها، التي وجهها إلى ميشيل شلهوب، زوج شهرزاد الأول. بعد ذلك ببضعة أشهر ولد يوسف، وها هو اليوم يتزوج.

ما الزمن؟ وادٍ شبيه بالنيل؟ وابل يجرف ساعات حيواتنا؛ قذوات التبن المسكينة تلك؟

لا يمكننا أن نكبح أيَ شيء. أحببنا أم كرهنا، لن يبقى في أيدينا سوى الزبد المبيض وتموجات الدوامات المؤكسدة.

تأملَت جيوفانا خفية.

ما سيكون مصيرها؟ قلب غير مستقر لم يستطع بعدُ العثور على الإيقاع المناسب. هي الآن على عتبة الرابعة والعشرين من عمرها وما تزال مواقفها مطبوعة بقلة النضج، وكأن الأمر يتعلق بمرض لا تريد الشفاء منه، ربما مخافة أن تغادر طفولتها.

كان يوسف قد أدخل لتوه الخاتم في إصبع كورين. تبادل الزوجان قبلة. أصبحا زوجاً وزوجة. استدارا نحو الحاضرين وصعدا الممر الرئيسي.

كان بالإمكان رؤية - تحت خمار الدانتيل الأبيض - دمعتين تنزلقان على طول خدي كورين. أعطت الانطباع بأنها تعيش حلماً. عندما أدركت جهة شهرزاد تأملتها لمدة خطوة، فعكست ملامحها كل سعادة الدنيا.

غادر الحاضرون الكراسي وساروا وراء الزوجين. سرعان ما أدركا جناح الكنيسة مغمورين بالزغاريد وبصيحات فرح المارة.

كانت عربة مزينة بخيوط بيضاء وزرقاء وبورود مثبتة تحت طقم الفرس، تنتظر الزوجين.

صاح ماندرينو الذي ظل على عتبة الكنيسة، في الضيوف:

- والآن، إلى إقامة الصباح، وليكن الحفل طويلاً.

أمسك بذراعي شهرزاد وجيوفانا وقادهما بخطوات واسعة. عندما وضع ساقه على درج العربة كي يأخذ مكانه، اهتزت السماء. غشاها قناع أسود. ترك ذراع زوجته وتمسك بذراع ابنته. انفتحت هوة أسفله، فسقط فيها مترنحاً. ارتطمت جبهته بشيء قد يكون ببساطة هو الأرض المحجرة. لمح في وضوح مظلم شهرزاد مائلة فوقه، ثم متتالية من المشاهد ومن التشوهات والحوارات التي لا علاقة بينها.

« - قل لي يا ريكاردو، وبيننا... هل تحب فعلاً؟

- سيدي... ما الحب؟

- هيا، لا نلعب بالكلمات، وأجبني بالأحرى.

- أقول لكم فقط بأن كل النساء اللواتي عرفتهن قبلها لم يكنّ سوى عابرات.

كان خليج نفران يصدي بنيران المدافع...

ارتجت المحاربة كما لو أن البحر كله يهتز.

- أميرال! الحريق ينتشر! علينا بمغادرة السفينة!

وهناك، كان مدفعيو الدارتموث يستعدون لإطلاق موجة قنابل جديدة.

رجل، هو كريم ابن سليمان، يصرخ بأوامر على مقدمة السفينة.

أصابته فجأة قنبلة في الصميم. بدا الجسد ينفتل مع تميز فظيع للوجه. طارت ذراع في السماء قبل أن تسقط عند قدمي ماندرينو.»

هو الآن يسترجع كل شيء.

هو إذن كريم الذي لُمِحَ ذات مساء في حفل...

«في صخب فظيع، انفلتت عارضة الصاري. لم يكن لريكاردو من الوقت إلا بالقدر الذي يراها تهوي. تقدم بخطوة إلى الأمام، لكن ليس بالسرعة اللازمة. أصابت كُتْلَةٌ رقبته ففقد الوعي.

عندما أفاق كان صمت كامل يسود حوله. تجسيم للمسيح المصلوب معلق على الجدار المقابل. كان يلمع بنور قادم من مكان ما.»

« أحبك...

- أصدقك.

ردت:

- لم يسبق لك أبداً أن تلفظت بهذه الكلمة! ولو مرة واحدة خلال ست عشرة سنة من الزواج.

- ما الذي يغيره ذلك من الأمر؟ وإذا ما غبت ذات يوم، فستدركين على الأقل بأنني الرجل الوحيد الذي لم يتلفظ قط بهذه الكلمة. وسيكون ذلك مكمن أصالتي. وستبدو الكلمة في فم من سيخلفني بمثابة إهانة.»

بمجهود خارق أمسك بيد شهرزاد وتحركت شفتاه. عبرت ذهنه فكرة غاية في الرقة. السماء فوقه رائعة الزرقة. قال لنفسه بأن الشمس لم يسبق لها قط أن لمعت بهذا الإشراق.

* * *

انصرفت خديجة إلى المطبخ بعد أن قدمت الشاي للدكتور كلوت، عيناها محمرتان من البكاء. كانت الأطياف الأربعة الجالسة حول الدكتور كلوت

غارقة في صمت ثقيل. كانت شهرزاد شاحبة الوجه، منتصبة الرأس وهي تنظر أمامها.

حمل كلوت الكأس إلى شفتيه ورشف رشفة.

- هو لم يمت وهذا هو المهم، أليس كذلك؟

كان قد تلفّظ بصوت محايد؛ بطريقة من يحاول أن يقنع نفسه هو ذاته.

- لم يمت يا دكتور، لكن هل هو حي؟

لم يجرؤ كلوت على مواجهة نظرة جيوفانا.

- يمكننا، بشكل من الأشكال، أن نقول ذلك.

اتكأ على مسند الأريكة وهو يتابع:

- إذا أخذنا بعين الاعتبار تلك الأزمة التي وصفتموها لي والتي كان ريكاردو ضحيتها من حوالي شهر، فإن ذلك يُمَكِّنُني من القول بأنه قد أصيب اليوم بما كان اليونان يسمونه الأنوروزما أو الورم الوعائي. ويتمثل هذا المرض في تمدد عنيف لعرق دماغي، مما يؤدي إلى تمزقه. أما بالنسبة للآثار السلبية التي يمكن أن يخلفها... فلا شيء، في الوضع الراهن للطب، يمكنه أن يحدده. إنه حي؛ هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكننا أن نؤكده.

- حي... لقد رأيتَه وفحصتَه... ما الحي في ريكاردو ماندرينو؟ بؤبؤاه مفتوحان على العدم. ما عاد يتكلم. أطرافه متحجرة وأثقل من الغرانيت. كل ما بقي هو النفس الذي يتسلل من بين شفتيه. لا شيء أكثر من نفس...

- أنا أعرف، سيدتي. لكن ماذا عساني أقول لكم أكثر من أن هذا النفس هو الدليل على أنه ما يزال حياً؟ غير أن ثمة عاملاً إيجابياً. استطعت أن أتأكد من أنه يستطيع أن يبتلع بعض السوائل، مما سيمكننا من أن نقدم له طعاماً قليلاً لكنه كافٍ كي يبقى على قيد الحياة. وفي هذا الصدد أنصح بجعله يشرب، باستمرار، حليباً ممزوجاً بأصفر البيض وبالعسل. سيمكن هذا المزيج المغذي جسدَه من الطاقة الضرورية التي هو بحاجة إليها.

سأل يوسف:

- هل يمكن للإنسان أن يعيش من غذاء مثل هذا؟

- أطول فترة ممكنة ما لم تطرأ تعقيدات.

- هل يسمعنا؟ أتظن أنه يشعر بحضورنا؟

- كما سبق لي أن قلت لكم، معارفنا محدودة. تمزق الشريان قد يكون تسبب في تدفق للدم أغرق جزءاً من ذهنه فخنق، في الآن نفسه، قدرته الحركية، فنتج عن ذلك انعقاد في اللسان وخمود في الحركة. أنا عاجز، بعد هذه الملاحظات، عن تحديد إلى أي حد يكون ريكاردو يشعر أو لا يشعر بالعالم الخارجي. وأنا...

أخذ جرعة أخرى من الكأس قبل أن يواصل:

- إن اعتمدت على الفحص الطبي وعلى التجربة التي أملكها حول هذه الحالة، فإنني سأميل بالأحرى إلى القول بغياب الشعور بالعالم الخارجي.

ميت حي، فكرت شهرزاد. هذا هو معنى تحليل الطبيب. آلة مجردة من المشاعر والانفعالات؛ كائن أعمى أخرس.

سأل يوسف:

- كم من الوقت سيظل أبي على هذه الحال؟

رفع كلوت ذهنه بملامح شاكة.

- أقول ثانية بأنني عاجز عن تقديم أي توقع. ربما بضعة أيام... بضعة أشهر...

- ألا يمكننا أن نأمل في تحسن؟ سألت كورين بخجل.

- للأسف، لا أعتقد. إن ما حدث من جروح غير قابل للاندمال.

انتصبت شهرزاد واقفة، مرغِمة الطبيب على قطع كلامه. انسحبت دون أن تنبس.

سحبت الباب وولجت الغرفة الغارقة في الظلمة.

ذهبت لتجلس، محاذرة، على طرف السرير ثم أمسكت بالكف اليمنى لزوجها وضمتها في راحتيها. لم يبد أي رد فعل. لا رفة جفن ولا أي شيء يوحي بأنه يعي ما حوله؛ يعي حضورها إلى جانبه.

افترت شفتا شهرزاد لكن الكلمات تجمدت على شفتيها. كان لديها الانطباع بأن أدنى صوت بإمكانه أن يزعج ريكاردو ويوقظ فيه الألم الهامد. ظلت صامتة واكتفت بالإنصات إلى ذلك التنفس الثقيل بعض الشيء والذي اعتبرته الصلة غير المرئية التي تجمع بينهما.

صعق زيوس أسكليبيوس.

كانت تلك هي المرة الثانية التي تفكر خلالها في الأسطورة التي حكاها لها إبراهيم من زمان في ابيدور. أما المرة الأولى فكانت عندما اكتشفت فقد ريكاردو لذاكرته. كانت آنذاك قد قالت لنفسها بأن الآلهة تنتقم منها لأنها بإعادتها لزوجها إلى الحياة تجرؤ على سلب هذه الآلهة فريستها. منذئذ علمت بأن على البشر أن لا يعملوا أبداً على شطب ولو حرف واحد من الكلمات المكتوبة في الكتاب الأعظم.

صعق زيوس ريكاردو ماندرينو.

أرعش برد قارس جسد شهرزاد. والحال أن الشمس في الخارج تلمع وحرارة أكتوبر معتدلة.

أمن الممكن أن تكون ساعة صمت الأنشودة قد أزفت، بعد أربع وعشرين سنة من الحياة المشتركة ومن الحب الذي لم يفتر أبداً؟ أمن الممكن أن تكون هذه هي عشية آخر فجر؟ أمن الممكن أن يذهب بلا رجعة، الكائنُ الذي ضمته إلى صدرها طوال الوقت وقاسمته الدفء والنوم والغضب أحياناً؟ ها هو ذا يجابه الموت الذي طالما خشيه. انثنت شهرزاد فجأة وشرعت تسبر الظلمة وكأنها تسعى إلى كشف العدو. كانت الغرفة فارغة إلا منها ومن زوجها.

عضت على شفتيها بقوة حتى لا تبكي؛ فريكاردو سيحزن إن أفاق فيه، بأعجوبة، إحساس ما ووجدها تبكي. لامست ببطء وجنتيه مدهوشة من أن تجدها بعدُ دافئة.

أين زوجها؟ في أي جزء من العالم يخيِّل الآن؟ عبرت ذهنها رؤية مسافر ينتظر في ممر ممتد بين حافتين. بعد حين، وبدافع قوة غريبة، سيخطو آخر الخطى التي تفصله عن الضفة الأخرى وسيختفي إلى الأبد. لكن متى؟

بضعة أيام... بضعة أشهر...، قال كلوت. وهكذا سيستمر ريكاردو في الحياة إلى أن يحين اليوم الذي يقرر فيه القدر أن يضع حداً لحياته.

أتريدون أن أقول لكم... ليس الخوف من أن أسافر من جديد هو الذي يقلقني... لا. ما يقلقني بالأحرى هو فكرة أن لا أعود سوى مريض عالة. لن أتحمل العيش جامداً. أبداً.

يحصل، أحياناً، أن أنظر إلى نفسي في المرآة. ماذا أرى؟ طيفاً يثخن وناراً تخمد ومستقبلي جامد والحاضر الذي لا يؤخذ بعين الاعتبار. الشيء

الوحيد الذي له أهمية هو مستقبل الفرد. ومنذ اللحظة التي نكف فيها عن أن نكون ذوي جدوى، نكون قد متنا.

انكمشت شهرزاد محاولة إخراس الصوت الذي يوشوش في أذنها.

سحبت كفٌّ مصراع الباب وولجت جيوفانا الغرفة. تقدمت محاذرة إلى أن أصبحت قريبة من السرير وظلت واقفة تنظر إلى صدر ريكاردو الذي يهتز بانتظام مدهش.

- أبي . . . قالت بصوت خفيض. نحن هنا، وغداً سيتحسن حالك.

* * *

لماذا تبكين يا ست هانم؟ السيد سيعيش. سترين. لن يسمح الله بأن يغادرنا أبداً.

رفعت شهرزاد وجهاً معتملاً نحو خديجة.

- نعم، إن شاء الله سيحيا.

ماذا كان عساها تقول أكثر من ذلك للخادمة العجوز؟ كانت الليلة الأولى قد انصرمت. الفجر ينير قمم الأشجار وكل شيء يبدو آخذاً مكانه. كل شيء ما عدا هذا الكرسي الذي اعتاد ريكاردو أن يقتعده ليتناول فطوره.

صبت جيوفانا لنفسها كأس حليب ساخن ووضعته أمامها دون أن تشربه. هذه الليلة التي قضتها عند قدمَي أبيها أشاختها بعشر سنوات. أما شهرزاد، من جهتها، فقد نامت إلى جانب زوجها وظلت محتفظة به في حضنها حتى بزغ الفجر كما لو كانت تهدهد طفلاً. ولو كان دخل أحد صدفة إلى الغرفة لكان ظن أن الأمر يتعلق بحارسين يحميان كنزاً ما.

- أتظنين أنه يعاني؟

لم تجب شهرزاد على الفور.

- لا أدري، يا ابنتي. أنا أحب أن أصدق ما قاله كلوت: «غياب الشعور بالعالم الخارجي.» ألم يقل هذا؟ أتصور أنه إن لم يكن يشعر بالراحة، فإنه لن يشعر بالمعاناة كذلك.

مررت جيوفانا كفها في خصلاتها الطويلة وظلت صامتة للحظة.

- أتدريان، قالت خديجة. سبق لي أن سمعت بحالة مثل هذه. يمكن لسكان قرية بني سويف أن يخبروكما بحكاية رجل؛ هو شيخ البلد نفسه،

أصيب بما أصيب به السيد. وسواء صدقتما أم لا، فقد عاش مائة سنة. أقسم لك سيدتي.

وكما لو لتعطي وزناً أكبر لتأكيداتها آتت حركة صليب، هي المسلمة.

- يمكن أن أكون ساذجة، قالت جيوفانا، لكنني لا أريد أن أقتنع بأن أبي سيظل على هذه الحال. سيتجاوز أزمته، أنا متأكدة من ذلك.

- أود أن لو كان لي إيمانك. لكنني للأسف لا أستطيع، فكلوت...

- كلوت يمكنه أن يخطئ! ألم يعترف بنفسه بأن معلوماته محدودة؟

حركت شهرزاد رأسها بغير اقتناع.

ظلت المرأتان صامتتين لمدة طويلة، شاردتين في أفكارهما. أخيراً جرعت جيوفانا دفعة واحدة كأس حليبها ووقفت.

- سأذهب لأراه، قالت بصوت متوتر. ألست بحاجة إلى شيء؟

- لا، شكراً. سأشرب قهوتي وألتحق بك.

- هي حزينة جداً، قالت خديجة وهي تنظر إلى جيوفانا تغادر الغرفة. كان أبوها كل شيء بالنسبة إليها.

كادت شهرزاد تعلق: «وبالنسبة إلي أنا؟»، لكنها أحجمت.

لا أتحمل العيش جامداً أبداً.

لماذا تعود هذه الكلمات التي تفوّه بها زوجها إلى ذاكرتها باستمرار؟ كانت بدت لها في البداية وكأنها تحذير، ومنذ هذا الصباح بدأت تصدي وكأنها دعاء.

* * *

تعاقبت الأيام والليالي دون أن يطرأ أي تحسن. تكررت زيارات كلوت، لكن مع كل زيارة من زياراته، كان الوهن يستقر عميقاً في الأذهان، وكانت القناعة الوحيدة التي تترسخ هي أن ريكاردو قد ضاع تماماً. كانت تلك قناعة الجميع، إلا جيوفانا التي ظلت، بعنادٍ مرعب، مؤمنة بأن معجزة ما قد تطرأ.

عند نهاية الأسبوع الثالث، ربما، وعندما استيقظت شهرزاد إلى جوار زوجها، صدمت، أكثر مما صدمت في الأيام السابقة، بالتحلل الجسدي البادي على زوجها. الشخص الممدد إلى جانبها لم يعد فيه شيء من الفينيسي المزهو بنفسه الذي عرفته.

اجتاحت الغرفة، ذاك الصباح، رائحة حموضة. لم تكن تلك المرة الأولى التي تشم شهرزاد هذه الرائحة. كانت قد اشتمت، لمرات متعددة، رائحة العفونة الحادة هذه. رفعت الغطاء. كان البول قد شكل لطخة مصفرة، ومن أسفل بطن ريكاردو تنبعث رائحة لا تحتمل.

لم تبد أي تقزز. شعرت فقط بالدموع تصعد إلى عينيها. لم يكن في نحيبها الذي تريد كتمه شعور بيأس كامل، فقط، وإنما كان تعبيراً أيضاً عن ثورة أمام هذا التلف الذي لحق الرجل المحبوب.

توجهت، كالسائرة في النوم، إلى الدولاب للبحث عن منامة وأغطية نقية.

عندما كانت تقلب الثياب عثرت على قارورة اللودانوم. هي آخر قارورة سلمها إياها الدكتور كلوت أثناء مرض يوسف. كانت قد استعملت بالكاد.

تُشربه ست قطرات عند مغيب الشمس، ثم يومياً، عند منتصف النهار وفي المساء. لكن احذروا تجاوز هذا القدر، فاللودانوم قاتل إن قدم بجرعات مبالغ فيها.

انسدت أصابعها على زجاجة القنينة. ضغطت حتى ازرقت أصابعها، ثم أرخت كفها كما لو أن الزجاج قد أحرقها، فأعادت إغلاق الدرج. شعرت على الفور بأن الأرض تميد تحت قدميها. عندما عادت على أعقابها قاطعت نظرتها نظرة ريكاردو. لم تعد نظرته ميتة؛ وُلدت بها شعلة تبرق في زرقة البؤبؤ، فلم تستطع أن تحسم إن كان الأمر يتعلق برجاء أم بتشجيع.

لا مجال للشك: رآها ريكاردو تمسك بالقارورة.

* * *

وضعت شهرزاد رأسها على كتف يوسف. كانت تريد أن تبكي لكن ما عادت لديها دموع.

- هل من حقنا أن نترك إنساناً ينزلق هكذا نحو الموت؟ قل لي يا يوسف، قل لي بأنني حمقاء!

أفهم ما تشعرين به وأطمئنك؛ فأنا أرى موقفك مبرَّراً.

- فكرتُ في القتل! أتسمع؟ عندما أمسكت بالقارورة في تجويف راحتي،

خيل إلي بأنني أمسك بخلاص ريكاردو! بالقدرة على وضع حد للإهانة التي يشعر بها!

أنَّت وهي تنسحب من ذراعي ابنها.

- أنا حمقاء...

- لا، أكرر لك. هذا إحساس إنساني. العجز أمام الضيق الذي يشعر به مَن نحبّ أمر رهيب.

- إلى درجة أن نفكر في سلبه الحياة؟ لقد فقدت رشدي.

- لا شك في إنسانية شعورك، أمي.

كانت جيوفانا واقفة على الباب تنظر إليهما مرعوبة.

تقدمت نحوهما وقالت:

- راودتك فعلاً فكرة قتله؟

- كان ذلك في ذهني بمثابة إعادته إلى الحياة.

- أنت إذن تضعين نفسك مكان الله؟ لكن بأي حق؟

- لا يتعلق الأمر بحق، يا جيوفانا، وإنما بشفقة وبحب. ألم تَرَي الحال التي أصبح عليها ريكاردو؟ ألم تسألي نفسك يوماً عما يمكن أن يكون يعانيه في أعماق قلبه؟

- أجاب الدكتور كلوت. هو لا يشعر بشيء.

- أيكفيك هذا التأكيد؟ شكل مهزول ممدد على السرير يتلف يوماً بعد يوم!

أرادت أن ترد لكن شهرزاد واصلت:

- أتعرفين مبادئ أبيك؟ أتعرفين مدى تعلقه باحترام الذات وبالشرف؟ أيمكن أن تؤكدي لي بأنه إن خُيِّر بين العيش ذليلاً والموت، لن يختار الحل الثاني؟ أنا أعرف! فقد قضيت إلى جانبه ما يقارب خمساً وعشرين سنة، وسمعته يفضي بفلسفته في الأشياء والحياة والموت.

- يمكننا أن نقضي ألف عام إلى جانب شخص دون أن نعرفه إلى تلك الدرجة.

أضحت ملامحها قاسية.

- لكن المشكلة لا تكمن ها هنا. يكفيك أن تعترفي بأنك قد تعبت من العناية به، فقد أصبح كل شيء واضحاً!

انتفض يوسف.

- اصمتي! أنت خسيسة! كيف تجرئين؟

- يتعلق الأمر بأبي؛ أبي أنا!!

وجهت سبابة متهمة نحو شهرزاد.

أحذرك أماه! أبعدي هذه الفكرة عن ذهنك. أبعديها وإلا ندمت عليها طول حياتك.

* * *

أوشك سبتمبر على نهايته. انثال مطر خفيف على إقامة الصباح فاستقبلته الأشجار المندهشة بارتياح. كانت آخر مرة سقط فيها مطر على القاهرة تعود إلى ست سنوات على الأقل.

حملت شهرزاد وخديجة ريكاردو وجعلتاه يتكئ بظهره على رأس السرير.

أخذت شهرزاد، فيما أصبح طقساً معتاداً، صحن الحليب بأصفر البيض والعسل وشرعت تُشرِب زوجها بملعقة.

- كيف ستصنعين عندما أنصرف؟ قالت الخادمة متأوهة. أنا منشغلة بما إذا كانت التي ستعوضني ستكون في المستوى.

- ستكون كذلك، لا تحملي همّاً.

- آمل أن لا تكوني غاضبة مني؛ فأنا لا خيار لي. أتفهمين؟ زوجي المسكين تقدم في السن وأنا سأبلغ الستين. حان وقت عودتنا إلى بني سويف. سننهي فيها أيامنا الأخيرة إن شاء الله.

كررت بإلحاح:

- تفهمين، أليس كذلك؟

- طبعاً يا خديجة، طبعاً. لكن هذا لا يمنع من أننا سنفتقدك.

- وأنا أيضاً سأفتقدكم! بعد أن قضيت أكثر من خمس عشرة سنة في خدمتكم... أصبحتم أسرتي الثانية.

أصدرت تنهيدة جديدة.

- آه فقط لو كنت سأنصرف من هنا خالية البال. إن استمرار حالة مرض سيدي يمزق قلبي. ماذا قال الدكتور كلوت بعد زيارته الأخيرة؟

ولأن شهرزاد لم تجبها، ألحت:

- ست هانم... أسمعتني؟ ماذا قال الدكتور كلوت؟

كان المطر يسقط بغزارة على المشهد.

- سيدتي...

وضعت شهرزاد الصحن على المائدة قرب السرير.

أدارت ببطء رأسها نحو الخادمة وأعلنت بصوت غريب في هدوئه:

- لقد غادرنا السيد.

الفصل الثلاثون

- قتلته!

تلفظت جيوفانا بالتهمة دون أن ترفع صوتها. لكن تحكُّمها في نفسها كان يشي بضراوة واضحة، تجعلها تبدو أكثر تهديداً مما لو كانت صرخت. كان الأمر يتعلق بغضب بارد وقاطع.

تأملتها شهرزاد ويوسف مرعوبين.

رد يوسف:

- أريد أن أصدق بأن الحزن هو ما يجعلك تهذين.
- لم يسبق لي قط أن كنت بهذا الوضوح في الرؤية.
- اسمعي يا جيوفانا، لقد تجاوزت كل حد. وأنا...
- لا جدوى من أن تحاول إقناعي! أنت تحت سيطرتها، مثلما كان أبي! هي مسيطرة عليك وتلعب بك كما كانت تلعب به! أنت لا ترى إلا من خلالها وتتحدث بكلماتها. أنت رهينة عندها تماماً كما كان ريكاردو رهينة عندها!

حاول يوسف أن يكبح الغضب المعتمل فيه.

- جيوفانا... أرجوك، حاولي أن تعودي إلى الواقع. أنت عبثية!
- عبثية!

حدجت أخاها، محتقنة الوجنتين. أدخلت يدها في جيبها وأخرجت قنينة اللودانوم.

- أنظر! أتتذكر هذا الشيء؟
- بالطبع. إنه الدواء الذي وصفه لي الدكتور كلوت.

- القنينة الثالثة. وأذكرك، إن كنت قد نسيت، بأنها كانت قد استُعملت بالكاد عندما شفيت.

- وإذن؟ ما الذي يعنيه ذلك؟

- انظر!!

فتحت القنينة أمام يوسف وأمالتها. كانت فارغة.

اعترض يوسف، مبلبلاً:

- أنا... ممكن أن تكوني مخطئة.

- لا يا ولدي، أكدت شهرزاد. كانت بين يدي. كانت منذ بضعة أسابيع ممتلئة.

- أترى؟ قالت جيوفانا كالمنتصرة. أتفهم الآن؟

- لا شك أن ثمة تفسيراً. ثمة أمر غائب عنا.

- ما يغيب عنك هو ما ترفض أن تقبله: لقد قتلت أبي!

- لا!!

كان صوت يوسف قد أضحى صراخاً.

- لا، هذا لا معنى له البتة!

أمسك فجأة بكف أمه.

- قولي لها يا أمي. قولي لها بأنها مخطئة!

اكتفت شهرزاد بتشبيك أصابعها.

- أرجوك، قال يوسف متوسلاً، قولي لها.

انتهت بأن أجابت بصوت ضعيف:

- مات ريكاردو... هذا كل ما أعرفه هذا المساء.

- أترى؟ ألحت جيوفانا. إنها لا تستطيع حتى أن تدافع عن نفسها أمام فظاعة ما اقترفته.

قررت شهرزاد أن تعقب:

- أنا لا أعرف أي جنية تسيطر على ذهنك. منذ سنوات وأنت تتهمينني بكل الشرور. منذ سنوات وأنت تحملين لي كراهية غير قابلة للتفسير. السؤال الوحيد الذي أطرحه على نفسي هو كيف تستطيعين أن تعيشي بكل هذه الكراهية في قلبك؟

ضغطت جيوفانا قبضتها وتقلص محياها. هل كانت تعمل على طرد دموع تراودها؟ هل هو رعبها من كلماتها هي نفسها؟ أم أن السم الذي، إن صدقت أمها، لا نهاية له هو الذي يحيلها على تلك الشاكلة؟

- سأنصرف من هنا. سأذهب بعد دفن أبي.

- ماذا؟ صاح يوسف.

- لا مجال لأن أعيش معكما تحت السقف نفسه. لن أعيش إلى جانب امرأة...

لم يتركها يوسف تنهي الكلمة المشؤومة. وقف وأمسك أخته من كتفيها ورجّها بعنف.

- أنت وحش! لا احترام لك للحداد الذي نعيشه؟

- كفى! أمرت شهرزاد.

غادرت الأريكة وانتصبت أمام جيوفانا.

- منذ مدة، وذات يوم من أيام أعياد الميلاد، كنتِ قد أخطرت أباك بهذه الرغبة نفسها. أتذكرين بما كان أجابك؟

«إذا أردت الانصراف... انصرفي. فقط عليك أن تعلمي بأن هناك حاجزاً عالياً عليك تجاوزه. قد أكون مت بنفران، لكن ذلك لا يكفي للأسف؛ كي تتجاوزي عتبة الصباح، سيكون من اللازم أن أموت مرة ثانية.»

سلطت عينيها على عيني ابنتها.

- واليوم، مات ريكاردو ماندرينو... ولا شيء يحول دون رغبتك.

* * *

٢ يناير ١٨٣٦.

اصطدم التابوت بحفرة القبر في صخب مكتوم. ما كانت عادت تمطر، غير أن لون السماء كان رمادياً.

انحنت شهرزاد، مسنودة بيوسف وكورين، وأمسكت بحفنة من تراب رمته على التابوت المصنوع من خشب شجر البلوط المزين بصليب مذهب. بعد ذلك، وعندما انسحب الزوجان، ظلت هي جامدة تتملى الحفرة السوداء

غير مبالية بصف الأشخاص الذين أتوا لإلقاء النظرة الأخيرة على تابوت ريكاردو ماندرينو.

كان الغائب الأكبر هو محمد علي. أناب الباشا العجوز عنه إبراهيم لأنه اضطر إلى البقاء بالإسكندرية بسبب قدوم ممثلي القوى العظمى.

اختلط الغرباء بالمقربين: لينانت وجوديث غريغوار والكولونيل سيف وفلاحو مزرعة الزهور الذين تنقلوا من الفيوم إلى القاهرة.

كانت جيوفانا المتشحة بالسواد تقف على الجهة الأخرى للقبر، قبالة شهرزاد.

شرع التراب يواري التابوت الذي بدا وكأنه يغوص ببطء في الأرض.

ربما كان ريكاردو ماندرينو، وهو محبوس في سجنه الخشبي، يندفع الآن نحو فينيسيا. أو من يدري؟ ربما كان هناك واقفاً، غير مرئي، بالقرب من شهرزاد.

عندما بدأ الجمع يتفرق، اقتربت جوديث من كورين التي تركها يوسف كي يذهب لتلقّي آخر التعازي.

- هذا يوم حزين للغاية. أنا متأسفة من أجلك ومن أجل عائلتك.

أجابت كورين بابتسامة مؤدبة.

- وأريد أن أخبرك أيضاً بأنني سأعود قريباً إلى فرنسا. لا أدري متى سنلتقي من جديد، لكنني آمل أن تأتي لزيارتي في باريس، إن حدث ذات يوم أن زرتها مع زوجك.

- ستغادرين مصر؟

- نعم. ما عاد بالإمكان أن نواصل مهمتنا ها هنا. ما عادت لنا إمكانيات للقيام بذلك. لقد قضى الوباء، كما تعلمين، على غالبيتنا، والذين نجوا يوجدون في حالة تعب ومحبطون. استولى الشك عليهم. لكن هذه البعثة لم تكن من دون جدوى.

دققت ببعض الفخر:

- وأكثر من ذلك، فنحن قد حصلنا على شهادة موقعة بيد الدكتور كلوت تؤكد أن سوزان وأنا قد تابعنا دروساً في شعبة القابلات، وأننا قد مارسنا هذه

المهنة بنجاح. وقد سنحت لي الفرصة حتى أن أمارس كفاءتي على سوزان. لقد ولدت منذ أيام طفلاً سمته الفريد شارل بروسبير.

- لا جدوى من السؤال عمن يكون أبوه!

- أتشكين في ذلك؟

- هكذا يكون الحلم قد انتهى... والسيد أونفنتان؟ سيعود هو أيضاً إلى باريس؟

- نعم. لقد أَفْتَرَ حماسَتَه توقفُ ورش السد.

- وما الذي طرأ في قضية البحث عن المرأة المخلِّصة؟

- سيواصله البعض، حتماً، في مكان آخر... بأمريكا الشمالية أو الجنوبية أو بأوسيانيا. لكن الحقيقة هي أن الفكرة فشلت، وقد شرع عدد من إخواننا بفرنسا ينادون أكثر فأكثر بأن الأم هي كل النساء وليست امرأة واحدة ناتجة عن استيهام ذكوري. ها أنت ترين أن الأمر قد أضحى إفلاساً.

- نعم، وهو أمر مخيب للأمل... للأسف. كنت دائماً أعارض انحراف نظرياتكم، لكن ذلك لا يمنع من أن ما صارعتم من أجله من عالم أكثر إنسانية يبقى أمراً نبيلاً في حد ذاته. وربما استطاعت فكرة السانسيمونيين، يوماً، وفي مكان آخر، أن تنتشر مجردة من الزوائد التي قدر البعض أن من الجيد إضافتها إليها. وعلى أي حال، فهذه هي أمنيتي الأغلى. وأنا جادة في ذلك.

وضعت جوديث قبلة عل خد صديقتها.

- وداعاً كورين. وكما يقول أناس بلدك: الله كريم.

المقبرة خالية الآن.

أعربت شهرزاد عن رغبتها في أن تبقى وحيدة. تمدد ظلها الطويل المقنع على قدم قبر ريكاردو مثل شجرة سرو سوداء صلبة تكتنفها أشعة الشمس الغاربة.

لا شيء، هذه المرة، يمكنه أن يعيد إليها زوجها. لا السفر إلى موري ولا النزول إلى هاوية نفران. لا وقت لديها، هذه المرة، كي ترسم بيدها المرتعشة اسم فرا ماتيو دي باسكيو. كما أنه لا وجود هذه المرة لامرأة يونانية أو راهب يسمحان لها بالسير في أثر ماندرينو.

ومع ذلك، فقد ركزت كل انتباهها، وبكل قوة، على كتلة التراب التي

يرقد التابوت تحتها. ماذا تنتظر؟ أن تُجَن؟ أم، على الأرجح، أن يأتي الشيء الذي أخذ ماندرينو كي يحملها هي بدورها. نعم. لا تناوب. وإذن فقد تبتلت، تبتلت أن تتحول السنوات التي تفصلها عن تلك اللحظة إلى أيام والأيام إلى ساعات والساعات إلى ثوان.

لو كان بإمكانها فقط أن تحصل على ذلك المخدر المعجز! لكن القنينة كانت فارغة. ستجثو، إن اقتضى الأمر، عند قدمي الدكتور كلوت أو أي طبيب آخر، كي يستجيب لرجائها.

غداً ربما... أو هذا المساء.

* * *

الإسكندرية، قصر رأس التين، ٧ يناير ١٨٣٦.

كان محمد علي يتأمل ذهاب الأمواج وجيئتها، متكئاً بمرفقيه على النافذة. فجأة وضع وجهه بين كفيه كما ليمسك بالانفعال الذي ينضح منه.

اقترب إبراهيم منه ووقف باحترام إلى جانبه، متحاشياً مقاطعة تأمل والده. وعلى أي حال، ماذا كان بإمكانه أن يقوله له كي يهدئ من حزنه؟ فرغم أن اختفاء ماندرينو كان منتظراً، فإنه قد ترك فيه أبلغ الأثر.

أكثر من ثلاثين سنة من الصداقة تنتهي وتنطفئ بفعل هبوب رياح الموت!

- انتزع مني ابني إسماعيل، وتبعه توسون. واليوم يأخذ مني الرجل الذي أحببته أكثر مما لو كان من دمي. عزائي الوحيد هو أن ساعتي أنا أيضاً ستأتي.

- أبي... فكر في ريكاردو. ما كان ليقبل أن تتحدث بهذه الطريقة. ستعيش طويلاً، من أجل أسرتك ومن أجل مصر.

- مصر؟...

التفت نحوه بحركة متعبة وأراه يديه.

- ها هي ذي مصر... لحم مغضن يزيده الزمن تغضناً كل يوم. قريباً سينضب الدم الذي يجري في عروقها وسيصبح اللحم هباءً.

اتكأ من جديد على حافة النافذة وقال بصوت يكاد يكون غير مسموع:

- ربما أكون قد ذهبت أبعد من اللازم. أردت الاقتراب من الإسكندر ومن كبار الفاتحين، وها أنذا الآن أقع كما وقعوا، في فخ فتوحاتي.

- لم يكن لك الخيار يا أبي.
- أتدري ما الذي يكنيني الشعب؟ ظالم باشا. الشعب لا يغفر لي تأميمي لموارد البلد وكسري الممنهج لكل معارضة.
- أكرر لك: لم يكن لك خيار. هذا هو مقابل الاستيلاء على هذه الأرض. لم تكن فتوحاتك إلا سلسلة من الحروب التي فُرِضَت عليك بطريقة غير مباشرة. أما بالنسبة للفخ الذي تحدثت عنه لتوك، فأنت تعلم بأن القوى العظمى هي التي تبقيك فيه.
أوقفه محمد علي.
- دع عنك هذا يا ولدي. لا رغبة لي في الحديث في السياسة. يحط موت ريكاردو على قلبي مثل كفن.
قال فجأة:
- وأسرته... شهرزاد. أريدك أن تهتم بها شخصياً. يجب ألا يحتاجوا إلى شيء، أتسمعني؟
- فعلاً يا أبي، وابنة ريكاردو موجودة هنا.
- جيوفانا؟ لكن ما الذي تصنعه هنا؟
- لا أدري. كبير الحجّاب هو من استقبلها. تطلب لقاءك.
- هيا! ليدخلوها فوراً. هيا يا إبراهيم.

* * *

- أواعية أنت بما تطلبينه مني؟
- نعم يا صاحب الجلالة. ما عاد لي من خيار. أرجوك.
ضم محمد علي بعصبية كفيه على ذراعي الأريكة. كان يبدو أكثر ضياعاً من جيوفانا.
- أتعرفين بأنك بمغادرتك للصباح تكونين قد أحزنت أمك للمرة الثانية؟ أتعرفين ذلك؟
- أنت إذن لم تدرك المسألة. لقد قتَلَت أبي.
- مجنونة! كيف أمكنك أن تتصوري بأن أمك قد تكون ارتكبت جرماً مثل هذا؟ كان ريكاردو جسدها، الدم الذي يجري في عروقها!

- لذلك لم تتحمل الحال التي أصبح عليها. كان عليك أن تراه ممدداً في تلك الغرفة. ما كان عاد فيه شيء من إنسان! كان...

- كان دائماً ريكاردو ماندرينو!! مهما كان ما تلمحين إليه، كان هَوَ!

- اللودانوم... لقد شرحت لك بأن القنينة كانت فارغة. كانت قد تطرقت مع يوسف، أياماً قبل ذلك، وبوضوح، لقضية وضع حد لمرض والدي.

- بلاهات! كلمات امرأة تعاني! ألم تعاني أنت أبداً؟

- «عندما أمسكت بالقارورة في تجويف راحتي، خيل إلي بأنني أمسك بخلاص ريكاردو»، هذه كلماتها عينها.

- أكرر لك! قال نائب السلطان بصوت مرتفع، ما كانت شهرزاد أبداً لتؤتي شيئاً مثل هذا. كانت تحبه حباً شديداً.

- وماذا لو كانت قد قتلته بدافع الحب؟ أطرحت هذا السؤال على نفسك؟

بدا الباشا، فجأة، وكأنه قد أفحم، كما لو أن هذه الحجة الأخيرة قد هزت يقينياته.

ألحت جيوفانا وهي تشعر أنها قد حققت فوزاً:

- كان ريكاردو بالنسبة إليها المبتدأ والمنتهى. كان الداعي الوحيد لعيشها. كانت فخورة به؛ فخورة بأن تعرف أنه قوي لا يقهر. لم تتحمل أن تراه يذوي وأن لا يعود سوى جثة مهزولة تحتضر على السرير.

قطب العاهل حاجبيه. ما عاد يعرف أين توجد الحقيقة. عقب بنبرة مستنكرة:

- مهما يكن حال من نحب، فلا يمكن لأقاربه أن يكونوا طرفاً وحكماً. الله تعالى هو الذي يهب الحياة وهو الذي يملك قدرة أخذها.

وافقت جيوفانا على قوله بصمت.

- جيد! قال بنفاد صبر مفاجئ. لا تريدين العودة للعيش في الصباح؟

أجابت بـ«نعم»

- إن كان لك مزاج أمك نفسه، فأنا أستخلص أنني إن سددت الباب في وجهك ستذهبين لتضيعي حيث لا أدري.

- نعم، جلالتك.

- ليكن! يمكنك أن تبقي برأس التين.

ثم دقق على الفور:

- غير أن لي شرطاً. لا مجال لأن تعيشي حياة بطالة. لم أفكر بعد في الطريقة التي أحيلك بها ذات جدوى، لكنني سأجدها وسأنتظر منك أن تؤدي المهمة التي ستسند إليك بصرامة كاملة. هل أنت موافقة؟

- سأقوم بكل ما تشاؤون.

- ممتاز...

غادر الأريكة وخطا بضع خطوات في الغرفة ويداه معقودتان خلفه.

- لكن ما الذي يحصل للدنيا؟ أيكون الناس قد جنوا؟ أن تنفجر إمبراطورية، فتلك هي الغرامة التي تُؤَدى للتاريخ. أن يأخذ الموت من نحب، فذلك هو القانون الأبدي لله. لكن أن تصل ابنة إلى درجة احتقار أمها، فتلك أم الشتائم.

أنهى كلامه بصوت مكتوم:

- ليحفظنا الله يا ابنة ماندرينو.

الفصل الواحد والثلاثون

الإسكندرية، ١ أكتوبر ١٨٣٨.

كان الرذاذ يلطم بعنف خدي القنصل العام الفرنسي السيد كوشلي. كان محاطاً بحارسين وهو يقطع مرتعشاً الأمتار الأخيرة التي تفصله عن الكوخ المنشأ في أقصى جنوب ورشة بناء السفن.

والحقيقة أن ما كان يرعشه إلى تلك الدرجة ليس هو ريح الخريف، وإنما مضمون الرسالة الثاوية في محفظته الجلدية السوداء.

فُتح الباب ودخل كوشلي فوجد نفسه على الفور وجهاً لوجه مع نائب السلطان. كان هذا الأخير واقفاً يده موضوعة بلا مبالاة على كرسي من سوحر، ومن حزامه يتدلى سيف.

- تفضل بالجلوس يا سيد كوشلي.

وفي الوقت الذي كان القنصل يأخذ مكانه على كرسي، واصل محمد علي:

- أتدري في أي شيء كنت أفكر قبل مقدمك؟

خطا خطوة نحو النافذة المطلة على ورشة بناء السفن، حيث كانت تبدو سفن قيد البناء.

- أقول عندما أنظر إلى هذه السفن بأن بإمكان بلدك أن يكون فخوراً بعبقريته. فلولا مساهمة مواطنك السيد دي سريزي لما رأى ورش بناء السفن هذا النور. إن شيئاً من مجد فرنسا يكبر على أرض مصر.

- أنا متأثر بملاحظتكم يا صاحب الجلالة. وأعلم أنها ملاحظة جدية.

- كيف حال السيد مولي؟

- جيدة، سيدي.

- أنا آسف بعض الشيء على استقالة سابقه السيد تييرس. ليس لأن وزيركم الأول الجديد يفتقر إلى الكفاءة، لكنني أجده، إن غفرتم لي استعمال الكلمة، متردداً بعض الشيء. فتحفّظه في التدخل لصالح الثورات خارج فرنسا لا تنبئ بخير فيما يتعلق ببلادي. هل أنا مخطئ؟

- أعتقد أنك، بالفعل، على حق. وعلى أي حال، فإن هذا سيؤكد لكم ذلك.

بحث في محفظته وأخرج رسالة مدها إلى محمد علي. أمسكها الباشا ووضعها أمامه دون أن يفتح الغلاف.

- ألا تقرأها، يا صاحب الجلالة؟

- ما الفائدة؟ أنا أعرف مسبقاً مضمونها. أتريد أن ألخصه لك؟ إن الحكومة الفرنسية قد قررت بشكل صارم، في حال مواصلتي لمشروعي الاستقلالي، ليس فقط أن لا تأخذ بعين الاعتبار الوضعية الجديدة التي سأتخذها، وإنما قررت أيضاً أن تنظر إلى هذه الخطوة على أنها لاغية، وستكون مستعدة لأن تعارضها بكل الوسائل التي في حوزتها، بدءاً بإرسال أسطول قبالة الإسكندرية وإلى الشواطئ السورية. وينتهي المطوي بطلب تقديم جواب صريح يضع حداً لكل حالة غموض.

صمت للحظة ثم سأل مع ابتسامة محدودة:

- أهذا بالضبط ما يكتبه لي السيد مولي؟

- حرفياً، تقريباً، سيدي.

- للتقدم في السن مساوئ كثيرة، غير أن له، مع ذلك، بعض الحسنات التي منها استباق أفكار الآخرين. وكيفما كان الحال، فإن لي خبراً مهماً أريد أن أزفه إليك: زارني، أمس، مبعوث من الباب، هو صارم أفندي. كلفه السلطان بالتفاوض حول اتفاق.

- أي اتفاق؟

- الباب العالي مستعد لمنح حق الوراثة لسلالتي. وأنا مطالب، في المقابل، بإعادة سوريا والسودان واليمن... في كلمة، تفتيت الإمبراطورية

المصرية. وعليَّ، بالطبع، أن أتخلى بصفة نهائية عن مشروع الاستقلال.

- وبماذا أجبتموه؟

- وأنت يا سيد كوشلي، بماذا ستجيب إن طلب منك ان تتخلى فرنسا عن الجزائر وعن غالبية مستعمراتها، مقابل أن يعترف العالم بأنها أمة حرة ومستقلة؟

ظل القنصل صامتاً.

- أخبرت السلطان طبعاً بأنني لا أزمع أبداً التخلي عن أقل جزء مما أملكه.

- غير أنني، سعادتكم، أثير انتباهكم إلى أن حق الإرث ورقة علينا أن لا نهملها. فهي ستمثل إيجابيةَ احترام الوحدة الترابية العثمانية، على الأقل في حدودها الدنيا، وهو ما تطالب به القوى العظمى.

- أنت تريدني أن أضحي، مقابل الاحتفاظ بحظوة أوروبا، بالأراضي التي فتحتها بدم أبنائي؟

- إن إرادتكم لا تحظى، للأسف، بوزن كاف أمام اعتراض أمتيْ بلادي وإنجلترا.

ضغط الباشا بتشنج على مقبض سيفه وعلق بصوت ضعيف:

- إنجلترا... واللورد بالمرستون الغالي. مواطنوكم أناس لينون يا سيد كوشلي. فأنتم تسعون، عن حسن نية، إلى الإخطار بأزمة وشيكة الوقوع، أما البريطانيون، من جهتهم، فليست لهم سوى فكرة واحدة ثابتة: هم يريدون اندلاع حرب بين بلدي وتركيا، حتى يحصلوا على المبرر الذي طالما تمنوه كي يكسروا شوكتي ويحتلوا مصر. وإن كنت تريد رأيي، فإنني أخشى أن يكون مآل فرنسا خيبات عظيمة.

ثم واصل سائلاً بصوت مرتفع:

- أي سحر أوصل بلدكم إلى أن يقاسم شخصية مثل اللورد بالمرستون آراءه؟ وسعياً لتحقيق أي رهان أصبحت مصر مهراً لزواجهما غير الطبيعي؟

نكس القنصل رأسه قليلاً كما لو ليعترف بعجزه.

- إن جرؤت، قلت لكم بأنكم أول ضحية لما يسمى بالنظام العالمي الجديد، أو إن شئتم لهذا التفاهم الودي الذي يجمع من مدة قصيرة بين بلدي

وإنجلترا. هذه هي الحال. كان على فرنسا أن تخرج من العزلة الدبلوماسية التي قادتها إليها ثورتها الأخيرة.

- مهما كان الثمن؟

- لا أدري. . .

صمت كوشلي للحظة ثم واصل بصوت عصبي منخفض:

- على أي حال، أسر لكم بشعور شخصي، جلالتكم، اعلموا أنني أؤيد كلية استقلالكم. أنا متأكد من أنه ليس في مصلحتكم أنتم وحسب وإنما في مصلحة أوروبا أجمعها؛ إذ ستربح منه التخلص من هذه المشاكل الشرقية. إن تفسخاً مفاجئاً قد يؤدي إلى اضطرابات في علاقاتها السياسية.

- لكنك لست، للأسف، الوزير الأول الفرنسي.

- أنتم، جلالتكم، تتساءلون عن السبب الذي جعل بلدي يتخذ هذا الموقف منكم.

- وقد أجبتني: تفاهم ودي.

- نعم، لكن ذلك ليس كل شيء.

- أنا أستمع إليك.

تحاشى كوشلي النظرة المتجمدة للعاهل.

- القوى العظمى على يقين من أنكم - من يوم لآخر - ستعلنون العصيان على تركيا وستأخذون بالقوة ما لا يُعتَرف لكم به. لقد استقرت الإشاعة في كل المستشاريات الغربية، حتى أصبحت شديدة القوة. وستفهمون بسهولة أن معارضة مشروعكم في ظل هذه الظروف، ستصبح قوية، وسترمى سياستكم بأسوأ النعوت. الشرق، يا سيدي، معتز بنفسه، والغرب لا يقل عنه في ذلك شيئاً. وهو يرفض ما يعتبره مساومة.

جحظت عينا الباشا مدهوشاً.

- ماذا تقولون؟ أنا، قد أكون مستعداً لإعلان الحرب؟

- لا أفعل، سيدي، غير أن أخبركم بالشعور السائد.

- ألهذا السبب يرفضون لي كل حظ في التفاوض؟ ألهذا السبب ولت فرنسا وجهتها تجاه إنجلترا؟

رفع كوشلي حاجبيه مضايقاً.

- هذا، على الأقل، سبب من الأسباب.
ساد، في الكوخ، صمت طويل مكسور، بالكاد، بصوت تلاطم الأمواج.
- جيد، يا سيد كوشلي. سأقدم للعالم دليلاً على حسن نيتي. سأسكت هذه الإشاعة التي تتحدثون عنها.
لامس قبضة حسامه وتابع بنبرة قريبة من المرارة، لكنها تعرب عن عمق حزنه.
- سأغادر مصر.
ظن القنصل أنه لم يسمع جيداً.
- سأغادر مصر. سأنصرف لبعض الوقت حتى لا يعودون إلى اتهامي بأنني أوقد نار الحرب. سأرتهن بكرم القوى العظمى وسأمكنها من الوقت الكافي حتى تقرر في مصيري. هي التي ستقرر ما الذي سيحصل. فإما أن تمكنني من الحق في الكرامة وتسمح لي بمواصلة مهمتي في نشر الحضارة في ظل السلم والأمان، وإما...
- لكن إلى أين ستتوجهون جلالتكم؟
- اطمئنوا يا سيد كوشلي، وطمئنوا المستشاريات أيضاً والسيد مولي واللورد بالمرستون ومترنيخ والقيصر. فأنا لن أجتاح أوروبا.

* * *

- هل ستذهبين معي يا جيوفانا؟
- أذهب؟ لكن إلى أي بلد؟ ومتى؟
- السودان، خلال الأيام القادمة.
اقتربت الفتاة، مبلبلة بعض الشيء، من العاهل.
دعاها للقعود إلى جانبه على أريكة البروكار.
- اعذروا فضولي، سموكم، لكن ما الداعي إلى هذا السفر إلى السودان؟
- الرغبة في أن أرى عن قرب كيف تعيش هذه الأرض منذ أن أصبحت جزءاً من مصر. الرغبة في أن أتأكد بنفسي مما إذا كان الحكام الجدد قد وضعوا حداً للسياسة المالية التعسفية التي طبقها سابقوهم، وأن أتأكد من أن العوز والرشوة قد اختفيا، وأن أرى أيضاً إن كان الناس يعاملون بعدل. أنت لا تعلمين أنني قد عينت منذ حوالي عشر سنوات مسؤولين كي يشجعوا الناس

على فلاحة الأرض وكي يعلّموا السودانيين الصناعة، وخصوصاً صناعة الخزف والمنشآت البحرية. ومن جهة أخرى...

عَبَرَ بريق باسم بؤبؤيه.

- سمعت باستمرار اهتمام الغربيين بمنابع النيل. هي ما تزال مجهولة حتى هذه اللحظة؟ لماذا لا نعمل على استكشافها؟

ثم سارع إلى طمأنة جيوفانا، بعد أن رأى انتفاضتها.

- لا تخشي شيئاً. أيامي معدودة، فأنا في السبعين من عمري. نحن لن نتجاوز النيل الأبيض. هيه! ما رأيك في هذا المشروع؟

- أجده رائعاً، سيدي. وستكون متعة بالنسبة إليّ أن أكتشف السودان.

- ممتاز...

كبت ارتعاشة فأشار إلى موقد في زاوية من الغرفة.

- أوقديه، أرجوك. أشعر أنني مثلج.

نفذت ما طلبه منها. وأثناء وضعها للفحم سأل بفتور:

- هل لك أخبار عن أخيك؟

- لا، سيدي. آخر مرة حدثته فيها تعود إلى أكثر من عامين.

- عندما أتى يرجو منك أن تعودي إلى الصباح، أليس كذلك؟

- بلى.

- سنتان وحوالي ثمانية أشهر... الزمن ينصرم بسرعة غريبة.

- بدون شك. أنا لا ألتفت لذلك.

- نعم! من إيجابيات الشباب غياب مفهوم الزمن. عندما ستتجاوزين الأربعين ستشرعين ترتعشين. آنذاك ستلتفتين لتتأملي الطريق الذي قطعته وسيأخذك الدوار.

نثرت نجارة خشب بين الفحم وأوقدت النار.

- أرى أنك قد أصبحت خبيرة في إيقاد النار، قال الباشا مازحاً.

- العادة، سيدي. هل أنت بحاجة إلى شيء آخر؟

أتى حركة نفي.

- لكن لا تذهبي على الفور.

جلست ساقاها مثنيتان تحتها، عند قدمي العاهل.

- أتتني أنباء عن محظيّك.
- محظيي؟
- سعيد، ولدي... أتكونين قد نسيته؟
- بالطبع لا. هو موجود دائماً بسانت سير.
- وبدين كالعادة. الآن، إذْ لا أحدَ يراقبه، قد يكون أخذ حريته كاملة.
- متى سيعود إلى مصر؟
- ليس قبل أن ينهي دراسته وتكوينه العسكري. وأريده بعد ذلك أن يجول العالم قليلاً.
- هو سعيد؟
- أتصور أنه سعيد. لكن هل الأمر مهم إلى هذه الدرجة؟ الشيء الوحيد الذي يؤخذ بعين الاعتبار هو أن يكون مزاجه يميل نحو الشعور بالواجب. ففي يوم من الأيام، وبعد إبراهيم، سيأتي دوره في أن يحكم مصر، وعليه أن يُظهر بأنه أهل للمسؤولية.
- يجب أيضاً أن يشعر بأنه محبوب. لا أعتقد أن بإمكان أحد أن ينجز شيئاً ذا بال إذا لم يشعر أنه مكتنف بالحنان.
مسد ببطء لحيته الحريرية.
- أنا أعرف شخصاً لم يحظ يوماً بحنان أو لم يحظ منه إلا بالقليل.
- أنتم لا تتحدثون عن نفسكم، سيدي؟
- أوه، أنا أُترعت حناناً؛ أبنائي يجلونني أو على الأقل، أنا أتصور ذلك. أما زوجاتي...
هزته ضحكة.
- بين الألبانية والشركسية وكل هذه الكائنات التي تنام في إقامة الحريم - أنا أتصور أن حنانهن جميعاً قد يكفيني وزيادة للسنوات القليلة التي سأعيشها.
استعاد نبرُه جديته.
- لا يتعلق الأمر بي، ولكن بامرأة تتجاوزهن جميعاً، بطريقتها الخاصة.
نكست جيوفانا بصرها.
- ألا تفتقدين أمك؟
أبدى، أمام صمتها، تعجباً منزعجاً:

- ما هذا يا ابنة ماندرينو! أنا أسعد بإثارتك للحنان عندما تتحدثين عن سعيد! لكن ماذا بالنسبة لشهرزاد؟ ألا تعتقدين بأنها بحاجة لأن تُحَبَّ هي أيضاً؟

- عليها أن تُبادِلَ هذا الحب. والحال أنها لا تستطيع. قدمت حبها كله لريكاردو وما عاد لها منه شيء لأحد؛ ولي أنا بالخصوص.

- كلمات جوفاء! لو لم تكن تحبك لما عانت من فراقك!

- ما أدراكم، جلالتكم! هل سألت عني حتى؟ هل سبق لها أن كتبت؟

أبدى الباشا تردداً طفيفاً.

- قد تكون مجروحة! وقد تكون آلمتها قطيعتك إلى درجة أنها فضلت الانكفاء في صمتها.

- اسمعوا، سموكم. لقد حرمتني من أبي حياً؛ استولت عليه ولم تترك لي منه سوى مزق حنان. ثم أصرت فاقترفت جرماً في حق الله وفي حق حياته. إذا كنتم أنتم من الشهامة بحيث تغفرون فعلاً بهذه الدمامة، فذاك شأنكم. لكن لا تطلبوا مني أن أقوم بالمثل!

صمتت وتنفست ثم أضافت بصوت متعب:

- أرجوك. لنغير الموضوع. نعرف، أنتم وأنا، بأننا كلما أثرنا هذا الموضع انتهينا بالتلفظ بكلمات مؤذية. هل يمكنني، الآن، أن أنسحب، سيدي؟ إن خازنكم ينتظرني.

- غربيس بيك؟ يبدو، في الظاهر، راضياً عن الطريقة التي تديرين بها شؤون إدارة القصر. هنيئاً لك. عندما وليتك هذه المسؤولية لم أكن أتصور أنك ستضطلعين بها بهذه الطريقة الجيدة.

- أترون! لست تلك الفتاة الضائعة التي أبدوها. غير أن عليّ أن أعترف بأنني ما كنت لأتجنب الضياع لولا نصائح السيد غربيس الثمينة. إنه يملك تلك القدرات التي لا تكون إلا لكبار رجال المالية.

أبدى العاهل دمدمة، بينما كانت هي تنتصب واقفة.

- إلى اللقاء يا صاحب الجلالة.

عندما بقي وحده ظل جامداً للحظة، ثم توجَّه نحو ستارة منسدلة على طول الجدار. سحبها كاشفاً عن باب مستتر.

- ادخلي.

بدت المرأة على الفور. بدأت تستطلع القاعة كما لو لتتأكد من أن لا أحد، غيرها وغير العاهل، موجود، ثم تقدمت.

عانقها بحنان.

- كيف حالك، يا ابنتي؟

- جيدة، سيدي. أشكرك.

- دعيني أنظر إليك، قال وهو يتقهقر قليلاً. قطب حاجبيه قليلاً.

- أنت دائماً جميلة للغاية.

- أنتم لا تجيدون الكذب، سيدي. لكن نيتكم حسنة.

- لماذا سأكذب؟ نحن لسنا في السياسة! أنت فعلاً مُشعة.

كان في الآن نفسه الذي يتلفظ بهذه الكلمات، يبذل مجهوداً جباراً كي لا يبدو عليه شيء مما يشعر به من رعب. هل شهرزاد نفسها هي التي توجد أمامه فعلاً؟ هل هذه هي المرأة ذات الجذب الأسطوري التي تعرف عليها وهي في قمة جمالها؟ لا ليست شهرزاد هي هذا الشخص المهزول ذا الوجه المخطط بالتجاعيد! لا! إنه قد يكون فريسة وهم.

تماسك، مع ذلك، وأبدى مرحاً.

- أنا آسف على أنني لست في العشرين من عمري...

قاطعته.

- كيف حالها؟

- مثل شخص يوجد على عتبة بيت ولا يجرؤ على ولوجه.

- مما يعني؟

- هي تبحث عن نفسها. تتلمس طريقها. لكنني أعتقد أنها ليست بعيدة عن إدراك سكينتها.

عدلت شهرزاد من الشال الأسود الذي يغطي كتفيها.

- وصحتها؟ أليست في حاجة إلى شيء؟

- سؤال غريب! أليست في حماية محمد علي؟ كل شيء ملك يمينها، اطمئني.

توجَّه للجلوس خلف مكتبه.

- أتشربين شيئاً؟ شاي؟
- لا، جلالتك، شكراً.
- ومع ذلك، فقد كنت تحبين الشاي قديماً.
- وعملها، هل أنت راض عنه؟
- هي في المستوى تماماً. منضبطة ومنظمة، وبالخصوص إنسانية بشكل لا يتصور مع مرؤوسيها؛ وهو ما فاجأني أكثر. فغالباً ما تصلني أصداء أو إشارة أو فعل كريم تقوم به هنا أو هناك. وهذا أمر غريب للغاية إذا كنا نعرف قساوة طبعها.
- أنتم مخطئون. لا يتعلق الأمر، عند جيوفانا، بقسوة، وإنما بطبع فقط. فللبعض صورة قصب، في حين يشبه آخرون شجر البلوط؛ هو صلب، لكنه ليس قاسياً. يوسف، من جهته، قصبة.
- وأنت يا شهرزاد، ما أنت؟
افترت شفتاها ببسمة.
- أنا قد أكون قريبة، بالتأكيد، من شجر البلوط.
- هذا ما كنت أقوله لنفسي.
مال نحوها.
- والآن، حدثيني قليلاً عن حياتك. كيف تقضين أيامك؟
- أهتم بالإقامة. أمشي في الصحراء. أتأمل وأنتظر.
قطب حاجبيه.
- تنتظرين؟
- الطفل الذي سيولد.
تضاعفت حيرته.
- عن أي طفل تتحدثين؟
- طفل كورين. هي حامل منذ سبعة أشهر.
انفجر ضاحكاً.
- ستصبحين جدة؟
- يبدو أن ذلك يسليك.
- وماذا تريدين! ما تصورت يوماً أن أراك في هذه الوضعية. كنت تنتمين

إلى ذلك النوع من النساء اللائي لا يتقدم الزمن بهن، ولا تدركهن أمور الحياة هذه.

- إن أجدت الفهم، فأنا بالنسبة إليكم لا يمكنني أن أكون إلا زوجة وعشيقة، فقط.

- هذه، بالفعل، هي الصورة التي كانت لي عنك. صورة عاشقة كبرى.

فكرت شهرزاد وهي تنظر إليه.

- جيوفانا، في آخر المطاف، هي التي قد تكون أصابت. فهي لم تنظر لي، في العمق، أبداً على أنني أمها. فهي، مثلكم، لم تر فيَّ أبداً أي شيء آخر غير هذه العاشقة التي تتحدث عنها.

- هذا ممكن، وماذا في الأمر؟

ضربت ببطن كفها على مكتب العاهل.

- ألا تفهمون إذن؟ كل المأساة التي نعيشها تنبع من سوء التفاهم المرعب هذا! أنا أحبها؛ أحب ابنتي! هي لم تعتبر الحب الذي منحتها إياه إلا نوعاً من الهدنة أو بالأحرى نوعاً من التحالف مما ينشأ بين خصمين. غير أنني، مع ذلك، أمها.

كانت قد تحدثت بحرارة فشرعت يداها ترتعشان.

- لا جدوى من أن تضعي نفسك في هذه الحالة ولا أن تجتري الماضي. أنت كنت ما شئت أن تكونيه، وذات يوم ستفهم جيوفانا.

- سيكون الوقت متأخراً.

- شهرزاد...

- سيكون الوقت متاخراً، أقولها لكم ثانية!

رفع ذراعيه وتركهما تسقطان بقدرية.

- الله وحده يعلم.

واصل كما لو ليبعد الجو عن توتره.

- هل أخبرك يوسف؟ سنواصل، ربما، الأشغال على ورش السد. لقد قدما لي، هو ولينانت، وبطلب مني، دراسة جديدة حول المشروع. وحسب رأيهما، فإن ثلاث سنوات عوض خمس ستكون ضرورية للتقليل من المصاريف بفضل إنشاء مليون وخمسمائة فدان.

- لماذا تترددون، ما دام الأمر كذلك؟

- لأن الأشغال ستكلف ما يقارب مليوني قرش ولأن مالية الدولة توجد في أسوأ حالاتها، وستظل كذلك ما دامت القوى العظمى لم تضع حدّاً للحال التي وضعتني فيها.

- أفهم...

كان جوابها لياقة أكثر منه مساندة.

- ما بك يا شهرزاد؟ أنت غائبة عن العالم.

- العالم... أينَ مكاني في العالم؟ الأيام تشبه الليالي والمشاهد تتشح باللون نفسه. أزور كلَّ يومِ أحدٍ قبر ريكاردو. هل تدرون...؟

نكست جفنيها كما لو كانت خجولة من اعترافها.

- هي اللحظات الوحيدة التي أشعر أنني أعيش خلالها.

اعتدل في كرسيه وانضمت كفه على قلم موضوع على المكتب.

- ثمة سؤال لم يسبق لي أن طرحته عليك...

ضغط بعصبية على الشيء المعدني.

- هل وضعتِ، فعلاً، حداً لمعاناة ريكاردو ماندرينو؟

رفعت رأسها نحوه. كان لونها من البياض حتى لأصبح ممكناً القول بأن الدم قد فر من وجهها.

- ماذا قلتم، جلالتكم؟

الفصل الثاني والثلاثون

الإسكندرية، قصر رأس التين، ٢٦ يونيو ١٨٣٨.

الصخور السوداء تطل برؤوسها من تحت الماء، مهددة ببقر بطن الذهبية التي تبحر في المقدمة والتي يوجد على متنها نائب السلطان وجيوفانا.

كانت الفتاة ترى، مرعوبة، الوحوش الصخرية تقترب، بينما يستمر المسافرون حولها يتحدثون مازحين كما لو أنْ لا شيء يحصل. قالت لنفسها بأن الأمر قد يكون مجرد هلوسة وأنهم سيتصرفون أو أن الصخور ستختفي فجأة. كان صوت العجلات يصدي وهي تجدف الماء فتواصل الذهبية بهدوء صعود النيل الأبيض.

سارعت جيوفانا نحو الشيخ القبطان محذرة إياه. كان كل رد فعله أن أهداها ابتسامة ودية، وتقدم نحو الكوثل.

شرعت، على يمين الذهبية، شجرات الباوباب العملاقة، التي ترمي بظلالها على ضفاف الوادي، تترنح. كانت جذورها تُجتَث من الأرض، وأثناء مقاومتها، كانت تجعل كل الصحراء السودانية تميد.

أهي، ربما، نهاية العالم؟ بحثت جيوفانا عن نائب السلطان. كان يتحدث باللامبالاة نفسها، ذراعه مستندة إلى المتراس. وحوله، كان المستمعون المكونون من نساء ورجال، يعطون الانطباع بأنهم، هم أيضاً، غير قلقين. هنا أيضاً، كان المشهد شبيهاً بمشهد استحضار الأرواح. الشخصيات عارية؛ وحدها عوراتهم مستورة بجلد حيوان أكثر بقليل من الكف الواحدة. صدورهم، أسفل شعورهم المجعدة، موشومة بصور غريبة وبأشرطة منمقة. بعضهم يحمل دبوساً منضوداً وبعضهم رمحاً أو ذراعاً.

هزت صدمة قوية سطح السفينة. صاحت جيوفانا، غير أن صيحتها ظلت حبيسة حنجرتها. آنذاك انطلقت بأقصى سرعة ممكنة قاطعة، في رمشة عين، الأمتار القليلة التي تفصلها عن نائب السلطان.

- جلالتكم! علينا أن نغادر المركب، سنغرق!

انقلب ببطء نحوها، على وجهه ابتسامة. تجمد الدم في عروق الفتاة؛ ليس بسبب الملامح القاسية التي اكتشفتها وإنما لأن الشخص الذي ينظر إليها ما عاد هو نفسه: كان هو ريكاردو ماندرينو.

اعتدلت جيوفانا في سريرها غارقة في عرقها. دقات قلبها متسارعة ونفسها قصير. كانت خيوط الصباح الأولى شرعت تتسلل حولها من المشربيات، متشبعة بحمرة الفجر. تفحصت الأثاث كما لو لتتأكد من أن كل شيء في مكانه. هي بالفعل في غرفتها برأس التين، في القصر، بالإسكندرية.

غير أن بإمكانها أن تقسم إن ما عاشته لتوها ليس أبداً ثمرة هذيان ليلي، وإنها ما تزال في السودن، جنوب صحراء بربر. مدت يدها، ما يزال ذهنها مملوءاً بالكابوس، إلى الجرة الموضوعة على المائدة قرب السرير وكرعت منها جرعات ماء بارد. هدأها قليلاً لمس أصابعها للجسم الخزفي.

صعدت رائحة شجر الليمون والبرتقال من الحديقة. كانت السماء زرقاء؛ لا سحابة تحلق في الأجواء الشفافة. كل شيء يبدو ساكناً، هائداً، في الوقت نفسه الذي كانت مأساة تحدث على تخوم الحدود المصرية.

لكن الطبيعة تتجاهل مآسي البشر.

مرت ثلاثة أشهر على عودتها من تلك الرحلة المائية الطويلة، والتي رافقت خلالها نائب السلطان؛ تلك الرحلة الخرقاء والمأساوية للغاية.

كانوا قد انطلقوا من روزيت - مؤطرين بحوالي ستين شخصاً من النخبة البحرية، وتحت قيادة ثلاثة ضباط مكونين في الرسم والرياضيات والعلوم الطبيعية - فصعدوا النيل الأبيض إلى أن أدركوا أول الشلالات. كان السانسيموني، شارل لامبرت، هو الأوروبي الوحيد الذي انضم إلى الرحلة. كان محمد علي، برفضه لحضور أي غربي آخر، يريد، دون شك، أن يعرب عن خيبة أمله وعن حزنه تجاه أولائك الذين يشعر بأنهم قد أهملوه.

واصلوا رحلتهم حتى جبل روان، حيث أقبل أخ سلطان دارفور في أبهة

كبيرة كي يقدم بيعته. أسبوع بعد ذلك، ويوم ٦ نوفمبر، أدركوا الخرطوم؛ المدينة التي شيّدها محمد علي قبل تسعة عشر عاماً. آنذاك، لم تكن سوى تجمع من حوالي عشرة أكواخ تقطنها بضع عائلات من السنار وبعض البرابرة. ومنذئذ نبتت مئات المنازل المبنية من الآجور على ضفاف الوادي، وبنيت ثكنة ومستشفى، رعاه أطباء فرنسيون، وعدد من الحوانيت المحاطة بحدائق تنبعث منها رائحة متوحشة.

وحوالي يوم ١٧، وصلوا إلى فزنغورو. بعد أن نزلوا من الذهبية وقطعوا الجبال، وصلوا إلى سهل حيث يرتمي «النهر العادل» في أحضان النيل الأزرق. هناك أعرب العاهل عن سعادته بالضيعات النموذجية التي هيأها علماء فلاحة مصريون، فوهب هؤلاء حوالي مائة فدان وأعفاهم من الضرائب لمدة خمس سنوات. عند مقدم الليل، طلب أن يُجمع رؤساء القبائل فألقى فيهم خطاباً حملته رياح الحرور إلى تخوم البلاد. احتفظت جيوفانا في ذاكرتها ببعض الكلمات التي تتجاوز في صراحتها الخطب الكلاسيكية التي يلقيها عاهل على رعيته.

«كانت شعوب البلاد الأخرى متوحشة أول الأمر. ثم تحضرت. وأنتم لكم رأسٌ ويَدَان مثلهم؛ فافعلوا كما فعلوا، ترتقوا أنتم أيضاً في سلم البشر، وتحصلوا على ثروات عظيمة، وتستمتعوا بمتع لا تستطيعون الآن حتى تصورها بسبب جهلكم المطبق.»

«لا شيء ينقصكم كي تدركوا ذلك: أراضيكم شاسعة ولكم دواب وخشب؛ عددكم وافر ونساؤكم ذوات خصوبة. حتى هذه اللحظة لم يكن لكم دليل يقودكم، والآن أصبح لكم دليل. هذا الدليل هو أنا. سأدفع بكم نحو التطور والسعادة.»

«العالم ينقسم إلى أجزاء خمسة كبرى؛ الجزء الذي تحتلونه يسمى أفريقيا. جميع هذه الأجزاء، باستثناء جزئكم، يعرف الناسُ العملَ ويعرفون الأشياء التي لها جدوى، ويتعاطون بشغف التجارة التي تؤدي إلى الثروة والمتعة والمجد؛ وهي كلمات لا تفهمون لها معنىً.»

«انظروا إلى مصر. أرضها المنبسطة محدودة، لكن، وبفضل عمل وصناعة سكانها، هو بلد غني وسيصبح أكثر غنىً! قارنوه بمنطقة السنار هذه

التي هي أكبر عشرين مرة من مصر. إنها لا تكاد تنتج شيئاً لأن سكانها يظلون عاطلين عن العمل كما لو أنهم أناس ميتون! تعلموا أن العمل يمكّن من كل شيء، وأنكم دونه ستظلون على الحال التي أنتم عليها: كائنات ميتة.»

رجا المستمعون المشدوهون المبهورون، من العاهل بحماس تلقائي أن يأخذهم إلى مصر حتى يتعلموا فنون الفلاحة والتجارة.

«نيتكم مشكورة، عقب محمد علي، لكن أجدى أن ترسلوا أبناءكم. هم سيكونون ذوي جدوى لمدة أطول لهذا البلد عندما يعودون. سأضعهم في أكبر مدارسي وسيتعلمون المُجديَ والجيد. لا تقلقوا عليهم لأنهم سيكونون أبنائي بالتبني. عندما سيلقنون العلوم سأرسلهم إليكم ليصنعوا سعادتكم؛ سعادة هذا القطر، وليلهجوا بدوام مجدي.»

في اليوم الموالي أعلن عن حرية تجارة النيلة وأمر الحكومة بأن تسلمهم الأدوات وكل ما هو ضروري من أجل تنمية هذه الزراعة.

وقبل أن تواصل الرحلة نحو فزوغلو، ترك هناك شارل لامبرت وكلفه بوضع تقريرين، أحدهما عن مشروع السكة الحديدية والثاني عن إنشاء قناة بين الوادي الأبيض وقردوفان. ستخصص القناة لتزويد الأراضي بماء السقي وستسهل نقل الحديد المستخرج من الجبال المجاورة.

فقط عندما كانوا في طريق العودة، بدا لجيوفانا أي قلق يعاني منه الباشا.

كانوا على بعد يومين، فقط، من روزيت. تحت أضواء البدر كانت تظهر انحناءات الصحراء وقمم النخيل وشساعة الأشجار المورقة.

كان محمد علي يجلس وحيداً على سطح الذهبية يتقصى المشهد.

اقتربت جيوفانا منه. كادت تعود على أعقابها إلى مقصورتها عندما وجدته في وضعيته المتأملة تلك، غير أنه طلب منها أن تبقى.

كم من الوقت ظل صامتاً؟ لا تستطيع الجزم. ما تتذكره هو الكلمات الأولى التي تلفظ بها. وقد تذكرتها دون شك لأنه لم يسبق له قط أن تلفّظ بكلمات إيطالية.

- Grido de dolore . . .

لم تجد جيوفانا صعوبة في فهم معنى العبارة، رغم أنها تجهل هذه اللغة تماماً. «صرخة الألم»

واصل العاهل:

- أتظنين أنهم يفهمون بأن انصرافي من مصر لم يكن أي شيء آخر غير هذا... صرخة الألم.

لم ينتظر الجواب.

- أشك في ذلك. ما عدت أومن بعدالة القوى العظمى. وإن كان قد بقي لي بعض الأمل، فقد شطبه ما سمعته لتوي.

- بماذا يتعلق الأمر، جلالتكم؟

- لن يغادر الإنجليز أبداً عدن.

- أعذرني... لكن... عدن!

- قبل انصرافنا، التمست الحكومة الإنجليزية أن تتوجه إلى هذا الميناء لتنشئ به مخزناً للفحم. صدقتها، وأوصيت الإمام بأن يجيب بالإيجاب على الطلب الإنجليزي. وقد كتب لي الحاكم العام للهند، اللورد أوكلاند، بكلمات عسلية يشكرني على تدخّلي.

تقلصت أصابعه.

- والحال أنني قد أُخبرتُ لتوي بأن فرقاً عسكرية قد نزلت بعدن. احتلت الأعالي المجاورة واستولت على الميناء. أضحت الآن المدينة والأراضي المجاورة ملكاً لصاحبة الجلالة البريطانية الملكة فكتوريا.

ضغط قبضته.

- وبطبيعة الحال لم يجد العالم ما يقوله. لا فرنسا ولا روسيا ولا النمسا أبدت أدنى احتجاج. أتفهمين الأن لماذا أقول لك بأنني ما عدت أومن بعدالة القوى العظمى؟ وزنان ومكيالان...

غضن جبهته في الظلمة.

- الله كريم... روحي حزينة هذا المساء ومشاعر سوداوية تحتل ذهني.

كان ذلك يوم ١٣ مارس.

ثلاثة أشهر بعد ذلك، عبر العثمانيون الفرات واقتحموا، دون إعلان حرب، الحدود المصرية بسوريا.

تتذكر جيوفانا، وكأن الأمر قد حصل بالأمس، مدى اعتمال وجه العاهل عندما علم بالخبر. كان ذلك أكثر من وجوم أو ثورة؛ الرجل قد انكسر.

بدأ باستدعاء السيد كوشلي القنصل العام الفرنسي. شرح هذا الأخير كيف تم الإنتباه، في غيابه، إلى صواب مطالبه وبالخصوص إلى التأثير الإنجليزي المستمر على اسطنبول، لفائدة إنجلترا وحدها. وقد قررت فرنسا تعديل الوضع الراهن لفائدة نائب السلطان قصد الإشعار سلمياً بأزمة وشيكة الوقوع بالشرق. آنذاك انتبهت حكومة لويس فيليب إلى أن المندوب البريطاني، اللورد بوسوباي، كان يحرض، في الكواليس، الأتراك على الحرب، بغية تحقيق هدف خفي هو تكسير شوكة العاهل المصري بصفة نهائية. وهكذا قرر السلطان العثماني، واثقاً من دعم وتدخّل إنجلترا لمصلحته، إثارة الحرب والانتقام.

- والآن، يا سيد كوشلي، ماذا تقترحون؟

- حاولوا جلالتكم النظر للأمر عن بعد. أنتم تعرفون مساوئ اتفاق أونكيارسكليسي الذي يربط بين الروس والباب العالي. فأنتم إن استجبتم للاعتداء التركي، فإن القيصر سينزل قواته بالبوسفور بمبرر أنه يأتي لنجدة السلطان العثماني. ونحن نعرف جميعاً ما ستكون النتائج: تأجُّجُ أوروبا، مع خطر أن تصبح تركيا، حتى لا نقول كل الإمبراطورية العثمانية، محمية روسية.

- حكومتكم مأخوذة بإمكانية تدخّل القيصر الذي لن يحصل أبداً. أنا أؤكد لكم ذلك!

- أمهلنا بعض الوقت، أرجوك. لا بد من فسح مجال للتفاوض.

- التفاوض؟

- أنتم تعرفون مطالب السلطان العثماني: إعادة سوريا. أعطوه إشارة.

قاطعه الباشا بجفاف.

- سأقص عليكم حكاية، يا سيد كوشلي: «قام طفل أثناء صراعه مع أفعى بقطع ذيلها. عملت الأم، خشية انتقام الأفعى، على أن تصالحهما. موافقة، قالت الأفعى. يعيد لي ذيلي ونصبح أصدقاء!» ألا ترون بأن لا معنى لذلك؟

لم يطل انكسار الباشا العجوز. كان من كثرة مواجهته للحياة ومن كثرة ما تجاوز من عوائق، أقوى من أن يبقى مكتوف اليدين. انتصب الأسد النائم فيه، فهز زئيرُه جدران قصر رأس التين.

عدا ابنه إبراهيم على الفور.

- ستذهب لمواجهة الفرق العسكرية لخصومنا، والتي ولجت أرضنا.
وبعد أن تطردها اقض على جيشهم الضخم الذي ستواجهه. إن كان النصر حليفنا، بعونه تعالى، ستتوجه مباشرة إلى مالاتيا وكاربونيت وأوفرا وديار الكبير، دون المرور عبر كوليك بوغاز.

كانت هذه الأمكنة الأربعة التي ذكرها العاهل توجد أبعد من الحدود التي وضعت أثناء اتفاق قوتاهية. لكن الغريب هو أن هذه الأوامر اتسمت بالاعتدال، لأن محمد علي - الذي هوجم وهدد في وجوده من طرف السلطان العثماني - كان بإمكانه أن يذهب إلى أقصى حد: أن يعلن استقلاله ويهاجم اسطنبول.

آنذاك تقدم إبراهيم، مصحوباً بالمخْلِص، الكولونيل سيف، نحو الحدود السورية.

أصبح، خلال مساء يوم ٢٣ على بعد مائة ميل من الألب، غير بعيد عن مدينة نزيب، وهيأ جيشه للنزال انطلاقاً من يوم غد.

جمع، فجر يوم ١٤، ضباط جيشه واستحلفهم القتال بضراوة. أقسموا جميعاً بأن يموتوا، سلاحهم في أيديهم. لم يكن أحد منهم يجهل أنهم سيقاتلون واحد ضد أربعة.

بعد ساعتين شرع الجيش المصري يتقدم ويأخذ المواقع التي رسمت له.
ظهرت أمام الأربعين ألف رجل في جيش إبراهيم، المائة ألف تركي على رأسهم حافظ باشا.

عندما بدأت الشمس تصبغ الأفق بلونها الأحمر، دوت المدافع.

وحوالي منتصف اليوم، أصبحت القوات التركية في ورطة؛ خمسة عشر ألفاً من الأسرى، ومثلها من البنادق، ومائة وسبعون مدفعاً. كل المعسكر العثماني بما في ذلك الأوسمة وشعار القيادة سقط في يد المنتصر.

منذئذ، ما عاد إبراهيم يلاقي أي اعتراض.

فتحت أمامه، من جديد، طريق إسطنبول.

أنهت جيوفانا ارتداءها لملابسها، ذهنها غارق دائماً في أفكارها، وسارت بخطىً واسعة في ممرات القصر. سيغضب غربيس بيك؛ تأخرت.

* * *

حملت شهرزاد الصبي وشرعت تهدهده ضامة إياه إلى صدرها.
- ليحفظه الله. نادراً ما رأيت طفلاً بجماله.
- وبصراخه أيضاً، قال يوسف ممازحاً. لكنني أسامحه ما دام طفلاً ذكراً.
- عقلية رائعة! صاحت كورين. هل أفهم من ذلك أنني إن كنت ولدت لك بنتاً كنت أغرقتها؟
- أوه! لن أذهب إلى هذا الحد! لكن من يدري...
أعادت شهرزاد الصبي إلى كورين.
- سمير... سميرة... متناسبان.
- لكنني أجده، مع ذلك، هزيلاً بالنسبة لأشهره السبعة، علق يوسف. هل أنت متأكدة من أنك تحسنين إطعامه؟
رمته كورين بنظرة غاضبة وأشهدت شهرزاد:
- أترين كيف هو؟
- دعي عنك هذا، حبيبتي كورين. لقد نسي ما كانه هو نفسه عندما كان عمره سبعة أشهر. إن طفلك رائع.
- وكيف يكون غير ذلك؟ هو يشبهني. لاحقاً سنجعل منه مهندساً.
- وتريد أن تقرر أيضاً في مصير ابنك؟ وإن لم يكن له ميل للرياضيات أو للعلوم؟
- كيف يمكن لأمر مثل هذا أن يحصل وأنا أبوه؟ الأسود لا تلد البغال.
تنهدت كورين وتوجهت نحو الباب.
- سأذهب لأنيمَه. يكفيه ما سمعه من ترهات هذا اليوم.
- م.. هن.. دس! قال يوسف مضايِقاً.
- كفى ولدي، قالت شهرزاد محتجة. أنت تعذبها.
- أنا أمزح يا أمي.
جلس على إحدى الأرائك.
- سيعيش سمير كما يحلو له. لقد علمتني معنى الحرية، فكيف أسمح لنفسي بأن أخون هذا المبدأ المقدس؟
جلست بدورها إلى جانبه.

- أرجو ذلك. لا شيء أكثر رعباً من أن نفرض على الآخرين وجهة نظرنا في الكون. وإن أردنا دليلاً على ذلك، يكفينا أن ننظر إلى ما يحصل حولنا في هذه الآونة. إنه لأمر مرعب.

- أعرف لمن تلمحين. لكن انتصار نيزب يعطينا دليلاً على أن ثمة عدالة. لقد انطبق الشَّرَك على المعتدي. لم يسبق لمحمد علي أن كان مسيطراً على الوضع بهذه الشاكلة.

- ليسمع منك الله يا ولدي. لكنني أتساءل عما إذا كانت لمصر، التي طالما استنزفت، الإمكانيات التي تمكنها من الصمود لمدة أطول.

وكما لو أن الحديث أثار لديها ذكريات سيئة، غيرت مجرى الحديث فوراً.

- هل من أخبار عن لينانت؟

- نعم. سألقاه بعد قليل. تأخرت عن موعدنا. لا تسير الأمور في مصلحته، ويمكنني حتى أن أقول بأنها تسوء. لقد زُرِعَ قادِمٌ جديد في حضن مجموعة المهندسين. ويبدو أن أهميته بدأت تزداً شيئاً فشيئاً. لقد أعاد، بموافقة محمد علي، كل تصاميم السد. وقد أبدى سلفاً أولى انتقاداته. أبدى معارضته الواضحة للتصميم الذي وضعناه، وقدم تصوراً عن حلول تقنية أخرى وعن تموضعات جديدة غير تلك التي وضعها لينانت والسانسيمونيون.

- من هو؟

- أحدهم، يدعى موجيل؛ فرنسي.

- لكنني كنت أعتقد أن المهندسين الفرنسيين فقدوا الحظوة.

- أوه! لم تكن سوى غضبة عابرة للباشا. لم يكن في نيّته البتة أن يتخلى عن فرنسا بصفة نهائية.

- المسكين محمد علي.. . لا شك أنه يشعر بنفسه وحيداً أمام كل العالم.

كانت قد نطقت بحزن حقيقي؛ حزن أعمق من أن يكون يهم محمد علي وحده. كانت تحكم على مصيرها هي أيضاً.

ويبدو أن يوسف قد استشعر ذلك فسألها:

- وأنت يا أماه؟ هل تشعرين بالوحدة نفسها؟

لم تجب.
واصل يوسف.
- لا تنسي أنني هنا. وأنا أعرف أيضاً أن كورين تكنّ لك حباً كبيراً، كأنك أمها تماماً. وهناك الصغير أيضاً. أنا أعلم أن الحب الذي انتزعته منك الحياة لا يمكن أن يعوض. لكن أرجو منك أن لا ترفضي الحب الذي نهديك إياه.
- لا يتعلق الأمر بان أرفضه يا يوسف. أنا كل صباح أحمد الله على أنك؛ على أنكم بجانبي. لقد فقدت رجلاً؛ هو زوجي؛ وقد وُلِد صبي؛ وابني دائماً بجانبي. فقدت ابنة فعوضتني العناية الربانية بأخرى. سأكون جاحدة إن أغلقت قلبي في وجه كل هذه المعجزات.
تملّى يوسف، صامتاً، أمه كما ليتفحص إن كانت جادة بالفعل فيما تقول. وبعد أن اطمأن قليلاً، قرر أن ينصرف.
- قد يكون صبر لينانت عيل. إلى اللقاء هذا المساء.
- إلى اللقاء يا ولدي.

* * *

صبّ لينانت لنفسه من النبيذ وعرض القنينة على يوسف.
- خذ يا صديقي. ها هو ذا ترياق الحياة. كل أحزان العالم وكل الخيبات تندثر، كما لو بفعل السحر، أمام هذا السائل السامي.
ثم شرع يخطب بصوت مفخم:
- من لا يعرفك يا لذائذ النبيذ العظيمة؟ كل من يعاني من شعور بالذنب وكل من له ذكرى يريد استعادتها أو حزناً يريد إغراقه أو من يريد أن يشيد قصراً بإسبانيا؛ كلهم يستدعونك أيها الإله العجيب المختفي بين أوراق كرمة!
تفحص يوسف صديقه بدهشة.
- ما هذه البرطمة؟ هل فقدت رشدك؟
- لا، يا صديقي. بل لم يسبق لذهني أن كان بهذا الوضوح.
- أنت، على أي حال، لا تسعى لأن تصبح مدمناً بسبب النقد القليل الذي أثير حول مشروع السد! إن السيد موجيل ليس غبياً؛ سينتبه إلى أنه مخطئ.
- أنا آسف يا صديقي أن أخيب أملك. لا يتعلق الأمر بذلك.

أمسك القنينة من جديد ومدها ليوسف.

- لو كنت مكانك لشربت. قد تكون بحاجة إلى نبيذ.

ودون أن ينتظر موافقة صديقه، أترع كأسه وسأل:

- قرأتَ مشروع موجيل، أليس كذلك؟

- بالطبع. ولا معنى لأن يقترح بناء السد في فرش الوادي، في الوقت الذي يجب بناؤه على الأرض الجافة. ثم، ألم يسلم تصميمه لمجلس الجسور والطرق الفرنسي؟

- بلى. وقد أرسلوا لنا قرارهم.

- ماذا قرروا؟

وجَّه سبابته إلى الكأس.

- ألم تشرب؟

- أجب يا ليناننت.

- لم يُقِرُّوه.

- وإذن فيجب أن تكون راضياً!

ضغط ليناننت قبضته.

- كيف أكون راضياً؟ مع كل ذلك، سينفذ مشروع موجيل. علمت بذلك هذا الصباح.

- ضداً على رأي المجلس؟ لكن هذا حمق!

- الحمق، هذه الأيام، يا صديقي، هو الذي يحكم العالم!

- لكن هذا السد لا يمكنه أبداً أن يشيد! إن موجيل متوجه رأساً نحو الفشل.

- المستقبل هو الذي سيحدد.

حمل يوسف بحركة نزقة الكأس إلى شفتيه وكرع جرعات.

- عملياً، لا شيء يطمئن. إنني لا أفهم ما الذي يحدث!

- هذه هي الحال! ثمة لحظات تغلق فيها الأبواب الواحدة تلو الأخرى، ومهما فعلنا تظل موصدة. انظر إلى حالي أنا. لقد وجَّه الطاعون ضربة موجعة لمشاريعي، ودفنها عمَى الغرب.

تنفس بعمق.

- ومع ذلك، فلكل شيء تفسير. نحن الآن نتحمل عواقب سياسة القوى الأوروبية. الفرنسيون يخلون مصر تباعاً: سيريزي والجنرال سغيرا الذي كان يسيِّر المدرسة العسكرية لدمياط وآخرون كثر.

صمت للحظة ثم واصل:

- سأجعلك ربما تبتسم: فكعلامة على هذا الانقلاب في التحالفات، يُعلَن الآن في القاهرة عن وصول اثني عشر مهندساً... الألمان يقولون بأنهم سيحتلون المناصب التي أهملها الفرنسيون.

حاول يوسف أن يلطف الجو.

- نعم، لكن شارل لامبرت يحتفظ دائماً بإدارة مدرسة المعادن، والسيد برونو عُيِّن لتوه بمدرسة المدفعية بتورا وبرون تولى إدارة مدرسة الطب. إن الأمر لا يتعلق، كما أسررت لأمي، إلا بلحظة تقلب مزاج الباشا.

- كل شيء رهين، يا صديقي، بالأحداث القادمة. إن قررت فرنسا أن تميل بشكل واضح إلى جانب مصر، فإن الأمور ستعود، بالتأكيد، إلى حالتها السابقة. أما في حال العكس، فإنني أخشى أن ينتهي القِرانُ الذي دام لأكثر من أربعين سنة إلى طلاق مدوٍّ، تكون فاتورته غالية.

ثم سأل فجأة:

- وأنت الذي لك علم بالخبايا، هل هناك أصداء؟

- أصبحت الأخبار نادرة، بعد وفاة والدي. كل ما أعرفه هو أن الوضعية الآن توجد أمام الباب المسدود، خصوصاً وأن السلطان محمود قد توفي، ثمانية أيام بعد نصر نيزب، موصياً بالسلطة لابنه عبد المجيد.

- علَّ هذا المسؤول الجديد يكون أقل ميلاً للحرب أو أكثر ميلاً للتفاهم.

لم يستطع يوسف كتم ابتسامة.

- إنه طفل. لم يتجاوز بعد سنواته السبع عشرة.

- مما يعني أن السلطة الوحيدة التي ستكون في ملكه هي أن يترك مَنْ حوله يتحكم فيه ويسيره. وهذا ما لن يحل الأمور.

صب لنفسه كأساً أخرى.

- اهدأ يا لينانت. حاول أن تكون متفائلاً! لم تُلْعَب بعد كل الأوراق. أنا أعلم أن الوضعية خطيرة ومعقدة للغاية، لكن مِنْ هذا التعقيد تحديداً يمكن

لحل أن يظهر. هل فكرت فقط فيما يمكن أن يحدث إن استولى إبراهيم على اسطنبول؟ وعلى أي حال، فهو ليس إلا على بعد حوالي مائة فرسخ من العاصمة العثمانية، كما أن لا جيشَ يقف في طريقه.

- إن شئت رأيي، فإن ذلك يعد الوسيلة الوحيدة لوضع حد لهذه القضية. لكن، هل سيذهب إلى النهاية؟

- سنرى. كن واثقاً. إن كان الأمر سيطمئنك، فإنني أذيع لك سرّاً. منذ أن تعلّم محمد علي القراءة، أقبل بنهم لا يصدق على قراءة الأعمال الأدبية. الْتَهم في البداية، بالطبع، كل الأعمال التي لها علاقة بنموذجه: نابليون. بعد ذلك قرأ كتباً متنوعة من مثل روح القوانين لمونتسكيو. ومنذ أشهر - وهو ما أريد أن أصل إليه - استدعاني لمكتبه ورجا مني أن أترجم له الأمير لماكيافيلي. شرعت في العمل وقدمت له في اليوم الأول الصفحات العشر الأولى من الكتاب وفي اليوم الموالي عشراً أخريات، وعشراً أخرى في اليوم الثالث، لكنه أوقفني خلال اليوم الرابع.

رفع لينانت حاجبيه.

- أتصور أنه بدأ يشعر بالملل من القراءة.

- بتاتاً. أتدري ما الذي قاله لي؟ «لقد قرأت بانتباه ما سلمته لي عن مكيافيلي. لم أعثر على شيء ذي بال في الصفحات العشر الأولى. ظل لدي أمل، لكن الصفحات العشر الثانية، مثل التي بعدها، لم تكن بأحسن من سابقاتها. أنا أرى بوضوح أن لا فائدة يمكن أن أجنيها من هذا الرجل. أما بالنسبة للخدع، فأنا أعلم منه بها. أعفيك إذن من الاستمرار في الترجمة.»

- هذا مسلٍ، لكن ما الذي تقصده من هذا؟

- أقول فقط بأن عاهلاً يرى أنه أذكى من ماكيافيلي، لا يمكن أن ينساق إلى الفخ، وسيتخلص منه.

بدا أن حكاية يوسف لم تثر لينانت. ورغبة من يوسف في الخروج من هذا الجو المتوتر، سأل:

- والسيد أونفنتان، ما الذي حل به؟

- هو في باريس. نتبادل الرسائل من وقت لآخر، لكن رسائله كلها تتشابه.

- ماذا تقصد؟
- السويس! السويس! السويس! القناة.
- أأكون قد أخطأت؟ سأل يوسف مدهوشاً. كنت مقتنعاً بأنه لن يعود إلى التفكير في الأمر بعد انصرافه. أخطأت إذن.
- كلية، يا صديقي؛ فهو لا يستمر في التفكير في القناة وحسب، بل يبذل كل مجهود كي يوقظ اهتمام الحكومة الفرنسية. بل هو يفكر في إنشاء جمعية يكون هدفها حفر قناة السويس.
- لا يمكنني إلا أن أُحيِّي هذا الإصرار. برافو!
- لقد طلب مني أيضاً أطروحة في الموضوع. يبدو أنه سيوجهها إلى سفير النمسا بباريس، والذي من المفترض أن يقدمها إلى مترنيخ شخصياً.
- هذا رائع!
ثم دقق على الفور:
- وماكر. فقد دافعت النمسا دوماً عن قضية القناة. وإن لم تخنّي ذاكرتي، فإن الأمر قد وصل بمترنيخ حد أن صرح بأنه يعتبر حفر القناة حدثاً ذا أهمية قصوى، وإنجازاً من الإنجازات التي ستترك أثرها على القرن وأنه مقتنع بأن القناة ستفتح للنمسا أبواب المستقبل.
- هذا صحيح. لكنه سارع بالقول إن هذه القناة ستزيد من شراهة إنجلترا وإنها، بالنتيجة، ستجلب التهلكة. إن كان ما يزال يرى هذا الرأي، فإنني لا أرى ما جدوى أن أرسل إليه الأطروحة.
قال يوسف قلقاً:
- أرجو، مع ذلك، أن تكون قد أرسلتها لأونفنتان.
- بالطبع.
توترت ملامحه.
- يمكن للعالم أن يشتعل، يا ابن ماندرينو. يمكن لإبراهيم أن يستولي على إسطنبول. وهذه القناة، أنا مؤمن بها، ولا أدري إن كانت سترى النور ذات يوم، وما إذا كان العلم التركي أو الفرنسي أو الإنجليزي أو المصري، خلال ذلك اليوم، سيخفق على شاطئها، لكنني أومن بها.

الفصل الثالث والثلاثون

شهدت المستشاريات الأوروبية، خلال الأيام التي أعقبت نصر نيزب، حركة مكثفة.

عملت فرنسا جاهدة على إقناع الباشا بإيقاف زحف ابنه على اسطنبول، مخافة تدخّل روسي، ورغبة في التوصل إلى حل سلمي. وهدد محمد علي وضغط، لكنه انتهى بأن استجاب، ربما بعد أن تعب، أو ربما لأنه كان ما يزال مؤمناً بتحكيم عادل للقوى العظمى. أُرسِل مبعوث فرنسي؛ هو القبطان سيليي، إلى قيادة جيش إبراهيم حاملاً أمراً بإيقاف جيشه وبعدم الدخول، بأي مبرر كان، إلى آسيا الصغرى.

كان غضب الأمير معادلاً لخيبة أمله.

- هل سبق لك أن قرأت كتب التاريخ؟ أين قرأت أن جنرالاً منتصراً أوقف زحفه؟

موت في الروح هو ما جعله يستجيب لإرادة والده، رافضاً مع ذلك التقوقع في الألب. للمرة الثانية، توجد العاصمة العثمانية ملك يديه، وللمرة الثانية يحرم من فتحها.

حمل الباب العالي، يوم ٣ يوليو، لمحمد علي اقتراحاً للصدر الأعظم يمنحه بموجبه، بعد إعادة سوريا والعربية واليمن، وراثة مصر والتصالح. هل استشعر السلطان العثماني أن حكمه، رغم دعم القوى العظمى، يوجد على حافة الهاوية؟ دون شك.

بعد ستة أيام أتى حدث ليؤكد هذا الانطباع.

كانت جيوفانا، خلال ذلك اليوم، بمكتب غربيس بيك. كانا يناقشان ما

سيطراً من تحسينات على شروط عيش خدم القصر، عندما اجتاح شحوب لا يصدق ملامح الخازن. بدأ يتمتم وهو يوجّه سبابته نحو البحر.

ظنت جيوفانا أنه سيفقد الوعي، جراء سكتة دماغية. لكنها فهمت، عندما تابعت سبابته، علَّة اضطرابه.

كان أسطول عظيم، يرفع البيارق التركية، يغطي الأفق.

رأت، في الآن نفسه تقريباً، أسطولاً مصرياً يتوجه للقائه. دوت تسع عشرة طلقةً مدفعيةٍ في سماء الإسكندرية، أطلقتها سفينة حرب راسية في الميناء.

شعرت جيوفانا بنفسها تخور.

تمتمت:

- غربيس بيك... إنه الاجتياح. الأتراك يستعدون للرسو.
- لا، يا ابنة ماندرينو. لا يتعلق الأمر باجتياح، بل باستسلام.
- عمَّ تتحدث؟ أي استسلام؟
- الأسطول التركي يأتي ليستسلم لمصر بسلاحه وعتاده.
- ماذا؟ هذا غير ممكن.
- انظري...

كانت السفينة «النيل» مزينة بالألوان الملكية قد غادرت الميناء لتوها.

- صاحب الجلالة يتوجه للقاء الأميرال وتشريفه.
- تريد أن تقول بأن هذا الرجل أتى ليقدم إلى مصر الجيش البحري للباب العالي؟
- تماماً!
- هذا غير مفهوم.

كان الأمر، بالفعل، غير مفهوم.

إن تسليم أسطول بحري من قبل قائده الأعلى لَيَضَعُ محمد علي أمام وضعية لا مثيل لها في التاريخ.

انتشر الخبر في أوروبا كما تنتشر النار في الهشيم. وفي اسطنبول كانت الهستيريا هي المسيطرة. وبلندن أرغى اللورد بالمرستون وأزبد، واحتار قيصر روسيا فيما سيفعل. أما في باريس، فكانوا يكتمون ضحكاتهم.

أسبوع قبل ذلك، كان الأميرال الفرنسي لايلاند على متن «الإيينا» قد التقى بالأسطول التركي المتوجه نحو الإسكندرية، تقوده الفرقاطات الإنجليزية بوصفها كشافة. لم يشك في أن الأسطول قد خرج من الدردنيل كي يذهب لمحاربة الأسطول المصري. وكي يمنعه من مواجهة لا تريدها فرنسا، عمد إلى تفتيش سفينة الأميرال العثماني. لكن فوزي باشا، الأميرال التركي، فاجأه بالقول، سرّاً، بأنه، على غير ما يعتقده البحارة الإنجليز، ينوي قيادة أسطوله إلى مصر كي يسلمه إلى محمد علي. ابتعد لايلاند سعيداً بالخدعة التي تنتظر الإنجليز، فاسحاً المجال للسفن التركية كي تواصل إبحارها.

خلال بضعة أسابيع، فقدت تركيا عاهلها وجيشها وأسطولها، وأضحت اسطنبول تحت رحمة إبراهيم.

أصدرت جيوفانا ابتسامة مشعة. كان التفسير الذي قدمه غربيس بيك قد أحدث لدى الفتاة الشابة حماسة رائعة.

- هذا رائع! قالت. لا مناص الآن من اتفاق بين محمد علي والباب العالي. سيحصل على حق الوراثة وسنحتفظ بحدودنا كاملة. لم يبق له الآن إلا أن يعلن استقلاله.

- الأمور ليست بهذه السهولة يا ابنة ماندرينو. أنا لست رجل سياسة، لكن لدي الانطباع بأنهم لن يتركونا نحل المشكل مباشرة مع السلطان العثماني.

- لماذا؟

- ربما لخشيتهم من أن نتوصل إلى سلام يكون في مصلحة مصر. لكن لنترك الأمر للزمن ولندْعُ العلي القدير أن يلهم سموه.

لكن الزمن، للأسف، لم يكن في مصلحة الباشا العجوز. وقد قدَّر الله، دون شك، أن عليه أن لا يتدخل في خصومات مخلوقاته.

أشهراً بعد ذلك، عوَّض تييرس سولت وقبلت أخيراً فكرة استقلال مصر ليس من قبل ملك فرنسا وحسب، وإنما أيضاً من قبل تييرس وغيزول، سفير فرنسا في لندن، ومن قبل غالبية المسؤولين الفرنسيين.

دافع غيزول بقوة عن قضية محمد علي لدى اللورد بالمرستون. قام بذلك بكل ما تقتضيه الدبلوماسية من مصانعة ومن تخطيط استراتيجي.

- أيها اللورد العزيز، لماذا تعريض سلْم الشرق وأمن الباب وأوروبا لكل عوامل الصدفة هذه؟ بغية رفض وراثة عجوز في الحادية والسبعين من عمره؟ ما الوراثة في الشرق، أيها اللورد العزيز، ضمن هذا المجتمع العنيف وغير القار؛ ضمن هذه العائلات متعددة الأفراد وغير الموحدة؟ إن حكاية محمد علي ليست فريدة ضمن الإمبراطورية العثمانية؛ أكثر من باشا قبله انتفضوا وقاموا بفتوحات وأصبحوا ذوي قوة وشبه مستقلين. ما الذي فعله الباب العالي؟ انتظر. مات الباشوات وانقسم أبناؤهم واستعادت اسطنبول أراضيها وسلطتها. الشيء نفسه ينطبق على هذه الحالة. إنه السلوك الأكثر حذَراً.

- ثمة بعض الصحة فيما تقولون. ربما لم تكن للوراثة قيمة كبرى. غير أن إبراهيم باشا قائد ماهر ومحبوب من طرف جيوشه. وهو أتقن للإدارة من أبيه، كما يقولون. يحيط به ضباط ذوو كفاءة... فرنسيون. ها نحن نفضي بكل شيء، أليس كذلك؟ ألن تسعد فرنسا بأن ترى تنشأ في مصر وسوريا قوةٌ جديدة ومستقلة، هي صنيعتها تقريباً، وستصبح بالضرورة موالية لها؟ لكم الوصاية على الجزائر، فماذا سيبقى لإنجلترا بينكم وبين حليفتكم مصر؟ لا شيء تقريباً. الدولتان الفقيرتان تونس وليبيا. كل الساحل الأفريقي وجزء من ساحل آسيا على البحر الأبيض المتوسط، من المغرب إلى خليج الإسكندريت[1]، سيكون خاضعاً لسلطتكم وتحت تأثيركم. لا يمكن لهذا أن يستقيم يا سيد غيزول.

والحق، أن تحويل فرنسا لاتجاهها قد أتى متأخراً. كان للورد بالمرستون الوقت الكافي كي يحصل على مراكز دعم لدى حكام أوروبا. واصلت فرنسا دعم محظيها، وواصلت إنجلترا مواجهته برفض عنيد، إلى أن أدركت القضية ذروتها.

كان الجو السائد في قاعة العرش ثقيلاً وبارداً مثل ليلة شتوية. والحال أن شهر أغسطس كان يكتنف الإسكندرية، ولم يسبق للشمس أن كانت بمثل توهج هذا اليوم.

عمد محمد علي، كي يتحكم في اضطراب يديه، إلى أن يقرأ للمرة الثالثة

---

(١) الاسم القديم للإسكندرون، الميناء التركي القريب من الحدود السورية.

الإنذار الأخير الذي سلمه له لتوه الكولونيل هودجز، قنصل إنجلترا الذي عوض كامبل، لأنه اعتُبر مسانداً للعاهل أكثر من اللازم.

يلخص الإنذار الأخير في الآتي:

تلتزم القوى الأربع بالحفاظ على الوحدة الترابية للإمبراطورية العثمانية وعلى سيادة السلطان. وقد قررت أن يتوصل باشا مصر بثلاثة إنذارات متوالية بفارق عشرة أيام.

إن استجاب للأول، حصل على مصر بوصفه وارثاً وعلى باشوية أكرا طوال حياته.

عند الثاني لن يحصل إلا على مصر.

وعند الثالث، يوضع تحت رحمة السلطان.

تفحص محمد علي الإمضاء ثانية، فوجد إمضاءات روسيا والنمسا وإنجلترا، ولم يكن ثمة إمضاء فرنسا. كانت الوثيقة قد وقعت أياماً قبل ذلك بلندن، خلال مؤتمر أقصيت منه فرنسا.

- ما هذه الوثيقة التي تعامل المنتصرين كأنهم منهزمون، أيها الكولونيل هودجز، تمتم الباشا بصوت أجش.

لم يُبدِ الدبلوماسي أي تعليق.

- أن تحتقروني، فلا بأس، لأنني لست سوى بيدق على رقعة الشطرنج. لكن ماذا بالنسبة لفرنسا؟ لا يمكنكم أن تعاملوها كما تعاملون مصر!

لم يجب الإنجليزي بشيء، هذه المرة أيضاً.

شهر محمد علي الوثيقة ورفع صوته قليلاً.

- أنتم لم تقدروا حتى أنه من المناسب إطلاع فرنسا على هذه الوثيقة! لقد تصرفتم وكأنكم قطاع طرق. نعم كولونيل هودجز، قطاع طرق. لقد تحركتم في الخفاء فنسجتم المؤامرات ومارستم ضغوطكم في الظلام. لكن لتتوصلوا إلى أي شيء؟ إلى هذا؟

ثم قال بصوت حازم:

- انقل للورد بالمرستون بأن قراري قد قرَّ. سأدافع عن نفسي إلى آخر رمق. لقد حصلت على ما أملكه بفضل العناية الربانية، وهي وحدها القادرة على انتزاعه مني!

- أنتم تأخذون قراركم، سيدي، تحت تأثير الغضب. ثم إنكم إن كنتم تأملون أن تحارب حكومة السيد تييرس إلى جانبكم، فأنتم واهمون.

- أتعتقد؟ لقد استنفرت فرنسا جيوشها وهيأت مخازنها ومعامل أسلحتها، بل بدأت حتى بإقامة تحصينات حول باريس. حمى حقيقية اعترت البلد.

أجاب هودجر موجزاً في كلامه:

- الفرنسيون يقولون ما يشاؤون. إنهم لا يستطيعون محاربة قوى أربع لمساندتكم. أنتم وحيدون. وقد فقدتم كل شيء.

- هذا ما سنتحقق منه، كولونيل هودجز! هذا ما سنتحقق منه.

انسحب القنصل تعكس حافتا شفتيه تعبيراً غامضاً. وعندما كان ينزل درجات المرمر البيضاء العريضة، عادت إلى ذهنه كلمات اللورد بالمرستون.

لن يحارب الفرنسيون. أنا أعرف جيداً الطبع المتردد للويس فيليب. لن يشارك أبداً بجدية في صراع القوى العظمى. أما بالنسبة لمحمد علي، فلن يقبل بأي اقتراح من الاقتراحات الواردة في اتفاق لندن. وبذلك، سيسقط منكس الرأس في الشرك.

«إن اللورد بالمرستون لسياسي كبير.»

فكر هودجز وهو يمسد شاربه.

يوم ٨ سبتمبر نفذت الحكومة البريطانية تهديدها، فأطلقت النار على المواقع المصرية بسوريا ولبنان. ويوم ١٠ سبتمبر وصلت السفن إلى بيروت يقودها العميد البحري نابيي. احتل الساحلَ ألفٌ وخمسمائة مقاتل من البحرية الإنجليزية ومن سبعة إلى ثمانية ألف تركي، فأقاموا معسكرهم الرئيسي بخليج جونيه.

كلف إبراهيم الكولونيل سيف بمهمة الدفاع عن الساحل. وكان عليه هو نفسه أن ينتقل لنجدة النقط المهددة. لكن الفرق العسكرية المصرية كانت متناثرة في كل التراب السوري، منهكة بالمرض وبالحمى اللذين يجتاحان السواحل السورية خلال الصيف.

يوم ١٠ أكتوبر، قرر العميد البحري نابيي إعلان الحرب على إبراهيم كي لا يترك له وقتاً ليعيد تركيز قواته. ومساء اليوم نفسه، كان إبراهيم يتعرض لأولى هزائمه.

لم تُبدِ فرنسا أي رد فعل. ذهبت إلى أقصى مدىً في التوتر مع بقية أوروبا وإلى عتبة حرب عامة من أجل الدفاع عن محظيها والاحتفاظ بالإمبراطورية التي أنشأها. كان سقوط وزارة تييرس يوم ٢٣ أكتوبر يعني بالنسبة لمحمد علي التخلي النهائي عنه من قبل حكومة لويس فيليب.

يوم ٣ نوفمبر فتحت واحدة وعشرون سفينة حربية إنجليزية ونمساوية وتركية النار على سانت جان دارك. وحوالي الرابعة بعد الظهر انفجر مخزن بارود الحصن في صوت مرعب فانفتحت ثغرة رابعة إلى جانب الميناء، دافنة تحت الأنقاض ألفاً وخمسمائة جندي. أُسقط في يد المقاومة المصرية. تخلصت القوة العسكرية المهاجمة من ضغطها كما لو بفعل السحر وشرعت المدن تسقط تباعاً مثل حبات السبحة.

أزفت ساعة الانسحاب.

كانت رهيبة.

انكفأ الباشا العجوز على نفسه في صمت قصره، منكسراً مدحوراً ومجرداً من كل شيء، ينتظر قرار القوى العظمى في مصيره.

انتظر ثلاثة أشهر.

وذات صباح من شهر فبراير، أتى القرار. كان عاكساً تماماً لانتصار وجهة النظر الإنجليزية:

أولاً: تم الاعتراف بحق الوراثة للبكر من أبناء محمد علي الذكور. لكن اسطنبول هي التي تقلده. ومن أجل ذلك، يكون على الوارث أن ينتقل إلى العاصمة العثمانية كي يقدم ولاءه لسيده، ويكون نائب السلطان مماثلاً لباشوات الإمبراطورية العاديين، وتستمر مصر محافظَةً عثمانية.

ثانياً: لنائب السلطان الحق في تعيين ضباط جيشه، لكن فقط إلى حدود رتبة الكولونيل. ولإسطنبول الحق في تعيين الرتب السامية.

ثالثاً: الغرامة التي يجب أن تقدم للباب العالي حددت بأربعة آلاف قرش، وما عادت تحسب بالتناسب مع مداخيل مصر.

رابعاً: حدد عدد أفراد الجيش المصري بثمانية آلاف رجل، وأصبح محظوراً عليها، منذ الآن، بناء سفن حربية.

تحللت الإمبراطورية غير القارة للباشا العجوز. بقيت مصر وحدها، مع

السودان، ملك يديه. ولولا الصرامة التي أبدتها فرنسا في آخر ساعة لكان حتى حق الإرث قد جرد منه.

* * *

قصر رأس التين، ديسمبر ١٨٤٠.

انتزعت جلبةٌ العاهلَ من تفكيره. قطب حاجبيه ونادى بغضب الحارس الواقف على باب مكتبه.

- لطفي

أطل الحارس برأسه من انفراجة الباب.

- تحت أمركم يا صاحب السمو!

- ما هذا الضجيج؟

بدا الحارس مرتبكاً.

- لا... لا أدري سموكم. أنا....

- ليكفّوا فوراً عن هذا الضجيج.

- نعم، سموكم!

لم يتقدم الحارس سوى بضع خطوات حتى تسمّر في مكانه فاغراً فاه.

- هذا... هذا...

- من؟ تكلم! صاح نائب السلطان.

- إنه...

ارتفع صوت من الجهة الأخرى للممر.

- هذا أنا!

ركز محمد علي بصره على عتبة الباب. لكن بإمكانه أن يتعرف نبره من بين ألف صوت. وضع كفيه على المكتب وشرع قلبه يخفق بسرعة.

انتظر للحظات.

بدا شاب ذو قامة مكتملة في إطار الباب. كان شاباً قوي البنية ذا عنق ضخم. لحية خفيفة تجتاح وجنتيه إلى الغمازتين. كان بالإمكان نعته بالرجل الجميل لو لم يكن بتلك البدانة.

- سعيد... إبني!

وجد الشاب نفسه، بعد أن خطا بضع خطوات ثقيلة، أمام العاهل، فجثا وقبّل يد أبيه. حمله محمد علي على الوقوف واحتضنه.

- الحمد لله على السلامة يا ولدي.

ظل سعيد واقفاً وهو يرتعش مثل مهر، رغم بدانته.

- ما بك؟ سأل محمد علي قلقاً. هل أنت محموم؟

- لا يا أبي، أنا بخير.

- لكن، ما بك؟

تميز وجه سعيد قلقاً. آنذاك تهالك العاهل في مقعده ضاحكاً بصوت مرتفع.

- آه! فهمت.

- تملى البطن المستدير لولده.

- ما شاء الله... يبدو أن الناس لا يموتون جوعاً بسانت سير.

لم ينبس سعيد ببنت شفة.

- هيا! لا تخف! بطن منتفخ أو مهزول، أية أهمية؟ لم يعد ذلك سوى مشكلة ثانوية في هذا العالم الذي يفترس فيه الجرذان القطط.

انطلقت أسارير الأمير.

- لو كنت تعلم كم كنت مرعوباً وأنا على السفينة التي تعيدني من فرنسا.

- اجلس، ولنتحدث عن أمور أكثر جدية. هل أنت راض عن إقامتك بفرنسا؟

- جداً. إنه بلد رائع، وباريس مدينة لا مثيل لها في العالم. لكن هذا لا يمنع من أنني كنت أستعجل العودة.

بدا تأثر على ملامحه.

- لقد تابعت الأحداث بما تتصورون من توجس. كان عليكم أن تروا، كما رأيت، ثورة الفرنسيين وغضبهم أمام الوضع المخزي الذي فرضوه علينا. إن مؤتمر لندن لهو عارٌ، وأنا ما أزال أجد صعوبة في أن أصدق بأننا قد وصلنا إلى هذا المستوى.

- مكتوب يا ولدي. ذاك قرار العلي القدير. لكن علينا أن نكف عن النظر إلى الماضي ونوجّه نظرنا إلى الغد. ولنعزِّ أنفسنا بالقول بأن مصر، منذ الآن،

لن تعود يتيمة ولا تحت رحمة أي انحطاط يصيب تركيا. لقد حصلنا على حق الإرث، وهو كنز عظيم. سيكون بإمكان إبراهيم، غداً، أن يخلفني دون أن يستطيع أحد منازعته تتويجَه. بعد ذلك سيأتي دورك. لقد حصلنا على حق إنشاء أسرة حاكمة ستميِّز من الآن فصاعداً، رغم كل ما قد يقال، بلدنا عن سائر المحافظات العثمانية، وستضمن له استمرارية حكم يناسبه.

أنهى كلامه مع ابتسامة مفتعلة.

- الآن، وبعد أن ضُمن مستقبل أبنائي، يمكنني أن أنصرف بهدوء.

- بعد أطول وقت ممكن يا أبي.

- أليس اليوم والساعة بين يدي الله؟

جلس سعيد ثانياً ساقيه تحته، عند قدمي نائب السلطان.

- لقد اطلعت على الشروط التي فرضوها علينا. إنها مرعبة ولا تترك مجالاً للتصرف. أتظن أنه سيكون بإمكانك، رغم كل شيء، مواصلة مهمتك؟

مسد محمد علي ببطء لحيته الفضية.

- انتهى زمن الفتوحات. لا أريد أن أفكر إلا في سيادة الرخاء في بلدي. لقد حدَّت سنوات الحرب من ذلك، وأنا لا أرجو الآن إلا السلام والنسيان والتصالح.

لم يستطع سعيد إلا أن يقر كلام أبيه.

اجتاح حزن خفي قلبه. فرغم هذا الاندفاع وتلك الطاقة اللذين ميزا دائماً كلام أبيه، فإنه ليس الرجل نفسه الذي يتحدث إليه الآن. كان واضحاً أن أشهر الصراع الأخيرة قد هدته، وكل شيء يكذِّب التعبير الهادئ الذي يبديه. كان ممكناً التكهن بالخور الداخلي الذي يعيق أفكاره، ويدرك حتى نفسه.

- علمت أيضاً بما حصل لماندرينو بيك. كان رجلاً شجاعاً.

- أحسن الرجال.

ثم قال بصوت خفيض:

- أنا أفتقده.

- وذووه؟ ما الذي حل بهم؟ هل تعلم شيئاً عنهم؟

- نعم، شهرزاد تعيش مع حزنها. يوسف دائماً في عمله. أما جيوفانا. . .

صمت فجأة.

- لكن، أما تزال تذكرهم؟ عندما غادرت مصر كنت بالكاد في الثانية عشرة من عمرك.
- لم أنس شيئاً يا أبي. ألم يكن ريكاردو أقرب مستشاريك؟
حرك الباشا رأسه.
- سنقيم حفلاً احتفاءً بعودتك. أيسعدك ذلك؟
- إن كانت تلك رغبتك، سأكون سعيداً.
- عليك أن تذهب لتسلم على أمك وأخيك. أعتقد أنك لم تقم بذلك بعد؟
- نعم. كنت أتوق للقائك.
- إذن لا تتأخر. اذهب للقائهما يا ولدي.
انتصب الأمير واقفاً مع كل المشقّة التي يفرضها عليه وزنه.
- سأراك من جديد بعد قليل إن لم يكن لديك مانع.
وعندما تحرك، سأل مع بعض المرح:
- وابنة ماندرينو بيك... لم تنه كلامك عنها.
- ما عادت تسكن بالصباح. إنها تعيش بالقصر منذ وفاة ريكاردو. وضعتُها تحت إمرة غربيس بيك، مكلفة بأمور الإدارة.
بدا سعيد مرتجّاً.
- ل... لأي سبب؟
- حكاية طويلة. سنتحدث عنها لاحقاً.
- كما تشاء يا أبي.
وانطلق نحو الباب.
- يمكنك أن تذهب لتسلم عليها هي أيضاً! قال محمد علي. كدنا نختلف، هي وأنا، بسببك.
التفت الشاب.
- بسببي؟
- هذه أيضاً حكاية طويلة. لكن جيوفانا هي التي ستحكيها لك.
واصل طريقه نحو الباب، وهو يشعر بأن عيني نائب السلطان تتملاه بفضول.

الفصل الرابع والثلاثون

الجيزة، إقامة الصباح، ديسمبر ١٨٤٠.

أرى يوسف شهرزاد الرسالة فرحاً.

- أُرسلت إلى لينانت، لكنه عهد بها إليّ. أتحبين أن أقرأها عليك؟

- لم لا؟ نحب دائماً أن نستمع إلى الأخبار القادمة من الخارج.

سأل كورين:

- ألا نزعج الصغير؟ هو نائم؟

- نعم. لا تقلق. هو غارق في نومه.

أمسك يوسف بالمطوي وذهب ليقف تحت مصباح الشرفة.

مالكا، ديسمبر ١٨٤٠

عزيزي لينانت.

إليك هذه الكلمات التي ستجعلك، كما أتمنى، تسترجع ذكريات صداقتنا. قد تكون أعربت عن خيبة أمل تجاه هذا الصمت الطويل. يمكنني أن أعلل ذلك بألف سبب، لكنني أجدها كلها غير مقنعة. لذلك أكتفي بأن أقول لك إنني منذ مغادرة مصر أضحت حياتي زوبعة حقيقية نذُرت خلالها لحظات الاستمتاع. سأحاول، بأكبر قدر ممكن من الإيجاز، أن أصف لك ما عشته خلال هذه السنوات الأخيرة.

بمجرد عودتي إلى باريس وضع القدر (أعتقد أنك لم تنس نقاشنا الأخير على رصيف الميناء ونحن نتوادع) شخصاً فاتناً يتمتع بكل

الخصال التي يمكن للإنسان أن يحلم بها. يتعلق الأمر بابنة صديقة مخلصة لأمي. لقد مارست عليّ هذه الشابة ضغطاً قوياً. اسمها أغات دو لاماي. ينحدر أبواها من أسرة باريسية عريقة، مارس غالبية أفرادها مهنة القضاء العالي.

لقد أصبحت، منذ ١٢ ديسمبر ١٨٣٧، السيدة دي لسيبس.

أراك تبتسم ولا أستطيع منع نفسي من التفكير من جديد في جملتك: «يسر لي صوت بأنك بعد كل هذه السنوات التي قضيتها بمصر أصبحت ناضجاً بما يكفي كي تلتقي بمن سيختارها قلبك.»

أي استباق!

لم نسافر بعد الزواج؛ إذْ بمجرد عودتنا إلى بيتنا أرسلوني إلى لاهاي كي أساعد السيد الوزير بواسلكومت الذي عليه أن يواجه المشاكل الناتجة عن استقلال بلجيكا.

ولد ابننا الأول بروتردام، لكن فرحنا به دام، للأسف، مدة قصيرة. توفي الكائن الصغير شهراً بعد ولادته. ثم تلقيت بارتياح تعييني بقنصلية مالكا، إذ كانت وفاة ابني قد أحالت هولندا حزينة للغاية.

وأنا أكتب لك الآن من إسبانيا.

من وجهة نظر مهنية صرفة، وبالنسبة لمن يأمل في مشوار كبير، فإن مالكا تعتبر منصباً ليس هاماً للغاية. غير أنه يسمح لي بأن ألعب دوراً مجدياً في هذا البلد الذي يعيش لحظات عصيبة مقلقة. أنت تعلم بأنه ما يزال يعاني من صراعات انتقال الحكم، دون أن نتحدث عن الحروب الكارلوسية[1]. نخال كل يوم أننا على حافة الحرب الأهلية؛ فالبلد يعيش في خضم الصراعات. يتواجه التقدميون والمعتدلون كل يوم. وبالطبع فنحن، الفرنسيين، نؤيد المعتدلين. ومن الطبيعي أيضاً أن يكون الإنجليز، كما أنت متأكد من ذلك، في الصف المعاكس.

---

(١) الكارلوسيون هو اللقب الذي أطلق على مشايعي دونْ كارلوس دي بوربون، المُطالب بعرش إسبانيا بعد وفاة أخيه فرديناند السابع...

أنا أجهل على أي نحو ستنتهي هذه المأساة. لكنني أعترف لك بأنني قلق للغاية لأن ابني الثاني قد ولد من مدة قصيرة وأنا أخاف على أمنه وأمن زوجتي. بيد أن إخلاص أغاث العزيزة إخلاص مثالي وتعرب عن شجاعة بالغة خلال هذه اللحظات العصيبة التي نجتازها.

ها أنت الآن تعرف كل شيء تقريباً عن الطريقة التي عشت بها هذه السنوات القليلة بعيداً عن مصر. لقد علمت بأن مصر بدورها قد اجتازت لحظات رهيبة. يمكنك أن تتصور كم صدمني اتفاق لندن. إنه لأمر مؤسف. لكن ما حيلتنا... تلك هي مآسي السياسة.

آمل أن تجدك هذه الكلمات في صحة جيدة وأن لا تكون انشغالاتك قد تأثرت بتلك الحرب.

المخلص

فرديناند دي لسيبس.

سلّم يوسف الرسالة، بعد أن قرأها، إلى كورين.

- الاضطرابات لا تجتاح مصر وحدها، قالت معلقة.

- وهذا ليس كل شيء. ثمة حاشية.

ثم واصل:

- السويس تعيش دائماً في فكري.

أفترض، لاحظت شهرزاد، أن هذه الكلمات الأخيرة هي التي تثير اهتمامك أكثر من غيرها.

- كيف لا وهي تدلل على أن هذا المشروع ما يزال حاضراً في الأذهان رغم الحروب والاضطرابات والمسافات.

ثم وجه كلامه لكورين:

- هل سبق لي أن قلت لك إن لينانت قد استلم، منذ بضعة أشهر، رسالة من السيد أونفنتان؟ الأب أيضاً ما يزال أسير القناة.

- نعم. لكن لدي الانطباع بأن من بين هذين الرجلين، هناك واحد يترجم اهتمامه إلى فعل؛ أقصد أونفنتان بالطبع.

- أتعتقد يا يوسف، سألت شهرزاد، بالفعل، أن هذا المشروع سيكون في مصلحة بلدنا؟

- نعم، ومن كل قلبي.

مررت كفها على شعرها الرمادي.

- خذ حذرك. انظر حولنا. هذه الأرض هي سلفاً ضحية الرغبات المتأججة. تذكر أيضاً وصايا محمد علي. أخشى، إن تحقق حلمك وحلم لينانت، أن يجلب شهية العالم إلى مصر.

ثم سألت كورين:

- ألست على حق؟

- ما كنت ربما لأؤكد ذلك لولا ما شاهدته من قدرة الناس على ارتكاب الأفظع بمجرد أن تكون مصالحهم في خطر.

دققت شهرزاد مع بعض الحنين:

- ريكاردو أيضاً كان شديد الانتقاد للقناة. هل سبق لي أن قلت لك ذلك؟

أجاب يوسف بالنفي.

- كان يعلم مقدار تعلقك بهذه القضية؛ لذلك لم يجرؤ قط على إبداء اعتراضه بوضوح. لكن ذلك لم يمنع من أن يبدي معارضته الصريحة كلما تداولنا في الموضوع. آنذاك، كان يقارن مصير بلدنا بمصير فينيسيا، ويشرح لي بأن المدينة المنشأة على الماء قد عرفت، على غرار مصر، الاحتلال العثماني واحتلال بونبارت. وكانت ثروتها وقوتها هما ما جلبا عليها كل هذا الحسد.

كانت قد تكلمت تقريباً بطريقة طفلة تستشهد، بفخر، بكلمات بطل.

- على أي حال، فإن هذا المشروع لن يرى النور بين عشية وضحاها. لا أحد يستطيع أن يقول متى سيتحقق. ما يزال الوقت مبكراً، أو... هو متأخر.

وضَعَ تدخُّل لطيفة حدّاً لنقاشهم.

- العشاء جاهز، أعلنت بصوتها الموقع.

- نحن قادمون، قالت شهرزاد.

تمتم يوسف عندما كانت الخادمة متوجهة إلى المطبخ:

- لن آلَفَ أبداً صوتها. كلما فتحت فاها، حدث لدي الانطباع بأن مزماراً سيخرج منه.

أبدى تنهيدة حنين.

- آه!. . . أين هي خديجة؟ أنا آسف لمغادرتها.

- أنت تعلم جيداً بأنه لم يكن لديها خيار، عقبت شهرزاد. كان عليها أن تعود إلى بني سويف لتكون إلى جانب زوجها. أما بالنسبة لصوت لطيفة، فستألفه. فهي موهوبة.

- دون شك، دون شك، عقّب يوسف دون اقتناع.

انتصب واقفاً مع كورين وسارا وراء شهرزاد.

* * *

كان الشفق قد نثر، عبر النافذة، ظلاله الرمادية على مكتب غربيس بيك. عدلت جيوفانا من فتيل المصباح الموضوع على المكتب وانهمكت في القراءة.

انقضت لحظة. بدا عليها عدم رضى وعادت لقراءة الصفحة التي أنهتها. لم تحتفظ مما فيها بشيء تقريباً. فهي تعرب منذ هذا الصباح عن صعوبة في التركيز. تتزاحم الأفكار في ذهنها مثل سنابل أطاحت بها الأمواج.

لم تصلها أي أخبار عن شهرزاد منذ أن غادرت الصباح مما يقارب ثلاث سنوات. لا رسالة ولا برقية. كل ما تعرفه عن أمها سمعته من أخيها الذي كانت تحتم عليه واجباته المجيء فيزورها من حين لآخر بالقصر. وحتى في هذه اللحظات كانت محادثاتهما محدودة تعكس حال أرواح مكلومة.

مرة أو مرّتين أعربت عن الرغبة في العودة إلى الصباح وإنهاء ما هي فيه من حزن. لكن الغيظ الذي كانت تستشعره، وربما أيضاً بعض الكبرياء، كان يئد فيها كل رغبة في الرجوع.

لا! ليست هي من يجب أن يطلب الصفح وإنما أمها. لا شيء لديها تعتذر عنه. ومهما يكن السلوك الذي صدر عنها في الماضي خاطئاً، فإنه لا مجال لمقارنته بالفعل الشنيع الذي اقترفته شهرزاد. لقد تطاولت في سلطتها.

أغلقت الكتاب بعصبية.

مَنْ، غير جيوفانا، المؤهل لحمل المشعل وحراسة أرض الأجداد

المقدسة؟ لا أحد يمكنه أن يتقلد هذا الدور بشرف وبشجاعة غيرها.

حاولت ما استطاعت أن تبدو في مستوى الآمال التي عقدها ريكاردو عليها. كانت تعلم سلفاً كل ما يمكنها القيام به كي تحوّل تلك الضيعة إلى مكان مثالي: وضع حد للظلم القديم الذي كان الفلاحون يرزحون تحته وتطبيق مبادئ جديدة على تنظيم العمل تكون أكرم وأشد طموحاً؛ وهي المبادئ نفسها التي حاولت منذ ثلاث سنوات أن تنشرها هنا في القصر، لكن دون نجاح يذكر. والحق أنها لم تبق في منأى عن التأثر بخطابات السانسيمونيين. لقد زرعوا بذرة في ذهنها ولم يبق إلا أن تنبت. وإذا كانوا قد فشلوا في مصر فلأنهم، ربما، لم تلدهم هذه الأرض. كانوا هُجناً. أما بالنسبة لمصرية؛ بالنسبة إليها هي، فإن الأمر ممكن. لكن كيف العمل الآن؟

ضغطت كفها على حافة المكتب. اجتاحتها موجة قلق. لن تقوم بشيء ذي بال هذا المساء. قد تكون أفكارها أكثر وضوحاً غداً.

أثناء استعدادها لإطفاء الفتيل، طرق الباب. قطبت جبينها.

- ادخل، قالت مدهوشة.

انفتح الباب. تقدم رجل شاب نحوها، مضطرباً قليلاً.

- مساء الخير، يا ابنة ماندرينو. أنا أعلم أن الوقت متأخر، لكنني التقيت غربيس بيك فأكد لي بأنك ما تزالين تشتغلين.

تفحصت الزائر بانتباه. هو يذكرها بشخص ما، لكنها لم تستطع أن تسند اسماً إلى الوجه الذي تراه.

دون أن ينتظر، أتى قدامها وركز بصره عليها. ولمّا لم تُبدِ أي رد فعل، فإنه قد قال ببعض التخابث:

- أأكون قد تغيرت إلى هذه الدرجة؟

ثم واصل مسارعاً:

- هذا طبيعي. لقد مرت سنوات.

بدأت تجد هذه الطريقة التي يتعامل بها معها، بالأحرى، ذات طابع فروسي، لكنها لم تُبدِ أي ملاحظة مكبوحة بشعور مفاده أن هذا الشخص ليس غريباً عنها.

وضع، بحركة جافة، راحته على بطنه المنتفخ.

- لحسن حظي، ليس بسانت سير سفن.
- سعيد؟ صاحت شاكة وهي تنتصب واقفة. ثم سرعان ما تمالكت نفسها وصححت: معذرة، سيدي.
- لا مشكلة. لقد تعرفت عليَّ طفلاً. يمكنك أن تناديني باسمي الشخصي.
أشار إلى المقعد.
- أيمكنني؟
قالت، محمرة خجلاً:
- بالطبع، سيدي. أنتم في بيتكم.
وبما أنها ظلت واقفة، دعاها للجلوس.
- كان ذلك من زمن طويل، أليس كذلك؟
عشر سنوات مرت. تتذكره طفلاً أشعث بطيء الخطى يجر ساقيه على طول الرصيف. كانت آنذاك قد قالت لنفسها بأنها لن تنسى أبداً عينيه بتعبير الحنين والوحدة الذي ينبعث منهما. وإذا كان الجسد، اليوم، قد تغير، فإن التعبير، من جهته، ما يزال هو نفسه.
كان يتفحصها في صمت، ودون أن تدري لماذا، شعرت فجأة بأنها أشد خجلاً من طفلة.
- هكذا تكونين قد اخترت أن تعيشي في القصر.
- كان لصاحب الجلالة، أبيكم، كرم استضافتي.
- أنت إذن قد غادرت إقامتكم بالجيزة؟
رسمت شفتاها كلمة «نعم» دون أن تنطقها.
- سأكون فضولياً إن سألتك لماذا.
راغت عن الجواب.
- كيف تشعر بعد هذا الغياب الطويل؟
- سعادة كبيرة وحزن عظيم. وجدت أبي متعباً للغاية ومتقدماً جداً في السن.
- لقد هزته أحداث السنوات الأخيرة. أحد آخر غيره كان سيفنى.
- وعملك مع غربيس بيك، هل أنت راضية عنه؟

- أنا أتعلم. ومن حين لآخر أقدم أفكاراً يقبلها بما عرف عنه من طيبة.

- غريب. عندما كنت أفكر فيك، لم أكن أتصورك تمارسين وظيفة. عليَّ أن أقول أيضاً بأن المصريات المشتغلات، على عكس النساء الغربيات، هن بندرة ندف الثلج.

قمعت اهتزازة. عندما كنت أفكر فيك...

هو إذن لم ينس اللقاء الوجيز على الرصيف؟ غريب. مرت سنوات طويلة. أرغمت نفسها على التركيز وقالت معارضة:

- وأنت ترى بأنه من غير اللائق أن تهتم المرأة إلا ببيتها؟

- لو لم أكن قد قضيت لتوّي عشر سنوات بفرنسا لكنت أجبت بالإيجاب. أنا اليوم أنظر إلى الأمور بشكل آخر، في حدود طبعاً.

شرعت تستعيد وضوح ذهنها وقريحتها. أيعود ذلك إلى طبيعة الموضوع المناقش؟

- ماذا تقصدون بـ «في حدود» سيدي؟

- أنا أعتقد أن على المرأة أن تكون مكملة للرجل لا أن تصبح مساوية له. يكفي أن نتأمل الطبيعة، أليست من خلق الله ورمزاً لنظامه البديع؟ كل شيء ضمنها في مكانه. لو كان الله أراد تساوي مخلوقاته فلماذا عمل على أن ينشئ الذكور والإناث؟

صمت، ثم تساءل:

- هل سبق لك أن رأيت غزالاً؟

- لا، للأسف.

- هو من أجمل المخلوقات؛ أنيق ورشيق، عيناه تنضحان حيوية وحناناً، كما أنهما مدوختان إلى درجة أننا، نحن الشرقيين، عندما نريد أن نعبّر عن إعجابنا بعيني امرأة، فإننا لا نجد ما هو أجمل من مقارنتهما بعيني الغزال. لنأخذ الآن مثال الجاموس. هو بطيء وغليظ. لا يجد راحته إلا في الطين والمستنقعات. فما جدوى أن يريد غزال أن يصبح جاموساً!

عقبت جيوفانا على الفور:

- وإن كان الغزال قد مل دوسه من طرف الجاموس؟ هل فكرت في ذلك؟

- سيكون ذلك خطأ الغزال. عليه أن لا يصادق إلا جاموساً مهذباً.

قهقه، سعيداً بما قاله، فاهتز جسده الثخين. كان يبدو مثل طفل سعيد بالدور الذي لعبه لتوه. شرعت جيوفانا تقهقه بدورها، دون تحفّظ، وكأن ضحكه معدٍ.

عاد الصمت ليسود من جديد فما عادت تُسمع للحظة سوى وشوشات البحر.

- أنا لم أخبرك بعد، يا ابنة ماندرينو، قال سعيد، بهدف هذه الزيارة. لقد قرر أبي إقامة حفل احتفاءً بعودتي. سأكون سعيداً إن قبلت حضوره.

بدت حائرة مفاجَأةً بطلبه.

- أنا، سيدي، متأثرة جداً ب...

اعتدل سعيد.

- شكراً. أنت لا تدرين مقدار سعادتي بموافقتك.

ثم توجّه فوراً إلى الباب.

- سأخبرك بالتاريخ. أعتقد أنه سيقام نهاية الأسبوع.

وفي اللحظة نفسها التي وضع كفه على مقبض الباب، أضاف:

- أنا سعيد، يا ابنة ماندرينو.

ثم وشوش هامساً:

- سعيد بأن أعثر عليك من جديد.

ثم انغلق الباب ببطء خلفه.

الفصل الخامس والثلاثون

قناة السويس، ٢٩ ديسمبر ١٨٤٠.

هبّت فجأة رياح غربية جعلت وجه الصحراء يرتعش قليلاً. قطب يوسف حاجبيه وسبر المشهد أمامه ثم وضع آلة كشف المسافات في حافظتها.

– لينانت! نادى وهو يضع كفيه على شكل مكبر صوت.

شاهد لينانت، الجالس على الرمل، عن بعد، صديقه يشير إلى جانب من السماء الذي يعتمل بلون رمادي وسخ.

– هل هي رياح الخمسين؟ لكن هذا ليس موسمها!

– لا. لكننا لا ندري أبداً كيف تنقلب الأمور؛ ومن باب الحذر العودة إلى المخيم.

طوى لينانت الخرائط، مقطب الملامح، وجمع أدواته وكدسها في حقيبته.

– ما هو انطباعك؟ سأل يوسف.

– لا أستطيع قول أي شيء.

ثم أضاف سابّاً:

– اللعنة على هذا الجو!

– اهدأ. لا داعي لأن تضع نفسك في هذه الحالة.

ما عاد لينانت يتحكم في نفسه.

– ماذا تقول؟ خمس عشرة سنة من البحث والأشغال والتقييم؛ ليال بيضاء وساعات قُضيت في تهيئة التصاميم! للوصول إلى ماذا؟ إلى العدم!

- أنا أتفهّم خيبة أملك. لكن لا شيء انتهى بصفة نهائية. ربما كان أونفتان ومعاونوه هم المخطئين.

أمسك لينانت بوجهه بين كفيه. كان يبدو مدمراً.

والحق أن البريد الذي اطلع عليه قبل أربع وعشرين ساعة كان من شأنه أن يخلخل أشدّ العقول رزانة. كان زعيم السانسيمونيين هو الذي كتبه، وهذا مضمونه:

«عكس ما أكده مهندس بونبارت، وعكس قياسات اللجنة الأوروبية التي تترأسونها أيضاً، يؤسفني أن أعلن لكم أنْ ليس ثمة أي فرق في المستوى بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر. انتبهوا جيداً إلى: ليس ثمة أي فرق. إن آخر العينات التي أخذتها خلال إقامتي الأخيرة بالقناة قد حللت من قبل مجموعة من المهندسين، يقودهم أحد إخواننا؛ وهو السيد بولان تلابوت، ونتيجة دراستهم واضحة تماماً.»

ثم تأتي بعد ذلك صفحتان من التفسيرات التقنية، والخلاصة:

«أنتم تعلمون جيداً أن كل المعطيات الأساسية التي تقوم على هذا الفرق المتوهم المقدر بعشرة أمتار أصبحت في حاجة لأن يعاد فيها النظر. ذلك أن غياب الفرق في المستوى يعني غياب التيار، وغياب التيار يعني أن لا قناة عميقة، وبالخصوص لا ميناء على البحر الأبيض المتوسط. إن السيد تلابوت يطالب بالعودة إلى مشروع التخطيط غير المباشر. ومهما يكن الأمر، فإن كل التصاميم يجب أن تعاد من بدايتها. وسأعمل على أن أخبركم بكل جديد...»

وهكذا يكون لينانت لم يفعل، طوال كل هذه السنوات، إلا أن أبّد خطأً ارتُكب مما يقارب قرناً من الزمن.

وضع يوسف كفه على كتف صديقه.

- هيا... لننصرف من هنا. سنتحدث عن هذا لاحقاً.

انتصب لينانت واقفاً، معكر المزاج. في هذه اللحظة انتبه إلى النقطة المعتمة والمتحركة التي تكبرُ على صفحة الأفق الرمادية.

- فارس...

- لا شك أنه رجل من قبيلة باديشاي. ماذا يفعل هنا؟

بالموازاة مع اقتراب الطيف، كانت تفاصيله تصبح أكثر وضوحاً. أخطأ يوسف. فرغم قطعة الثوب التي تواري الجزء الأسفل من وجه الرجل، فإن ملابسه، كلّها، كانت ملابس رجل غربي.

لم يستطع لينانت أن ينتبه إلى بدلته وإلى الشارتين اللتين تزينان كتفيه، إلا عندما أصبح على بعد خطوتين منهما. وأمام ناظري يوسف المشدوهين، خاطب لينانت الشخص:

- توماس!

- بلفاند! (تلفظ: «بيل- فاندز» بلكنة إنجليزية قوية). أنا سعيد فعلاً بأن أراك.

قدم لينانت الرجلين أحدهما إلى الآخر:

- صديقي، يوسف ماندرينو. الملازم الأول توماس فاغورن.

ثم تابع مخاطباً العسكري:

- مواظب كالعادة، كما أرى!

- أكثر من أي وقت مضى! لكن، وكي أكون جاداً، أعترف لك بأن أناس لندن الأنيقين، إن لم يقرروا مساعدتي فإنني أعتقد بأنني سأكون مضطراً لأن أتخلى عن كل شيء.

- ما هو أحسن وقت حققته، يا توماس؟

- أربعة أيام. الأمر ليس سيئاً، أليس كذلك؟

أطلق لينانت صفير إعجاب واستدار نحو يوسف.

- هل سبق لي أن حدثتك عن الملازم الأول فاغورن؟

- لا أعتقد.

كان لينانت على أهبة أن يشرع في تفسيراته، لكن الإنجليزي قاطعه بلباقة.

- معذرة يا صديقي، لكنني مضطر لأن أنصرف. أنت تفهم بأن أي دقيقة بالنسبة إليّ تعدّ باهظة في ثمنها.

- بالطبع. وليكن الله في عونك!

صاح الملازم الأول وهو ينطلق:

- إن التقيت بالسيد دي لسيبس لا تتأخر بأن تنقل إليه سلامي!
ثم اختفى في زوبعة من غبار.
- هلاً شرحت لي بماذا يتعلق الأمر؟ سأل يوسف. من هذا الشخص؟
- حالم، مجنون! ينضاف للآخرين.
- كيف؟
- كان توماس ضابطاً في جيش الهند. ذات يوم، أثناء وجوده بكالكوتا، انحنى على خارطة للعالم وشرع يحسب المسافة التي تفصل شبه الجزيرة الهندية عن المملكة المتحدة، وهو يتصور وجود طريق آخر غير طريق الهند المعروف. طريق، عوض أن يمر برأس الرجاء الصالح، يمر عبر...
تعمّد تشويق يوسف بترك الجملة معلقة.
- ألا تخمن؟
- لا، لا يمكنني أن أصدق ذلك!
- ومع ذلك، فتلك هي الحقيقة: عبر قناة السويس. هو مقتنع بإمكانية إقامة طريق آخر يصل حتى بومباي أو كالكوتا؛ ويكون طريقاً برياً. وقد عمل جاهداً على إقناع السلطات البريطانية بوجاهة رؤيته؛ لكن سدىً. آنذاك، توجّه - مأخوذاً بذلك الشغف الأعمى الذي يميز المغامرين النابغين - إلى مقر شركة الهند بلندن وطالب بنسخة من البريد الذي يُرسَل عادة عبر الرأس، وبعد أن نبّه رجال الأعمال الذين يقيمون علاقات تجارية مع القارة الهندية، قام بالرحلة وحيداً حتى الهند.
- بالمرور عبر أي مسار؟
- أبحر من فارموث، على متن سفينة إلى مالطا. ومن هناك واصل رحلته حتى الإسكندرية. وعندما أدرك المرسى المصري، واصل حتى السويس، ثم قطع البحر الأحمر ليصل بعد حوالي أربعين يوماً إلى بومباي.
- أكثر من أربعة آلاف ميل!
- أربعة آلاف وخمسمائة، على وجه التدقيق.
- وهكذا يكون قد قطع خلال أربعين يوماً ما يتطلّب، عبر الطريق البحري، سبعة أو ثمانية أشهر.

- تماماً. لكن، ولسوء الحظ، فرغم إنجازه هذا، لم يهتم به، حتى يومنا هذا، أي تنظيم رسمي. وقد انتهى به الأمر أن شرع يطلب خمسة شلينغ لمرسلي البريد الذين يثقون به. بؤس حقيقي.

- لكنك لم يسبق لك قط أن حدثتني عن هذا الرجل! بأية مناسبة التقيت به أنت؟

- من حوالي خمس سنوات، خلال شهر سبتمبر، كنت رفقة فرديناند في ضواحي بحيرة التمساح. كان توماس آنذاك بصدد محاولته الثانية. لست بحاجة لأن أقول لك كم كانت دهشة صديقنا لسيبس عظيمة. بعد ذلك، وضعته الصدفة، مرة أخرى، في طريقي عندما كنت أنقب في منطقة القناة. تذَكّر أن ذلك كان زمن أعرب نائب السلطان بوضوح عن تحفظاته تجاه مشروعنا حول القناة. لم تكن معنوياتي آنذاك بأكثر ارتفاعاً مما هي عليه اليوم. ثم ما عدت بعد ذلك أفكر فيه.

التفت يوسف، فوق فرسه، وسبر الهضاب آملاً أن يلمح الفارس، لكنه كان قد اختفى.

- لنعد، قال لينانت. العاصفة تقترب، وسيكون من باب البلادة أن نموت منهزمين.

حركا اللجام وانطلقا شرقاً.

* * *

كانت غالبية الضيوف قد انسحبت، ولم يبق منهم إلا حوالي عشرة - كلهم رجال - كانوا يدردشون في الصالون. أما النساء، من جهتهن، فكن متواريات في الغرفة المجاورة، حيث ترتفع، بين الفينة والأخرى، أصواتهن الخشنة وضحكاتهن العالية المتمردة.

كانت جيوفانا منزعجة تماماً، وهي تجلس مضغوطة بين الأميرة نازلي، الأخت الكبرى لنائب السلطان والبارونة بابنبيرج، زوجة قنصل النمسا. لكن لم يكن لديها أي خيار؛ إذ كان سيكون من باب ارتكاب خطأ فادح في حق نائب السلطان نفسه، أن تغادر الجمع والأميرة حاضرة.

كان العشاء قد استغرق وقتاً طويلاً. ولأسباب غير قابلة للتفسير، لم تكن أية ممثلة للجنس اللطيف قد قُبلت على المائدة. قدم لهم الطعام حيث هن،

في غرفة الطعام التي تخصص عادة لخليلات الحريم، مما أغاظ جيوفانا. لقد قبلت المجيء من أجل سعيد؛ لكنها لم تلمحه حتى.

- هكذا، يا عزيزتي، تكونين قد فقدت أباك منذ ثلاث سنوات. يقولون عنه بأنه كان رجلاً محبوباً.

- كان كذلك، بالفعل، سيدتي، عقبت جيوفانا على كلام السيدة التي توجهت إليها بالكلام؛ وهي امرأة في حوالي الأربعين من عمرها، مبالغة في زينتها وبدينة على نحو مرعب.

- كانت لولدي معرفة جيدة به، هل أنت على علم بذلك؟

- ومن هو ابنك، سيدتي؟

أقامت المرأة جسدها بانفعال.

- أنا فريدة! قالت، رافعة ذقنها.

- آه...

- ابنة صاحب الجلالة!

أحنت جيوفانا رأسها، بإهاب احترام كاذب.

- اعذريني يا فريدة هانم. لكنني كنت أجهل ذلك.

- وابني هو عباس باشا.

عباس... في البداية لم يذكّرها الاسم بشيء. بعد ذلك عادت إلى ذاكرتها صورة ذلك الشاب ذي القسمات الرخوة الذي لمحته يوم عودة إبراهيم عقب انتصاراته. كانت، بالأحرى، قد وجدت نفسها جالسة أمامه، أثناء الحفل.

- أعلم، قالت بنبرة محايدة.

- إن تذكرت، فهو ذو مظهر رائع.

انفرجت شفتا الأميرة بما أرادته أن يكون ابتسامة.

- صحيح. هو رجل وسيم.

انفرجت أساريرها على الفور ثم اعتدلت مستندة، دون أدنى تردد، إلى فخذ جيوفانا.

- عباس! صاحت بصوت منكر. كنا نتحدث عنك لتونا، مع الآنسة!

كان الشاب قد بدا لتوه على العتبة يسبقه سعيد.

علِقَت فريدة بعنق ولدها غير آبهة بحضور سعيد.

- تعال، اقترحت، وهي تسحبه من ذراعه. سأقدمك إلى فتاة رائعة الجمال.

ترك الفتى أمه تقوده دون أن يبدي أي مقاومة. وعندما أصبح أمام جيوفانا حياها بفتور. لم يبد على ملامحه أدنى اهتمام. لاحظ بصوت فاتر:

- يبدو لي أننا قد تقابلنا من قبل.

- نعم، يا عباس باشا. منذ زمن طويل.

شرع فجأة في تفحصها.

- أنت مصرية، أليس كذلك؟

- تماماً.

وإذن، فلماذا تلبسين لباس الغربيين؟

كان في نبرة كلامه هزءٌ واضح، إن لم نقل احتقاراً.

استرقت جيوفانا نظرة إلى سعيد الذي ظل بعيداً بعض الشيء. بدا لها أن ملامحه كانت تحمل رسالة بالتهدئة، لكنها لم تهتم بها وعقبت:

- لأن تلك رغبتي، سموكم. فهل هي مزعجة؟

- بالأحرى، نعم. العربي، بالنسبة إليّ، يجب أن يلبس لباساً عربياً. وإلا فإن ما يلبسه لا يعود لباساً وإنما تقنعاً.

أجابت بصوت متعجرف:

- هل تسمحون لي بأن أضع بدوري سؤالاً؟ كيف تحكمون على رجل أصابعه مزينة بالخواتم؟ أليست الخواتم من شأن النساء؟ أم أن علينا أن نستنتج من ذلك. . . بأن الأمر يتعلق أيضاً بتقنّع؟

احمرّ خدّا عباس. أخفى، مغضوباً، يديه خلف ظهره.

أبدى همهمة وضعت حدّاً لها حركة استنكار من فريدة.

قرر سعيد، أخيراً أن يتدخل.

- اعذريني، يا ابنة ماندرينو، في أن أقاطعك، لكن السيد غربيس ينتظرنا.

وأرفق جملته بحركة حميمة خفية.

عبرت جيوفانا الممر بخطوات واسعة.

قالت:

- ربما تكون قد أنقذتني من مخالب هؤلاء الناس المرعبين، سيدي، لكنني لن أغفر لك أبداً جرّي إلى هذه الأمسية!

اعتذر سعيد:

- أؤكد لك يا جيوفانا! أؤكد لك أن لا دخل لي في الأمر. ما كان بإمكاني قط أن أتصور انقلاب الحفل إلى ما انقلب إليه. عليك أن تصدقيني!

حاول أن يمسكها من ذراعها كي يكبح مشيها السريع، لكنها انتشلتها منه.

- اتركني، أرجوك!

- امنحيني فقط حق أن أدافع عن نفسي!

رغم رجائه، واصلت سيرها. لم تقف إلا عندما أصبحت على عتبة غرفتها.

- أنا أنصت إليك، قالت وهي تشبك ذراعيها.

حاول الأمير الشاب استرجاع أنفاسه. كانت ملامحه محتقنة وهو يتصبب عرقاً.

- كان منتظراً أن تشاركي في الحفل، ضمن زوجات الدبلوماسيين. كنت حتى طالبت بأن تجلسي إلى يميني؛ وهو مكان التشريف.

تنفس بعمق، ثم واصل ببطء:

- أنا عاجز عن تفسير ما حصل.

- ماذا تريد أن تقول؟ كنت حاضراً عندما طردوني من قاعة الأكل؟ ولم تقل أو تفعل شيئاً!

- لم تكن لي أية وسيلة أعارض بها أوامر والدي.

- والدك؟

- استمعي إلي. دون أدنى سبب ظاهر، ودون أي تفسير، قبل دقائق من وصول ضيوفنا، تغيرت ملامحه فجاة. ارتخى محياه وأصبح لونه بلون التراب حتى جعلني، في تلك اللحظة، أفكر في تلك الوجوه الشمعية التي رأيتها في بعض المتاحف الأوروبية.

تملته جيوفانا مذهولة.

- ثم؟

- أمسك بجرة وضغطها بقوة بين يديه حتى خِلنا بأنه سيكسرها بين أصابعه، ثم قذف بها على الجدار. لكن هذا ليس كل شيء. ولمّا كنا التزمنا الصمت، ولم نجرؤ على سؤاله عن سلوكه الغريب هذا، انتصب واقفاً، ضاغطاً قبضته، وشرع يصرخ: (الإسلام! باسم الله!! لن يلطخ الكفار بعد اليوم الأرض المقدسة لقصري! ومن الآن فصاعداً لن تجلس النساء إلى مائدتي! ولينفَ الملحدون!) دعا الخدم وأمرهم بإزاحة عدة المائدة الخاصة بالنساء. ها أنا قد أخبرتك بكل شيء. أتصدقينني الآن؟

وجدت جيوفانا، مصعوقة، القوة كي تتمتم:

- بالطبع أصدقك يا سعيد... معذرة... يا سيدي.

- لِنَنْسَ من فضلك البرتوكول.

قالت:

- لكن كيف تفسرون موقف صاحب الجلالة؟ هو المعروف بلباقته وبانفتاحه... لا يمكن لأحد أن يتصور بأن يتفوه شخص مثله بكلمات مثل هذه.

- لا أدري يا جيوفانا. لا إبراهيم ولا الكولونيل سيف ولا وزراؤه... لا أحد من بيننا فهم شيئاً. وأكثر من ذلك، رفض كل الأطباق التي قدمت إليه ولم يأكل شيئاً خلال الأمسية كلها. ومن بين الشخصيات التي كانت حاضرة، شخصية واحده صفقت على المشهد: عباس باشا! كان سعيداً.

- لا يدهشني سلوك عباس باشا. ومع كل الاحترام المفروض لخالتك، الأميرة فريدة، فإن لدي الانطباع بأنها قد ولدت أَعْوَهاً.

- هذا هو شعوري أنا أيضاً.

وفي حركة لاشعورية، انسدت كفه على كف جيوفانا.

- أنا بحاجة إليكِ...

- بحاجة إليّ أنا، سيدي؟ لكن ما الذي عليَّ أن أقوم به؟

- أن تعديني، فقط، بالبقاء إلى جانبي. أن تسمحي لي بأن أزورك وأن أحادثك. أنا...

اختنقت كلماته الأخيرة ببكاء.

- أنا خائف... خائف على أبي.

- هذا لا يليق يا سعيد - انفلت منها الاسم الشخصي بفعل التأثر -، هذا لا يليق. وبعد كل شيء، فإن صاحب الجلالة ربما كان ضحية لحظة غضب. ألم تخبرني، أنت نفسك، بأنك قد وجدته، عند عودتك من فرنسا، متعباً للغاية؟

هذا صحيح، قال سعيد موافقاً. لكن، لو كنت شاهدته... لم يكن عاد هو محمد علي باشا، كان رجلاً غريباً. شيطاناً.

شرع جسد الشاب، الآن، يرتعش، فأصبح يذكِّر بالطفل الذي كان، منذ عشر سنوات، يتسلق الصاري، مهزوماً مكسوراً.

- سعيد، عليك أن تتمالك نفسك! لا حق لأمير بأن يترك نفسه فريسة للخوف.

- الانتساب إلى الدم الملكي لا يقي من الأسى.

- نعم، لكنه يساعد على تحمّله على نحو أفضل.

فتحت الباب.

- أتريد أن تدخل؟ سأهيئ لك شاياً بالنعناع. سيتحسن حالك. تعال، ادخل.

تبعها، منقاداً، إلى الشقة وتهالك في أريكة بينما اختفت هي. عندما عادت بعد لحظات، كانت تحمل صينية نحاسية عليها إبريق شاي وكأسان صغيران.

- لنترك مواده تتمازج. بعد ذلك أصب لك.

وضعت الصينية على المائدة الصغيرة وجلست ثانية ساقيها تحتها، عند قدم الأمير.

- قولي لي يا جيوفانا، ألا ترين بأن علينا أن نخبر طبيباً بما جرى؟

- تقومون بذلك فقط إن تكررت الأزمة. أما الآن، فلا أرى جدوى لذلك. ثم، من منا لم يكن ضحية لحظةِ...

- جنون؟

- بشكل من الأشكال. لا، أعتقد أن لا داعي للإفراط في القلق. صاحب الجلالة، بالتأكيد، ضحية إنهاكه. أعصابه انفلتت، هذا كل ما في الأمر.

وافقت بصمت.

- أنا، بالتأكيد، أعطيك الانطباع بأنني أعتبر مأساوياً حادثاً لا قيمة له، لكنني أؤكد لك بأن الأمر ليس كذلك.

- أنا أشك في الأمر. إنه لإحساس رهيب أن ترى كائناً من دمك يتخذ وجهاً آخر ويصبح شخصاً غريباً.

تملاها بملامح جادة.

- أمر غريب... تقاطعت معك في الطريق مرتين؛ وخلال المرتين معاً، وفقط من خلال حضورك، استطعت أن تعيدي الطمأنينة إلى قلبي. أنا أقول لك الآن: أنت لن تدركي أبداً مقدار أثر نظرتك عندما تحط عليّ، في الوقت الذي لا أكون محاطاً إلا بالأطياف المعارضة. كان أثر صوتك يقول، بكل بساطة: «مساء الخير»

بدا مشوشاً.

- أنا... كنت أجهل.

ثم سأل فجأة:

- هل تعرفين السيد دي لسيبس؟

- كان لي حظ اللقاء به على نحو عابر. لماذا هذا السؤال؟

- السيد دي لسيبس عزيز عليّ. ذات يوم ونحن نتجول - أو عليَّ أن أقول، عندما كنت أعاني - على ضفة بحيرة مريوت، سمعت صوت المؤذن الذي يسرد أسماء الله التسعة والتسعين. الله وحده كان يعلم بشعوري. أسررت للسيد دي لسيبس بأنني أفضل هذا الدعاء لأنه يبعدني عن البشر. كان آنذاك قد أجابني: «للأسف. فأنتم إذْ تُبعدُون الناس تُحْرَمُون صداقتهم. - أنا لا أدري عمّاذا تتحدث، عقبت، فالأمير لا يكون له صديق. وعلى أي حال، ما الصداقة؟»

- بماذا أجابكم؟

- «لقد ذكرتم لتوكم أسماء الله. الشيء نفسه يصدق على الصداقة؛ فعندما نكون محاطين بتسعة وتسعين شخصاً، فإن شخصاً من بينهم سيكون متفرداً بالنسبة إليكم.»

- لأي سبب؟

عَبَر بريق متواطئ حدقتي سعيد.

- كنت طرحت عليه السؤال نفسه. وها هو ذا جوابه: «ببساطة، أيها الأمير سعيد، لأنكم ستكونون أنتم أيضاً متفردين في عينه هو.»

- لقد مر الوقت. الآن فقط أنتبه إلى صدق ما قاله.

استعدت لصب الشاي، لكنها علقت حركتها.

- ألا تسألينني لماذا؟

رفعت حاجبيها مبلبلة بعض الشيء.

- لماذا، سيدي؟

- لأنني، منذ أن التقيتك، يا ابنة ماندرينو، أصبحت متفردة عندي.

الفصل السادس والثلاثون

قصر رأس التين، يونيو ١٨٤١.

كان المجلس مجتمعاً بكل أفراده في الغرفة الشاسعة بالطابق الثاني من القصر. لم يتخلف أي عضو من أعضاء الحكومة عن الاستجابة للدعوة. أخذ إبنا العاهل، سعيد وإبراهيم، مكانيهما على التوالي، على يمين وعلى يسار أبيهما. وكان شارل لامبرت (الملكف، منذئذ، وبصفة كاملة، بالأشغال العمومية، كما أصبح يشغل منصب مستشار في المالية) يجلس إلى جانب بوغوسيان بيك، وزير الخارجية. وأبعد، كان يجلس غربيس بيك وجيوفانا.

رغم أن مسؤوليات الفتاة كانت قد تضاعفت خلال الأشهر الأخيرة، فإن شيئاً لا يبرر حضورها في اجتماع مثل هذا. لا شك أن غربيس بيك دافع عن قضيتها وأن شارل لامبرت، بوصفه مدافعاً عن المبادئ السانسيمونية، قد ساندها بقوة، لكن، لا شك أن أحداً من هؤلاء ما كان ليحقق المراد لولا أن تدخّل سعيد شخصياً لدى والده.

لكن ابنة ماندرينو ليست الشخص الوحيد الذي قُبل في أحضان هذا المجلس. كان ثمة أيضاً عباس باشا. جلس الشاب، الذي تكرهه جيوفانا وسعيد وغالبية أعضاء الحكومة، على رأس الطاولة بعجرفة. لم يكن يخفى على أحد أن محمد علي لم يكن يخص حفيده هذا بأي عطف. والحال أن الباشا نفسه - وهي خطوة على الأقل غريبة -كان هو من أيد حضوره.

- مرحباً بك، يا ابنة ماندرينو، بين الأسود! قال العاهل، ونطلب من الله أن لا يعاقبنا على أن اخترقنا التقاليد.

- الله غفور رحيم، سيدي. سيغفر.

ارتفع الصوت الفاتر لعباس من عمق الصالة.

- وليخصك الله أيضاً، يا آنسة، بمصير أسعد من المصير الذي لاقته شجرة الدر.

كان النبرة سائغة لدرجة أنها أخفت هزءاً ما.

- اغفر لي جهلي، لكن من تكون هذه الشخصية؟

- السلطانة الوحيدة التي حكمت مصر. لكن حماسها، للأسف، كان متهوراً. لقد لقيت نهاية مرعبة... وطئت بالأقدام وضربت حتى الموت...

- هذا مفيد، سعادتكم. لكن ما العمل؟ يحصل أحياناً، للأسف، أن تريد نساء أن يصبحن ذكوراً، فلا يأخذن من الذكور إلا ما هو مشين.

توقفت وحطت على مخاطَبها بنظرة مثقلة بسوء الفهم.

- لكن الأدهى هو أن الذكور المغشوشين هم الذين يتصورون بأنهم يملكون خصائص المرأة.

احمرّ خدّا عباس.

- أنا لا أرى لهذا علاقة بشجرة الدر.

قاطع محمد علي، بجفاف، حفيده.

- عباس! نحن لسنا هنا لقص حكايات تعود إلى زمن غابر.

ودون أن ينتظر، وجّه حديثه لشارل لامبرت.

- أين وصلتم، يا لامبرت بيك، في قضية العملة؟

وضع السانسيموني يده على حزمة وثائق.

- كل شيء هنا، يا صاحب الجلالة. لكنني أخشى أن تكون قراءتها مضجرة. لذلك، ألخصها، بعد إذنكم، في كلمات.

- نحن نستمع إليك.

- في البداية، وبعيداً عن الخيارات التقنية التي لها علاقة بضرب العملة، تفرض ملاحظةٌ نفسَها: العملة المصرية غنية جداً بعيارها وبوزنها وسبائكها. فبمجرد إطلاقها أخذت بسبب المعادن التي تكونها. ومن جهة أخرى، فهي شديدة التعلق بالعملة التركية والعملات الأوروبية. وإن لم يوجد علاج لهذه الوضعية، فإن الدولة المصرية ستصبح أكثر فأكثر شبهاً بتلك الإدارات الاستعمارية التي تستعمل كل أنواع العملة الأجنبية فضلاً عن عملتها هي.

- وماذا تقترحون؟
- عملة وطنية متوازنة ودقيقة وأكثر انتشاراً.
- ممتاز. سلمني تقريركم؛ سأقرأه وسأخبرك بقراري.
سلم لامبرت الملف لنائب السلطان.
سأل هذا الأخير من جديد:
- وبالنسبة للبرنامج الدراسي لمدرسة البوليتكنيك ببولاق، هل هيأته؟
- نعم، سيدي. في البداية، كنت رأيت أن أستوحي من النموذج الفرنسي. لكن، وبعد تأمل، تبنيت وجهة نظر مختلفة. إن الميزة البارزة لرجال هذا البلد، مقارنة بأوروبا، هي أنهم شديدو التأثر بالحواس. وكي يتمثل التلاميذ بشكل جيد الحقائق العلمية، يبدو لي أنه يجب الالتجاء، كلما كان ذلك ممكناً، إلى التجربة في الميدان. ومن بين المدارس الشهيرة بأوروبا والتي تقترب أكثر، بطريقة تطبيقاتها، من مدرسة بولاق، ثمة المدرسة المركزية للفنون والمصنوعات بباريس. إنها مؤسسة حديثة العهد وذات مستقبل زاهر، مما حذا بالبعض، سلفاً، إلى أن يدعوها «مدرسة البوليتكنيك الصناعية».
- كم سنة دراسية ستكون ضرورية؟
- ثلاث سنوات. وستتوج السنة النهائية بدرس في «الاقتصاد الصناعي» في ثماني عشرة حصة. بحيث إن المهندسين المصريين سيكون باستطاعتهم أن يتلقوا معارف كاملة ما أمكن حول الأشغال العمومية.
توقف لامبرت للحظة قبل أن يدقق:
- وأقترح أيضاً أن تخصص، ضمن يوم من اثنتي عشرة ساعة دراسية، ثلاث ساعات لدراسة اللغة الفرنسية. وهو ما سيتيح فرصة قضاء الشباب المصري لعطل دراسية محتملة بفرنسا.
- أنا لا أفهمك، يا لامبرت بيك، قال عباس. هلاَّ كنت أكثر تدقيقاً؟
- من المعتاد أن الطلبة الذين يتوجهون إلى فرنسا هم في غالبيتهم مراهقون. وعندما يعودون إلى مصر يكونون قد فقدوا كل شيء، أو يكادون، من هويتهم الوطنية. لذلك أقترح أن تبتدئ دراسة اللغة الفرنسية هنا، ومنذ الطفولة.

- ما زلت لم أفهمك، عقّب حفيد محمد علي.

كان لامبرت يستعد للتفصيل أكثر، عندما سبقته جيوفانا قائلة:

- فكرة السيد لامبرت يا عباس باشا واضحة مع ذلك.

وكما لو كانت تتوجه بكلامها إلى طفل صغير، فسرت:

- إننا بسماحنا لأطفالنا الصغار بتعلم اللغة الفرنسية في مدارسنا، نؤجل ذهابهم إلى أن يصبحوا في سن ناضجة ليكون لهم الوقت كي يتشبعوا بثقافة بلدهم وتقاليده. وبذلك، نواصل لإقامة تبادلاتنا مع فرنسا دون أن يفقد شبابنا، مع ذلك، هويته الثقافية. أفهمت الآن؟

- ليس هذا ما أريد معرفته يا ابنة ماندرينو. أنا فهمت هذا الجانب الذي تتحدثين عنه، لكن ما يزال عصياً على فهمي هو الفائدة من تدريس لغة أجنبية لأطفال مصريين، وبالخصوص اللغة الفرنسية!

- ما الذي تؤاخذون به تعليم اللغة الفرنسية، سموكم؟ أنتم مع ذلك تتحدثون بها بطلاقة.

أبدى بسمة هازئة وقال بصوت فظ:

- فُرضت عليّ. وأنا لا أجد أمراً طبيعياً أن تفرض على شعبنا أيضاً. هل نسيت أننا قد تعرضنا لإذلال معاهدة لندن، في جزئها الأكبر، بسبب تردد ومراوغات فرنسا! هل نسيت أن...

- كفى! صاح محمد علي وهو يضرب بقبضته الطاولة. أنا أمنعك، أتسمع؟ أنا أمنعك من أن تتحدث بهذه الطريقة عن فرنسا! سأظل طوال حياتي مديناً لها بما فعلته من أجلي، وعندما ستحين ساعتي، سأوصي بعرفاني لأبنائي الحاضرين ها هنا وسآمرهم بأن يظلوا دائماً تحت حماية هذه الأمة! هل هذا واضح؟

كان وجه العاهل قد توتر. كان يلمع وكأنه تحت تأثير نور ساطع. وفجأة، ودون سابق إخطار، انطلق في إلقاء نوع من الخطاب غير المفهوم والذي لا علاقة له البتة بالموضوع المعالج. فجأة أيضاً، التفت نحو إبراهيم ووشوش له بصوت محموم:

- أكِّد لي، يا ولدي، بأن جيوشنا لن تعبر مضايق توروس؛ أتؤكد لي

ذلك؟ وإلا فإن العواقب ستكون وخيمة. وأبداً... اسطنبول. أبداً لن تذهب أبعد من الحدود التي رسمتها لندن. اقسم يا إبراهيم، اقسم.

تفحص الأمير، محموقاً، أباه بحيرة.

- اقسم، اقسم لي إنك لن تتجاوز توروس!

- لكن... يا أبي... لم يعد عدد جنودنا إلا ثمانية عشر ألف رجل. وهم منكفؤون على أنفسهم في ثكناتهم. وما عادت لنا بحرية. ثم إننا ما عدنا في زمن الحرب.

بدا أن العاهل لم يسمعه. مال نحو ابنه الآخر، سعيد، وتابع بالطريقة المحمومة نفسها:

- أنت! أنت الذي تعلم! ما عاد لنا سوى عشرة أيام إن أردنا الاحتفاظ بحق الإرث. إن تجاوزنا هذا الأجل جردنا من كل شيء، عن طيب خاطر أو بالقوة. قل ذلك لأخيك، قل له!

مباشرة بعد ذلك، أدخل يده في جيب سترته وأخرج سبحة شرع يمرر حباتها بين السبابة والإبهام، مع اهتزازات، وبسرعة تزداد بالتدريج.

ما عاد أحد يجرؤ على الحركة أو التنفس. توجهت كل الوجوه، في صمت متوتر، صوب العاهل مترقبة، انفجاراً؟ تحولاً؟ أم غرقاً يدعو للرثاء...

حمل محمد علي، خلال اندفاعة جديدة، السبحة إلى شفتيه فأبقاها ثمة في سكون شبيه بالموت.

طرأت حركة على الجهة المقابلة من الطاولة. كانت جيوفانا قد وقفت وتوجهت، مزرية بالتحذيرات الخرساء المنبعثة من حولها، نحو العاهل. عندما وصلت قدامه، جثت والتصقت به ضامة إياه إليها.

خمَّنوا بأنها كانت تتحدث إليه، لكن بصوت خفيض لم يستطع أحد من الحضور إدراك معناه؛ لا أحد سوى سعيد. وربما إبراهيم أيضاً.

- أنا هنا، يا صاحب الجلالة. كل شيء على ما يرام. نحن سنحميك، كما فعل ريكاردو ماندرينو دائماً. مثل ريكاردو ماندرينو، أبناؤك وأنا سنكون حصنك.

* * *

- أتدرين الآن لماذا كنت قلقاً؟

كانت الأمواج تأتي لتموت على أقدام جيوفانا وسعيد على شاطئ فاروس حيث تمتد الرمال البيضاء على مدى البصر.

- ومع ذلك، تابع الأمير، عاد، خلال الساعات اللاحقة، نفْسَ الرجل. واعٍ تماماً بحركاته وبكلماته. أعطى أوامر واتخذ قرارات ووقع أُذوناً وأملى مراسلاته. وهذا الصباح اجتمع بالصدر الأعظم.

- لا أدري ما أقوله لكم، سيدي.

أمسك بذراع جيوفانا بحركة سريعة.

- أرجوك، كفي عن مناداتي بهذه الطريقة. أنا بالنسبة إليك سعيد. محمد سعيد. صديقك.

- طيب، يا سعيد... أما بالنسبة لصاحب الجلالة فإنني أشعر بأنني عاجزة مثلك. هل حدثت الدكتور كلوت في الأمر؟

- استشاره إبراهيم. ذكر له كل الأعراض. لكن أبي رفض أن يخضع للعلاج.

- لكن قد يكون لكلوت، بالتأكيد، رأي في المسألة!

- إن كان الأمر كذلك، فقد تجنب تماماً أن يعرب لنا عنه. هو يقدر بأن الوقت ما يزال باكراً على قول شيء. يقترح أن ننتظر. الأمر، بالنسبة إليه، قد يكون متعلقاً بإرهاق. بتعب ذهني ناتج عن السن وأيضاً عن المعيقات التي تعرّض لها خلال هذه السنوات الأخيرة.

- هو غير مخطئ، بالتأكيد. ومهما يكن الأمر... فإن عليك، يا سعيد، أن تكون قوياً. فصاحب الجلالة ينتظر منك أن تتصرف مثل ابن جدير بالاسم الذي نحته. لقد ترعرعت في خضم النبل؛ وهذه الصفة ليست عبثاً. فهي تتضمن الشجاعة والكرم. وهي تفضيل الشرف على المصلحة، لكنها تدل أيضاً على أن عليك أن تحسن التصرف لأن أباك أحسن التصرف.

- أنا... كيف أعبر لك...

قطع كلامه، متنبهاً، مبهوراً، قبل أن يواصل:

- أنت تعرفين جيداً كيف تستعملين الكلمات. أنا لا أتقن ذلك. أنت قوية للغاية. تحملين في ذاتك كثيراً من الحكمة. هل السبب في ذلك هو،

فقط، السنوات التي تفصل بيننا؟ أنا لا أعتقد. عندما نكون على الحال التي أنت عليها، فإن ذلك يأتي من الروح ومن ذلك الإرث الذي تحدثت عنه. وفوق كل هذا، ثمة كرمك أيضاً. وهو كرم نادر لأنه يُتَرجم ببذل الذات.

كان سعيد يتحدث، لكن جيوفانا لم تكن تسمع سوى صوت ماندرينو؛ صوت ينبعث من عمق البحر ومن زبده.

تريدين أن تكوني قوية مثلها، لكنك لا تدركين إلا الغضب. تريدين أن تصبحي حكيمة مثلها لكن حكمتك ليست إلا تعباً. تريدين أن تحبي لكنك لست سوى متملِّكة. تريدين التصرف والقيام بما تقوم به هي لكنك تظلين مجرد شاهدة. تريدين لأحلامك أن تدرك أهدافها لكنك تنسين أن السهم كي يحلق لا مناص له من قوس ثابت. تريدين أن تعطي بقدر ما تعطيه هي لكنك لم تفهمي بأننا فقط عندما نبذل أنفسنا نكون قادرين على أن نعطي للآخرين. هذا هو التفسير.

هل من الممكن أن يصدر عليها شخص حكماً مناقضاً تماماً للرأي الذي أصدره في حقها ريكاردو؟

هل سعيد مجنون أم عديم الشعور حتى لا يدرك الغِلَّ الغافي في روحها؟ هل كان يتوجه، بالفعل، إليها، هي جيوفانا، بالكلام؟ إن شبابه، بالتأكيد، هو ما يسر له بهذا الكلام. فهو، على أي حال، ليس إلا في العشرين من عمره.

- أنت مخطئة؛ إن شبابي لا يعميني.

تملَّته مفاجأةً.

- أتكون قادراً على أن تقرأ أفكار الناس؟

- ومن يدري؟

التفت نحو البحر.

- هل سبق لك أن رأيت آلة مِشْكَال؟

- أي اسم غريب! لا، البتة.

سنحت لي الفرصة أن رأيت واحدة عندما كنت بباريس. هي آلة أنبوبية تحتوي على مرايا مركَّزة، بحيث إن الأشياء الصغيرة الملونة الموجودة معها في الأنبوب تتحرك فتولِّد رسوماً مختلفة الأشكال والألوان. يحصل لدينا الانطباع بأننا أمام قوس قزح فاقع الألوان. هذا هو ما نحن عليه، يا جيوفانا.

آلة مشكال. كائنات مشكلة من أشياء صغيرة. وحسب النظرة التي توجه إلينا، يختلف مظهرنا. بالنسبة للبعض، لن نكون سوى شياطين، وبالنسبة لآخرين، نحن ملائكة.

أفرج ذراعيه مبيناً عن طيفه ظاهر البدانة بالنسبة لسنواته العشرين، ثم أظهر كفيه الضخمتين بأصابعهما المفتولة.

- عندما التقيت بك على الرصيف، رأيت نفسي في عينيك. وللمرة الأولى، حصل لدي الانطباع بأنني ما عدت ذلك الطفل البدين المتكرش، وإنما أنا شخص عادي. شخص يمكن - تردد للحظة - أن يُحَب.

استمعت جيوفانا إلى كلامه دون أن تجرؤ على مقاطعته. ففوق الشعور الذي ولدته فيها كلمات سعيد، كان ثمة سؤال يحرق شفتيها. أسرت لها غريزتها بأنه لم يأت عبثا بمثال المشكالِ؛ رمز الحياة المجزأة التي تصبح دميمة أو جميلة حسب النظرة التي ننظر بها إليها.

- لقد حدّثك أبوك يا سعيد؛ أخبرك بالسبب الذي جعلني أغادر الصباح.

تظاهر بالاحتجاج.

- لا! لا جدوى. لا يجدي في شيء الكذبُ.

- صحيح، لقد حادثني في ذلك.

- وماذا استنتجت؟

- أتريدين أن أجيبك بصراحة؟ لقد حصل لدي الانطباع بأن الأمر يتعلق بسوء تفاهم مأساوي.

- أنت...

- انتظري! وفي الوقت نفسه، وضعت نفسي في مكانك، فقلت لنفسي بأنك، مثلي، قد ربيت متيقنة من أنك غير محبوبة.

- لا تتوهم. أبي، من جهته، كان يحبني.

- ألم تتساءلي يوماً إن كنت جديرة بهذا الحب؟

شعرت بغيظ أعمى يكتنفها.

- إلى أي شيء تريد أن تصل، يا سعيد؟ وعلى أي حال، فإن ماضيَ لا ينتمي لأي أحد آخر غيري. ثم، من فضلك، كف عن أن تتخيلني على غير ما أنا عليه!

توجهت قسوة صوتها مباشرة إلى قلبه.

- طيب. من أنت إذن يا جيوفانا؟

- لست بالتأكيد ذلك الكائن الطاهر والكريم الذي يبدو أنك تظنه! إن مثال المشكال لهو ماكر، غير أنك نسيت أن تدقق بأن تلك النظرة الرزينة في المرايا ليست إلا وهماً. لست حكيمة ولا قوية في شيء.

- كفي! أي لذة تجدين في أن تحتقري نفسك هكذا؟

- وأنت، عقبت بغضب. لأي سبب تصر على أن تنكل بي؟

- ألا ترين بأنني أحبك!

- ماذا تقول؟

- أنا أحبك يا جيوفانا. منذ أن تبادلنا أولى الكلمات. منذ لقائنا أمام أنظار جلاديَ البلداء. منذ ذلك السلام المختلس، حملتك فيَّ. خلال كل تلك السنوات احتللت مكاناً في قلب الطفل الذي كنته؛ لم أكن بالكبر الذي يسمح لي بأن أسَعَكِ كما كنتُ أشاء. وعن طريق الذهن، كنت، كل الأماسي قبل أن أخلد إلى النوم، أرسم ملامحك، فارضاً على نفسي أن لا أنساها أبداً. لقد عددت الساعات والمسافات التي تفصلني عنك. وقد صليت بالخصوص؛ صليت ودعوت أن أجدك كما أنت.

- لكنك، يا سعيد، لست إلا في العشرين من عمرك... أنا في...

- تكبرينني بعشر سنوات. أنا أعرف. وأنت مسيحية وأنا مسلم. وعندما ستقترنين بي ستكونين مرغمة على أن تعيشي عيشة أخرى؛ مع هذه المعيقات وهذه التقاليد وهذه العادات القديمة.

- أن أقترن بك؟ قالت مدهوشة.

- نعم يا جيوفانا. أريد أن تصبحي زوجتي. زوجة سعيد باشا.

خالت أنها ستهوي، مأخوذة بالدوار. كيف يمكن لهذا أن يحصل؟ أيُّ كون هذا الذي يُفرَجُ البابُ أمامها إليه؟ لم يسبق لها قط، حتى هذه اللحظة، أن راودتها فكرة الحب، بله فكرة الزواج. أليس مكتوباً بأن هذه وذاك عليهما أن يقترنا؟ وأن الزواج لا يكون إلا عن حب؟ حاولت أن تحدد ما الذي تعرب عنه تجاه سعيد. عطف، حنان، صداقة، هذه هي الكلمات التي أقبلت الأولى إلى ذهنها. وكان ثمة أيضاً ذلك الشعور بالحماية الذي تعرب عنه تجاهه؛ تلك

الحاجة الملحة لأن تسهر عليه حتى لا يجرحه شيء أبداً. كانت هذه الإرادة هي المسيطرة منذ لقائهما الأول. كيمياء هذا الشعور المتفشي، هل ذاك هو الحب؟

ارتعشت شفتاها قليلاً قبل أن تفترّا.

- نعم، يا سعيد، سأكون زوجتك.

مال خجلاً نحوها ثم جلبها.

- ستكونين ملكة مصر.

كانت ارتعاشة صوته أفصح تعبيراً من الكلمات.

* * *

الجيزة، إقامة الصباح، يونيو ١٨٤١.

وضعت كورين النرجيلة عند قدمي محمد علي والتحقت، بهدوء، بمكانها قرب يوسف.

أمسك العاهل بالأنبوب المغشى بالجلد الأسود وحمله إلى فمه. عبَّ منه محدثاً صوتاً في الماء الغافي في تجويفة الإناء.

- هكذا، تكونون قد أعطيتم موافقتكم على هذا الزواج.

- أما كان عليَّ أن أفعل؟

- لقد شرفتها تشريفاً عظيماً يا سيدي.

ارتعش صوتها قليلاً.

- إنني لآمل أن تكون سعيدة، وبالخصوص أن تساهم في سعادة ابنكم.

- ستساهم، يا ست ماندرينو. ليس لدي أدنى شك في ذلك.

جازف يوسف:

- ألا تعتقدون بأن هذا الفارق في السن قد يشكل عائقاً؟

- أنا أجد رائعاً أن يتزوج سعيد امراة أنضج منه. إنه ما يزال طفلاً.

ثم التفت، مباشرة بعد ذلك، بنصفه العلوي نحو كورين ووجَّه نحوها أنبوب النرجيلة.

- إن حكمت انطلاقاً من بطنك المستدير، أقول بأنك تعدين لنا وريثاً جديداً.

- نعم، سيدي. إن شاء الله. قد ألد في غضون شهرين.

- جيد! إن الأطفال هم متعة الحياة الدنيا! لِدِي أطفالاً، لديهُم قدر ما تستطيعين. ليجتاحوا وليعمروا الأرض! وكل مرة يأتي فيها طفل إلى الحياة، يأتي في راحة يده بأمل في حياة بشرية أفضل.

عب من جديد من الدخان.

كانت تسمع في الحديقة وشوشة الحرس الذين يقومون بدورية حول الإقامة وصوت العساكر الذين يقيمون الحراسة على مدخل المنزل.

- أنا أشكرك، يا صاحب الجلالة، على هذه الزيارة، لكن ما كان عليكم أن تقدموا عليها. السفر متعب للغاية.

- وأنا أصبحت رجلاً عجوزاً. نعم، أنا أعرف.

احتجت:

- ليس هذا ما أردت قوله، سيدي، أنا...

- لا أهمية لذلك. أنت وأنا قضينا أرَبَنا من سنوات الدلال. وعلى أي حال، أنت على حق. ما دام الأمر يتعلق فقط بأن نخبركم بزواج ابنينا، كان بإمكان رسول أن يفي بالغرض.

- لكن، لماذا انزعجتم إلى هذه الدرجة؟ تساءل يوسف.

- لأنني أنتظر جواباً.

- لكنني أجبتكم، يا صاحب الجلالة، قالت شهرزاد محتجة. لم يسبق لي قط أن تخيلت لابنتي زواجاً أجمل من هذا.

- يتعلق الأمر بشيء آخر؛ هل ستكونين حاضرة في الحفل؟

أجابت بصوت يفتقر إلى اليقين:

- سيحضر يوسف وكورين.

- ما الذي يعنيه هذا الجواب؟

- لنتفاد هذا الموضوع، أرجوكم. ألم تقولوا لتوّكم إن اللحظة لحظة فرح؟ سنتحدث عن هذا لاحقاً، لاحقاً.

الفصل السابع والثلاثون

أنهى يوسف عقد ربطة عنقه ولبس الصدرية ذات الياقة اليُمْنى العالية، ثم وضع سترة الرودنغوت على كتفه. كان قد أصبح شبه جاهز. التفت نحو كورين وسأل:

- هيه! كيف أبدو لك؟

- كل شيء تمام.

مطت شفتيها بانزعاج ووقفت في وضعية بروفيل، عارضة، تحت كسوتها المصنوعة من ثوب الموسيلين، الاستدارة البارزة لبطنها.

- لدي الانطباع بأنني أشبه هيكل زورق.

تأملها يوسف بملامح رقيقة.

- لم يسبق لك قط أن كنت بهذا الإشراق.

- أنت تعرف المثل الذي يقول: «القرد في عين أمه غزال.» أما أنا فأرى نفسي مشوهة وقبيحة.

طبع قبلة على خدها.

- سأرى إن كانت أمي جاهزة. تلتحقين بنا في الصالون؟

- أجابت بنعم وهي تلقي بنظرة على نفسها.

طرق يوسف باب شهرزاد للمرة الثانية، وعندما يئس دفع الباب. كانت الغرفة خالية.

صعد الممر ونزل السلم الذي يقود إلى الأسفل ونادى باسمها. لا

جواب. بحث في الغرف الرئيسية، وأخيراً لمحها، عبر المشربية، جالسة بالشرفة.

كانت تلبس عباءة سوداء عادية وهي تتأمل المشهد أمامها، متفكرة.

- ماذا تفعلين هنا؟ ستتأخر.

- لقد فكرت يا يوسف. ليس من المناسب أن أرافقكما.

- كيف؟ لكنك أخبرتني، هذا الصباح فقط، بأنك موافقة.

- أكرر لك، لقد فكرت

استند إلى الدرابزين وشرع يتأملها حائراً.

- هل يمكنك أن تفسري سبب تغييرك لرأيك؟

- نعم يا ولدي، انظر...

أشارت إلى التجاعيد في وجهها.

- لقد ولدت ضمن عائلة يُعَلِّم فيها بأن القدر قد يحرم الكبار من ألف امتياز؛ الثروة والأرض والحلم والمكانة. غير أنه، مهما تكن الخسارة، فإن أحد هذه الامتيازات يجب ألا يمس، وهو الاحترام. ذلك أن الاحترام هو أحد أجمل أشكال الحب. جيوفانا ارتكبت أفظع ما يمكن لطفل أن يرتكبه في حق والديه. لقد هجرت بيت العائلة وسبت أمها ولطخت اسمها. أنا لا أريد أن أتطرق للدوافع التي جعلتها تتصرف بكل هذه القسوة؛ بل ربما فاجأتك إذْ أقول لك بأنني لم أسخط عليها بتاتاً. فرغم روحي الممزقة، لم تمر ليلة واحدة دون أن أدعو لها بالسعادة. إنها ابنتي؛ دمي.

- وإذن...

- لقد صليت من أجل سعادتها، وفي الوقت نفسه، التمست من السماء أن تأتي يوماً لتطرق الباب وتقول كلمة؛ كلمة واحدة: معذرة. كل مساء وكل فجر أترقب سماع وقع خطواتها بالطريقة نفسها التي ترقبت عودة ريكاردو بعد نفران. خمس سنوات... كل فصل خريف أختلق عذراً لتبرير غيابها، وفي فصل الشتاء أختلق آخر، وهكذا دواليك، خلال كل الفصول. خمس سنوات... لقد جف تخيلي مثلما يجف فراش تلك القنوات التي يحصل لك أن تحفرها في الصحراء. والآن، جفت ذاكرتي من كل ماء.

كانت قد غيرت موقفها. وعلى جبهتها المرفوعة كان يبدو نوع من الكبرياء والاعتزاز بالنفس.

- لهذا السبب لن أذهب إلى حفل الزفاف.

* * *

كانت الجموع قد تكاثفت، منذ أولى خيوط النهار، بحي «بين القصرين»، حول مسجد الأزهر، آملين أن يظفروا بنظرة ممن كانوا قد أصبحوا يلقبونها، سلفاً، بالأميرة.

على جانبي القصبة، كان مئات العساكر المصطفين مثل شالات طويلة ملونة تتموج على طول الحي. دخلت جيوفانا لتوها الفناء الكبير من حيث كان ممكناً مشاهدة كل القاهرة. كانت تسير، تحت ظلة من كتان يمسك بها حرس بزي أنيق، بخطئ وئيدة، نحو العرش المنشأ بالمناسبة وسط موقع مربع. كانت محتجبة بشكل كامل، على رأسها تاج مرصع بأحجار كريمة كثيرة، وبالكاد كان يلمح محياها. من الغريب أن طريقتها في الحركة كانت تبدي انحناءة طفيفة ناتجة، دون شك، عن هذه الشرعية الجديدة التي حصلت عليها هذا الصباح نفسه عندما عقد القاضي قرانها.

سار في أثرها رتل من النجوم. أبناء نائب السلطان، على رأسهم إبراهيم، والزوجات الشرعيات ثم بالتتابع؛ الإخوة والأخوات والأحفاد الذين من بينهم عباس، وأبناء العمومة، ثم المقربون.

كان الموكب الذي يسير خلفها يتكون من أناس يلبسون الطرابيش وآخرين يلبسون اللباس العصري الأوروبي، من رجال قنصلية وأعيان وعلماء وأطفال كثر.

ارتقت جيوفانا الدرجات القليلة التي تؤدي إلى العرش، في الوقت الذي حرك نسيم القبة المنتصبة فوقها. جلست ووجهت نظرتها نحو الجانب الجنوبي من الفناء. انقضت لحظات. تجاوز سعيد الرواق مديراً ظهره للبئر المسماة «بئر يوسف». لم يكن وحيداً. كان محمد علي يمشي إلى جانبه متكئاً على عصاً قبضتها من عاج، محدودب الظهر كما لو أن الشمس قد قست عليه.

وصل الأب والابن أمام العرش فتوقفا.

كفت الوشوشات، من تلقاء نفسها.

ارتفع صوت الباشا الدافئ والقوي، في الفناء.

- ليبارككما الله الرحمان الرحيم. ولتنر السعادة إلى الأبد مسيرتكما.

ارتقى سعيد الدرجات القليلة ورفع الحجاب الرمزي الذي ليس لأحد الحق غيره في أن يرفعه.

انبعثت التصفيقات والزغاريد الحادة، على التو. كان سعيد وجيوفانا منفصلين عن الحبور السائد حولها، وهما لا يفارقان بعضهما بعضاً بنظرتهما، كما لو أن كل واحد منهما يريد أن ينحت إلى الأبد آثاره على وجه الآخر.

استدار محمد علي حول نفسه وتأمل المسجد المتلألئ على العمق الأزوري للسماء. لم تكن البناية قد أنهيت بعد، لكن ضريحاً من مرمر كان أنشئ، سلفاً، تحت سهم المئذنة؛ وهو الذي سيستقبل، عما قريب، جثمانه.

فكر: «لقد بدأ هذا المهندس الإغريقي اللعين الأشغال منذ عشر سنوات، ولا أرى لها بعد نهاية... ماذا يتصور؟ أنني قد أمضيت عقد إيجار مع الله؟»

تقهقرت شهرزاد قليلاً، على عتبة المسجد، مفاجأة من التفاتة نائب السلطان. احتمت بالعتمة. لكنه كان بإمكانها أن تلمح، من انفراجة المصراعين، العرش وسعيد وجيوفانا.

- تعالي يا لطيفة، وشوشت للخادمة الواقفة خلفها. ابنتي سعيدة. علينا أن نعود إلى البيت.

الفصل الثامن والثلاثون

باريس، ٢٦ نوفمبر ١٨٤٦. مقر سكنى بروسبير أونفنتان.

رفع بروسبير أونفنتان كأس الشامبانيا ودعا الشخصيات الست الحاضرة إلى أن تفعل مثله.

- لنشرب، أيها السادة، نخب نجاحنا! نخب المستقبل! إنني أعلن رسمياً افتتاح شركة الدراسات الخاصة بقناة السويس!

أجابت السانسيموني ردودُ فعل حارة، مصحوبة بقرع كؤوس الكريسطال.

- وهكذا، أصبح الحلم في متناول يدنا. لست بحاجة لأن أذكّركم بسنوات التضحية، وبموت أشجع الرجال منا والذين ترقد جثامينهم بأرض مصر، والنزوات التي فتكت بقلوبنا... لا. إنني لا أريد أن أتحدث إلا عن المستقبل. يكفي أن رجالاً ذوي نيات حسنة اجتمعوا وقرروا أن يتجاوزوا اختلافاتهم وفروقهم الوطنية وأنانياتهم الصغيرة كي يصبح ما كان بالأمس فقط يبدو محض يوتوبيا أو فكراً نظرياً صرفاً، فعلاً حقيقياً. وأنا أجرؤ على تأكيد أن الاتحاد العالمي ممكن بفضل شركة الدراسات من أجل قناة السويس هذه! وإن كان لا بد من أن نقدم للسياسيين الذين يبرعون في الاستدلالات الخاصة بفن التبشير بالانقسامات؛ فها هو ذا الدليل! الدليل هو أنتم يا إخواني. انظروا إلى عدد الأمم الممثلة حول هذه المائدة!

ثم أشار، تباعاً، إلى الشخصيات المحيطة به.

- نمساوي؛ وهو السيد لويس نغريلي، المستشار الإمبراطوري لأمير مترنيخ. إنجليزيان، السيد روبيرت ستفنسون الذي لست بحاجة لأن أذكّركم

بأنه ابن جورج ستفنسون، مخترع السَّحب بواسطة البخار. وإلى جانبه المهندس إدوارد ستاربوك. وبوروسيان؛ السيدان فيرونس وسيليي اللذان هما - رغم النبرة الفرنسية لاسميهما - من سلالة فردريش-غيوم. وأخيراً فرنسيون: السادة بولان وإدموند وليون تالبوت وأرليس دوفور...

توقف عن الكلام مبدياً ابتسامة تواضع.

- ثم خادمكم!

حيت الخطاب تصفيقات حارة. أوقفهم أونفنتان بحركة لبقة.

- كما أن علينا، فضلاً عن هذا الجمع المشرف، أن لا ننسى كل الذين يؤكدون لنا اليوم دعمهم الأكيد. وهم شيعٌ: ممثلو بنوك وغرف تجارية، أصدقاء سانسيمونيون، شخصيات من الطبقة الحاكمة في هذا البلد - سمو الدوق دي منوتبونسيي، ابن صاحب الجلالة لويس فيليب، وسعادة السيد غويزوت، وزير الشؤون الخارجية، والدوق جوانفيل والمركيزدي لا فييت، حتى لا نذكر إلا الأساسيين. والآن، أعطي الكلمة لصديقي أرليس دوفور.

انتصب المعني واقفاً وفتح ملفاً ضخماً.

- اسمحوا لي بأن أطلعكم باختصار على الوضعية التي توجد عليها شركة الدراسات. حتى الآن، ارتفع رأس المال إلى مائة وخمسين ألف فرنك، مكوَّن كلية من اكتتاباتنا الشخصية. لكن الانخراطات والامدادات المالية لا تكف عن الازدياد. ومن بين التنظيمات التي ترغب في المشاركة في حفر القناة، أذكر الغرفة التجارية لليون ومرسيليا وجماعة ترييست والشركة الصناعية بفيينا، دون أن ننسى تجاراً مهمين من ليبزيك ودريسد. هذا عن الجانب المالي. وعلينا الآن أن نتطرق للمشكلة التقنية الصرف للمشروع.

سحب ورقة من الملف.

- كما سبق لنا أن أعلنا لكم، وعلى عكس التدقيقات الأخيرة التي قام بها السيد دي بلفاند، فإن مهندسينا قد دللوا على أن للبحرين المتسوى نفسه. وعلى الرغم من أن بحث السيد دي بلفاند ما يزال يمثل وسيلة عمل ذات قيمة ثمينة، فإن هذا الكشف الأساسي يرغمنا على أن نعيد النظر في كل المعطيات المحصلة. وبالنتيجة، فقد أصبح ضرورياً أن يتوجه فريق دراسي إلى الميدان وأن يبدأ المشروع من نقطته الأساس. ستكون مهمة هذه الفرقة التي شكلها

السيد تالبوت هي وضع تصاميم جديدة وتدقيق التكلفة وتحديد الأبعاد التجارية.

توقف للحظة.

- ستشكل الفرقة أساساً من السيد نغريلي ومن المهندس بوردالو. ويمكننا أن نتوقع انصرافهم خلال شهر مارس المقبل. هذا كل شيء حتى الآن.

صمت ثم سأل:

- أيها السادة، إن كانت لديكم أسئلة تطرحونها، فسأكون سعيداً بالإجابة عنها.

- وماذا عن دفتر التحملات؟ سأل تالبوت. هل حرر بشكل متوافق مع المقترحات الموضوعة؟

- تماماً. وستسلم نسخة لكل فرد ولكل مساهم في الشركة. وسأذكر لكم فقط النقط المهمة:

١. محايدة القناة؛ أي تخلي الباب العالي عن أي حق سيادي أو ملْكي للقناة، والإعلان الرسمي عن أنها لا يمكن أبداً أن تنتمي لأي دولة كانت.

٢. حق نائب السلطان المصري في أن يضع مع الشركة شروطاً يراها مناسبة من أجل تمكين الشركة المشار إليها من الأرض التي تقع فيها القناة المُعلَنَة محايدتها.

٣. جباية الحقوق والتعريفات من قبل الشركة لمدة تسع وتسعين سنة. وعند نهاية هذه الفترة الزمنية، ستعود ملكية الأشغال والأعمال إلى المجال العمومي للأمم.

٤. الوجود اللامحدود والأبدي للشركة التي لن يكون لها، بعد انقضاء مدة تسع وتسعين سنة، سوى حد أدنى من الحقوق الضرورية لصيانة الأشغال ولموظفي الإدارة.

٥. حق الشركة في أن تُنشِئ بوليصة العبور وفي أن يكون لها، بالنتيجة، موظفون يشتغلون تحت إمرتها، وحقُّ الحصول على المساعدات، عندما يقتضي الأمر، بالالتجاء إلى باشا مصر أو، في النهاية، للقوى العظمى الخمس الأوروبية، كما ترى الشركة.

٦. المنع المطلق لأي إذن بالمرور، من قبل الشركة، لأي باخرة حربية

أو هيئة عسكرية، تحت أي مبرر كان، وسواء أكان الأمر واضحاً أو مقنعاً. وكنتيجة لهذا المنع، يكون للشركة حق التأكد من حمولة أية سفينة تشتبه في أنها تخفي عتاداً حربياً أو فرقاً عسكرية.

وبمجرد أن أنهى أرليس دوفور قراءته، أخذ أونفنتان الكلمة.

- لقد فهمتم أيها السادة، بأن الفكرة التي تسود دفتر التحملات هذا، تلخص في بضع كلمات: يجب أن تكون قناة السويس ملكاً للنوع البشري، وثمرة عمل الجميع، وتقاسم منافعها سيكون دون تمييز وطني أو عرقي.

انحنى أمام المهندس النمساوي:

- السيد نغريلي، نحن نتمنى لك سفراً سعيداً. وليصحبك الرب الكَوْنيّ!

* * *

قصر رأس التين، يوليو ١٨٤٨.

أَصْعَدَ محمد علي الغطاء الصوفي حتى مستوى ذقنه وتشنجت أصابعه بعصبية، بينما كان الدكتور كلوت يقول:

- هذه هي الحال، سموكم... إن الذهن هو، بكل تأكيد، العضو الذي تعتبر المعرفة به هي الأقل من بين المعرفة بسائر أعضاء الجسم البشري.

- أنت، يا كلوت بيك، لن تجعلني أصدق بأنني قد انتهيت!

- هل سبق لي أن تلفظت بتشخيص مثل هذا يا سيدي؟ الأمر لا يتعلق بانتهاء، وإنما فقط بتعب ذهني كبير. أنت منهك. خائر القوى. فعندما تضعف المقاومة الجسدية يتحمل الذهن، بشكل طبيعي، النتائج. من هنا تنتج صعوبة التركيز وانخفاض في القدرة على التفكير وفقد الذاكرة.

أصدر نائب السلطان صيحة غاضبة.

- شيخوخة، هكذا يسمى هذا النوع من الاضطراب؟

- لا أعتقد أن المصطلح مناسب. مصطلح الهرم سيكون أصح.

- هرم؟

بدا كلوت منزعجاً.

- هكذا يسمى مجموع السيرورات الجسمية التي يشيخ بواسطتها عضو من الجسد خلال الحياة.

- كلام فارغ! لماذا تستعمل أسماء علمية، في الوقت الذي تكفي كلمات بسيطة. أتدري ما الذي يقال عندنا عندما يتم وصف هذا النوع من الأعراض؟ نقول «خَرفان»!

- وهو ما يعني، سيدي؟

- أنني أخرف!

- يا صاحب الجلالة! صاح كلوت وهو يتراجع إلى الوراء.

- هيا، هيا يا صديقي، لا تتخذ إهاب العذراء المرعوبة. لقد مرت آلاف السنين كانت الإنسانية خلالها تخرف. اعتقدت لزمن طويل بأن الطبيعة قد خصتني باستثناء. والآن عليَّ أن أعود إلى ما هو حتمي: لقد التحقت بالقطيع. لكن لنكف عن هذا ولنمر إلى العلاج، بماذا تنصحني؟

- لا أرى إلا الراحة، يا صاحب الجلالة، وتغييراً للهواء.

- أن أسافر؟

- نعم. ابتعد عن كل ما يزعجك. انصرف. أفرغ ذهنك.

- إلى أين يمكنني أن أذهب؟

- العالم شاسع. لِمَ لا تذهب إلى أوروبا؟ الجبل قد يكون ذا فائدة.

- إلى فرنسا؟

- فكرة رائعة، سيدي. وبذلك ستسنح لك فرصة زيارة هذا البلد الذي طالما أحببته.

التزم صمتاً طويلاً بدا الباشا خلاله وكأنه يصارع من أجل استرجاع أفكاره.

- طيب، قال فجأة. سأقوم بهذه الرحلة. أنا أجهل ما إذا كان الله سيمدني بالقوة حتى أذهب إلى حدود باريس، لكن ثمة مكاناً أوثره في زيارتي.

- أيكون من باب الفضول سؤالكم عن هذا المكان، سيدي؟

- ستعرفه... والآن، أدخل أبنائي. أريد أن أحادثهم.

انحنى كلوت باحترام، وغادر الغرفة.

بعد لحظات، حل إبراهيم وسعيد مكان الطبيب.

- اقتربا! عليَّ أن أخبركما بالقرارات التي اتخذتها لتوّي.

تنفس بعمق.

- أنا ما عدت في مستوى أن أحكم بلدنا.

كان رد فعل الرجلين فورياً.

- أنت لست جاداً، يا أبي!

- أتركاني أنهي كلامي.

قذف بالغطاء الصوفي واعتدل على سريره.

- أتعرفان حكاية السجين الروسي؟ لا؟ سأحكيها لكما. ذات يوم أسر تركي جندياً روسياً. «قُدْ سجينَك إليّ، صاح ضابطه. - إنه لا يريد أن يأتي. - وإذن تعال أنت نفسك. - إنه لا يتركني!» وأنا اليوم، هو ذاك الرجل. ذهني هو سجيني الروسي. هو يهددني، وهو يوجه بندقيته نحوي وسيقتلني. وعندما يكون رجل في هذه الوضعية، وهو يحكم بلداً، فإن عليه أن ينصرف وأن يعهد بالحكم لمن هو أصح منه. أما إن لم يفعل، فمن الواجب جز رأسه والقذف به إلى الثعالب.

أشار على إبراهيم بالاقتراب.

- أنت يا ولدي قد شاركتني كل معاركي. لقد سرنا كل هذه السنوات يداً في يد. لقد حرمتك غير ما مرة من إحراز نصرك، لكنني أيضاً أعطيتك فرصة أن تصعد إلى أعلى قمم المجد. وقد حانت ساعة تمكينك مما يعتبر نصيبك، ما دمت البكر. أنا، انطلاقاً من هذه اللحظة، أعهد إليك بمصر. ستكون أنت الوصي على العرش إلى أن تحين لحظة وفاتي. احمها وأحبها بالقدر الذي أحببتها أنا. لا تفكر إلا في خيرها وازدهارها. احمها من الكواسر، وفوق كل هذا اعمل جاهداً على أن تُفلِح حيث فشلت أنا: احصل على استقلال أرضنا. وأخيراً، لا تنس أبداً الوصايا التي قدمتها إليك عندما كنت متوجهاً للقتال بموري: (ليهبك الله النصر يا ولدي، وإذا وهبك إياه، فليمنحك فضيلة الطِّيبة: كن عدواً لأعدائك، لكن كن حليماً بالضعيف.)

التزم الصمت للحظة قبل أن يواصل بالنبرة نفسها، لكن هذه المرة مخاطباً سعيد:

- إن ما قلته لتوي لأخيك، يهمك أنت أيضاً. سيأتي يوم تخلفه. ولن تكون وحيداً في تحمّلك لهذه المسؤولية؛ أنصت لصوت زوجتك، فهي ليست لينة الطبع، لكن ذلك يصبح ذا قيمة في بعض الظروف.

- عفواً أبي، قال إبراهيم. لكن الدكتور كلوت أخبرنا بأنك تعتزم القيام برحلة دون أن يخبرنا بالوجهة. هلاً أسررت لنا بمشروعك؟

وافق محمد علي.

- عندما تقترب العتمة من الرجل العجوز، فإنه يعرب عن الحاجة لأن يعود إلى أصله. سأذهب إلى كفاليا، لأزور قبور أجدادي. سأعود إلى قريتي الأصلية وإلى الأماكن التي ترعرعت فيها. بعد ذلك سأذهب إلى اسطنبول في زيارة مجاملة بسيطة. وإن سمحت قواي، سأصل حتى باريس.

عاد الصمت ليسود. استمر الباشا في النظر إلى أبنائه، ثم قال بعد لحظة بصوت أجش:

- والآن، اتركاني. أريد أن أنام.

* * *

ملأ الطفل رئتيه بالهواء قدر ما استطاع، ثم نفخ على الشمعات الخمس.

- برافو، فؤاد! صاحت جيوفانا.

حملت طفلها وشرعت تقبّله.

- أنت الأقوى! والأكبر، والأجمل!

وعندما شرع الخادم يقطع الحلوى الضخمة، ولج سعيد الغرفة.

- ما به؟ سألت وهي تمسك بيده. ألم تتحسن حاله؟

لم يجب سعيد على الفور. أخذ لنفسه وقت تقبيل ابنه وتمنى له عيد ميلاد سعيد، قبل أن يسوق زوجته إلى الشرفة.

- لقد قرر أن يتنحى، قال بصوت متعب. وقد عَيَّن إبراهيم وصياً على العرش.

وعلى عكس ما كان منتظراً، بدا أن الخبر لم يفاجئ جيوفانا.

- حسناً فعل، لاحظت. إنه لَعَاهِلٌ عظيم.

- يبدو وكأنك كنت تتوقعين هذا التنحي.

- صحيح. السؤال الوحيد الذي كنت أطرحه هو: متى؟ لكنني كنت أعرف أنه سيتنحى.

- لم يبد، أو كاد لا يبدي شيئاً من يأسه، لكنني أتصور العراك الداخلي الذي رزح تحته.

مسدت جيوفانا بحنو وجنة زوجها.

- صدقني. لقد كان حكيماً. لقد بدأ يحصل له أحياناً أن ينسى ألقاب ووظائف الشخصيات التي تحيط به. وكان يأخذ قراراً لا يتذكره في اليوم الموالي.

- أنا أتألم... أتألم لحال أبي. أتألم للرجل الذي كانه والذي ما عاد.

- أنت مخطئ يا حبيبي. الرجل الذي كانه، سيظل دائماً محفوراً في الذاكرات. إن ما يهم الآن هو أن يبدو أبناؤه في مستوى الإرث الذي أوصى لهم به.

أصبح صوتها أكثر حماسة.

- فحصت، خلال الأسبوع الماضي، حسابات الميزانية. أتدري بأن بلدنا قد أصبح يعيش، غداة اتفاقية لندن، وهو لا يعرف ما يَكْسِبُهُ غداً، بسبب الحدود الضيقة التي فرضت علينا؟ بعد ذلك انضافت أزمة القطن. ففي الوقت الذي كان المنتوج يشكل رأس مال خامٍ من ثلاثين ألف ليرة، انخفض بأكثر من النصف. ومع ذلك، ورغم كل هذه الأزمات، فإن أباك قد استطاع، ليس فقط أن يصحح الوضعية المالية للبلد، وإنما أن يرفع إيراداتها إلى مستوىً غير مسبوق. أتدري إلى أي رقم ارتفعت اليوم؟

أجاب سعيد بالنفي.

- ١٦٠ ٨٤٠ كيس نقود! في حين أن النفقات لا تتجاوز ٠٠٠ ٤٠٩.

- وماذا تقصدين بهذا يا جيوفانا؟

- سبق لي أن قلت لك: أن يكون أبناؤه في مستوى الإرث الذي أوصى به إليهم.

- لا تقلقي. سيكون إبراهيم عاهلاً عظيماً.

- أنا متأكدة من ذلك. لكن لا تنس بأنك أنت أيضاً ستكون يوماً مثله، وأعظم أيضاً.

- سأكون كذلك... ما دمت إلى جانبي.

- وإذن، فلا خوف لي على شيء. لا عليك ولا على مصر.

* * *

إقامة الصباح، سبتمبر ١٨٤٨.

صبّ يوسف كأساً لكل من لويس نيغريلي وروبير ستفنسون، ثم وضع القنينة في الصينية.

- أعترف لكما، أيها السيدان، بأنني منبهر. صحيح أن آخر رسالة من السيد أونفنتان تصرح بأنه ما يزال يقاوم، لكن، مع ذلك... شركة للدراسات؟ انخراطات عالمية؟

التفت إلى لينانت.

- هذا ما لم يكن منتظراً، أليس كذلك؟

- تماماً. غير أن... أشد ما أخشاه هو أن تذهب كل هذه المجهودات سدىً.

سأل النمساوي مندهشاً.

- لماذا، السيد دي بلفاند؟

- ثمة سببان. الأول هو أن نائب السلطان مريض. وأنه اليوم خارج مصر، وأنه انطلاقاً من اليوم، ابنه ابراهيم هو الذي يملك جميع السلطات. والسبب الثاني هو أنني قد تطرقت، منذ بضعة أشهر، للمشروع مع صاحب الجلالة. حدثته عن مجهودات السيد أونفنتان وعن الخلاصات الجديدة المتعلقة بالبحرين؛ وهي الخلاصات التي أعترف لكما بأنني لست بعدُ مقتنعاً بها. لكن موقف صاحب الجلالة لم يتغير قيد أنملة.

- مما يعني؟ سأل ستفنسون.

- يقرن محمد علي بفكرة حفر القناة - التي تعتبر فكرة حياته - فكرةَ جمع القوى العظمى في تجمع توافقي يكون هدفه هو التأكيد لسموه ولخلفه من بعده، بواسطة عقد دبلوماسي ومباشر، حرية التمتع بالقناة. سأحفر القناة، قال لي، بمجرد أن تتفق القوى على المشروع، بمجرد أن تحدد أوروبا - التي

من المفترض أن تجني من هذا المشروع فوائد لا تقدر بثمن - حدود الامتيازات السياسية التي ستنتج عن المشروع لفائدة نائب سلطان مصر.

- اعذرني، يا سيد دي بلفاند، عارض نيغريلي، لكن هذا بالتحديد هو ما ينص عليه البندان الأول والثاني من دفتر التحملات الذي وضعناه. انظروا بأنفسكم.

استخرج من محفظته مذكرة سلمها إلى لينانت. قرأها هذا الأخير ومررها إلى يوسف.

- أترى؟ قال نيغريلي. نحن منسجمون مع رغبة الباشا.

أجابه يوسف:

- سأخيب أملك، لكنني أشك في أن يقبل صاحب الجلالة هذه البنود.

- لماذا؟

- لأن دفتر تحملكم - بمبرر تجاوز معاكسات القوى الأوروبية - يخلص إلى نفي صريح للسيادة المصرية. يبدو أنك لم تدرك جيداً فحوى تفسيرات السيد دي بلفاند: محمد علي يرفض بشكل قاطع تدخّل شركة ما، قبل أن يضمن الاتفاق الصريح للقوى فيما بينها وأن يؤكدوا له ذلك بعقد رسمي.

- أتعتقد بأن إبراهيم باشا سيحتفظ بالموقف نفسه؟

- أخشى ذلك.

- في هذه الشروط، قال ستفنسون، سيضيع كل شيء.

- ما دام لمحمد علي حق النظر في مصر، أخشى ذلك، للأسف.

- تريد أن تقول... ما دام على قيد الحياة.

- تماماً، يا سيد ستفنسون. ما دام على قيد الحياة.

الفصل التاسع والثلاثون

قصر رأس التين، ١٠ نوفمبر ١٨٤٨.

سقط الخبر على مصر مثل صعقة رعد. من الأقصر إلى روزيت، ومن أسوان إلى الإسكندرية، كان يسود الانطباع بأن الآلهة العتيقة قد قررت تحويل مجرى التاريخ بأن تقذف بلعنتها على أرض الفراعنة القديمة.

عند الساعة السادسة صباحاً، وعندما كانت كرة الشمس الملتهبة ترتفع على الأفق، انطفأ إبراهيم، الابن المحبوب لمحمد علي، فجأة في غرفته بقصر التين.

انتهى المنتصرُ في معركة نيزب ومشتِّتُ صفوف الأتراك؛ انتهى الرجل الذي بنى الباشا عليه كل آماله. لم يحكم إلا ثلاثة أشهر.

خلال الساعات التي تلت موته، أخطر أعضاء العائلة، وعلى رأسهم سعيد، لكن لا أحد جرؤ على إيقاظ العاهل ليعلن له هذا الخبر المفجع. أخذ سعيد نفسه على عاتقه إخباره.

لم يستطع الباشا، وقد انتزع من نومه، أن يتمثل كلمات ابنه. أمر بأن تسحب الستائر وطلب من سعيد أن يكرر الكلمات التي رفض ذهنه استقبالها.

- مات إبراهيم، يا أبي. لقد دعاه العلي القدير إلى جواره. يظن الدكتور كلوت بأنه قد قضى نتيجة أزمة قلبية.

لم يُبدِ العاهل أي رد فعل. وضع ساقيه على الأرض وبحث، جسّاً، عن النعل بقدميه، ثم، ودون أن ينبس بكلمة، اندس في جلبابه المصنوع من البروكار ذي الخطوط المذهبة، وتوجّه إلى النافذة المفتوحة على الإسكندرية.

ظل على تلك الحال، يتأمل الميناء، منكفئاً في صمته الموقع بصوت تنفسه الأجش.

لم يجرؤ سعيد على قول شيء. شعر وكأن نطقه لكلمة، كلمة واحدة، سيكون بمثابة تدنيسٍ لمكان مقدس.

انتهى العاهل، بعد لحظات بدت لسعيد وكأنها أزل، بأن وشوش:

- هذا غريب يا ولدي... يخامرني شعور غريب. كما لو أن الجنة قد دنت من الأرض وأنا معلق بينهما، متنفساً بالكاد بما يساوي سَمّ إبرة.

وفي اهتزازة شملت كل جسده، أخذ وجهه بين كفيه.

* * *

كانت شهرزاد تصعد الممر الرئيسي لإقامة الصباح، مسبوقة بحفيدها، عندما شعرت بالأرض تميد تحت أقدامها. حملت يدها إلى قلبها وجلست متكئة على أقرب شجرة. إن رغبتها في عدم إرعاب الطفل، بالتأكيد، هي التي مكنتها من قوةٍ أن تظل واقفة. لكن ملامحها قد تكون عكست الألم الفظيع الذي يجتاح صدرها، ما دام القلق قد استولى على سمير.

- ماذا دهاك، جدتي، أما عدت تريدين أن تتجولي؟

قالت بصعوبة بالغة:

- لا، لا، كل شيء على ما يرام. أنا أستريح قليلاً.

تشبثت بشجيرة الجميز، جفناها يرفان، وهي تدعو الله أن ينقضي توعكها.

- أنت متأكدة بأنك على ما يرام؟

- نعم... نعم... يا حبيبي. لا تقلق. أنا ما عدت في شبابك، أنت تعلم!

أتى ليلتصق بها، كما لو أن حاسة سادسة أسرّت له بأن جدته تعاني.

توقف الألم ببطء. عاود النبض إيقاعه العادي وتحرر صدرها من ضيقه.

- حالي الآن أحسن. بإمكاننا أن نواصل جولتنا.

رفض.

- أفضل أن نعود إلى البيت عند منى.

- لكن أختك الصغيرة نائمة. علينا أن لا نزعجها.

- سأنتظر حتى تستيقظ. هيا، لنعد. فأنا أيضاً أشعر بالتعب.

أنارت، هذه المرة، ابتسامة مشرقة وجه شهرزاد. سمير بالفعل ابن يوسف؛ الحساسية نفسها والكرم نفسه، مع تلك الموهبة في قراءة أعماق الكائنات.

- طيب، قالت موافقة، ما دمت تريد أن نعود إلى البيت، لنعد.

أمسكت بكف الطفل وقفلا عائدين.

عندما ولجا فناء البيت، وجدا يوسف غارقاً في عمله. استقبلهما بإشارة ترحيب ومد يده تجاه ابنه. سارع سمير نحوه وهو يوشوش بصوت منخفض:

- جدتي مريضة... اسألها ما بها.

تغممت ملامح يوسف.

- هل ما قاله صحيح يا أمي؟ ألست على ما يرام؟

أبدت شهرزاد ابتسامة متكلفة.

- أوه... ابنك مجرد واشٍ. هو يقلب الأدوار ويسهر عليَّ كما لو كنت ابنته. أنا على أحسن ما يرام. شعرت فقط بدوار، لا شيء يدعو للقلق.

- أمتأكدة أنت يا أماه؟

- متأكدة.

توجهت بالكلام إلى سمير.

- ألم تكن تريد أن تذهب لترى أختك؟

أجاب الفتى بنعم، وتوجّه نحو السلم.

- لك ابن رائع، قالت شهرزاد.

أشارت إلى التصاميم المبعثرة على المقعد الصخري.

- أنت تشتغل كثيراً...

- لا خيار لي. فمحمد علي، قبل أسابيع من تنحّيه، كلفنا، لينانت وأنا، بحفر ثلاث قنوات لمرور القوارب في محافظات المنوفية والشرقية والبحيرة. إنها مهمة ضخمة؛ فنحن مسؤولون عن أكثر من مائة وخمسين ألفاً من العمال. أنا لا أقدر على إهمال عمل مثل هذا.

مد يده نحو مظروف.

- وبمناسبة ذكر القنوات، فأنا قد تلقيت رسالة من لسيبس.

كتمت شهرزاد خفية ارتعاشة ألم. هي تشعر للمرة الثانية بهذا الإحساس الحاد؛ كما لو أن جمرة حامية تغوص في صدرها.

قعدت، بحركة طبيعية ما أمكن، على المقعد المواجه ليوسف. وبطبيعة الحال، فقد لا يكون لاحظ أي شيء غير عادي، ما دام قد واصل قائلاً:

- تصوري أنه قد قلد بوسام الشرف وعين وزيراً مفوضاً بمدريد. أنت تخمنين مدى سعادته. لقد مرت سنوات وهو يحلم بمنصب بهذه القيمة.

- نجاح باهر، قالت شهرزاد، مجهدة نفسها.

- والجميل في المسألة أن لسيبس في الأربعين من عمره لا غير. إن تجربة الوضعية الإيبيرية هي التي مكنته، دون شك، من هذه الترقية.

كان على وشك مواصلة كلامه، عندما دخلت الخادمة إلى الفناء محموقة.

- هل سمعتم الخبر؟ مات الباشا، مات الباشا! المعتمد العسكري هو الذي أخبرني!

- الباشا؟ صاحب الجلالة؟ أتتحدثين عن محمد علي؟

- لا، لا. ابنه إبراهيم. لقد توفي هذا المساء!

- هذا غير ممكن! قد يكون في الأمر خطأ.

- لا يا سيد يوسف، أقسم لك. لقد توفي إبراهيم. الرايات أيضاً منكسة في كل القاهرة.

التفت يوسف نحو أمه مشدوهاً.

- أسمعت؟

لم تجب. انهارت مثل دمية من ورق.

* * *

أمسك محمد علي بالقلم ودسه في المحبرة ثم وضع توقيعه على الأمر السلطاني.

- ها هو ذا، أعلن للوزراء المجتمعين بمكتبه. فتبعاً لما ينص عليه القانون، أعيّن حفيدي عباس، ابن توسون، وصياً على العرش.

- يا صاحب السمو، قال أرتين بيك، وزير الداخلية، أنتم تعلمون بأن صاحب السمو عباس، يؤدي الآن مناسك الحج بمكة.

- وما المشكلة؟ سيتولى وظيفته عندما يعود من الحجاز. وفي الآن نفسه، قم بالواجب حتى يُعلم بالوضع الجديد.

- ستنفذ أوامركم، يا صاحب الجلالة.

هل النبرة المتصنعة لوزيره أم الكآبة التي بدت عليه وهو يستعد للانصراف، هي التي نبهت العاهل؟ لم يتأخر في مخاطبة الرجل بجفاف:

- ماذا هناك، يا أرتين بيك؟ أثمة أمر لا يروق لك؟ أيكون هذا الأمر هو الإزعاج الناتج عن إرسال مبعوث إلى الحجاز؟

نكس الأرميني رأسه، منزعجاً.

- أجبني، أرجوك!

تنحنح الوزير.

- كان من شأن المرحوم إبراهيم، تغمده الله برحمته، أن يكون ملكاً عظيماً. وأنا أجهل ما إذا كان قراركم بتعويضه بعباس باشا...

- صه! أنا أريد أن أنسى ما سمعته لتوي! كما لو أن لي الخيار! أمِنْ خطئي أن لا يكون أحد من أبنائي أسنّ من عباس؟ في كل ملكيات الغرب، تكون قاعدة الابن البكر هي المتحكمة في انتقال الحكم، في حين أن السن وحده (وإن لم يكن للابن المباشر) هو المهم في الإمبراطورية العثمانية. ما الذي بإمكاني أن أفعله؟ أن أنكر عباس؟ وأترك الباب مفتوحاً أمام صراع داخلي ستوجهه، بكل تأكيد، الباب العالي إلى غير صالح عترتي، وإذن لغير صالح مصر؟ أجبني يا أرتين بيك!

حمل الوزير يده، باحترام، إلى صدره ثم إلى شفته فجبهته.

- اعذرني، سيدي... ليهبك الله طول العمر، وليحمِك ويحمي الأمة.

حصل ذلك يوم ديسمبر ١٨٤٨.

ثمانية أشهر بعد ذلك، حطت العتمة من جديد على مصر.

* * *

٢ أغسطس ١٨٤٩.

- خديجة؟ هذه أنت؟ سألت جيوفانا وهي تتفحص المرأة العجوز التي أدخلها الخدم إلى القاعة الأميرية.

- نعم يا سيدة، أنا.

وكما لو لتثبت بأنها لا تكذب، أنزلت حجاب الموسيلين الذي يغطي جزءاً من ملامحها.

لم تكد تنهي حركتها حتى سارعت جيوفانا نحوها وأخذتها بين أحضانها.

- كيف حالك؟ لقد افتقدتك.

- أنت أيضاً يا سيدة.

- دعيني أنظر إليك. كم سنة مرت؟

- ثلاث عشرة سنة. عمر.

كانت المرأة، وهي تتحدث، تسترق النظر حولها؛ كانت تبدو وكأنها مبهورة ببذخ الديكور.

قادتها جيوفانا نحو أريكة.

- هيا، احكي لي عن حياتك. إن لم تخنّي الذاكرة، فأنت، عندما غادرتنا، كنت تريدين الاستقرار إلى جانب زوجك ببني سويف.

- نعم. لم يكن ذلك سهلاً، كما تعلمين. فكما كنت قلت لأمك، أنتم بالنسبة إليّ أسرتي الثانية.

أحيت بسمةُ حنينٍ شفتيها.

- عندما أفكر في أنني قد عرفتك صغيرة... وأنت الآن...

أشارت إلى الغرفة.

- ما شاء الله... أي نعيم!

- أتدرين! إن المكان الذي نعيش فيه ليس هو المهم. المهم هم الذين نقاسمهم هذا المكان. فإن لم أكن سعيدة هنا، فإن كل فخامة الكون لن تغير من ذلك شيئاً.

- هل أنت سعيدة؟

- نعم. أنا سعيدة. لدي طفلان رائعان. وأحب زوجي ويحبني.

- طفلان؟ أية سعادة! ذكران؟

- فؤاد ومليكة. ولد وبنت. المثال.

- ليحفظهما الله وليسعدهما.

- - لنتحدث عنك الآن. لقد فوجئت عندما أعلموني بزيارتك. ساورني الشك للحظة، عندما نطقوا باسمك. كان مستبعداً تماماً بالنسبة إليّ أن يكون الأمر متعلقاً بك أنت.

حركت خديجة رأسها ببطء.

- أرجو أن لا تؤاخذيني. لم أكن أريد أن آتي، لكن زوجي أكثر من الإلحاح. قال لي: «السيدة ماندرينو مثل ابنتك. وعندما تكون لنا ابنة أميرة، يكون واجباً علينا أن نزورها وأن نهنئها.»

- حسناً فعل.

- أنا فعلاً، لا أدري.

ثنت جبهتها فجأة، منزعجة.

- تكلمي، يا خديجة. ماذا هناك؟

- ذلك ليس هو السبب الوحيد لزيارتي.

- مهما يكن الأمر، افتحي قلبك.

تنفست الخادمة.

- أسرتي تعيش مشاكل خطيرة، يا سيدة. أبنائي يعتنون منذ مدة طويلة بحقل ذرة. وأنت تعرفين أيضاً، كما أعرف، الوضعية التي يوجد عليها فلاحو بلدنا. منذ أن بدأ صاحب الجلالة - حفظه الله - يحكم مصر، ما عادت الأرض لنا؛ فنحن لسنا سوى ذراع الدولة. إذ يعود المنتوج إليها. هي، بالطبع، تكافئ عملنا، لكن...

قالت بصوت خفيض:

- ما تقدمه إلينا متواضع...

- أنا على علم بذلك، يا خديجة. سيأتي يوم تتغير فيه الأمور. علينا بالصبر.

- أوه! لا تقلقي. الصبر أصبح طبيعتنا الثانية.

تغممت قسماتها.

- الضرائب، يا سيدة. منذ بعض الوقت، أصبحت أثقل من أي وقت مضى. ففي الشهر الماضي فقط، أدينا أربعمائة قرش. أتتصورين؟ مثل هذا المبلغ بالنسبة لأناس فقراء مثلنا؟ وهذا الشهر، أخبرنا المدير بأن هذا المبلغ

سيرتفع بخمسة عشر في المائة. لن أستطيع الأداء أبداً. لولدي خمسة أطفال يعيلهم. أتفهمين؟ وإذن، فعندما علمنا بأنك قد أصبحت زوجة سعيد باشا، قال لي زوجي...

- لا تحملي همّاً. سأهتم بالأمر شخصياً.

غادرت الأريكة وتوجهت إلى خزانة مرصعة بالعاج وبالصدف. فتحتها واستخلصت منها صرة جلدية صغيرة.

- خذي. هذه لك. أنا أعلم أنك ستحسنين التصرف بها. وسأقوم بالضروري من أجل أخيك.

بحركة تلقائية، أمسكت الخادمة بكف جيوفانا وقبّلتها.

- ليباركك الرحمان، يا سيدة. وليضاعفها الله لك!

- أصلحي من شؤونك.

واصلت الخادمة العجوز تشكراتها ودعواتها. وأخيراً كفّت عن ذلك لتقول:

- والست شهرزاد، كيف حالها؟

- جيدة.

- هل تجاوزت حزنها؟ يا إلهي كم كانت حزينة! أعتقد أنه لم يسبق لي أن رأيت في حياتي امرأة بمثل شقائها. كان ماندرينو بيك كل شيء بالنسبة إليها.

- كان كذلك، بالفعل.

تغممت حدقتا الخادمة.

- عندما يصل إنسان إلى درجة تمنّي موت من يعاني، فذلك لأن معاناته الشخصية تكون أكثر حدة.

طرفت عينا جيوفانا، مفاجأة.

- لماذا تقولين هذا الكلام؟

- أتسألين لماذا، يا سيدة؟ ذلك أنني كنت شاهدة على يأسها. لقد سمعتها عندما كانت تتحدث مع أخيك. أنا ما زلت أتذكر وكأن الأمر قد حصل أمس - سدت جفنيها كي تركز أحسن -، كانت قالت: «هل من حقنا أن نترك إنساناً ينزلق هكذا نحو الموت؟ قل لي يا يوسف، قل لي بأنني

حمقاء.» أجابها: «أفهم ما تشعرين به، وما يجول في ذهنك. وأطمئنك؛ فأنا أرى موقفك مبرَّراً.» فعقبت هي: «فكرت في القتل! أتسمع؟ عندما أمسكت بالقارورة في تجويف راحتي، خيل إليّ بأنني أمسك بخلاص ريكاردو! بالقدرة على وضع حد للإهانة التي يشعر بها.» أترين إلى أي حد كانت تتمزق؟

حركت جيوفانا رأسها دلالة موافقة.

- جيد، قالت الخادمة وهي تنتصب واقفة. لا أريد أن أضيع لك مزيداً من الوقت. تنتظرني رحلة طويلة حتى أصل إلى بني سويف.

أمسكت من جديد بكف جيوفانا وضغطتها بحرارة.

- إلى اللقاء، سيدة. ومرة أخرى شكراً لك على طيبتك.

- ليس هذا بشيء. كنت سعيدة برؤيتك من جديد. لا تترددي في أن تتصلي بي إن احتجت إلى شيء. أتعدينني بذلك؟

- نعم، وليحفظك الله.

توجهتا معاً إلى الباب. قالت الخادمة، وهما تجتازان العتبة، متفكرة:

- وعلى أي حال، فقد أحسنتُ صنعاً بأن كنتُ أفرغت تلك القنينة. الله وحده يعلم ما كان بإمكان أمك أن تقترفه في الحالة التي كانت عليها؟ جنون، لا شك.

تملّتها جيوفانا، متقطعة النفس.

- ماذا تقولين؟

- ماذا يا سيدة؟

- تحدثت عن قنينة.

- أقصد القنينة التي تحدثت الست شهرزاد عنها مع أخيك.

حاولت جيوفانا استرجاع صفاء ذهنها، شفتاها جافتان.

- انتظري. هلاّ شرحت لي بأكبر قدر ممكن من الوضوح ما فعلته؟

بدا أن الخادمة لم تفهم سبب هذا الاهتمام من جانب جيوفانا. لكنها نفذت، مع ذلك، ما طلب منها.

- عندما صادفت هذه المحادثة، فكرت على الفور في أن هذا الخليط يشكل خطراً، ما دام قادراً على أن يقتل. وإذن فقد وصلت إلى نتيجة أن عليَّ

التخلص منها قبل أن ترتكب أمك، ما دامت كانت في تلك الحال الشقية، عملاً غير قابل للإصلاح. ألم تقل: «عندما أمسكت بالقارورة في تجويف راحتي، خيل إليّ بأنني أمسك بخلاص ريكاردو»؟

- وبعد ذلك؟

- بعد ذلك صعدت إلى غرفة ماندرينو بيك وفتحت الخزانة فأفرغت محتوى القارورة في المغسل. بعد ذلك أعدته إلى مكانه، بين الملابس.

فجأة شعرت بالرعب.

- هل أسأت التصرف؟ أما كان عليَّ أن أفعل؟

تمتمت جيوفانا بصوت مختنق:

- يا إلهي... يا إلهي، اغفر لي...

* * *

كانت العربة، مسحوبة بالفرسين الكميتين، تعدو على الطريق المغبر الذي يقود إلى الجيزة. كما هو الشأن كل سنة، عند موسم الفيضانات، تصبح الطريق موحلة فلا يحسن السير فيها إلا سائق عربة ذو تجربة. طار سرب حمام بلون أبيض، مرعوباً بعدو الفرسين، فحلق في السماء الزرقاء. أنزلت جيوفانا الزجاج الجانبي وصاحت:

- أسرع يا رشدي، أسرع؟

فرقع السائق السوط على الفور فزاد الفرسان من سرعتهما.

بعد أقل من ساعة، بدت إقامة الصباح.

ولجت العربة سور الإقامة بالسرعة نفسها. كان الشفق قد شرع، سلفاً، يلقي بظلاله المعتمة على المشهد. وحده الطابق الثاني كان ما يزال مناراً؛ أما بقية المنزل فكانت غارقة في الظلام.

بمجرد وقوف العربة، ترجلت جيوفانا وسارعت إلى المدخل.

طرقت الباب، مرة، مرتين. بدا أن أحداً لا يسمعها، فشرعت تطرق الباب بعنف بقبضة يدها.

أخيراً فتح فبدت الخادمة في الإطار.

- ماذا تريدين؟

- أمي موجودة؟

- أمك؟

- أنا جيوفانا.

بدت الخادمة غير فاهمة. فرغم أن وجود جيوفانا ليس مجهولاً بالنسبة إليها، ورغم أنها سمعت اسمها ينطق غير ما مرة، فقد بدا وكأنها قد اكتشفت طيفاً.

- نعم... السيدة ماندرينو موجودة... غير أن...

أزاحت جيوفانا الفتاة بلطف ودخلت.

- انتظري، عليَّ أن أقول لك...

- ماذا هناك؟

- هي... هي..

- ماذا؟

- أمك... أمك مريضة جداً.

لم تستمع جيوفانا إلى نهاية الجملة. انطلقت نحو السلم الذي يقود إلى غرفة شهرزاد.

كان يوسف وكورين جالسين على جانبي السرير الكبير. كان صمت ثقيل يسود الغرفة مثل كفن.

اقتربت جيوفانا ببطء، قلبها على حافة شفتيها.

أبدى يوسف وكورين، بالكاد، مفاجأة برؤيتها. لم ينطق أي منهما بكلمة.

واصلت جيوفانا تقدمها، مصعوقة بشحوب وجه أمها. جفناها مغلقان والشفتان مزرقتان يرتفع صدرها بالكاد.

جلست، محاذرة، على حافة السرير، كما لو كانت خائفة من أن تؤدي حركة، حركة واحدة، إلى قطع الخيط غير المرئي المشدود بين الليل والنهار. انتظم تنفسها، غريزياً، على إيقاع تنفس أمها.

طفولتها، خطواتها الأولى، والأصوات الأولى انبعثت في نوع من الاشتعال والتداخل. أمواج عاتية تقود نحو ساقية زبدِ الذكريات. كل شيء يتخذ صفة الدوامة. أغاني تنويم الأطفال، روائح بشرة، السائل المالح لدمعة

وهذه الكلمة: أمي، ماما. قرْع جرس بساحة مدرسة. ركبة مسلوخة. أذرع تنسد للتخفيف من أحزان كانت تبدو غير قابلة للعزاء. غطاء يرتفع كي يغطي ذراعاً عارية في الليل.

- ماما...

كانت قد تكلمت بالرغم منها.

فقط لو لم يكن الزمن هو هذا الوادي الذي لا شعور له، والذي يواصل - مهما تكن استعطافات من يجرفهم - جريانه العادي! جيوفانا تكره، اليوم، النيل.

- ابنتي...

تخلت كف شهرزاد عن كف يوسف وشرعت تبحث عن كف جيوفانا. انعقدت أصابعهما.

- أخيراً، عدت.

أن تصرخ... أن تحدثها عن لقائهما الفاشل بسبب خطئها... أن تقول لها بأنها لم تفهم شيئاً... بأنها عاشت عمياء... حمقاء... أن تقول عفواً... عفواً... قبل أن يفوت الأوان.

- مغفرة... أمي...

- لماذا، يا ابنتي؟

تسارع التنفس قليلاً.

- أتذكرين... عيد ميلاد ريكاردو... أتذكرين؟

أشارت جيوفانا بنعم دون أن تستطيع نطقها.

- أتذكرين ما قاله لك؟

ظلت جيوفانا، مختنقة الحنجرة، غير قادرة على أن تقول شيئاً.

- ابنتي... مفضلتي...

فجأة، شرعت اليد تجس، باحثة تحت الأذن.

- عماذا تبحثين، يا أمي؟ سأل يوسف قلقاً.

لم تجب. انسدت كفها على شيء مدته إلى جيوفانا.

- خذي... لقد احتفظت به من أجلك.

كانت تلك آخر كلماتها.

كان يجثم في راحتها المسدودة مفتاح. هو مفتاح بوابة مزرعة الزهور.

* * *

في الآن نفسه تقريباً، صعدت صرخة ممزقة من قصر رأس التين. كان محمد علي قد أسلم الروح لتوه. انطلق للالتحاق بأبنائه الذين طالما أحبهم. توسون وإسماعيل وإبراهيم. وفي أزقة الإسكندرية كانت أصوات ترتفع، حزينة، مرددة: «لقد غادرت روح مصر جسدها.»

قضى الأسد العجوز، مجروحاً، منهكاً.

يومان بعد ذلك، نقل جثمانه من الإسكندرية إلى القاهرة، على باخرة، عبر قناة المحمودية والنيل.

بمجرد أن أصبح موته معلوماً، بتلقائية وبدون أدنى تنسيق مسبق، نكست كل القنصليات أعلامها.

عند وصول نعشه عند قدم المقطم، كان كل أعضاء العائلة، باستثناء عباس، في استقباله، ورافقوه إلى غاية الضريح الذي اختاره العاهل لترقد فيه روحه، في المسجد الذي أنشئ في قلب القلعة.

وقد سُجِّل أن قنصل إنجلترا، في اليوم الموالي، كتب إلى اللورد بالمرستون:

«سيكون أمراً نادراً، بالنسبة لسيادتكم، أن تسمعوا في كل محافظات الإمبراطورية العثمانية هذه الكلمات ممزوجة بالدموع: (لو كان الله يسمح لي، لكنت أعطيت، عن طيب خاطر، عشر سنوات من حياتي كي أضيفها إلى عمر باشانا العجوز.)»

الفصل الأربعون

قصر بنها، فبراير ١٨٥٤.

كان عباس، نائب السلطان الجديد، الخائر بين الوسائد، يتابع، بعين شبقة، الراقص الذي يتمايل أمامه. والحق أن حسن البلبيسي، بشعره المضفور ورموشه المكحلة، وبكسوته المشقوقة من الجانب، كان يبدو كامرأة تماماً. كان يهتز بفنية أنثوية حقيقية. وكان يصدر بأصابعه الرشيقة صوتاً نابعاً من قدح جلجلتين، فيحرك على إيقاعه أسفلَ بطنه ووركيه.

قام، بعد ذلك، بحركات خفيفة حول العاهل، قبل أن ينحني في تحية ختامية.

صفق عباس مرتين أو ثلاثاً بكفيه.

- جيد، يا حسن. لقد سبق لسكرتيري أن مدح لي إمكانياتك، لكن إطراءه كان أقل من الحقيقة.

انفتل الراقص المؤنث، سعيداً بالثناء.

- اقترب قليلاً. فأنا أريد، مع ذلك، أن أتأكد من أنني لم أخطئ.

- كيف يمكنكم، يا صاحب الجلالة، قال البلبيسي، أن تتصوروا...!

ثم أتى، وهو يدعي التمنع، كي يجلس أقرب ما يمكن من العاهل.

مرر عباس كفه أسفل الكسوة، وصعد به على طول ساقه، وجمدها ما بين فخذيه فأطلق ضحكة متواطئة.

- الله أكبر، كم يخلق من الرجال هم أشهى من النساء! إنه بذلك يعفينا من تحمّل تلك الكائنات المتصنعة.

سحب كفه.

- انصرف الآن، ولسكرتيري هدية من أجلك.

تلفظ البلبيسي بعبارت الثناء ثم انسحب منفتلاً.

عندما بقي عباس وحيداً، تمدد على ظهره وأرخى العنان لتفكيره.

هو ليس ناقماً على سنوات حكمه الخمس. وعلى أي حال، فهو قد وضع قيد التطبيق كل الإجراءات التي كان يحلم بها. هو في البداية جعل أقاربه يهجرون قصر رأس التين إلى قصر بنها، في عزلة الصحراء المناسبة للتأمل. بعد ذلك تخلص من غالبية الغربيين الذين طالما سمموا أجواء مصر؛ وبالخصوص الفرنسيين؛ أما الإنجليز فكانوا، من جانبهم، أكثر تحضراً. بعد ذلك أصدر المرسوم الذي يحظر على النساء أن يخرجن من بيوتهن قبل الزواج. وهو قرار حكيم؛ إذْ ما الذي تمثله هذه المخلوقات غير الغواية والخطيئة؟ واجبهن في هذه الدنيا يقتصر على أن يخدمن وأن ينجبن. ولا شيء أكثر من ذلك.

أمر أيضاً بإغلاق مستشفى القاهرة وملحقاته: مدرسة الطب ومدرسة التوليد ومدرسة القابلات ومستوصفات؛ وهي كلها أمكنة تؤدي إلى الضلال، أنشأها الدكتور كلوت؛ حليف الشيطان ذاك!

كان محمد علي يحكم، بوصفه مستبداً؛ لكنه، في العمق، لم يكن كذلك إلا بالنسبة لأسرته ورعاياه. أما أمام أوروبا فلم يكن إلا ضعيفاً. ما الذي صنعه بمصر؟ أمة أُبْعِد منها الأترك، ومُكِّنَ فيها للمسيحيين وأصبح لممثلي القوى العظمى تأثير على كل قرارات الحكومة. وإن كان لا بد لعباس أن يعمل تحت قيادة أحد، فليعمل تحت قيادة سيد الباب العالي، زعيم كل المسلمين، عوض أن يقوده الكفار!

كان في موت إبراهيم خير؛ وأتى موت الباشا العجوز في وقته؛ لأن سنوات أخرى إضافية كانت ستقضي كلية على الهوية المصرية.

وعلى أي حال، فإن القرار الإيجابي الوحيد الذي أصدره المرحوم جده، كان هو منع الرقص النبوي. إن جمال جسد الذكر لأجود بكثير، وأكثر حساسية!

* * *

الإسكندرية، مارس ١٨٥٤، قصر رأس التين.

انتهت وجبة العشاء. لم تستلذها جيوفانا ولا سعيد. أما يوسف وكورين فقد مسا، بالكاد، السلطة. أما لينانت، فقد رفض كل الأطباق التي اقترحت عليه.

دفعت جيوفانا صحنها بحركة ناقمة.

- أنا آسفة، يا لينانت، لكننا لا نستطيع أن نفعل أي شيء لك.

ثم أشهدت سعيد.

- أنت حاولت أن تحادثه، أليس كذلك؟

- بالطبع، لكن كأنني أكلم حماراً. عباس مجنون تماماً.

حاول لينانت أن يحتفظ بهدوئه.

- هذا ليس ذا أهمية كبرى، سيدي، أنا أعزي نفسي بالقول بأنني لست الأوروبي الوحيد الذي رمي به وكأن لا قيمة له. الدكتور كلوت وسريزي والكولونيل سيف؛ كل مواطنيَ لاقوا المصير نفسه. وإن كان بعضهم قد احتفظ بوظيفته، ففقط لأن نائب السلطان - كما أفترض - لم يرد أن يحدث قطيعة نهائية مع فرنسا.

- إن ذلك، قال يوسف، يعكس إرادة واضحة في اقتياد بلدنا إلى الكارثة. خمس سنوات من الحكم؛ خمس سنوات من العجز. إنني لأنزعج عندما أفكر في أن أول قرار اتخذه، بعد سنة من قدومه، هو أنْ أسند لإنجليزي بناء السكة الحديدية بين القاهرة والسويس.

-وليس لأي انجليزي، قال لينانت. السيد روبرت ستيفنسون!

- هو أو غيره، قال سعيد، أنا لا أدري لماذا يغضبكم هذا بالذات.

- لأن هذا الشخص كان عضواً مؤسساً لشركة الدراسات من أجل قناة السويس التي أسسها السانسيمونيون. وهو قد أتى حتى لزيارتكم بالصباح رفقة أحد زملائه النمساويين، السيد نيغريلي، كي يدافع عن قضية حفر قناة السويس.

- مما يعني أن هذا الشخص قد خان قضية زملائه؟

- للأسف، سيدي، فأنا لا أجد أية صفة أخرى أصف بها سلوكه.

- ليس ثمة أي تجانس بين كل ما يحصل، قالت جيوفانا. عباس يقول

في كل نادٍ بأنه يريد تخليص مصر من تأثير الأجانب، والحال أنه لا يمر يوم دون أن يعطي امتيازاً لإنجلترا التي لا تكون، من جانبها، تطمح الى كل ذلك.

عقب يوسف متقززاً:

- إن الإنجليز، من وجهة نظري، عندما يشيدون هذه السكة الحديدية، إنما يأملون، دون شك، في أن يجعلوا الطريق البحري بلا قيمة. فهم، خلال كل هذه السنوات، كانوا يخشون أن تصبح قناة السويس حقيقة قائمة، وكانوا يخشون بالخصوص أن تكون فرنسا هي مهندستها. وقد أفلحوا.

حرك لينانت رأسه.

- أنا أشفق لحال أونفنتان المسكين الذي يواصل مواجهة كل العوائق، ساعياً إلى إقناع، في الآن نفسه، إمبراطورنا الجديد لويس نابليون واللورد بالمرستون، بجدوى مشروعه!

- لكن، قال سعيد، ألم تخبروني بأن قنصل فرنسا قد حصل من عباس على وعد بتكليفكم بإجراء تسويات جديدة في منطقة السويس؟

- هذا صحيح، سيدي. وقد أنجزنا هذه المهمة، يوسف وأنا. لكنكم ترون جيداً أن ابن أخيكم ليست له البتة نية إسناد الامتياز لشركة فرنسية، حتى وإن كانت هذه الشركة تدافع عن فكرة كونية.

علق يوسف بنبرة حزينة:

- لن يرضى الله، لمدة طويلة، عن أمور مثل هذه. ليس ممكناً أن يضرب عرض الحائط بكل ما بناه أبي بروية وإصرار.

* * *

يونيو ١٨٥٤، إقامة لا شيني، بفرنسا.

وقف فرديناند دي لسيبس، أمام نافذة مكتبه المطلة على الريف، وهو يتملى السهل المحدَّب، متفكراً. عكس الزجاج، من خلال لعبةٍ للظل والضوء، صورته الشخصية المحتجبة قليلاً بفعل ضباب الصباح.

في غضون أشهر، سيصبح عمره تسعاً وأربعين سنة. لقد قضى سنوات في مشوارٍ خصصه للدفاع عن مصالح فرنسا، ليجد نفسه اليوم مُقالاً يواجه مصيراً مجهولاً.

كيف وصل إلى هذه الحال؟

١٨٤٩ . . . أرغِمَ على التخلي عن منصبه سفيراً بمدريد، لصالح ابن عم لويس نابليون بونبارت الذي انتخب لتوه رئيساً للجمهورية.

عين ببيرن. وعندما كان يهم بالالتحاق بمنصبه الجديد، قضى عطلة قصيرة بباريس حيث كانت تناقش الجمعيةُ التأسيسيةُ السلوكَ الذي يجب أن تتحلى به الفرق العسكرية المُرْسَلَةُ إلى روما مع بداية السنة. وكان البابا، بهذه المدينة، بي التاسع، قد جرد من سلطاته الدنيوية من طرف إعلان الجمهورية.

هاجم الجنرال أودينو، زعيم الهيئة البعثية- مقتنعاً، عن خطأ، بأن شعب روما يأمل في عودة البابا- روما يوم ٢٩ أبريل. تحوّل الهجوم إلى كارثة. كانت الإهانة تامة.

وإذا بفرديناند، ضد كل توقع، يُختار لدور المفاوض. قبل بتلقائية. لم يستطع تقدير الغموض الذي يلف هذا الصراع، فسارع إلى القيام بالمهمة الموكولة إليه دون تروٍّ!

خلال الأسابيع الموالية، سادت، من الطرفين، مناورات متبادلة ورفض، أعقب بتراض، ثم بمفاوضات ختمت بتلغراف مقتضب أرسل من باريس يضع حدّاً لمهمته ويأمره بالعودة إلى فرنسا.

عندما عاد إلى باريس، قوبل بالإجحاد، وقُدّم للجنة قضائية تأديبية، متَّهَماً بفشل المفاوضات، وبالمواجهات المترتبة عن ذلك، فوضع في حال إيداعٍ إداري، لينتهي مشواره.

منذئذ، ما عاد له من شيء، غير مساندة زوجته الرقيقة وعائلتها. فحوالي نهاية سنة ١٨٥١، ورثت حماته، السيدة دولاماي، ضيعات شاسعة ببيري، فطلبت من لسيبس أن يبحث لها عن منزل في الجوار، وأسندت له، بكرم، مهمة إدارة هذه الضيعات.

عبَر المنطقة واشترى مبنى صيدٍ قديماً كان يملكه شارل السابع، وقصَر وقته على الإشراف على ترميم «لا شيني»

وفي هدوء هذه الضيعة، علم فرديناند، يوم ٢ ديسمبر ١٨٥١، بالانقلاب الذي قام به الأمير لويس نابليون.

بعد ذلك بحوالي سنتين، دوى الخبر الغريب: لقد قرر الإمبراطور الجديد

الاقتران بالإسبانية الشابة، ذات الستة والعشرين ربيعاً، أوجيني ماريا دي مونتيخو دي غوزمان، كونتيسة تيبا. كان في الخبر ما يفرح فرديناند؛ ذلك أن أوجيني ليست أي أحد آخر غير ابنة عمه.

لكن، للأسف - كما لو أن سوء الطالع كان قد أخذ قراره بمعاكسته - أصاب الموتُ عائلته لأربع مرات متواليات. خلال المرة الأولى - وعندما كان يستعد للذهاب إلى القران الإمبراطوري - توفيت أمه، كاترين، فجأة. وبعد شهر من وفاتها التحقت بها زوجته، أغاث الرقيقة. ولم يكن قد فارق الحزنُ فرديناند بعد من المصاب المزدوج، حتى رزئ للمرة الثالثة، وهذه المرة في شارل، ابنه البكر، بعد أن أصيب بالحمى القرمزية. وعند بداية شهر سبتمبر، أدركت المأساة ذروتها. لحق الابن الأصغر، فرديناند، بأخيه.

قدر بشع...

وها هو ذا اليوم وحيد في ضيعة لا شيني. رغم ذهاب وإياب العمال الذين يواصلون ترميم هذا القصر الصغير، فإن المنتزه خالٍ تماماً.

عاد فرديناند إلى مكتبه.

وريقات مبعثرة تجاور صور زوجته وابنيْه المتوفيين.

وكان شعاع شمس ينير رسالة لأوجيني، مؤرخة بيوم ٢٢ يونيو ١٨٥٣.

عبرت نظرة فرديناند، بآلية، الجمل الأخيرة المحررة بخط لطيف رقيق:

... أشكر الله على أن اختارني لمهمة عظيمة مثل هذه، وأسأله أن يجعلني جديرة بها. قدم لي، من فضلك، نصائح، عندما تقدر أنني في حاجة إليها، لكن من أجل فرنسا. أنا دائمة الإنصات لأصدقائي الخُلَّص.

ابنة عمك وصديقتك، أوجيني

حجبت ورقة منتصف الرسالة. استرق فرديناند بضع كلمات.

السويس... السويس...

***

مصر، قصر بنها، ١٣ يوليو ١٨٥٤.

تمطى عباس، بلا اكتراث، على فراشه، وتجشأ ثم حمد الله على الوجبة التي يستعدون لتقديمها إليه وعلى العشيق الذي فارق فراشه لتوه.

طُرق الباب.

ظهر ثلاثة خدام، يحملون طعاماً. وباحترام، صفوا الصحون على المائدة المصنوعة من خشب البلوط السميك. وعندما تأكدوا من أن لا شيء ينقص، استداروا، وسأل أحدهم:

- هل لصاحب الجلالة أوامر ننفذها؟

أشار عليهم عباس، منزعجاً:

- قدموا الطعام!

الغريب أن الخادم، عوض أن ينفذ ما أمر به، تقدم نحو عباس بخطوة.

- ماذا تفعل؟ تمتم عباس.

اقترب خادم ثان من الأول.

كان الخادم الثالث هو الذي أدخل يده تحت صدريته واستخرج الخنجر.

لمعت ثلاث شفرات في الضوء المترنح للمصابيح.

عندما فهم عباس ما يحصل له، كان الوقت متأخراً للغاية.

قطع الخنجر الأول حنجرته.

وغاص الثاني في صدره.

أما الخادم الثالث، فقد تريث قليلاً، قبل أن يطعن خصيتي العاهل.[1]

---

(١) يبدو أن نازلة هانم، البنت البكر لمحمد علي، هي التي نظمت عملية الاغتيال هذه - هامش.

الفصل الواحد والأربعون

قصر رأس التين، ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤.

- مائتان وأربعون ليرة، قال سعيد وهو ينزل من على الميزان. ها أنذا الآن أبدن عاهل يحكم مصر على الإطلاق. بقي لي أن آمل أن لا تكون هذه هي الذكرى الوحيدة التي سيُحتفظ لي بها.

رفعت جيوفانا رأسها وتأملت زوجها ثم قالت بنبرة حنين:

- محمد سعيد، نائب السلطان... أجد صعوبة في أن أصدق.

- لماذا؟ كان لا بد لدوري أن يحين، عاجلاً أم آجلاً. عباس، إنما أخّره.

- هذا لا يمنع من أنني أشعر بأنني، في الآن نفسه، فخورة ومرعوبة. المهمة التي تنتظرك عظيمة، وتضاف إليها سنوات الخسران الخمس.

- لا تخشيْ شيئاً يا جيوفانا. سأعرف كيف أكون جديراً بأبي. وفضلاً عن ذلك، فأنا لست وحدي. ألست إلى جانبي؟

صادقت على قوله.

- لكنك أنت العاهل. منك ينتظر الشعب قرارات.

جلس على أريكة.

- ألم أحسن التصرف خلال الأشهر الثلاثة التي قضيتها على رأس البلد؟

ثم عدَّ على أصابعه:

- أمرت بإعادة فتح المستشفيات والمستوصفات وكل المؤسسات التي كان ذلك الحمار المُبَرذَع قد أغلقها. ناديت على كل الأوروبيين ليعودوا إلى

مناصبهم، والفرنسيون منهم على وجه الخصوص. وقد فتحت لهم قصري. . .

- بالمناسبة. . .

قطب حاجبيه.

- نعم؟

- أنا أعلم أنك تتصرّف بحسن نية، لكن خذ حذرك، يا سعيد. إن كرمك لا حدود له. لم يسبق لمصر أن عرفت هذا السيل من الأجانب كما عرفته منذ أن توليت أنت الحكم. فبمجرد أن عُلمت وفاة عباس، نزل دخلاء ومغامرون قادمون من جهات أوروبا الأربع. حتى ليبدو الأمر شبيهاً بسرب نحل يحط على إناء عسل. أنا ألاحظ ما يجول حولك. تُعرض عليك أسوأ المشاريع والتصاميم الخارقة للعادة بهدف استمالتك. يكفي أن تنظر إلى السرعة التي استطاع بها ذاك الشخص، الذي نسيت اسمه. . .

- برافاي. . .

- تماماً. أنا أجهل كيف صنع، لكنه قدِمَ مفلساً منذ ثلاثة أشهر، وها هو اليوم من أغنياء الإسكندرية.

قاطعها سعيد فجأة.

- أنا لست أعمى، يا جيوفانا. أنا أرى جيداً ما الذي يجري. لا مجال لأن أترك مجالاً للدخلاء. ولي ما يكفي من حسن التقدير كي أتعرف هذا النوع من الأشخاص. وعلى أي حال، فإن هذا لا يشكل إلا مقدار حبة أرز وسط ما أنا شارع في القيام به. وكما سبق لك أن أشرت، فإن المهمة لَغايةٌ في الصعوبة: إعادة هيكلة الحكومة المركزية التي تفسخت أثناء حكم عباس. إعادة بناء مجلس الدولة. استتباب الأمن في المدن والقرى. وعليَّ أيضاً أن أضع حدّاً لهذا النزوع نحو التطرف واللاتسامح الذي بدأ يسود، بتحريض من سابقي. وهذا هو أحد الأسباب التي جعلتني أختار مسيحياً كي يضطلع بدور الحاكم العام للسودان.

- لا تؤاخذني. فإذا كنت قد تحدثت معك بتلك الطريقة، فلكي أحذرك من نفسك. أنت طيب للغاية، يا سعيد. وقلبك رحب. . .

- أنا؟

انفجر ضاحكاً منكفئاً على نفسه في أريكته التي اهتزت بقوة. وعندما استرجع جديته، واصل بغير قليل من التفخيم:

- ثمة أمران عزيزان عليَّ. وأعترف بأنك أنت ملهمتي فيهما. أريد أن أقنن النظام اللاإنساني للأعمال الشاقة، بشكل لا يعود فيه مأذوناً لزعماءِ قبائلَ أن يستعملوا - بادعاء خدمة الدولة - فلاحين أشقياء، وكأنهم يستعملون دواب. وهدفي الثاني هو أن أضع حدّاً لتأميم الملكية. وكما اقترحتِ عليَّ أنت، فإنني سأعمد إلى إنشاء نظام انتقالي يؤدي، بالتدريج، إلى إقامة الملكية الخاصة. ستوزع الأراضي على من يحرثها، حتى يأتي اليوم الذي يكون المُلاّك في مصر بقدر ما فيها من فلاحين.

توقف للحظة.

- سأجهد نفسي أيضاً حتى أضع حدّاً لنظام الامتيازات الأجنبية. فلطالما عاثَ، ولطالما منح الأوروبيين المتهمين بالاختلاس أو بجرائم، حصانةً تضعهم في منأىً من كل متابعة. أنا أجهل ما إذا كنت سأستطيع القيام بذلك، لكنني سأسخر كل سلطتي كي يحاكم كل الأجانب الموجودين بمصر في محاكم وطنية.

سبر ملامح جيوفانا، كما ليقدر أثر كلماته عليها. أبدت ابتسامة رائقة. اطمأن، فتنفس بعمق ثم صرح:

- عليَّ الآن أن أتركك. قد يكون عِيلَ صبرُ فرديناند.

انتصبت جيوفانا بدورها، واقفة.

- هل فكرت بما فيه الكفاية؟

- نعم.

- هل فكرت في كل نتائج قرارك؟

- نعم يا جيوفانا. أنا متأكد من أن في ذلك خيرَ مصر.

وعندما كان يهم بمغادرة الصالون، لمست ذراعه:

- سعيد...

انثنى نحوها بنوع من نفاد صبر.

- ألم تنس تحذير أبيك؟

- لا!

ثم اختفى.

* * *

كان فرديناند دي لسيبس يذرع المكتب، محاولاً التحكم في انفعالاته. لم يسبق له يوماً أن كان قريباً من الهدف مثل ما هو عليه الآن. لم يسبق للعناية الربانية قط أن كانت بجانبه كما هي اليوم.

منذ أشهر، علم بتنصيب سعيد، وهو في لا شيني، تحت سماء لم يسبق لها قط أن كانت رمادية إلى تلك الدرجة. آنذاك، سارع إلى الكتابة لنائب السلطان كي يهنئه ويخبره برغبته في أن يفد إلى مصر كي يقدم إليه تهانئه. أجاب سعيد الوفي، على الفور، محدداً موعداً للقائهما في الأسبوع الأول من نوفمبر.

وعندما كان شرع في الإعداد للرحلة، تسلّم رسالة من أونفنتان يقترح عليه، عندما علم بدعوة العاهل المصري، أن يسلمه الملف الضخم المشكل من مجموع الدراسات ذات العلاقة بحفر القناة. كان يوجد به كل شيء: أعمال لينانت دي بلفاند والعينات المأخوذة من قبل النمساوي نغريلي، وأطروحة تلابوت، وخرائط سبر البحر الأحمر التي أنجزها ستيفنسون، والتصاميم، واقتراحات التخطيط. أكثر من خمس عشرة سنة من الأشغال الجادة التي لم تؤد، للأسف، إلى شيء. هذا الملف نفسه هو الذي دافع عنه فرديناند أمام سعيد، منذ حوالي أسبوعين، مرفوقاً بوجهة نظره الشخصية للمشروع. وبالأمس، سلّمه مسودة إذنٍ يهبه فيها الامتياز الذي طالما أمله. كان نائب السلطان قد أدخل عليه تغييرات بسيطة. ولم يبق إلا توقيعه.

- حضرة السيد دي لسيبس! صاحب الجلالة ينتظرك!

سار، قلبه خفّاق، في أثر كبير الخدم، إلى غاية مكتب العاهل.

- فرديناند، يا صديقي! السلام عليك.

- احتراماتي، سيدي.

أشار نائب السلطان إلى الأريكة أمامه.

- أأنت على ما يرام، يا فرديناند؟

ثمة حدس غريب في صوت العاهل.

- نعم، يا صاحب الجلالة، شكراً.
- ألاحظ أنك، باستثناء المحفظة المملوءة بالملف، لم تأت بأي شيء آخر. ألأنت متأكد من أنك لم تنس شيئاً؟
- ماذا عساني أكون نسيت، سيدي؟
شبك سعيد ذراعيه وآتى بملامحه علامة خيبة.
- أبهذه الطريقة تخدمني؟ بيديك فارغتين؟
بدا لسيبس حائراً.
- أنا... معذرة يا صاحب الجلالة. كنت أجهل...
خاب قلبي فيك. ومع ذلك فأنت تنتظر من هذا اللقاء الخروج بأمور عظيمة. وثيقة بقيمة غالية!
قال فرديناند بصوت متردد:
- أنا... نعم، يا صاحب السمو... أخيراً... إن كانت ما تزال تلك هي رغبتكم.
- وتريدني أن أقدم إليك تلك الوثيقة دون أن تقدم لي أي شيء في المقابل؟
- في المقابل؟
أُغرق باقي جملته في انفجار ضحك مدوٍّ.
- ماذا يا فرديناند أفندي! ألن تعود إلى الأرض! ذاكرتك مترعة بهذه القناة!
انحنى إلى الأمام، ووشوش:
- ما-كا-رو-نا! اعترف بأنها ستكون ثمناً قليلاً لمشروعٍ سيخلدك!
أصبحت نظرته، فجأة، حنينية.
- أنا لم أنس البتة. أتدري. سأحتفظ إلى آخر حياتي بتلك الصورة التي أحملها عنك، جاثٍ أمام الأريكة التي تهالكْتُ عليها، وأنت تقدم لي ذلك الصحن ببخاره الذي استثار خياشمي.
انفرجت أسارير فرديناند، كما لو بفعل السحر.
- لقد أخفتني، سيدي.
- لكن لا، يا صديقي. كنت فقط أرغب في استدعاء الماضي...

أمسك، على الفور، رقاً وسلمه إلى لسيبس.

- خذ... هذه نسخة من البريد الذي أرسلته إلى السلطان.

لم يقرأ فرديناند، عيناه تلمعان من التأثر، إلا آخر النص.

لصديقي المخلص، شريفِ النسبِ والأصل، السيد فرديناند دي لسيبس، امتيازُ الموافقة لصالح الشركة التي تلتمس مصادقة المعظم صاحب الجلالة السلطان. أما بالنسبة لبناء القناة، فلا يمكن أن يتم الشروع فيه إلا بعد الحصول على إذن من الباب العالي.

وحرر يوم الثالث من رمضان ١٢٧١.

رأى نائب السلطان ضرورياً أن يدقق.

- أنت تعرف أن مصادقة السلطان ليست سوى قضية شكلية. وإن كنت أطلبها منه ففقط كي أعرب له عن احترامي. لكن عليك، مع ذلك، أن تتوجه إلى اسطنبول كي تعرض مشروعك.

وافق فرديناند، صامتاً، وهو بعد تحت أثر الصدمة.

- وبالنسبة للمهندسين الذين سيشرفون على المشروع، هل اتخذت قرارك؟

- نعم. سأعين لينانت دي بلفاند ينوب عنه يوسف ماندرينو. وسأضيف إليهما، احتياطاً، السيد موجيل. سيعيدون الأبحاث من البداية وسيقدم تقريرهم إلى لجنة تترأسها أنت، سيدي.

- خذ حذرك. فمنذ قضية السد تلك، ما عادت تقارير لينانت وموجيل هي أحسن التقارير. وأنا أخشى أن لا يتفقا. لماذا لا تقتصرون على لينانت؟ فهو يعرف أحسن من أي شخص آخر جغرافية البلد. فقد وضع خارطتها كما درس جيولوجية القناة في كل تفاصيلها.

- هذا صحيح. لكن لينانت، إن لم يكن له من يضاهيه في أعمال التنقيب، فإن موجيل يبقى، من وجهة نظري، الاختصاصي الأكبر في المسائل المائية.

رفع سعيد كتفيه.

- قراركم سيكون هو قراري.

صمت للحظة.

- هل عدلت المذكرة المرتبطة بإنشاء الشركة؟
- نعم، سيدي.

تلا فرديناند، اعتماداً على الذاكرة، النقط الأساسية:

١ . تمتد مدة عقد الامتياز وكل الحقوق المعترف بها للشركة، تسعاً وتسعين سنة، ابتداء من تاريخ فتح القناة.

٢ . يُجدد الامتياز عبر مراحل متعاقبة، تتكون كل مرحلة من تسع وتسعين سنة. تتوصل الحكومة المصرية، بالنسبة للمرحلة الأولى، بعشرين في المائة من ربح الشركة السنوي الصافي، وبخمسة وعشرين في المائة خلال المرحلة الثانية.

٣ . تُمنح الأرض والعتاد مجاناً من قبل الحكومة المصرية. وسيُعتمد في اليد العاملة، على الأعمال الشاقة.

٤ . ستفتح القناة إلى الأبد، أمام كل السفن التجارية، دون تمييز، مقابل أداءِ حقوقٍ يجب ألا تتجاوز عشرة فرنكات للبرميل ومثلها للمسافر.

٥ . سأترأس الشركة، خلال السنوات الخمس التي ستعقب افتتاح القناة.

٦ . حدد رأس مال الشركة في مائتي مليون فرنك موزعة على أربعمائة ألف سهم، من فئة خمسمائة فرنك للسهم الواحد.

٧ . ستُدار الشركة من قبل مجلس يتكون من اثنين وثلاثين عضواً يمثلون أهم الأمم المهتمة بالمشروع. وعلى كل فرد أن يملك على الأقل مائة سهم توضع في الآن نفسه التي توضع القوانين الأساسية.

٨ . إذا ما انبجس، نتيجة حفر القناة، ماءٌ حلو، تصبح الأرض اليباب منه خصبةً، فإن الشركة ستستفيد مجاناً منه، خلال العشر سنوات الأولى من عقد الامتياز. بعد ذلك، سيكون على الشركة أداء إيجار يعادل مقدارُهُ مقدارَ الإيجار المعمول به في الأراضي التي لها المردودية نفسها.

أبدى سعيد علامة رضى.

- هل قدرت عدد السنوات الضرورية لإنهاء حفر القناة؟
- من خمس إلى ست سنوات، يا صاحب الجلالة.
- ليمنحنا الله طول العمر حتى نعيش إلى ذلك التاريخ!

بدت نظرته، للحظة، طافية في الفراغ.

- أشعر أنه سيكون علينا، يا صديقي، أن نبذل مجهودات جبارة. وليس فقط ضد عناصر الطبيعة.

- تريد الحديث عن...

- إنجلترا يا فرديناند. إنجلترا... سينفعلون، وسيحمرون. سيبذلون المستحيل كي لا تخرج هذه القناة من الرمال.

- أعلم، سيدي. لكن لا تخشوا شيئاً. سأعمل جاهداً على أن أقنع حكومة فرنسا بأن تبقى ثابتة إلى جانبنا.

أبدى سعيد ابتسامة.

- بفضل ابنة عمك أوجيني؟

- أنا أجهل مقدار الدعم الذي قد تخصني به. لكنني أعتقد أنها ستمد إليّ كفها.

فرج العاهل ذراعيه.

- قضي الأمر... ليحفظنا الله، وليحفظ مصر.

ثم واصل بصوت مسموع بالكاد:

- ولئلاّ يؤدي بي الأمر إلى الندم على ذلك اليوم الموافق لـ ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤.

انسدت كفه على الإذن الموضوع على طاولته.

* * *

مزرعة الزهور، يوليو ١٨٥٦.

كانت جيوفانا تمشي وسط كورين ويوسف على طول الممرات المحفوفة بالزهور وبالياسمين. وحولهم، كانت غابة من شجيرات الليمون والبرتقال تلقي بظلالها الخافتة على مياه الحنفيات.

وغير بعيد، كانت ضحكات الأطفال الشفافة ترتفع. سمير ومنى، فؤاد ومليكة. من جهة أبناء جيوفانا، ومن أخرى أبناء يوسف.

جنى يوسف برتقالة مترعة شمساً.

- إنها جميلة، قال، وهو يدحرج الفاكهة في راحته.

أحاط جيوفانا بذراعه.

- رائع هذا الذي فعلته بهذه الأرض. أمي كانت ستكون فخورة بك.
- أتعتقد؟ انا أقول لنفسي، كل يوم، بأنه كان بإمكاني أن أقوم بما هو أحسن.
- أحسن؟ سألت كورين. هل أنت فقط واعية بكل ما قمت به خلال هذه السنوات الأخيرة؟ انظري حولك. لقد حولت مزرعة الزهور إلى جزء من عذن.
- ربما، لكنني كنت أريد أن أرى مصر كلها على هذه الشاكلة.
لاحظ يوسف:
- أنت على الطريق الصحيح. أنا أجهل درجة تأثيرك على سعيد، لكن أموراً كثيرة تغيرت! إبطال العبودية، وإنهاء تأميم الدولة للأراضي الفلاحية. إعطاء الفلاحين حرية بيع وشراء ما يحلوا لهم. والتعليم الثانوي قد انتشر أكثر مما كان منتشراً أيام محمد علي. ألغيت الجمارك الداخلية وأبطلت الرخص. السماح للفلاحين الذين يواجهون صعوبات بتأجيل ضرائب سنة إلى التي تليها. أليس هذا نموّاً اجتماعياً رائعاً؟
- لا شك، أقرت جيوفانا. لكن حالات ظلم كثيرة تظل قائمة إلى جانب هذه النجاحات. أولاها قضية حفر القناة... عندما أخبرني سعيد بالشروط التي منح بها للسيبس عقد الامتياز، أعترف بأن بدني قد اقشعر. خمسة وعشرون ألفاً من الفلاحين يخضعون للأعمال الشاقة؟
- ربما لم يكن لسعيد من خيار؟ قالت كورين مجازفة.
بدا أنها لم تسمعها.
- خمسة وعشرون ألف رجل عليهم، مقابل أجرِ ثلاثة قروش، أن يحفروا اثنين وستين كيلومتراً في قلب الصحراء، وأن يحملوا ملايين الأمتار المكعبة من الأتربة تحت شمس حارقة!
- سيُطعمون ويُسكنون ويعالجون. ومهما يكن الأمر، فإن سعيد قد وعدك بإلغاء نظام الأعمال الشاقة. ويجب أن تضعي فيه ثقتك.
- ليس المسألة الإنسانية، على أي حال، هي المسألة الوحيدة التي تشغلني. أنا أشعر بأن سعيد قد ذهب بسرعة، وبعيداً. كان عليه أن يتذكر كلمات أبيه. أنت، يا يوسف، لم تنسها.

قال يوسف «لا».

عاد ذهنه، بسرعة خاطفة، إلى زمن مضى. رأى نفسه في مكتب محمد علي محاطاً بفورنيل ولينانت ولسيبس.

لنتحدث عن هذه القناة. أنا أعلم أن فرنسا والنمسا تدعمان المشروع، لكن ما الشأن بالنسبة لإنجلترا؟ عدد كبير من الأمم يأمل أن يلتهم مصر، لكن إنجلترا هي أكثرها شراهة. وقناة السويس ستزيد من شرهها هذا. آنذاك ستكون مصالح إنجلترا أكثر ولن يتمكنوا من التحكم في أنفسهم. فإما أنهم سيجعلون من أرض مصر حقلاً مسلحاً للدفاع عن إمبراطوريتهم، وإما أنهم سيستعملون الفيتو للاعتراض بكل شراسة على المشروع.

والحال، ما الذي يحصل اليوم؟

فبمجرد أن سمعت إنجلترا بإنشاء الشركة العالمية من أجل قناة السويس، انتصبت مثل رجل واحد. شرعوا يحتجون ويهاجمون موبخين ومبدين تنبؤات مشؤومة. فانتصب اللورد بالمرستون الشرس، على الفور، في مجلس العموم بتلك الفظاظة والنزعة الكلبية التي هي ميزته الأساس.

لا مجال لأن تتدخل حكومة صاحبة الجلالة عند السلطان لدفعه إلى إعطاء الإذن بحفر قناة السويس. وذلك لسبب بسيط للغاية: منذ خمسة عشر عاماً كانت حكومة صاحبة الجلالة دائماً تستعمل كل تأثيرها على إسطنبول، كما على مصر، للحيلولة دون تنفيذ هذا المشروع.

إنه مشروع يستحق، بالنظر لميزته التجارية، أن يصنف ضمن «مصيدة البلداء للرأسماليين بَالِعِي الذباب». إن هذا المشروع غيرُ وارد، على الأقل من حيث ثمن المصاريف التي هي من الارتفاع بحيث تلغي إلى الأبد كل إمكانية للربح. غير أن هذه ليست كل الأسباب التي تدفع بالحكومة إلى معارضة القناة. للأشخاص مطلق الحرية في أن يسهروا على مصالحهم؛ وإن ألقوا بأنفسهم في مشاريع غير عملية، فعليهم أن يؤدوا الثمن.

والحق أن هذه القناة لَهي ضد مصالح إنجلترا بشكل مطلق. فهي

تقوم على أفكار غامضة تتعلق بولوجٍ أسهلَ مفترضٍ إلى مستعمراتنا الهندية، وهو جانب لا أهتم به لأنّه حتمي بالنسبة لكل من يولي اهتماماً، ولو قليلاً، بهذه القضية.

إنه مشروع ينافس، من جهة أخرى، السكة الحديدية المنشأة بين الإسكندرية والسويس عبر القاهرة؛ وهي وسيلة نقل ذات طابع عملي واضح.

إن مشروع السيد فرديناند دي لسيبس، ليس فقط مشروعاً عبثياً - لأنه بلا جدوى - وإنما هو، بالتأكيد، أكبر عملية احتيال تعرفها الأزمنة الحديثة!

كان الأطفال قد بدوا لتوهم عند زاوية من غابة الأشجار، وشرعوا يعدون نحوهم.

- مستقبلنا... تمتمت جيوفانا.

ثم مدت نحوهم ذراعيها.

على سبيل الختم

السويس، ١٧ نوفمبر ١٨٦٩.

اشتعلت السماء فوق الخط الأزرق الذي يفلق كلَّ طول قناة السويس.

آلاف الخيام منصوبة على شاطئي القناة. تنتمي غالبيتها إلى القبائل البدوية التي أقبلت من الصحراء لتشاهد فرجة قيل لهم بأن الله نفسه هو الذي ألهم بها؛ أما بقية الخيام فكانت مخصصة لاستضافة المدعوين القادمين من جهات الدنيا الأربع. خمسة آلاف؟ ستة آلاف؟ مهما يكن عددهم، فإن إسماعيل باشا، الرجل الذي خلف سعيد على عرش مصر، منذ ستة أعوام خلت، هو الذي استدعاهم.

عشية هذا اليوم، وخلال مأدبة لا مثيل لها في تاريخ الشرق، قدم خمسُمائة طباخ وفيالقُ من الخدَم، للضيوف وجبةً جديرة بأن تنسب لألف ليلة وليلة: سمك ملتقى البحرين ولحم ديك بري معجون بطرائد دورساي، وقمرون السويس ببقلة الحرف والكمأة المطهوة بنبيذ الشامبانيا والسلطات الروسية ونبات الهيليون الإيطالي بالزيت الخام، وقطع لحم فخذ اليحمور وفرخ الديك الرومي والطير المُسمَّن المحشو بطائر السماني وهلامية النيراك. يمكننا أن نعدد أيضاً أطباقاً أخرى كثيرة، لكن من يستطيع (باستثناء بعض الضيوف الذين أولوا عناية خاصة للوجبات) أن يحتفظ في ذاكرته بطعام المقدونية بالكرشواسر، وبالحلويات المنمقة. . .؟

كان التوتر قد أدرك مداه بين هذا الجمع الذي تجاورت فيه القبعات ذات الحواشي الضخمة بالعمامات. في غضون نصف ساعة ستظهر في الأفق أول

سفينة قادمة من البحر الأبيض المتوسط. ستكون هي (الإيغل)، السفينة الإمبراطورية الفرنسية. على متنها الإمبراطورة يوجيني شخصياً وبطل هذا اليوم: فرديناند دي لسيبس. سار في أثر الإيغل خط من ثمان وستين سفينة تلج القناة لتنزلها من الطرف إلى الطرف، حتى حدود مدخل البحر الأحمر.

عرب وحجاج وأناس من بخارى ونمساويون وإنجليز وأتراك وإيطاليون، من النبلاء ومن عامة الناس. كل ما يوجد في الكون من أعراق وأجناس، ومن أناس من كل نوع، يوجدون هنا اليوم، مجتمعين، تخفق قلوبهم بالإيقاع نفسه الذي تخفق به الأمواج العذراءُ بعدُ بالسفن.

سواء أتعلق الأمر بإمبراطور النمسا أو بأمير هولندا أو مركيز مونتمورت أو كومت ماليزيو، أو بصحفي مثل تيوفيل غوتيي أو برسام مثل يوجين فرومينتين، فإن الانفعال المتقاسَم واحد.

ران أول صمت عندما شرع عالم من علماء مصر يرتل آيات من القرآن. تبعه رئيس أساقفة القدس. ثم كان الشرف للسيد بووير، المندوب البابوي، مرشد الإمبراطُورَة، كي يقرأ الخطبة الرئيسية.

عندما أنهى خطبته، دوى الـ«تي دوم» في السماء.

أمسكت جيوفانا بطريقة عفوية بكفي فؤاد ومليكة وضمتهما بلطف إليها. قامت بذلك بتلقائية وكأن الأمر يتعلق بطفلين. والحال أن فؤاد كان على مشارف سنواته السبع والعشرين. وكانت مليكة أصغر منه بسنتين. لكن هل ترى أمّ، أبداً، أطفالها يكبرون؟

مسد يوسف جلده المغضن والمدبوغ. كان، تحت أشعة الشمس، بشعره المشعث والأبيض مثل الثلج، يعطي الانطباع بأن الأمر يتعلق بباحث عن الذهب منهك، لكن عينيه بقيتا على حيويتهما.

أضحت كورين صورة حية من أمها سميرة.

كانت ابنتها منى، الواقفة إلى جانبها، تبدو أقل الناس اهتماماً بالفرجة. لقد ورثت، دون شك، فوران جدتها سميرة، لأنها عوض أن تهتم بالحدث الذي يدور في القناة، ركزت اهتمامها كله على شاب أشقر ذي ملامح شمالية.

أما سمير، من جهته، فكان قد عبرَ الزمنَ بطريقة تدعو للاستغراب. كان قد أدرك لتوه الثلاثين، غير أنه يبدو أصغر من ذلك بكثير. تنبعث من ملامحه

فتوة عنيدة تسمح بالقول بأنه في غضون العشرة أو الخمسة عشر عاماً المقبلة، سيظل كما هو.

فجأة انتشرت في كل مكان إشاعة غامضة، ضخمة، مستمرة، شبيهة باختلاج عظيم. كان ممكناً القول بأن هذه الآلاف من الناس المجتمعين قد شرعت تتنفس مثل شخص واحد بعينه، مثل ذاتٍ شديدة الضخامة.

في الآن نفسه تقريباً، ارتفع صوت النفير مخلوطاً بجلبة المدافع، فارتفعت صيحات الجموع الجامحة فوق المرفأ.

انفصل طيف الإمبراطورة يوجيني الرائق، على متن الإيغل، عن الباقين، في عكس الضوء. كان ممكناً أن نلمح، قريباً منها، فرديناند دي لسيبس، مشعّاً، يمسك بفتاة ذات عشرين ربيعاً، من ذراعها. تعرف المقربون منه فيها على خطيبته لويز هيلين أوتارد دي براغار. وأبعد قليلاً، في الخلف، كان لينانت دي بلفاند يتملى الأمواج الزرقاء التي تتدحرج بسلاسة على حافتي هيكل السفينة. في أي شيء يفكر في هذه اللحظة بالذات؟ هو يفكر، دون شك، في هذه الجملة التي تلفظ بها أونفنتان: ليس ثمة أي فرق في المستوى بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر. انتبهوا جيداً إلى: ليس ثمة أي فرق.

كان الحق، أخيراً، إلى جانب أونفنتان ومهندسيه. كان البحران في المستوى نفسه. وإذا كانا يعرفان، حسب المد والجزر، بعض الاختلالات في المستوى، فإنه لم يكن ذا قيمة تذكر: تسعون سنتمتراً.

يعزي لينانت نفسه بأنه إن كان قد أخطأ، فإن التخطيط المعتمد اليوم هو تخطيه نفسه. هو التخطيط الذي طالما نافح عنه بكل صلابة، خلال سنوات طويلة.

لكن أين السانسيمونيون في هذه اللحظة؟ لا أحد منهم يوجد على شاطئ هذه القناة التي طلما حلموا بها. فبعد أسابيع من تسلم لسيبس الامتياز من يد سعيد، حصلت القطيعة العنيفة والنهائية.

أما بالنسبة لأونفنتان فإنه لن يستطيع أبداً أن يعرف أن رؤيته قد تحققت على أرض الواقع: توفي منذ خمس سنوات.

كانت توجد على متن السفن التي تسير في أعقاب الإيغل شخصيات

شديدة التنوع، من مثل إمبراطور النمسا وأمير هانوفر والسير هنري إليوت، سفير إنجلترا بإسطنبول والجنرال إينياتييف سفير روسيا والسيد غارنيي مهندس دار الأوبرا العظمى والملحن شارل غونود والسيد إميل أوجيي، الكاتب الدرامي، وأيضاً الأمير عبد القادر، الخصم القديم للفرنسيين بالجزائر، الذي أتى خصيصاً من دمشق حيث يقطن منذ أن متعه نابليون الثالث بحريته.

كانت السفن تتقدم - وهي تحل عماماتها المكونة من ثوب وخشب - على طول هذا الممر المائي الجديد، متهادية، مطمئنة.

بعد خمسة آلاف عام من عهد الفراعنة والأحلام المتفجرة لداريوس، انبعثت قناة السويس من تحت الرمال.

قالت جيوفانا بصوت مرتعش:

- حرام على الموت أن يأخذ رجالاً في الأربعين من عمرهم... كان سعيد سيسعد بحضور هذا اليوم.

- وماذا تعتقدين؟ عقّب يوسف. إن سعيد يراقبنا من الأعلى. وعلى أي حال، فأنا أعتقد أنه ليس الوحيد من يشاهد هذه الفرجة. الباشا العجوز... وأمي... وريكاردو...

انثنت جبهته المتجعدة. وضع كفه مبسوطة على جبهته، اتقاء أشعة الشمس، كما لو كان يسعى إلى سبر الأفق الأمغر والأزرق، ثم قال:

- انظري يا جيوفانا، انظري... إنهم هناك.

هذا الكتاب

«أراد محمد علي، آخر الفراعنة، أن يشيد أجمل قصوره بالإسكندرية، على الطرف القصي من شبه جزيرة فاروس، فوق الرأس المسمى رأس التين، بين المرسى الغربي وعرض المياه. كانت هذه المدينة العتيقة تسلب لبّه. ربما لأن الصوامع كانت نادرة ها هنا، ولأن الشوارع غير مزدحمة، ولكون الطوفان البشري الذي تعرفه القاهرة غير موجود هنا. ففي هذا المكان الذي يعد نهاية للنهر الإله، ليس ثمة سوى البحر. ثم، أليس البحر هو الذي ساقه، منذ أربع وعشرين سنة خلت، إلى هذا الشاطئ، بوصفه ضابطاً شاباً ويتيماً بسيطاً من كفاليا على رأس وحدة عسكرية ألبانية؟ ألم يستطع أن يقرأ بثقة على زبد هذا البحر نفسه مجدَه قبل حصوله؟»



